سلسلة المائة كتاب



# علم اللغة الاجتماعي

د. هدسن

ترجمة: د. محمود عبدالغني عياد

مراجعة: د. عبدالأمير الأعسم

دار الشؤون الثقافية العامة

وزارة الثقافة والاعلام
دار الشؤون الثقافية العامة
بغداد ١٩٨٧




تصدر عن

دار الشؤون الثقافية العامة

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

الدكتور محسن جاسم الموسوي





تعنون كافة المراسلات

لرئيس مجلس ادارة دار الشؤون الثقافية العامة

العنوان

اعظمية - ص.ب ٤٠٣٢ - تلكس ٢١٤١٣٥

العنوان البرقي - فاق - تلفون ٤٤٣٦٠٤٤

بغداد - العراق

الصفحة 169 مفقودة

# علم اللغة الاجتماعي

Sociolinguistics

تأليف: د. هدسون

Richard A. Hudson

ترجمة: د. محمود عبد الغني عيّاد

مراجعة وتقديم: د. عبد الأمير الأعسم

الطبعة الاولى ١٩٨٧.

# الصفحة 169 مفقودة

## الفهـــرس

# مقدّمة للترجمة العربية
# لكتاب « علم اللغة الاجتماعي »

صدَرَ هذا الكتاب بالانكليزية Sociolinguistics ، للباحث اللغوي الأستاذ د. هدسون D. Hudson ، أولَ مرةٍ عن مطابع جامعة كمبردج Cam-bridge University Prees سنة ١٩٨٠ ؛ فأثار من الاهتمام ، في الحلقات الفلسفية والدوائر اللغوية والأوساط الاجتماعية ، ما جعله من أبرز الدراسات الـمُسْتَحْدَثَةِ في علم اللغة Linguistics ، خصوصاً فيما قدّمه من تحليل في الربط الجدلي بين اتجاهي الفلسفة اللغوية Linguistic Philosophy واللغة الاجتماعية Social Language ، في سياقٍ تفصيلي دقيقٍ نابع عن معرفةٍ شاملة لكلّ المشاكل هاتيك التي تتداخلُ في الدراسات المعاصرة في اللغة.

وليس غريباً على الدراسات الأوروبية الجادّة ، بعد أن تجاوزتْ الدراساتُ الفلسفية في اللغة عند المحدثين عموماً ، والمعاصرين من الفلاسفة بوجهٍ خاص ، كلَّ التفصيلات في علم النفس وعلم الاجتماع وعلم الجمال ، تبعاً لما كانت قد أَنْجَزَتْهُ في مجالات السياسة والاقتصاد والرياضيات والأخلاق والتاريخ ، فكان للـمُسْتَحْدَثِ في علم الاجتماع Sociology مجالاتُ تتداخلُ هي الأخرى مع كلّ هذه الاتجاهات ، تماماً كما يفعلُ علم النفس Psychology ؛ لأن كلا العِلْمَيْن من فروع الفلسفة الـمُسْتَقِلّةِ حديثاً. وفي هذا السياق يجري الآن موضوعُ المنهج الذي يتبنّاه العلمُ ( في مجمل العلوم ) من خلال فلسفة العلم Philosophy of Science. وهكذا بدأتْ تنشطرُ الاتجاهاتُ التفصيلية وصولاً الى الطبّ والفيزياء.

وهذا وذاك ، يبّررُ لماذا يبقى علمُ الأفكار Ideology مزدهراً ، وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يبينّ لماذا تتحكّمُ الأفكارُ الفلسفية ، كمنظومةٍ لها مؤثراتها في صياغة العلوم الـمُسْتَحْدَثَةِ وتكوينها في الاتجاهات القريبة والبعيدة المدى. فعلمُ اجتماعِ اللغة Sociology of Language لم يكن على منحى

الـمُسْتَحْدَثِ من بحث علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistcs . وهذا الأخير هو الجديد ، كلَّ الجدّةِ ، في هذا الكتاب الذي بذل فيه الأستاذُ هدسون جهداً فائقاً استحقَّ عليه ، في كلّ الأحوال ، أن يكون سيّدَ ميدانِ البحث فيه على هذا النحو الدقيق من العلمية والمنهجية فلسفياً ولغوياً في الربط الاجتماعي . وفي أنحاء الكتاب نجدُ المؤلّفَ حيوياً في تتبعه ؛ وحيويتهُ تنبع من فرزٍ ممتاز ورصين للعناصر اللغوية ، بمؤثراتها الفلسفية ، في تركيب تحليلاته الاجتماعية وفق منهج فيلسوفٍ لغوي اجتماعي ، نحن بأمسّ الحاجةِ الى نتائج بحثهِ في مكتبتنا العربية في أهمّ مجالٍ للتخصص والثقافة من منطلق المعاصرة .

هذا الكتاب ، الذي ترجمهُ الى العربية الدكتور محمود عبدالغني عيّاد ، ليفتحَ به نوافذَ متعدّدةً على الربط الموضوعي بين اللغة والفلسفة والمجتمع ؛ سيكونُ له شأن كبير في مكتبتنا العربية لأهميّةِ موضوعه وجدّته وصعوبته . وجاءتْ ترجمتهُ محكمةً في الأسلوب ، دقيقةً في التعبير عن أفكار المؤلِّف ، مع انها محكومة بمصطلحاتٍ فلسفية لغوية واجتماعية جديدة في رموزها ، ومعادلاتها ، والمعاني التي قصد اليها المؤلّفُ وهو يعالجُ ما ليس في العربية .

وتأتي مراجعتي لترجمة هذا الكتاب في صُلْبِ التخصص والاهتمام ، وليس عملي لمتابعة الأصل وترجمته فقط ؛ فقد أثارني منهجُ المؤلِّفِ عندما قرأتُ الكتاب ، وأدركتُ أننا مقبلون على دراساتٍ متطوّرة ستتخِذُ من اللغة مركزاً ، وهي دراسات قد تكون صعبةَ المنالِ في قراءةِ القاريء العربي ( المتوسّط ) ، لكنّها بلا أدنى ريب ستكون حقلاً زاهياً للمثقفين ، وميداناً شيّقاً للمتابعةِ عند المتخصصين ؛ على الرغم من شعوري بأنّ هذا الكتاب سيكون جواباً شافياً لهؤلاء المستَغْرِبين من مثقفينا وأدبائنا ، ومفكّرينا أحياناً ، الذين لا يدركون البنيويّة Structuralism في مجالها اللغوي على نحوٍ خاص ؛ وكيف يجب أن تُفْهَمَ لا أن تُلَقَّنَ بعد انحسارها !

ومن المناسب أن أشير ، ههنا ، الى أنّ المترجمَ الدكتور عيّاد ، قد عرض

للكتاب ، وبينّ محتواه ، وقيمته ، وأوضح الأسباب التي تُبّرِرُ جهدَهُ الكبير في ترجمة مثل هذا الكتاب ؛ كما حفظَ حقوقَ زملائهِ الأساتذة الذين أعانوه بتصحيحات لغوية ، أو تلك التي تتعلّق بالترجمة ، أو النقد ، وهذا كلّهُ يدلّ ، عندي ، على ثقةِ الدكتور عيّاد بعملهِ ، طلباً للنص الأمين الكامل. (*)
وأعترفُ ان مراجعتي لهذا الكتاب ، على الرغم من الجهد الكبير الذي بَذَلْتُهُ في قراءة النصّ وأصله ، تؤكّدُ القدرةَ الفائقة للمترجم العربي في استيعابهِ الـمُسْتَحْدَثَاتِ المدهشة التي تناولها المؤلِّفُ ، مهما اختلفنا في التعبير عن معنى محدّدٍ ، أو اثبات لفظٍ مدروس.

إن هذا الكتابَ من الأهميّةِ الكبيرة ما يُؤَهِّلُهُ أنْ يكونَ رائداً في هذا النوع من الدراسات التي نحن بأمسّ الحاجة اليها في ثقافتنا المعاصرة.

الدكتور عبدالأمير الأعسم
قسم الفلسفة
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

بغداد ١٨/٩/١٩٨٦

(*) لم يشرْ الدكتور عيّاد في تمهيده لدواعي حذف (قائمة المصادر والمراجع) في آخر الكتاب ؛ على أنّي وجدتُها قائمةً أوروبيةً طويلةً لا تفيد القاريء العام ، حتى المثقّف. فلم أُثبتْها أنا في موضعها ، لأنني أرى ما اجتهد المترجمُ في ترتيبه ؛ ولأنّ المتخصص سيجدُ توثيقَ المؤلِّف في أنحاء النصوص في كل الكتاب ، ومفاتيحها تكفيه بدرايةٍ توثيقَ ما يريد في كلّ المصادر والمراجع إن طلب التوسّع في الأصول.

# تمهيــد للمتــرجم

هذا الكتاب واحد من الكتب المرجعية التي تصدرها جامعة كمبردج ، وقد طُبعَ في يونيو / حزيران ١٩٨٠ ليكون مدخلاً الى علم اللغة الاجتماعي الذي هو أحد الفروع الحديثة في علم اللغة وبقدر ما يتوجه مؤلِّف الكتاب د. هـدسون ، الى المثقفين الذين ليست لـديهم معرفـة متخصصة بهـذا الفرع الحديث من فروع علم اللغة ، فانه يحرص على أن يكون كتابه مقدمة جامعة شاملة لمختلف المجالات التي يتكون منها علم اللغة الاجتماعي المعـاصر ، بكل ما تتضمنه هذه المجـالات من موضـوعات مختلفـة اختلاف اللهجـات والتبـاين اللغوي والخـطاب واثنوجـرافيا الحـديث وغير ذلـك من القضـايا الاجتمـاعية الأخـرى التي ترتبط بـاللغة. ولا يتـوقف هـدسـون عنـد هـذه الموضوعات بل يفرد فصلاً مستقلاً لقضية العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر ، وهي قضية لا تتوقف عندها كتب المداخل عادة. وتتسم معالجة المؤلِّف لكل هذه الموضوعات وغيرها بما يضفي العمق والوضوح في آنٍ واحد ، على نحوٍ يفيد القاريء العادي من ناحيـة ، ويشوقـه الى معرفـة هذا الفـرع الحديث والتعمق فيه من ناحية ثانية.

وقد دفعتني هذه الميزة الهامة التي يتسم بها هذا الكتاب الى ترجمته ليكون في متناول المثقف العربي بوجهٍ عام ، وطلّاب علم اللغة من دارسي العربية بوجهٍ خاص ؛ فهو كتاب مفيد كل الفائدة في التعريف بأوجه العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع في المجتمعات الغربية من ناحية ، وما يمكن أن ينطبق منها على المجتمع العربي من ناحيةٍ ثانية ، أضف الى ذلك ما يمكن أن تتيحه ترجمة هذا الكتاب من دوافع تنشّط القيام بـدراسات ومشـاريع لغـوية اجتمـاعية عـلى أُسس علمية سليمـة من ناحيـةٍ ثالثـة. ومن المؤكد ان بعض الـظواهر الاجتمـاعية اللغـوية التي ينـاقشها هـدسون لا تنـطبق على الـواقع اللغـوي

العربي ، ولكن ذلك لا يقلل من عائد الفائدة التي يجنيها القاريء العربي لهذا الكتاب ، خصوصاً ما يتصل منها بالجانب المنهجي الذي يعين في كيفية تمثّل الظواهر اللغوية الاجتماعية الخاصة بمجتمعاتنا ، والذي يعين في محاولة الوصول الى جوانب اجرائية متميزة تراعي الظواهر اللغوية العربية وأبعادها الوظيفية على السواء.

والحق ان ما دفعني الى ترجمة هذا الكتاب هو ما شعرت به من نقص كبير في المكتبة اللغوية العربية المعاصرة فيما يتصل بأمهات الكتب التي لابدّ منها تأليفاً أو ترجمةً قبل تحقيق أي مشروع ثقافي في هذا المجال. ومن المؤكد ان أهمية التأليف في هذا المجال لا تقل عن أهمية الترجمة ، بل تبدو الترجمة في بعض الأحيان أكثر أهمية من التأليف ، وذلك لما توفّره الترجمة من مصدرٍ معرفي لا يمكن التأليف دونه من ناحية ، ولما تتيحه الترجمة من تعريب للمصطلحات المفاتيح التي لا يكتمل أو ينطلق المشروع الثقافي دونها. ولعلّي في حاجةٍ الى القول ان المشروع الثقافي في أي مجال من مجالات المعرفة المعاصرة ــ وأعني المعاصرة حقاً ــ لن يضع أقدامه على طريق النمو والرقي ما لم نقم بترجمة ما أنجزه غيرنا في بقية أنحاء العالم. ولا أنكر ان البدايات الأولى الناجحة قد تحققتْ فيما يتصل بالمشروع الثقافي العربي في مجال علم اللغة المعاصر. وليس هذا الكتاب في حقيقة الأمر سوى مجرد جهدٍ متواضع يتواصل مع هذه البدايات.

ويطرح هدسون في **الفصل الأول** من كتابه التعريفات الأساسية التي تمثّل مهاد علم اللغة الاجتماعي وذلك لينطلق في بقية الفصول متوقفاً عند الجوانب المختلفة من هذا العلم. وبعد ان يعرض لاختلاف اللغات وتنوعها في **الفصل الثاني** ، يتناول العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر في **الفصل الثالث** ، مما يدفعه الى مناقشة مشكلات الحتمية والنسبية والشمولية في اللغة. ويخلص من ذلك كله الى طرح مفهوم النموذج الأصل ، وهو مفهوم مهم في علم اللغة الاجتماعي على وجه الخصوص وعلم اللغة العام والدلالة

على وجه العموم. أما **الفصل الرابع** فيتوقف عند « الكلام » بوصفه نوعاً من أنواع التعامل الاجتماعي، وما يتتبعه من تحليل للخطاب وتركيز على الأبعاد الاثنوجرافية للحديث، وذلك بهدف الكشف عن الكيفية التي يقوم معها المجتمع بتحديد الأبنية الكبرى للغة. وغير خافٍ ان هذا المنظور له أهميته البالغة في دراسة اللغة العربية من ناحية، وفتح آفاق جديدة لدراسة علاقتها بالمجتمعات العربية من ناحيةٍ ثانية. ويتوقف **الفصل الخامس** عند الدراسة الكمية للكلام عارضاً لمجموعة من المشروعات الميدانية التي قامت بدراسة القيود الاجتماعية المفروضة على اللغة. وأهم ما يؤكده المؤلِّف في هذا الصدد هو ان اللغة لا يمكن فهمها خارج سياقها الاجتماعي، وان علم اللغة النظري العام لا يمكن أ ن يواصل مسيرته دون افادةٍ من انجاز علم اللغة الاجتماعي بوجهٍ خاص. ويأتي **الفصل السادس** تأكيداً لهذا الأمر، حيث يتوقف تفصيلاً أمام قضية ذات أهمية كبيرة سياسياً واجتماعياً في المجتمعات الغربية وهي قضية اللا مساواة الاجتماعية واللغوية.

ولا بدّ لي أن أوضّح في هذا المقام ان علم اللغة الاجتماعي قد نشأ لتطور علم اللغة العام من ناحية، وردّ فعلٍ على المدرسة التوليدية التحليلية من ناحيةٍ ثانية، خصوصاً ما ابتدأتْ به هذه المدرسة من استبعاد لعلاقة اللغة بالمجتمع . والحق ان أية محاولة لتفسير الظواهر اللغوية المختلفة دون الرجوع الى المجتمع، وذلك ما قامتْ به المدرسة التوليدية التحليلية بكافة فروعها، إنما هي محاولة عبثية تنطوي على مثالية متطرفة. ولن تؤدي هذه المحاولة الى أجداب الدراسات اللغوية؛ فاللغة سلوك اجتماعي يحدده المجتمع في المقام الأول.

ولا يقوم هذا الكتاب بتأكيد هذه الحقيقة فحسب، بل يقوم بتأكيد غيرها من الحقائق التي كشفتْ عنها الدراسات اللغوية الحديثة في ربع القرن الماضي.

ومن الواضح ان مؤلِّف هذا الكتاب كان يضع نصب عينيه تحقيقَ هدفين

منفصلين في تأليفه كتابه. أما هدفه الأول فهو تقديم كتاب تمهيدي يكون بمثابة مدخل الى علم اللغة الاجتماعي ، أعني مدخلاً يستعين به طلبة الجامعات. وفي الوقت نفسه أراد المؤلِّف أن يقوم بنقد جذري للفرضيات الأساسية ، لعلم اللغة الاجتماعي على سبيل التخصيص والفرضيات الأساسية لعلم اللغة العام على سبيل التعميم. وقد أدى به الهدف الثاني الى تجاهل متطلبات الهدف الأول في بعض الأحيان ، ذلك لأن مضيه في النقد من ناحية ، وإلحاحهُ على بعض الجوانب التفصيلية المرتبطة بهذا النقد من ناحية ثانية ، قد أدى به الى إثقال الكتاب بتعريفات فرعية ومناقشات تفريعية. ولا شك ان هذا أمر يثقل على القاريء المبتديء في علم اللغة ويقلل من جاذبية المدخل وتشويقه. غير ان هذا العيب ـ إذا جاز ان نعده عيباً ـ يتضمن ميزة للقاريء المتخصص. ومن هنا فان الكتاب ، وان أثقل أحياناً على القاريء المبتديء ، فانه يتيح للقاريء المتخصص ثراءً في التفاصيل والمفاهيم والتعريفات. وقد حاولتُ ـ من جانبي ـ ان أخفف على القاريء المبتديء بتقديم ثبت عربي لبعض المصطلحات بما يرادِفها بالعربية والتي يجهلها هذا القاريء. وقد فرض عليّ حجم الكتاب عدم التفصيل في الشرح والتوقف عند الأساس ، أو على الأقل ما حسبتُ أنه أساسي. ويمكن للقاريء الذي يريد الاتساع في شرح المصطلحات الخاصة بعلم اللغة العام في مجمله مراجعة المعاجم التالية :

١ ـ د. محمد علي الخولي ، **معجم علم اللغة النظري** ، مكتبة لبنان ١٩٨٢.

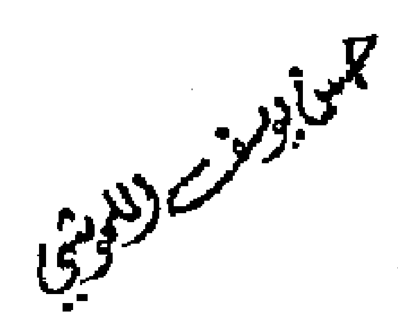
٢ ـ د. مجدي وهبة ، **معجم المصطلحات اللغوية** ، مكتبة لبنان (؟).

٣ ـ د. عبدالسلام المسدي ، **الأسلوبية والأسلوب : نحو بديل ألْسُني في نقد الأدب** ، الدار العربية للكتاب ، ليبيا ـ تونس ١٩٧٧.

٤ ــ د. كمال محمد البشـر ، **علم اللغة العـام : الأصوات** ، دار المعارف ، ١٩٨٠ .

ولا يسعني في النهاية إلاّ ان أتوجّه بالشكر العميق الى كل مَنْ ساعـد في انجاز هذه الترجمة ، وأخص بالذكر الصديق الدكتور نصر حامد رزق الذي قام بالمراجعة اللغوية لمعظم هذا الكتاب في ترجمته الأولى ، والصديق الدكتور محمد أكرم سعدالدين الذي راجع النسخة الأخيرة من الترجمة ، والصـديق الدكتور جابر عصفور على كل ما بذله من نقدٍ وعون ومـراجعة . وشكـري العميق لزوجتي السيدة أماني محسن فؤاد التي ساعدتني في الطباعة عـلى الآلة الكاتبة ، ولوالدتها السيدة أسرار سامي على ما تكبدتْهُ من عنـاءٍ في مراجعـة ذلك. وكل ما أرجوه ــ في النهاية ــ أن يكون ما بذلتُه من جهـد في الترجمـة مماثلاً للجهد الكبير الذي أعانني به هؤلاء وغيرهم على انجازها.

د. محمود عيّاد
كلية الآداب ـ جامعة الكويت



# الفصل الاول

١ ــ مقدمة

١ ــ ١ ــ علم اللغة الاجتماعي Sociolinguistics

١ ــ ١ ــ ١ وصف لعلم اللغة الاجتماعي

من الممكن تعريف علم اللغة الاجتماعي على انه دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع ، وذلك هو التعريف الذي تبنيناه في هذا الكتاب. وعندما وضعت هذا الكتاب (١٩٧٨) ، كان علم اللغة الاجتماعي قد أصبح جزءاً معترفاً به في معظم مناهج «علم اللغة المعاصر» أو علم اللسانيات في المستوى الجامعي. ويعد علم اللغة الاجتماعي حقيقة واحداً من أهم مجالات النمو والتطور في الدراسات اللغوية من منظوري المناهج الدراسية ومجالات الأبحاث. وهناك الآن دوريتان باللغة الانكليزية متخصصتان في نشر الأبحاث والدراسات الخاصة بعلم اللغة الاجتماعي. (وهاتان الدوريتان هما : **اللغة في المجتمع Language in Society والدورية الدولية لعلم اجتماع اللغة International Journal of the Sociology of Language**.

وهناك أيضاً عدد كبير من الكتب الجامعية التمهيدية في هذا المجال ، خلاف كتابنا هذا. ونذكر منها على سبيل المثال برلينج Burling (١٩٧٠) وبرايد Pride (١٩٧١) وفيشمان Fishman (١٩٧٢) وروبينسون Robinson (١٩٧٢) وتردجيل Trudgill (١٩٧٤) وبلات وبلات Platt & Platt (١٩٧٥) وبيل Bell (١٩٧٦) وديتمار Dittmar (١٩٧٦) و واردهو Wardhaugh (١٩٧٦). على ان القدر الأكبر من ذلك النمو في مجال علم اللغة الاجتماعي قد حدث في نهاية الستينات وبداية السبعينات ولذلك يمكننا أن ندرك انه ما زال مجالاً حديث العهد للبحث. وليس معنى ذلك ان دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع من ابتكار فترة الستينات ، فعلى عكس ذلك هناك تراث قديم العهد في دراسة اللهجات وفي الدراسات التي تتناول العلاقات بين معاني الكلمات والثقافات المختلفة ، وكلاهما يقع في إطار تعريفنا لعلم اللغة الاجتماعي. أما الجديد الذي استحدث في الستينات ، فهو الاهتمام الواسع والادراك بأن علم اللغة الاجتماعي قادر على كشف الكثير مما كان غامضاً من طبيعة اللغة وطبيعة المجتمع.

وينقسم علم اللغـة الاجتمـاعي ـ مثله مثـل الكثير من العلوم ـ الى جزئين : الجـزء « الامبيرقي » ( الاختبـاري ) والجزء النـظري ـ وأعني بالأول ، الجزء الخاص بالخروج الى الميدان لجمع المادة العلمية ، وبالثاني الجزء الخاص بالخلو الى هذه الحقائق المتجمعة والتفكير فيها وتمحيصها . وقد يكون المنهج النظري ( المعروف بالمصـطلح الغربي Armchair Approach « الجلوس والتفكير المتريث » في دراسة علم اللغة الاجتماعي مفيداً الى حدٍ ما ، سواء استند الى مادة علمية جمعت بطريقة علمية منـظمة كجـزء من بحث علمي متكامل أم اعتمد على مجرد خبرات الباحث الشخصية . ويسمح ذلك المنهج عـلى وجهـة الخصـوص بتكـوين بـدايـات إطـار تحليـلي يشمـل مجمـوعـة من المصطلحات مثـل **اللغة Language** ( وهي مجمـوعة من القـواعد أو نسق من المعرفة ) **والكلام Speech** ( وهو العبـارات الفعلية ) والمتحـدث **Speaker** **والمُخـاطَب ( المتلقي ) Addressee وموضـوع الخطاب Topic** ، ومـا شـاكـل ذلـك . وبطبيعـة الحال فـان الخبرات الشخصيـة للباحث هي مصـدر غنى للمعلومات عن اللغة في علاقتها بـالمجتمع . ومـع ذلك فسـرعان مـا يتضح للباحث ان المنهج النظري قد يكون منهجاً محفوفاً بالخطر إذا ما طبق على الخبرة الشخصيـة وحدهـا ، وذلك لسببـين : أولهما اننـا قد نخـطىء خطأً جسيـماً في طريقة تفسيرنا لخبراتنا الشخصية لأن معظمنا لا يدرك ادراكاً واعياً القدر الهائل من التباين الموجود في الكلام الذي نسمعه أو نستجيب لـه في حياتنـا اليومية ، وثانيهما ، ان الخبرات الشخصية منطلق محدود جداً بحيث لا يمكن التعميم من خلاله عن اللغة في المجتمع لأنه لا يأخذ في الاعتبار المجتمعات الأخرى التي يمكن أن تكون الأمور فيها منظّمة تنظيماً مختلفاً كل الاختلاف .

والحقيقة ، ان السبب الفعلي لزيادة الاهتمام بعلم اللغة الاجتماعي في العقـد الأخير يـرجع الى الاكتشـافات الميـدانية والامبيـريقية التي تحققت من خـلال الأبحاث والـدراسات المنهجيـة التي أجريت حـديثـاً . ولا يعـود الى انجازات التنظير التي تستند الى المنهج النظري . وقد أُجريتْ بعض هذه

الأبحـاث في مجتمعات « غـريبة ونـائية » ، ممـا أدى الى اكتشافـات وحقائق قد يجدها الكثير من القراء غريبة ومثيرة لأنها تختلف اختلافاً كبيراً عن نظائرها في المجتمعات التي يعرفونها.

ومن الأمثلة على ذلك ان البريطانيين في عمومهم يدهشون ( ويبدون اهتماماً كبيراً ) حين يعرفون ان هناك مجتمعات يجب أن يتحدث فيها الأبوان بلغتـين أصليتين مختلفتـين ( أنظر فيـها بعـد ١ ــ ٢ ــ ٢ ). عـلى ان هنـاك مشـروعات أبحـاث أُجريتْ في المجتمعـات الحضـريـة الصنـاعيـة المعقـدة التي يعرفها القراء ، ولا تخلو هذه الأبحاث ــ مع ذلك ــ من المفاجآت ، مثل اكتشاف : ان الاختلافات بين الطبقات الاجتماعية المختلفـة والتي تنعكس في الكلام تظهر في الولايات المتحدة بنفس القدر من الوضوح الذي تظهر به في بريطانيا رغم ان الصورة العالقة بأذهان القـراء هي ان الولايـات المتحدة مجتمع يقل فيه الوعي بالفوارق بين الطبقات الى حدٍ بعيد. ( وسنعرض لمناقشة الأدلة على هذا الرأي في الفصل الخامس في ٥ ــ ٣ ــ ٢ ).

ومن المهم أن ندرك ان قدراً كبيراً من الاهتمام بعلم اللغة الاجتماعي قد انبعث عن أناس ــ مثل رجال التعليم ــ لهم اهتمام عملي ، لا مجرد رغبة في الـوصول الى فهم أفضـل للطريقة التي تسـير بها الأمـور في هـذا الميـدان المحدود. وقد أصبـح من الممكن في الولايـات المتحدة بـوجهٍ خـاص خلال الستينات والسبعينات ، ايجاد التمويل اللازم للقيام بمشروعات ميدانية ضخمة نسبياً ، متصلة بدراسة أساليب كـلام الجماعـات السكانيـة الـدُنيا استنـاداً الى ان نتائج مثل هذه المشروعات يمكن أن تؤدي الى ارساء قواعـد سياسـة تعليمية أفضل من السياسة القائمة. وقد خصصنا معـظم الفصل السـادس من هذا الكتاب لعرض القضايا التي أثارتها هذه الأبحاث. ولكن الأبحاث التي عرضنا لها في الفصل الخامس كان يستحيل اجراؤهـا ، على الأرجـح ، في مناخ اجتماعي مختلف. وقد يصدق ذلك أيضاً على الأبحاث التي عرضنا لها

في الفصل الرابع ، وإن كان ذلك بدرجة أقل.

وقد أدى هذا التوجه العملي التطبيقي الى مناقشة مستفيضة لبعض القضايا النظرية ، خاصة تلك القضايا ذات التأثير العملي بما فيها القضايا المطروحة في الفصل الخامس. أما مناقشة القضايا النظرية التي تقل فيها النتائج العملية المباشرة ، أو يهبط مستواها ، فكانت أقل نسبياً. وقد يفاجىء عدم التوازن بين هذين النوعين من القضايا قاريء هذا الكتاب ، وإن كنت قد حاولت أن ألقي ضوءاً على القضايا النظرية التي يطرحها كلا النوعين.

## ١ ـ ١ ـ ٢ علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة :

وسوف أشير طوال هذا الكتاب الى علماء علم اللغة الاجتماعي وعلماء علم اللغة العام بوصفهما نوعين مختلفين من الدارسين ، ومع ذلك فهناك بالطبع الكثيرون من علماء علم اللغة الاجتماعي ممن يعدون أنفسهم من علماء علم اللغة العام ، هذا فضلاً عن الكثيرين من علماء علم اللغة العام من ذوي الخبرة في علوم الاجتماع أو الانثروبولوجيا أو علم النفس الاجتماعي. والواقع ان تحديد مَنْ ينتمي ومَنْ لا ينتمي الى فئة علماء اللغة الاجتماعيين ليس بالأمر الهام. ولكن من المهم أن نطرح سؤالاً إذا كانت هناك اختلافات بين علم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة العام. وما هي هذه الاختلافات إن وُجِدَتْ. هناك رأي يشيع على نطاق واسع هو ان هناك اختلافاً بين العلمين وان الاختلاف يكمن في ان علم اللغة لا يهتم إلا ببنية اللغة Language Structure دون الاهتمام بالسياقات الاجتماعية Social context التي تكتسب فيها اللغة وتستخدم . إن مهمة علم اللغة العام ، حسب هذا الرأي الشائع ، هي اكتشاف وتحديد قواعد أية لغة حتى يستطيع علماء علم اللغة الاجتماعي بعد ذلك أن يدرسوا نقاط هذه القواعد بالمجتمع كما يحدث مثلاً عندما يكون هناك عدد من بدائل التعبير اللغوي التي تستخدمها المجموعات الاجتماعية المختلفة للتعبير عن شيءٍ واحد. وعلينا أن نذكر ان هذا الرأي يمثل رأي

المدرسة البنيوية كلها في علم اللغة ، وهي المدرسة التي سيطرت على التفكير اللغوي في علم اللغة في القرن العشرين ، وهي تشمل أيضاً المنحى التحويلي والتوليدي في علم اللغة (و هو المنحى الذي ابتدعه تشومسكي منذ ١٩٥٧ ). ( وهـو يمثل أيضـاً كثيراً من اتجـاهـات مـدارس تـدريس اللغـات الأجنبيـة في بريطانيا ).

غير ان هذا رأي لن يستسيغه كثير من دارسي علم اللغة . فقد يذهب بعضهم الى القول : بما انه لا جدل بان الكلام هو سلوك اجتماعي كـما هو واضـح فان دراستـه دون الرجـوع الى المجتمع لا تختلف عن دراسـة سلوك المغـازلة في المجتمـع دون الـربط بـين سلوك كـل من الـطرفـين المشتـركـين في المغازلة. إلاّ ان هناك سببين على الأقل يدفعان الى قبول هذا الرأي : أولهما لا نستطيع ان نسلم جدلاً بوجود فكرة اللغة ( س ) مثلاً حيث ان هذه الفكرة في حد ذاتها فكرة اجتماعية قد تم تحـديدهـا من خلال مجمـوعة من النـاس يتكلمون باللغة ( س ). والمشكلة ــ كما سنرى في الفصل الثـاني ــ ان هذه المجموعة ستعرف على جميع الوجوه في شكل دائرة كاملة ، على انها مجموعة تتحدث اللغة ( س ) خاصة حين نركّز على الاختلافات الدقيقة بين اللهجات ونحاول أن نعرف « اللهجة س » بدلاً من « اللغة س » وكان ويليام لابوف William Labov ١٩٧٢ ــ أ : ٧ هـو أول مَنْ طَـرَحَ هـذا الـرأي. والسبب الثاني ، هو ان للكلام وظيفة اجتماعية باعتباره وسيلة للاتصال وطريقة لتمييز المجمـوعات الاجتمـاعية المختلفـة ، كما وان دراسـة الكلام دون الـرجـوع الى المجتمع الذي يتحدث به هو استبعاد لاحتمالات وجود تفسيرات اجتماعية للأبنية والصيغ المستخدمة في الكلام. ويمثل هذا المنظور رأي ج. ر. فيرث ، J. R. Firth ( مثلاً ١٩٥٠ ، ١٩٦٤ ) الذي أسس مدرسة لنـدن لعلم اللغة London School of Linguistics وأتبـاعه مـايكـل هـاليـداي Michael Halliday وتيرنيس ميتشل Terence Mitchell . ولعل احدى أهم الدراسات الحديثة هي

الدراسة التي قام بها براون وليفنسن ١٩٧٨ Brown & Levinson في النظرية اللغوية.

وسأحاول في هذا الكتاب أن أدافع عن الرأي القائل بأن اكتشافات علم اللغة الاجتماعي ذات صلة وثيقة بنظرية بنية اللغة ومثل ذلك أهميتها بالنسبة لقضية ماهية المعنى (٢ - ٣)) وقضية تحليل البدائل النحوية (٥ - ٥). وعلى ذلك فانني أفضل ان أعتنق وجهة النظر الثانية ، التي ترى ان تجاهل علم اللغة للمجتمع يعد عملاً « شيئاً خطيراً بالنسبة لعلم اللغة في حد ذاته ». وقد أكدت ذلك حتى يتبين للقاريء موقفي من وجهات النظر المعروضة. ولكن من الواضح ان هناك اختلافاً كبيراً بين مجرد التعرف على أهمية البعد الاجتماعي للغة وبين معرفة كيفية القيام بذلك. سأشير في هذا الكتاب الى دارس علم اللغة الاجتماعي ـ ودارس علم اللغة كما لو كانا كيانين منفصلين. إلّا انه يمكن استخدام هاتين التسميتين للاشارة الى مدى الاهتمام الموجه الى الجانب الاجتماعي في اللغة دون المغالاة في ذلك الفصل. وليس من شك ان علماء اللغة قد أحرزوا تقدماً هائلاً في دراسة بنية اللغة في اطار المدرسةالبنيويةوقدحقق التطور علماء يعدون أنفسهم من علماء علم اللغة العام لا من علماء علم اللغة الاجتماعي وفضلاً عن ذلك فان بعض مجالات اللغة مثل المجالات التي عرضنا لها في هذا الكتاب ترتبط ارتباطاً مباشراً بالعوامل الاجتماعية أكثر من غيرها من المجالات اللغوية. أما الذين قاموا بدراسة المجالات اللغوية البحتة دون ان يضعوا في اعتبارهم الجوانب الاجتماعية للغة فقد أطلقنا عليهم اسم علماء علم اللغة العام تمييزاً لهم عن علماء علم اللغة الاجتماعي.

وبالرغم من انني لا أذهب الى ان الموضوعات المدروسة في هذا الكتاب هي وحدها دون غيرها الجديرة بالدراسة إلّا انني على يقين ان كل دارسي اللغة من أي منظور يجب أن يدركوا السياق الاجتماعي للموضوع الذي يقومون

بدراسته بشكل يجاوز ما نراه في دراساتهم في معظم الأحيان. ومن ثم فالموضوعات التي عرضنا لها هنا لها أهمية قصوى في هذا السياق.

### ١ ـ ١ ـ ٣ علم اللغة الاجتماعي وعلم اجتماع اللغة

**Sociolinguistice & the Sociology of Language**

لقد سبق ان عرفت علم اللغة الاجتماعي على انه « دراسة للغة في علاقتها بالمجتمع » وقد عمدت الى ان يتضمن هذا التعريف ان علم اللغة الاجتماعي جزء من دراستها. ولذلك فان قيمة علم اللغة الاجتماعي تكمن في قدرته على ايضاح اللغة بصفة عامة وايضاح خصائص محددة للغة بعينها. ومن الطبيعي ان يدرك دارسو المجتمع ان حقائق اللغة يمكن ان تزيد من فهمهم للمجتمع. وكذلك فانه من الصعب ان نجد في خصائص المجتمع ما يمكن ان يكون أكثر تمييزاً للمجتمع من لغته، أو يوازيها أهمية في الدور الذي تؤديه في عملية قيام المجتمع بوظيفته. ويمكن ان نعرف علم اجتماع اللغة على انه « دراسة المجتمع في علاقته باللغة » (وهو عكس تعريفنا لعلم اللغة الاجتماعي).

والاختلاف بين « علم اللغة الاجتماعي » و « علم اجتماع اللغة » (ليس اختلافاً في العناصر) (؟) وإنما في محور الاهتمام. ويستند ذلك الى الأهمية التي يوليها الدارس للغة أم المجتمع، والى مدى مهارته في تحليل البنية اللغوية أو الاجتماعية. وهناك قدر كبير من التطابق بين هذين العلمين. وقد يكون من غير المجدي ان نحاول الفصل بينهما بطريقة أكثر وضوحاً مما هو عليه حالياً. إذ يمكن أن نورد معظم ما يرد في هذا الكتاب ضمن كتاب في علم اجتماع اللغة. ومن ناحية أخرى فان كتاباً في علم اجتماع اللغة لابد ان يتضمن قضايا لا ترد في كتابنا هذا. وبخاصة تلك التي في اطار ما يُعرف بعلم اجتماع اللغة الشامل Macro — Sociology of Language الذي يتناول علاقات المجتمع واللغة برمتها. وهو ما يعد مجالاً هاماً للدراسة من منظور علم

الاجتماع ( والسياسة ) لأنه يثير قضايا مثل : أثر تعدد اللغات Multi Ling-- ualism - على النمو الاقتصادي وما يمكن أن تتبناه الحكومات من سياسات لغوية . ( من أجل مناقشة هذه القضايا وعرضها أنظر التالي : فيشمان ١٩٧٢ - أ ، ١٩٧٢ - ب ، Fishman والمقالات التالية التي أُعيد طبعها في كتاب جيجليولي - ١٩٧٢ . Gigolioli وهي : فيشمان ١٩٧٢ - ج (Fishman) جودي و واط ١٩٦٢ Goody & Watt وجمبرز ١٩٦٨ Gumperz وانجلهارت و وداورد ١٩٦٧ Inglehart & Woodward إلّا ان هذه الدراسات الاجتماعية الشاملة لا توضح طبيعة اللغة بالقدر الذي تفعله الدراسات المصغّرة (Micro) ، التي نوردها في هذا الكتاب ، لأن الدراسات الاجتماعية الشاملة تترك مفهوم ( اللغة س ) دون تحليل . ( وهناك مناقشة جيدة للعلاقات بين « علم اللغة الاجتماعي » و « علم اجتماع اللغة » في مقدمة كتاب تردجيل ١٩٧٨ Trudgill .

**١ ـ ٢ ـ ظواهر علم اللغة الاجتماعي :**

**١ ـ ٢ ـ ١ عالم من الخيال :**

ما الذي نستطيع ان نقوله إذن عن اللغة في علاقتها بالمجتمع ؟ قد يكون من المفيد أن نحاول تخيل مجتمع ( ولغة ) لا يوجد ما نقوله عنهما. والعالم الصغير الذي نحاول وصفه في الجزء التالي عالم نُسِجَ بأكمله من الخيال ، وقد يتفق معي معظم دارسي علم اللغة الاجتماعي بل وربما كلهم على انه قد لا يكون لمثل هذا العالم وجود إذا سلمنا بالمقولات الأولى التي نعرفها عن اللغة والمجتمع .

ففي عالمنا الخيالي مجتمع تحدده حدود طبيعية لا يمكن تخطيها . والغرض من فرض هذه الحدود هو أن نضمن عدم انضمام أفراد من جماعات أخرى الى جماعتنا الخيالية هذه ، حاملين معهم لغتهم ، من جهة ، كما ونضمن ، من جهة أخرى ، عدم مغادرة مواطني هذه الجماعة الخيالية لموطنهم أبداً ،

حاملين معهم لغتهم الى جماعة أخرى ، وهو ما قد يتسبب في ارباك التطابق الكامل بين اللغة والجماعة.

وفي هذا المجتمع الخيالي ، يتمتع الأفراد بمعرفة لغوية واحدة ـ فجميعهم دون استثناء يعرفون نفس « الأبنية اللغوية » ونفس الكلمات ، ينطقونها بنفس الطريقة ويضمنوها نفس المعاني. وقد يؤدي أي خروج عن مثل هذا التطابق الكامل الى طرح مقولة من مثل هذا القبيل « س » من الناس ينطق كلمة ما بالطريقة « ص » بينما ينطق « ب » من الناس نفس الكلمة بالطريقة « ي » مما يمكن أن يعتبر مقولة عن اللغة في علاقتها بالمجتمع. ولكن المشكلة البديهية هي ان لغة أطفال هذا المجتمع الذين ما يزالون في مرحلة تعلّم الكلام لابد ان تختلف بالضرورة عن لغة الآخرين. ويمكننا التحايل على هذه المشكلة بالقول : ان لغة الأطفال Child Language هي فرع من أفرع دراسات علم النفس أكثر من كونها فرع من علم الاجتماع ، وان علم النفس قادر على تحديد المباديء العامة لاكتساب اللغة لدى الأطفال. وهذه المباديء تسمح لنا بدورها ، بتحديد جميع أوجه الاختلاف بين لغة الأطفال ولغة البالغين. فلو كان بمقدور علم النفس أن يوفّر كل هذه المباديء الضرورية ، فقد يتوفر لدينا ، حينئذ ، الكثير مما نستطيع أن نقوله عن اللغة في علاقتها بنمو الأفراد ، دون أن نتمكن في أن نقول شيئاً عن اللغة في علاقتها بالمجتمع. إلّا انه غني عن القول ، انه ما من عالم نفس واحد يجرؤ على الادعاء ، ولو من ناحية المبدأ ، بامكانية ذلك.

والنتيجة الحتمية لغياب الاختلافات بين لغة أفراد هذا المجتمع هي استبعاد أي نوع من أنواع التغيير اللغوي Language Change لأن مثل هذا التغير اللغوي يتضمن عادة الاختلافات القائمة بين لغة أكبر الأجيال وأصغرها سناً. ولذلك عندما يموت الجيل القديم بأكمله لا تبقى غير الصيغ اللغوية التي يستخدمها أحدث الأجيال سناً. وحيث ان التغير اللغوي قد ترك أثره على كل اللغات التي جرتْ دراستها حتى الآن ، فان ذلك يجعل من لغة

مجتمعنا الخيالي لغة متفردة في نوعها. والطريقة الوحيدة التي تسمح بالتغيير اللغوي في مجتمع مطلق التجانس هو افتراض ان يعود كل تغير بأثرة على كل فرد من أفراد المجتمع بشكل مطلق ومتزامن ، أي أن ينام المجتمع في ليلة ، ولغته خلو من أحد الأشكال اللغوية ، ويصحو ، في اليوم التالي ، وقد انتشر ذلك الشكل في لغة كل فرد من أفراد المجتمع. ( وانه لَمِنَ الصعب ان يتصور المرء ان وسيلة يمكن ان تعلل مثل هذا التغير ، اللهم إلّا التواصل الروحي على مستوى المجتمع ، برمته ).

كما وإن من سمات هذا المجتمع الخيالي الذي نتناوله بالدراسة هو انه ليس للظروف أي أثر يذكر على ما يقوله الناس سواء من حيث الشكل أو المضمون ، فليست فيه مواقف رسمية formal « أو غير رسمية » informal تتطلب استخدام مفردات لغوية مختلفة ( مثل الفعلين receiveget ) أو طرق مختلفة لنطق الكلمات ( مثل not و n't ) ( أنظر ٢ ـ ٤ ). كما انه ليس هنالك أية فوارق على مستوى الشكل أو الدلالة بين discussion ( مناقشة ) و argument ( جدل ) أو بين request ( رجاء ) و demand ( مطالبة ). ( ففي الجدل argument نقوم بمهاجمة موقف الخصم ، بينما نأخذ بعين الاعتبار موقف الطرف الآخر ، في المناقشة ـ discussion ـ ). كما انه لا وجود لاختلافات بين بداية المحادثة و وسطها ونهايتها. مما يستدعي التحية والوداع ، مثلاً . وعليه ، فانه لا وجود لاختلافات تنشأ عن الظروف. ولو لم يكن الأمر كذلك ، لتطلّب تعقيبات على المجتمع ، وبصفة خاصة على التعامل الاجتماعي ، social interaction وهو ما نتناوله في الفصل الرابع. وليس من شك ، في ان استبعاد أثر السياق الاجتماعي ـ Social Context على اللغة ، يجعل من الكلام أمراً يكاد يكون مستحيلاً. لأن الرسائل المنطوقة تُفَصّل خصيصاً حسب احتياجات المتلقين.

وفي النهاية علينا ان نفترض انه ليست هناك علاقة بين ثقافة مجتمعنا

الفرضي وبين المعاني التي تعبّر عنها لغته وبخاصة مفرداته. ولذلك فان مثل هـذه اللغة لا يجب أن تتضمن كلمـات مثل cricket أو priest وهي كلمـات لا نستطيع تحديد دلالتها دون الرجوع ، ولو جزئياً ، الى ثقافة هذا المجتمع. وهو ما سنتناوله في ٣ ـ ٢. فـافتراضنـا عكس ذلك يعني ان نسمـح بتقديم تعليقات مسهبة عن علاقة اللغة بالمجتمع ، لأن الثقافة هي واحدة من أهم خصائصه. فأي نوع من المفاهيم ، على وجه التحديد ، يمكن لمواطني هـذا المجتمع الفرضي أن يعبّروا عنه ؟ من المؤكـد انهم لن يتمكنوا إلاّ من تـأكيد الحقائق المنطقية مثل إذا كان أ = ب وكان ب = جـ إذن أ = جـ ، لأن أي نوع آخر من الكلام غالباً ما يتضمن الاشارة الى ثقافة المجتمع.

وخلاصة القول هي ان مثل هذا المجتمع الفرضي الخيالي قد يستعصي عـلى التحقيق. ولقد فـرضنا مـا فرضنـاه من قيود عـلى هـذا المجتمـع بغيـة أن نتجنب قول أي شيء عن علاقة اللغة بالمجتمع ، خـلاف عبارة بسيـطة هي : ان هذه الجماعة تتكلم باللغة « س ». وهنا لابد من الاشارة الى ان مثل هذا النوع من العبارة هو ما يقوله علماء اللغة أو ( العوام ) عموماً عن اللغة ، فيستنفذون بها ما يجدون أنفسهم مكرهين على قوله عن علاقة اللغة بالمجتمع. ولقد هدفنا من هذا الجزء الى ايضاح ان الجماعة الوحيدة ( أو اللغة الوحيدة ) التي يمكن لمثل هذه العبارة أن تنسحب عليها هي جماعة فرضية خيالية وهي تلك التي قام تشومسكي بتعريفها على انها الجماعة الملائمة لموضـوع البحث في مجال علم اللغة النظري (١٩٦٥ : ٣).

**١ ـ ٢ ـ ٢ عالم واقعي وغريب :**

ولننتقل الآن الى عالم واقعي فيـه الكثير ممـا يمكن أن نقولـه عن اللغة في علاقتها بالمجتمع. وهو عالم شمال غرب الأمازون ، العالم الغريب ، الذي قـام بوصفـه أ. ب سورينسـين (١٩٧١) A. P. Sorensen و ج. جـاكسـون (١٩٧٤) J. Jackson ( هذا على الرغم من اننا سنرى في القسم (١ ـ ٢ ـ ٣)

ان الأوضاع في هذا العالم لا تختلف كثيراً عنها في المجتمعات المألوفة لدينا ).

ومن الناحية الجغرافية تقع نصف رقعة هذه المنطقة في البرازيل والنصف الآخر في كولومبيا. وهذه المنطقة تتفق لغوياً مع المنطقة التي تُسْتَخدَم فيها لغة التوكانو Tukano وهي لغة يمكن اعتبارها لغة مخاطبة الأجانب Lingua Franca ( ونقصد بذلك لغة يستخدمها مواطنو منطقة ما على نطاق واسع في المعاملات التجارية ، وهي ليست لغتهم الأم ). وهي منطقة شاسعة تساوي انكلترا في مساحتها ولا يقطنها إلاّ عدد قليل من السكان يصل الى حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة ، معظمهم من الهنود الأصليين ، ينقسمون الى ٢٠ قبيلة ، تنقسم كل منها الى ٥ عشائر Phratries .

وعلينا أن نتذكر حقيقتين هامتين عن هذه الجماعة ، أولاهما هي ان كل من هذه القبائل تتحدث لغة مختلفة الى حد ان القبائل الأخرى لا تفهمها ، وفي بعض الأحيان قد تكون ذات أصل لغوي مختلف عن غيرها من لغات القبائل الأخرى. ( أي ان هذه اللغات لا تنحدر من أصل لغوي واحد ). ولا يمكن في واقع الأمر ان نميّز بين هذه القبائل إلاّ من خلال لغة كل منها. وثانيهما ، هي ان هذه العشائر الخمس ( وكذلك القبائل العشرين ) تتصف بانها ابعادية Exogamous ( أي ان الرجل يجب ألاّ يتزوج من نفس القبيلة أو العشيرة ) والنتيجة اللغوية الحتمية إذا ما وضعنا هاتين الحقيقتين جنباً الى جنب : هي ان الزوجة بالضروة تتحدث لغة تختلف عن لغة زوجها.

وعلينا أن نضيف حقيقة ثالثة : وهي ان الزواج يتم ويستمر في موطن الزوج Patrilocal ( تستوطن الزوجة موطن زوجها ) كما ان هنالك قاعدة تقول بان الزوجة لا يجب ان تعيش في موطن الزوج فحسب بل يجب أن تستخدم لغة الزوج في التحدث الى أطفالها ( ونستطيع ان نطلق على مثل هذا العرف في الزواج مصطلح « الزواج على لغة الزوج » Patrilingual Marriage والنتيجة اللغوية الحتمية لمثل هذه القاعدة هي ان أُم الطفل لا تعلم طفلها لغتها الأصلية

بل تعلّمه لغة تتحدث هي بها كلغة أجنبية ـ كما لو تعلّم كل طفل في بريطانيا لغته الانكليزية من مربية أجنبية . ولذلك فاننا لا نستطيع أن نصف لغة أولئك الأطفال بانها لغتهم الأم إلاّ في شطحة من شطحات الخيال . ولا تذكر التقارير الخاصة بتوصيف هذه الجماعة أي نوع من المعوقات في تعلّم اللغة أو تدهور عام في مستوى تعلّمها ، وعليه يمكننا ان نفترض انه يمكن اكتساب اللغة بكفاءة ودقة متناهية حتى تحت هذه الظروف الصعبة وذلك بتأثير الأب وبقية أقربائه والأطفال الأكبر سناً . ومن الجدير بالذكر ان الزوجة تنتقل الى « البيت الكبير » Long Hous حيث يقطن أهل الزوج وأسرته أخوته وبذلك تنتفي شبهة عدم التواصل بين من يتحدثون بلغة الأب باعتبارها اللغة الأم .

فما الذي نستطيع ان نقوله عن اللغة في علاقتها بمثل هذا المجتمع ؟ أولاً : علينا أن نطرح قضية تتصل بعلاقة اللغات « ككل » بالمتحدثين ، فلو فرضنا جدلاً انه يمكننا من أجل تبسيط الأمور التحدث بطريقة مفيدة عن اللغات « ككل » ( وذلك عكس ما سنقوله في ٢ ـ ٢ ) ، من الضروري بالنسبة للغة ما ، ولنقل اللغة « س » مثلاً ، ان نعرف من هم المتحدثون الأصليون بهذه اللغة ، ولكن ما دام ذلك يعني الرجوع الى قبيلة بعينها ، والقبائل قد عرفت بالرجوع فقط الى لغتها الأصلية فان ذلك يعني بوضوح ان هناك مشكلة . وقد يكون الحل هو إما ان نعدد كل البيوت الكبيرة التي تملكها القبائل المعنية أو أن نقوم بتحديد المنطقة ــ أو المناطق ــ الجغرافية التي تقطنها القبيلة ( لأن معظم القبائل تستوطن مناطق خاصة بها وتخلو هذه الأراضي من القبائل الأخرى ) . ومع ذلك علينا ان ندرك ان ربع المتحدثين الأصليين على الأقل باللغة « س » سيكونون من النسوة المتزوجات الموزعات بين القبائل الأخرى ، وبالمقابل فسيكون ربع السكان القاطنين بمنطقة بعينها مكونين من الزوجات من القبائل الأخرى وعلى ذلك فهم من غير المتحدثين الأصليين باللغة ومن المحتمل ــ نتيجة لذلك ــ ان يشتمل أي « بيت كبير » بعينه على متحدثين أصليين بعدد من اللغات بدلاً من لغة واحدة ، لو افترضنا

ان الأخوة لن يتزوجوا جميعاً من نفس القبيلة الأخرى بل سيتزوجون من عدد من القبائل. ولذلك فان على مَنْ يريد ان يرسي قواعد النحو والصرف للغة « س » ان يحدد بدقة أولاً مَنْ هم الذين تستهدفهم تلك القواعد ـ فهل هذه القواعد صحيحة بالنسبة للمتحدثين الأصليين الذين ما زالوا يقطنون المنطقة الأصلية للقبيلة أم انها صحيحة لكل المتحدثين الأصليين ومن بينهم من تفرقوا بين القبائل الأخرى أم انها صحيحة لجميع المتحدثين سواء الأصليين وغير الأصليين منهم في الموطن القبلي الأصلي ؟

ثانياً ، هناك المشكلات الخاصة بقضية التخاطب Discourse وأعني كيفية استخدام الكلام في التعامل الاجتماعي ؟ وهناك أيضاً الأسئلة التي يثيرها عدد اللغات الـمُسْتَخدَمَة ، وهي على سبيل المثال : كيف يتعامل الأفراد عندما ينتقلون في داخل المنطقة كدأبهم دائماً ؟ فهل من المتوقع أن يستخدموا لغة « البيت الكبير » الذي يقومون بزيارته ؟ ويبدو ان هذا الافتراض غير صحيح فاختيار اللغة الـمُسْتَخْدَمَة يعتمد في المقام الأول على مدى ملائمتها لحاجة المتحدثين بها ( باستثناء القاعدة التي تتطلب من الزوجة استخدام لغة الزوج عند التحدث الى أطفالها ). فلو كان الزائر لا يعرف لغة « البيت الكبير » الذي ينزل به بينما يعرف أحد مضيفيه لغة الزائر ، حينئذ يجري استخدام لغة الزائر عند التحدث اليه. وماذا ، إذن ، لو كانت اللغة هي مادة الحديث ؟ هنا أيضاً تأتي الحاجات العملية في المقام الأول ، ألا وهي ضرورة معرفة أكبر عدد ممكن من اللغات حتى يسهل التنقل والسفر وانتقاء شريكة العمر ( بالنسبة للشباب ). ومن الطبيعي جداً أن يجري الحديث عن اللغة وبذلك يتم تعلّم مفرداتها وصيغها. الأمر الذي غالباً ما يمتد الى سن متقدمة. ولكن هؤلاء الناس لا يدركون كم لغة يعرفون ، ولا يعتبرون تعلّم لغة جديدة وسيلة لاكتساب المكانة الاجتماعية. ولعل ذلك ما نتوقعه في مجتمع يتحدث كل أفراده ثلاث لغات على الأقل : وهي (١) لغة الأب (٢) ولغة الأم ( التي لابد أن تكون قد علمتها لأطفالها بغرض ان تحثهم على البحث

عن أزواج وزوجات من قبيلتها ) و (٣) لغة مخاطبة الأجانب Lingua Franca ـ التوكانو ـ ( التي قد تكون لغة الأب أو الأم ) ، إلاّ انه بالاضافة الى جوانب التخاطب التي تتصل اتصالاً مباشراً بظاهرة « تعدد اللغات » Multilingualism فان هناك أموراً كثيرة أخرى لابد من ذكرها عن العلاقة بين الكلام والظروف الاجتماعية في هذا المجتمع الأمازوني المعقد. فهناك على سبيل المثال قاعدة تقضي بالاستماع الى من تحترمه من الناس وان تردد ما يقوله حرفياً خلال الدقائق الخمس الأولى من حديثه على الأقل.

ثالثاً : تأتي قضية علاقة اللغة بالثقافة وهي علاقة لم تتناولها التقارير الواردة أعلاه من شمال غرب الأمازون إلاّ قليلاً ، ورغم ذلك يمكننا أن نقدم بعض التصورات شبه المؤكدة عن العلاقة. فَمِنْ غير المعقول مثلاً ان تفتقر أي من هذه اللغات الى كلمات تدل على « بيت كبير » أو « قبيلة » أو« عشيرة » ( رغم انه قلما تتوفر تسميات لمثل هذه المفاهيم ذات المستوى العالي High Level Concepts كما سنرى في ٣ ـ ٣ ـ ٤). وكذلك ، يمكننا أن نتنبأ بوجود كلمات في كل من تلك اللغات للتعبير عن المفاهيم المتعلّقة بالثقافة ، وان نتنبأ بأن تعبّر غالبية الكلمات عن مفاهيم ثقافية ، لا يمكن تعريفها إلاّ من خلال اطار ثقافي محدد.

ولا يستطيع عالم اللغة ـ حين يدرس منطقة مثل شمال غرب الأمازون ـ أن يقدم شيئاً مقنعاً عن اللغة دون ان يقدم ـ في الوقت نفسه مقولات معقدة عن اللغة وعلاقتها بالمجتمع ، فلا يستطيع ان يحدد اللغة التي يقوم بوصفها دون الرجوع الى جماعة سابقة التحديد تستخدم تلك اللغة ( وهو ما يفعله حينما يتحدث عن الانكليزية البريطانية أو « انكليزية بيرمنجهام » مثلاً ). والمصدر الأساسي لهذا التعقيد هو النزعة الأبعادية اللغوية Linguistic exogamy ، وهي ليست نزعة شائعة في العالم. أما المصدر الثاني لهذا التعقيد فهو القدر الكبير من « الازدواج اللغوي individual bilingualism عند الأفراد ( أو بشكل أكثر دقة « تعدد اللغات »

Multilingualism ) والذي يجعل من الصعب تحديد : مَنْ هو المتحدث ومَنْ هو غير المتحدث بلغة بعينها.

وتعد ظاهرة « التعدد اللغوي » واسع الانتشار من الظواهر اللغوية المألوفة للغاية في العالم كله كما يستطيع أي عالم لغة اجتماعي نظري أن يستنتج بسهولة من حقيقة ان هناك أربعة أو خمسة آلاف لغة مستَخْدَمَة في العالم في حين لا يزيد عدد دول العالم عن مائة وأربعين دولة. وعلى ذلك فهناك على الأقل بعض الدول التي لابد أن تتحدث بعدد كبير من اللغات ، يتراوح متوسطه بين ثلاثين وخمساً وثلاثين لغة. ولو أخذنا في الاعتبار ضرورة الاتصال بالجماعات المجاورة والمؤسسات الحكومية فمن المعقول ان نفترض ان الكثير من أفراد هذه الجماعات هم من متعددي اللغات. ومن المهم ان نضع هذه الحقائق نصب أعيننا أثناء قراءة الجزء التالي لأنه يكشف ان المجتمعات « ذات اللغة الواحدة» Monolingual المألوفة لمعظمنا قد تكون في الواقع غاية في الندرة والغرابة من منظور عالمي.

**١ ـ ٢ ـ ٣ عالم واقعي ومألوف :**

سأدعو القاريء الآن لتأمل العالم الذي نشأ فيه. فمن غير المتوقع ان تكون للقاريء خلفية لغوية تشبه في غرابتها غرابة المجتمع الذي وصفناه ـ لغوياً ـ في الجزء السابق ولكن معظمنا سيجد ان هناك الكثير مما يمكن قوله عن عوالمنا اللغوية الاجتماعية ، وان القدر الأكبر مما نقوله قد يكون غريباً ومثيراً للغاية.

وبغية مساعدة القاريء على التركيز على عالمه الخاص ، يمكنه أن يتخيل نفسه وكأنه جالس في بيته الكبير في شمال غرب الأمازون يتحدث التوكانيو بطلاقة مع مضيفه ، عن لغته ، بنفس الطريقة التي تتوجب على الهنود المسافرين إذا زاروا بيتاً كبيراً لا يعرف لغتهم الأصلية. وعادة ما يُطلب منهم نوعان من المعلومات عن أمور عامة وأمور محددة للغاية. منها : من غير المتكلم

يتحدث بهذه اللغة ؟ أين يقيم أولئك المتكلمون ؟ هل يتكلمون لغات أخرى ؟ ماذا يقولون عند مقابلة شخص غريب لأول مرة ؟ ما معنى كلمة « [illegible] » ؟ ما هي أسماء الوجبات التي يتناولونها في مختلف أوقات النهار ؟ هل هناك اساليب خاصة بمحادثة الأطفال ؟ كيف يقومون بالعد ؟ هل هناك أسلوب معينّ للدلالة على ان ما تقوله منقول عن آخرين ؟ كيف تبين ان الشيء الذي تود الدلالة عليه معروف لدى المخاطَب ؟ هل هناك طرق مختلفة لنطق أي من الكلمات حسب مسقط رأسك ؟ وعند الاجابة على كل هذه الأسئلة فاننا لا نكون قد تحدثنا عن اللغة فحسب بل عن جوانب اجتماعية عديدة للمجتمع الذي يستخدم هذه اللغة. ويمكن لساكن « البيت الكبير » لو كان فضولياً أن يضاعف هذه الأسئلة حتى يحصل على وصف كامل للغة التي يتحدث بها الغريب.

والغرض من كل هذه الأسئلة هو أن نحفّز القاريء على أن يدرك مقدار ما يمكن أن يقوله عن لغته في علاقتها بالمجتمع الذي يعيش فيه. وآمل أن يحاول القاريء وضع خلفيته اللغوية نصب عينيه أثناء قراءة هذا الكتاب وان يحاول تصور نتائج الأبحاث اللغوية المدرجة في هذا الكتاب لو كانت قد أُجريت على جماعته اللغوية.

## ١ ــ ٣ متحدثون وجماعات : Speakers and Communities

### ١ ــ ٣ ــ ١ الالتزام والَفردية : Conformity and Individualism

إذا كان علم اللغة الاجتماعي يختص بدراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع فاننا نتوقع أن تتناول كتب علم اللغة الاجتماعي الوحدات الاجتماعية الكبيرة مثل القبائل. والأمم والطبقات الاجتماعية. وسنعرض ، بالطبع ، الى ذلك كله ، ونناقش صلة بعضها باللغة وبخاصة في (٥ ـ ٤). إلاّ ان المجتمع يتكون في المقام الأول من الأفراد ، وقد اتفق كل من علماء الاجتماع وعلماء علم اللغة الاجتماعي على ضرورة جعل الفرد مركز الاهتمام الرئيس في هذه الدراسات حتى لا يغيب

الفرد عن بالنا حين نتحدث عن الأحداث والمجردات واسعة النطاق. فأهمية المتحدث الفرد في علم اللغة الاجتماعي تعادل أهمية الخلية الفردية في علم الأحياء. فإذا ما عجزنا عن فهم سلوك الفرد فاننا سنفشل حتماً وبنفس الدرجة في فهم سلوك الجماعات.

إلّا ان هنالك سبباً أكثر أهمية يدفعنا للاهتمام بالفرد في علم اللغة الاجتماعي لا ينطبق على الخلية في علم الأحياء ( أو على الأقل ، لا ينطبق بنفس الدرجة ) : علينا أن نؤكد أنه **ما من فردين يتحدثان بنفس اللغة تماماً لأنه لا يمكن أن يتوفر لهما نفس القدر من التجارب والخبرات باللغة**. وقد تتراوح درجات الاختلاف بين المتحدثين من اختلافات بسيطة لا تُذكر ( كما في حالة الاختلاف بين توأمين نشآ سوياً ) الى اختلافات كبيرة في إطار حدود الخصائص الشمولية Universal للغات. إذ يتشكّل الفرد ، على عكس الخلية المفردة ، من مجموع خبراته اللغوية ( كمتلق ) بدرجة أكبر من تكوينه الوراثي. وهو يتلقى الخبرات من أحاديث الآخرين الذين يتميز كل منهم بخصائصه المنفردة والمنظور الذي اتخذناه في هذا الكتاب هو دراسة المجتمع من الداخل أي أننا قد اتخذنا وجهة نظر المتحدث الفرد وهو يتكلم ويستمع الى أفراد آخرين ، وذلك بدلاً من ملاحظة هذا المجتمع من الخارج ، كما قد يفعل عملاق قادر على رؤية المجتمع بكامله وعلى تشريحه ، إلّا انه لم يتوصل بعد الى ابتكار مجهر ذي قوة كافية يمكنه من رؤية المتحدث الفرد.

وعلى أية حال فان تفرّد الخلفية اللغوية الاجتماعية لكل فرد ليست المصدر الوحيد للتباين بين المتحدثين بلغة بعينها. فيمكننا ان نتخيل فرداً وهو يقيم نموذجاً تصورياً للجماعة ( في مستوى ادراكي غير واع ) التي يعيش بينها وينظم من حوله في حيّز متعدد الأبعاد multi — dimensional space مبيناً على النموذج أوجه التشابه والاختلاف بينهم وذلك استناداً الى مجموعة من الأبعاد والمعايير المختلفة. وتشتمل بعض من هذه الأبعاد على الاختلافات اللغوية ـ مثل كيفية نطق وحدات صوتية مجردة phonemes أو مفردات بعينها ـ

ولا يغطي هذا النموذج المعايير اللغوية فحسب بل يغطي متغيرات من أنواع أخرى. وسيعكس هذا النموذج تجارب الفرد الشخصية ، وهكذا فان الأفراد من ذوي الخلفيات اللغوية الاجتماعية المختلفة يتجهون الى اقامة نماذج تصورية تختلف حسب خبرتهم باللغة والمجتمع.

وعلى أية حال فان الفرد ليس مجرد « آلة تصوير اجتماعية » تعكس صورة دقيقة وحقيقية لماضيه في نموذجه ، التصوري ، أي بنفس الأسلوب الذي يستطيع به جهاز التسجيل تسجيل الماضي القريب ، وإنما يدوّن تجاربه بعد تنقيتها من خلال مرشح هو مجموع تجاربه الحديثه ونموذجه الحالي. ولذلك يمكن لفردين أن يستمعا الى شخص واحد ويتأثرا بطريقتين مختلفتين. وعلى سبيل المثال ، يمكن أن يشاهد فردان أحدهما انكليزي والآخر أمريكي نفس الفيلم الأمريكي ، فيتعلّما منه حقائق مختلفة عن اللغة ـ فما قد يبدو للمشاهد الأمريكي حقيقة جديدة عن طريقة كلام الفقراء البيض في أقصى الجنوب قد يراه الانكليزي على انه مجرد حقيقة جديدة عن طريقة الأمريكيين في الكلام. ومن هذا المنطلق ، علينا أن نتوقع ان تؤدي الاختلافات القائمة في النموذج الراهن الى اختلافات في النماذج اللاحقة ، وحتى وإن كانت التجربة التي استتبعت هذه التغيرات هي نفسها في كلتا الحالتين ( للاطلاع على وجهة نظر مشابهة عن اكتساب باللغة. أنظر ماكولي McCawley ١٩٧٧ ).

وحتى نستكمل صورة مصادر الاختلاف بين الأفراد علينا أن نعود الى « الحيّز متعدد الأبعاد » الذي أسلفنا ذكره. وهناك أدلة كافية تشير الى ان المجتمع يستند في بنيته من المنظور اللغوي الاجتماعي الى حيّز متعدد الأبعاد ، نعرض له في الفصل الخامس. وما علينا إلاّ ان نتصور التصنيفات العديدة التي يمكن أن يُصنف بها الناس بشكل ما حسب الأبعاد التالية وهي السن ومسقط الرأس والطبقة الاجتماعية ( أو المهنة ) والجنس حتى نتمثّل نموذجاً من أربعة أبعاد يرتبط كل منها باللغة ارتباطاً وثيقاً. وعندما ينتهي الفرد

من اقامة نموذجه التصوري ، في صورة حيّز متعدد الأبعاد ، عليه إذن أن يحدد موقعه في هذا النموذج. وليست اللغة ـ بالطبع ـ سوى جزء واحد من الصورة الكاملة ، إلاّ انها جزء هام منها لأنها تقدم للمتحدث مجموعة محددة وواضحة من الرموز التي يمكن استخدامها في تحديد موقعه من العالم حوله. فلو تصورنا ان طفلاً يقطن في منطقة فيها مجموعتان مختلفتان من الأطفال يقاربونه سناً وهو ينتمي بوضوح الى احدى هاتين المجموعتين ، فمن المرجّح ان يتبنى في كلامه نموذج المجموعة التي انضم اليها لأن ذلك هو النمط الذي اختاره لنفسه ، أي ان كل ما يقوله هذا الطفل يعتبر انه « فعلاً » « من » أفعال تأكيد الهوية » Act of Identity في حيّز متعدد الأبعاد ( لاباج ١٩٧٧ ـ أ Le Page لاباج وآخرون ١٩٧٤ Le Page et al ).

على ضوء ما أوردناه في الفقرات السابقة من حديث عن القدر المسموح به من « التباين الفردي » Individual Variation بين المتحدثين بنفس اللغة فاننا قد ندهش لمدى « الاتفاق » Agreement القائم بين المتحدثين ، وسنعرض لذلك مرة أخرى في الفصل الخامس. ومن المهم أن نشير الى درجة « التشابه » الموجودة بصفة عامة بين المتحدثين تتجاوز القدر المطلوب لضمان كفاءة الاتصال. فعلى سبيل المثال ، يمكننا أن نقول خلافاً لما ذهب اليه فيردناند دوسوسيور Ferdinande de Saussure مؤسس المدرسة البنيوية في علم اللغة انه لا يكفي أن يميّز الفرد بين وحدتين صوتيتين متجاورتين من الصوائت vowels بل يجب أن يكون نطقه لهاتين الوحدتين متطابقاً تماماً مع نطق من اتخذهم نموذجاً له. وكذلك ، هو الحال بالنسبة للقيود التراكيبية syntactic restrictions المفروضة على استخدام كلمات بعينها. ويجب أن تكون هذه « القيود » متطابقة مع القيود التي يلتزم بها معظم الناس ( فعلى سبيل المثال يلتزم معظم المتحدثين باللغة الانكليزية بقيد استخدام كلمة **probable** مع المصدر المؤول **that — clause** وذلك على عكس مرادفها likely الذي يمكن استخدامه مع المصدر المؤول ـ والمصدر الصريح infintive أيضاً. )

ولعل أشد ما يبرز تفوق قاعدة « الالتزام » conformity في اللغة على حدود متطلبات كفاءة الاتصال Efficient Communication هو الشذوذ في الصيغ الصرفية irregular morphology حيث ان كفاءة الاتصال لا تجني شيئاً من جراء وجود أفعال أو أسماء ذات صيغ صرفية شاذة في اللغة الانكليزية. ( فوجود مثل هذه الشواذ يجعل الأمر أكثر صعوبة بالنسبة للمتحدث والمتلقي ومن يود تعلم اللغة ). والتفسير الوحيد لاستمرار وجود هذه الصيغ الشاذة هو حاجة كل فرد للظهور بمظهر الالتزام بالقواعد الخاصة بالصيغ الصرفية، وبذلك يحذو حذو مَنْ اتخذهم نموذجاً له. ومن المعروف ان الأطفال يميلون الى استخدام الصيغ الصرفية المنتظمة بدلاً من الصيغ الشاذة ( مثلاً عندما يستخدمون صيغة goed بدلاً من صيغة went ) ولكنهم يتخلون عن استخدام هذه الصيغ الصرفية بمرور الوقت حتى يلتزموا بنفس القواعد التي يلتزم بها الآخرون.

ويمكن أن نطلق على القوتين اللتين ناقشناهما، والتي تؤدي اولاهما الى الفوارق الفردية وثانيتهما الى التماثل بين الأفراد، مصطلحي « الفردية » indivdualism و « الالتزام » Conformity. ويعتمد قدر التباين الموجود في أي جماعة على القوة النسبية لهاتين القوتين فقد يسود « الالتزام » في بعض الجماعات بينما تسود النزعة « الفردية » في جماعات أخرى. وقد استخدم ر. لا. باج Le Page مصطلح « التضام » Focussing و « الانتشار » Diffusion لهذين النوعين من المواقف (١٩٧٨). وغالباً ما يوجد « التضام » حيث توجد درجة عالية من الاتصال بين المتحدثين وقدر كبير من الالتزام بالصيغ والمعايير اللغوية Linguistic norms وعادة ما تتوافر هذه الشروط في الجماعات الصغيرة محكمة التكوين ( مثل « شبكات الطبقة العاملة » Working class networks في بلفاست والتي سنناقشها باسهاب في ٥ - ٤ - ٣)، أو في المجتمعات التي توجد فيها لغة مكتوبة ذات صبغة متواضع عليها standardized مثل اللغة

السانسكريتية أو اللغة الفرنسية أما الانتشار Diffusion فيتواجد عندما لا يتوافر الشرطان السابقان وتعد الروماني Romany ، وهي لغة الغجر ، أفضل مثال على مثل هذا الموقف. وليس هناك بالطبع تمييز واضح بين نزعتي التضام والانتشار فهما مجرد اسمين لطرفي نقيض يمكننا أن نحدد على أساسهما موقع أي مجتمع أو موقع أي جماعة.

ومن الغريب ان أحداً لم يذهب الى ان الأفراد يمكن ان يكونوا ـ من وجهة نظر لغوية ـ متفاوتين في درجة التزامهم رغم انه من الممكن تصور وجود هذه الاختلافات على المستوى الفردي. وحتى نستطيع اثبات وجود مثل هذه الاختلافات على المستوى الفردي فمن الضروري أن نجد اختلافات في الدرجة التي يحافظ بها الأفراد على الصيغ الصرفية الشاذة ، مثلاً. ولا يمكن أن نكتفي بان نبين ان بعض الأفراد يرفضون نموذج الأبوين ( كما يفعل البعض بالفعل ) ، وقد يكون السبب في ذلك التزامهم بنموذج مختلف ( وهو النموذج الخاص بأقرانهم Peers ) لا عدم التزامهم بنموذجهم على الاطلاق. وقد تكون هناك أيضاً اختلافات بين رغبة الأفراد في خلق مفردات مبتكرة أو في استخدام اللغة مجازياً ، وقد يتعدى المتحدث « الخلّاق » في تلك الحالات المعايير المتواضع عليها أو يخرق بعض هذه القواعد في مواقف معينة ( عند كتابة الشعر ، مثلاً . ) وعلى أية حال ، فان مثل هذه « النزعة الابداعية » غالباً ما تحدث في إطار نظام لغوي التزامي.

### ١ ـ ٣ ـ ٢ النمو اللغوي الاجتماعي عند الطفل :

بالرغم اننا قد نتصور ان كل متحدث فريد في تجاربه اللغوية وعلى هذا الأساس فانه قد ينمّي أجرومية خاصة به فاننا يمكن أن نطلق عدداً من التعميمات عن المراحل التي عادة ما يمر بها الأطفال في نموهم وتكوينهم اللغوي الاجتماعي. ولكن علينا أن نؤكد من البداية انه يجب التعامل مع التعميمات أدناه على انها فرضيات غير مثبتة لا على انها نتائج مثبتة لأبحاث

تمَّ اجراؤها. إذ ان هذه الفرضيات لا تستند إلّا الى قدر ضئيل من البحث والدراسة اضافة الى أدلة مروية عن آخرين.

ويختص أول هذه التعميمات بالنماذج اللغوية التي يحتذيها الأطفال وغالباً ما يتبع الكثير من الأطفال نماذجهم اللغوية بالترتيب التالي: يتبع الأطفال أولاً نموذج الأبوين ثم الأقران وأخيراً البالغين. ويرى ويليام لابوف (١٩٧٢ ــ أ : ١٣٨) ان الطفل غالباً ما يحتذي نموذج أبويه حتى يصل الى الثالثة أو الرابعة من عمره، وبعد ذلك يستبدل بنموذج الأبوين نموذج الأقران، حتى يبلغ الثالثة عشرة من عمره عندما يبدأ في احتذاء البالغين الذين يتجه الى عالمهم. اختلف العلماء في تحديد سن الانتقال من احتذاء الأبوين الى احتذاء الأقران فتتراوح ما بين الرابعة والسادسة عند هوكيت ١٩٥٨ : ٣٦١ Hockett ) الى ما تحت الثانية عند ( بولينجر ١٩٧٥ : ٣٣٤ Bolinger وفي روايات شخصية أخرى لآخرين ). ومن الواضح ان معظم الأطفال إن عاجلاً أو آجلاً يتخذون من أقرانهم بدلاً من الأبوين نماذج لغوية تحتذى ( ولكنه من الواضح أيضاً استناداً الى التجارب الشخصية وبعض الروايات مثل رواية لابوف (١٩٧٢ ــ أ : ٣٠٧) ان بعض الأطفال لا يفعلون ذلك مطلقاً ) ومن السهل أن نجد أدلة تؤكد هذا الرأي. فعلى سبيل المثال نجد ان الكثير من أطفال الجيل الأول من المهاجرين الى المدن البريطانية يتحدثون بلكنة لا تختلف عن لكنة أصدقائهم من المقيمين ولا يمكننا القول انهم قد اكتسبوا هذه اللكنة باحتذاء نماذج أهلهم.

ولعل الظاهرة الأكثر أهمية والأكثر غرابة هي المسماة « بالنتاج السني » Age Gradimg ( هوكيت ١٩٥٠ Hockett ) وهي ظاهرة في كثير من المجتمعات. وتعني ظاهرة « النتاج السني » ان هناك صيغاً لغوية لا يستخدمها سوى الأطفال في مرحلة احتذاء الأقران Peer — oriented stage وتتناقل الأجيال من الأطفال هذه الصيغ دون أن يستخدمها البالغون مطلقاً.

وقد تكون هذه الصيغ قديمة للغاية وغير مستخدمة إذا ما قورنتْ بالصيغ التي يستخدمها البالغون ــ فنجد مثلاً ان الأطفال دون غيرهم من بين الزنوج الأمريكيين هم الذين يستخدمون الكريولية Creole التي يعتقد الجميع ان انكليزية الزنوج الأمريكيين قد تطورتْ عنها ( ديلارد ١٩٧١ Dillard ، وكذلك فقد تعلّم كل منا في سن الطفولة قدراً كبيراً من الثقافة الشفهية Oral Culture ــ ومنها التراتيل والقصائد والأغاني الخ ــ والتي قد نسينا بالفعل اننا قد تعلّمناها من قبل ولم نستخدمها بالتأكيد في مرحلة البلوغ ( ي . ب . أوبي ١٩٥٩ I. & P Opic ) . ومن ناحية أخرى ، رأى بعض العلماء ان مرحلة « احتذاء الأقران » هي التي ترسي قواعد لغة البالغين بالرغم من انها تتضمن الخصائص اللغوية لغير البالغين ، هذه الخصائص التي سيهجرها الأطفال في آخر الأمر. تقوم الأجيال المتتابعة من الأطفال من سن الرابعة الى سن العاشرة بنقل جسد اللغة بشحمه ولحمه الى الأجيال التالية. ويعد التنافس بين الأطفال ومزاعمهم وادعاءاتهم الكبيرة عوامل ذات أثر كبير في تكوين الأنماط الكلامية لدى الفرد طول حياته ، وهي عوامل أكثر تأثيراً من أي نوع من الاتصال مع البالغين ( هوكيت ١٩٥٨ : ٣٦١ Hockett وقارن بذلك لابوف ١٩٧٢ ـ أ : ١٣٨ Labov ) . إن الصورة التي قمنا برسمها لا تأخذ في الاعتبار سوى النماذج التي يتبناها الطفل في كلامه العادي ، ولكن يجب علينا ألا ننسى ان الطفل يقوم في الوقت نفسه بتصور نموذج ذي أبعاد متعددة للعالم من حوله وهو يضم في هذا النموذج أنواعاً مختلفة من الكلام. منها بالطبع الكلام الذي يستخدمه الأبوان بالرغم من انه قد لا يستخدم هذا الكلام . وهناك في وقتنا الحاضر مصدر مؤثر آخر في اكتساب الأطفال للغة وهو وسائل الاعلام الجماهيرية وخاصة التلفزيون. وهذا ما يؤدي الى ان يدرك الطفل أيضاً مدى التباين والصيغ اللغوية القائمة في المجتمع بالرغم من انها قد لا تؤثر على كلامه الشخصي إلّا بطريقة طفيفة لو أثرتْ عليه على وجه الاطلاق. وكما سنذكر فيما يلي فانه قد يتمكن من استخدام بعض أساليب

الكلام المتعددة في الألعاب التمثيلية .

وعلينا الآن ان نحاول الاجابة على سؤال مرتبط بهذه القضية وهـو : في أي سن يبـدأ الأطفـال في ادراك الـدلالـة الاجتمـاعيـة لمختلف الصيـغ الكلامية ؟ ويبدو انهم يستطيعون ادراك الصيغ الكلامية المختلفة وسبر أغوار اختلاف دلالتها الاجتماعية في سن مبكرة . فقد لوحظ ان الأطفال الذي نشأوا في بيئـة قـائمـة عـلى الازدواج اللغـوي Bilingual قـد بـدأوا يـدركـون انهم يستخدمون نظامين لغويين منفصلين في سن ١٨ شهـراً . ( رونجات ١٩١٣ Ronjat ، اقتبـاساً عن فـان ريخ ١٩٥٣ Weinrech ) ويـرى البعض ان هذا الادراك قد يبدأ في سن مبكرة عن ذلك بينها يقول البعض الآخر ان ذلك يبدأ في سن أكثر تأخراً . فقد قرر روبينز برلينج Robins Burling ١٩٥٩ ، مثلاً ، ان ابنه قد اكتسب لغة الجارو Garo ( وهي لغة قبيلة مستخدمة في شمالي شرق الهند ) عن مربيته في نفس الوقت الذي اكتسب اللغة الانكليزية عن أبويه . وكان عمره حوالي سنتان وثلاثة أشهر حين أدرك ان أناساً مختلفين يتحدثون بلغات مختلفة وعندئذ فقط أدرك ان بعض الناس لا يفهمون لغة الجارو . وقبل أن يبلغ هذا السن ــ أي وهو في حوالي الشهر الثامن عشر من عمره ــ كان قد أدرك ان هناك أكثر من كلمة للتعبير عن نفس الشيء ، مثلاً اللبن باللغة الانكليزية **milk** وبلغة الجارو **dut** في حين انه لم يتوصل بعـد الى ادراك فكرة وجود نظامين لغويين منفصلين . أما بالنسبة لاختلاف اللهجات ، فهناك قدر ضئيل من الأدلة على ادراك الأطفال له ، ولكن يبدو انه من المعقول ان نتصور ان الأطفال قادرون على ادراك هذه الاختلافات عندما يبدأون في محاولة احتذاء نموذج أقرانهم ، وانهم سيدركون هـذه الاختلافـات في اللهجات في حـدود ادراكهم لاختلاف لهجة الأبوين عن لهجة الأقران .

ولو افترضنا ان الطفل قد أدرك ان لغتين أو نوعيتين مختلفتين من اللغة هما نظامان منفصلان تستخدم كل منهما مجموعة من الناس فكم من الـوقت

يحتاج قبل أن يبدأ في ادراك تحيزات البالغين ، سواء الايجابية أو السلبية ، منها تجاه بعض هذه النوعيات ؟ وكم من الوقت يحتاج طفل ما حتى يتبنّى هذه التحيزات prejudices بنفسه ؟ وهنا أيضاً لا توجد غير أدلة واهية وهذه الأدلة متناقضة في بعض الأحيان ، ولكننا سنرى في (٦ ـ ٢ ـ ٤). ان هناك بعض الأدلة التي تشير الى ان الأطفال في الرابعة من جماعات معينة لا يدركون تحيزات البالغين فحسب وإنما يعتنقونها أيضاً. إلّا ان ذلك لا يعني ان كل الأطفال في الرابعة من عمرهم يعتنقون تحيزات البالغين اعتناقاً كاملاً ، ولكن من الممكن ان نفترض على أساس من أدلة أخرى ان هذه التحيزات تنمو خلال طفولتهم ومراهقتهم. ولا يبدو ان هناك في الواقع سبب ما يدعو للاعتقاد بان هذه العملية تتوقف تماماً.

ماذا ، إذن ، عن كلام الطفل ؟ وكيف ينمو ذلك بالعلاقة مع بيئته الاجتماعية ؟ وكذلك فان القدر البسيط من الأبحاث الموجودة يجعل من الصعب اطلاق تعميمات في هذا المجال ، ولكن من الواضح ان الأطفال يبدأون في سن مبكرة للغاية بتكييف كلامهم حسب سياقه الاجتماعي. ففي الوقت الذي يبدأون فيه الكلام يتحدثون بأساليب مختلفة الى أناس مختلفين ( جيلز وباوزلاند ١٩٧٥ : ١٣٩ Giles & Powesland ). وليس ذلك بالشيء الغريب لو عرفنا ان الكلام ليس إلّا جانباً واحداً من السلوك الاجتماعي ، ولو تذكّرنا انهم يسلكون سلوكاً مختلفاً حيال مختلف الأفراد فور ولادتهم مباشرة. وفضلاً عن ذلك ، فانهم يستخدمون في سن مبكرة للغاية أي في عامهم الأول قبل أن يتعلّموا صيغ البالغين أصواتاً مختلفة لأغراض مختلفة مثل السؤال عن شيءٍ ما أو قول ما معناه « أنظروا إليّ ، انني أتكلم » ( هاليداي ١٩٧٥ Halliday ). وقد قرر أحد العلماء ان طفلة في الشهر الثالث والعشرين من عمرها كانت تعمد الى فصل مقاطع كلامها حين لا يفهمها الآخرون ( ويكس ١٩٧١ Weeks ).

وفي الثالثة من عمره يستطيع طفل من أبوين مزدوجي اللغة ان يفرق بمهارة بين اللغتين اللتين يتحدث بهما. ويستطيع أي طفل في الثالثة أن يبدأ في تقمص عدد من الأدوار المختلفة مثل دور الطفل الرضيع أو دور راعي البقر أو دور الطبيب ( ويكس ١٩٧١). ويحظى دور الرضيع بالذات بأهمية بالغة لأن الأطفال يتقنون لعب هذا الدور بمرور الوقت بدلاً من أن يسوء أداؤهم له عند تقدم سنهم وذلك مما يتعارض مع نظرتنا الساذجة الى « لغة الطفل الرضيع » Baby — talk على انها مستبقاة من فترة الرضاعة ( بيركو جليسون ١٩٧٣ Berko Gleason وساكس وديفين ١٩٧٦ Sachs & Devin ) فالطفل في الرابعة من عمره بارع في اتقان تقمص الأدوار المتنوعة. وكما تقول جين بيركو جليسون (١٩٧٣) ان الطفل في الرابعة من عمره قد يصرخ في وجه أمه ويشارك أقرانه في لعب شفاهي معقد ويحتفظ برواية حكاياته وأقاصيصه الاستطرادية لأصدقاء أبويه من البالغين. ولا ينبغي ان نعتقد ان هناك نهاية محددة في عملية اكتساب الأساليب الجديدة في الكلام أو نهاية محددة لأن نصبح أكثر مهارة في استخدام الأساليب التي نملكها بالفعل.

**١ ـ ٤ ـ الموجز والخلاصة :**

تناولنا في الجزء الثاني من هذا الفصل التمهيدي ثلاثة أنواع مختلفة من المجتمعات وقد حاولنا أن نظهر أن ليس هناك سوى القليل مما نستطيع أن نقوله عن اللغة في معزل عن السياق الاجتماعي (١ ـ ٢ ـ ٢) وان هناك الكثير مما يمكن أن نقوله عن اللغة في علاقتها بالمجتمع. فلو كان علم اللغة العام يتميز عن علم اللغة الاجتماعي بافتقاره الى المنظور الاجتماعي فان علم اللغة العام سيصبح من ناحية موضوعه محدداً للغاية، ونستطيع أن نؤكد ان دراسة اللغة دون الرجوع الى السياق الاجتماعي جهد لا يستحق العناء. وعلى ذلك فان استخدام السابقة —socio في مصطلح علم اللغة الاجتماعي sociolinguistics يعد نوعاً من الحشو. وعليه، يجب على علم اللغة العام

أن يتضمن دراسة اللغة في سياقها الاجتماعي ( وهو ما نحاول توصيفه في فصول هذا الكتاب ) وان يتضمن كل الدراسات التي تمتْ في علم اللغة النظري والوصفي والتاريخي Theorectical Linguistics, Descriptive Linguistics & Historical Linguistics لان اهمال السياق الاجتماعي للغة قد يؤدي الى الأضرار بكل هذه الفروع المختلفة من علم اللغة .

فإلى أي مدى يمكن أن نتشاءم من امكانية انقاذ الاكتشافات والانجازات القيمة التي قدّمها لنا علم اللغة العام ؟ انه لَمِنَ الخطأ الجسيم أن نرفض انجازات علم اللغة غير الاجتماعي رفضاً قاطعاً . بل علينا أن ننظر الى هذه الانجازات على انها قاصرة ، بنفس الطريقة التي نظر بها علم اللغة في بداية السبعينات الى الاجروميات الماضية على انها قاصرة لأنها لم تصف « التراكيب » Syntax وصفاً كاملاً ولم تذكر شيئاً عن علم « الدلالة » Semantics أو البراجماطيقا Pragmatics ولو أدركنا نوعية وكم المعلومات الاجتماعية التي يمكن ان نحتاج اليها بوصفها مهاداً لعلم النحو لتجنبنا التصورات الخاطئة بان اللغات أنظمة محكمة ـ كاملة من القواعد مغلقة على ذاتها . وكذلك لو أدركنا ان الأحكام الخاصة « بالنحوية » Grammaticality و « أحكام التكوين » Well — formedness ودرجة القبول Acceptability لا تعكس خصائص تراكيب بعينها فحسب بل تعكس أيضاً الخلفية الاجتماعية لِمَنْ يطلقون مثل هذه الأحكام ، يستوي في ذلك ان تصدر هذه الأحكام عن علماء اللغة أو غيرهم ( مارتين وبراداك وايليوت Martin, Bradac, ١٩٧٧ & Elliot ) وعندئذ لن نهتم كثيراً إذا ما اختلف علماء اللغة أنفسهم حول هذه الأحكام . وعلينا أن ندرك في الوقت نفسه أن نظريات اللغة التي ظهرتْ في العقود المنصرمة قد تعاني من أخطاء فادحة جراء الموقف غير الاجتماعي الذي اتخذه المدافعون عنها ، وتظل مشكلة تحديد نقائص هذه النظريات قائمة حتى نقرر ماذا نستبقي منها وماذا نستبعد .

إن نتائج أبحاث علم اللغة الاجتماعي كما نصفها في هذا الكتاب تشكّل تحديا لمعظم النظريات السائدة. وقد حاولنا في الفصل الثاني أن نعرض لأسباب التشكيك في الرأي القائل بان اللغات كينونات منفصلة ومستقلة بذاتها ويمكن تمييزها وان اللغة تتكون من مجموعة من اللهجات يمكن اعادة تقسيمها حتى تصل الى لهجة الفرد dialect التي تعد نواة أصغر لهجة. ويكشف الفصل الثالث عن ان معرفتنا باللغة « لا يمكن فصلها أو حتى تمييزها عن معرفتنا بالثقافة ». وفي الفصل الرابع نؤكد ان الكلام لا يختلف من ناحية النوعية عن الجوانب الأخرى للسلوك الاجتماعي وان بعض جوانب بناء اللغة لا يمكن وصفها إلّا بالرجوع الى الكلام على انه سلوك اجتماعي في المقام الأول. ويعد الفصل الخامس لب الكتاب وهو يعرض لمشكلة « التباين » variability في الصيغ اللغوية التي نستخدمها عند الكلام. ويظهر في هذا الفصل انه لا يوجد شيء يمكن أن نطلق عليه مصطلح « الاجرومية المتجانسة » Homogeneous Grammars بالنسبة للفرد أو بالنسبة للمجتمع ككل، في حين ان المتحدث يستخدم « التباين » القائم في الصيغ اللغوية أفضل استخدام حتى يحدد موقعه من المجتمع. ويعرض الفصل السادس لقضيتين منفصلتين أولهما هي كيفية استخدامنا لهذا التباين كمتلقين hearers حتى نحدد موقع الآخرين من المجتمع ويظهر من ذلك ان لدينا جميعاً ادراك للدلالة الاجتماعية للاختلافات في طرق النطق، ضمن أمور أخرى. وقد يدعونا ذلك الى التساؤل فيما إذا كان من الواجب ان نضمن هذه المعرفة اللغوية في أجرومية اللغة. ويتناول الجزءان الأخيران من الفصل السادس ثانيتهما وهي: هل هناك مبررات كافية تدعونا لأن نصف لغة بعض الناس « بالنقص » inadequate ونخلص من ذلك الى ان هذا ممكن بشرط أن نأخذ في الاعتبار المتطلبات الاجتماعية المفروضة على اللغة. وتتطلب مثل هذه الخلاصة مدخلاً أكثر إحكاماً في التمييز بين « الوصفية » و « المعيارية » القائمة في دراسة اللغة.

# • نوعيات من اللغة

## ٢ ـ ١ مقـــدمـــة :

### ٢ ـ ١ ـ ١ قضايا عامة وقضايا خاصة :

نهدف في هذا الفصل الى ان نكشف مدى إمكانية وصف اللغة في علاقتها بالمجتمع وذلك باستخدام تصنيفات لغوية شمولية مثل « اللغة س » أو « اللهجة ص » واستخدام تصنيفات اجتماعية شمولية مثل « الجماعة ي ». وبقدر ما يمكننا القيام بمثل هذا الوصف فانه يمكننا تناول العلاقات التي سنطرقها هنا في شكل تصنيفات شمولية ، دونما حاجة للرجوع الى الوحدات اللغوية Linguistic items المتفردة في اللغة « س » أو الى الأفراد في « الجماعة ي ». وليس هذا التصنيف ـ من ناحية أخرى ـ ممكناً في كل الحالات ، بل وانه ، لا يقين ، في انه ممكن أصلاً ، فمثلاً ، تختلف الوحدات اللغوية مثل المفردات ، عن الوحدات الأخرى باختلاف مستخدميها وظروف استخدامها. ونستطيع أن نفترض أيضاً كما فعلنا في الفصل السابق ان كل فرد من أفراد الجماعة فريد في لغته. وبقدر اختلاف علاقات الوحدات اللغوية بالمجتمع ( من ناحية الناس والظروف ) فان علينا بالضرورة ان نصف علاقة كل وحدة من هذه الوحدات بالمجتمع على حدة. ولذلك فهناك نوعان من المقولات ، مقولات عن تصنيفات شمولية مثل لغات بأكملها من جانب ، ومقولات عن وحدات لغوية بمفردها من جانب آخر ، وفي كل من هاتين الحالتين فان المقولة تشير الى المتحدثين سواء أكانوا أعضاء في جماعة ما أو كانوا مجرد أفراد.

والأسئلة التي طرحناها هنا أسئلة مركّبة تصعب الاجابة عليها ، ولكنها أسئلة مهمة للغاية لكل من تهمه طبيعة اللغة بصفة عامة ، وعلاقتها بالمجتمع بصفة خاصة. فكيف إذن نعرف التصنيفات اللغوية الشمولية مثل « اللغة س » ؟ وكيف نضع حدود أمثلة معينة من تلك التصنيفات ؟ وهل لمثل هذه التصنيفات علاقة بأي نوع من الحقيقة الموضوعية التي تجعل هذه الأسئلة ذات معنى ؟ هل نستطيع التمييز بين أنواع التصنيف الشمولي المختلفة ، ومثال ذلك التميز بين « اللغة » و « اللهجة » ؟ وما هي العلاقات التي تربط هذه

التصنيفات الشمولية بعضها بعضاً ؟ ما نوعية أو ماهية هذه التصنيفات ؟ كيف يمكننا ـ لمثل هذه الأغراض ــ ان نعرف ونحدد الجماعات ؟ هل للجماعات المعرفة على أساس لغوي أي نوع من الوجود الموضوعي ؟ وأسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل. ولعله من السابق لأوانه أن نقدم اجابات محددة عن معظم هذه الأسئلة ، إلاّ انه من الممكن أن نشكك في صحة الاجابات المتعارف عليها فبامكاننا ان نبين ان الأمر أكثر تعقيداً مما يعتقده أو يتصوره معظم علماء اللغة بالرغم من ان معظم القراء من غير المتخصصين قد يصورون ان نظرتهم العادية للغة يمكنها أن تقدم تفسيراً كافياً لها. ومن ناحية أخرى ، فان كثير من غير المتخصصين قد يطرحون أسئلة على المتخصصين مثل : أين تستخدم الكوكني Cickney الحقيقية ؟ أو « هل كريولية جاميكا نوع من الانكليزية ؟ نفترض ان هذه الأسئلة هي أسئلة ذات معنى ، إلاّ اننا سنبين انه لا يمكن بحث مثل هذه الأسئلة بحثاً علمياً. ولذلك ، فقد يحمل هذا الفصل كثيراً من المفاجآت للقاريء المتخصص والقاريء العادي على حدٍ سواء وبخاصة فيما يتصل بنتائجه ، وذلك بالرغم من ان الكثير من الحقائق التي تستند اليها هذه النتائج هي حقائق عادية غير مدهشة في شيء.

### ٢ ــ ١ ــ ٢ الوحدات اللغوية Linguistic items

كان من الأيسر ان نناقش هذا الموضوع لو توفرتْ لدينا بعض المصطلحات الفنية ، وذلك لأننا نحتاج الى الابتعاد عن المفاهيم التي تتمثل بكلمتي لغة ولهجة ، وهي مفاهيم تمثّل انعكاساً لفكر العوام غير المتخصص الذي يستند الى « المعرفة العامة » : ( أنظر ٣ ــ ١ ــ ١) ولكن لا طائل من مثل هذا الفكر في علم اللغة الاجتماعي ، فعلينا أولاً أن نجد مصطلحاً مناسباً « لأجزاء اللغة » التي لابد لعالم اللغة الاجتماعي أن يشير اليها حين يستحيل عليه استخدام التصنيفات الشمولية. وقد قمنا بالفعل باستخدام مصطلح « الوحدة اللغوية » Linguistic items فيما سبق (٢ ــ ١ ــ١) ،

وسنستمر في استخدامه مصطلحاً فنياً.

فكيف نعرّف « الوحدة اللغوية » ؟ ان الاجابة على هذا السؤال ترتبط في المقام الأول بنظرية بنية اللغة ، وتتباين اجابات الناس على هـذا السؤال حسب النظرية اللغوية التي يتبنونها. فأولئك الذي يتبعون النظرية التحويلية التوليدية ( التي قدّمهـا تشومسكي ١٩٦٥ مثـلاً ) قد يقـولون ان الـوحدات اللغوية هي : (١) الوحدات المعجمية Lexical items (٢) القواعـد المختلفة التي تجمع ما بين نطق ودلالة الوحـدات المعجمية في التـراكيب. (٣) القيود المختلفة المفروضة على هذه القواعد (constraints). وفي إطار هذه النظرية علينا أن نتوقع وجود توصيفات لغوية اجتماعية للمفردات والقواعد والقيود. ولكن قد لا يوافق كل علماء اللغة على هذه الاجابة ، فهناك ، على سبيـل المثال ، تقليد عريق في علم اللغـة يستخدم مصـطلح العبارات constructions بـدلاً من مصطلح القواعـد ( أنظر عـلى سبيل المثـال بولينجـر Bolinger ١٩٧٥ : ١٣٩) ويُقصد بذلك المصطلح نمطاً مجرداً يتكون مثلاً من « صفـة + اسم » وعلى ذلك ، يتضمن التعريف السابق « الأنماط » بالاضافة الى القواعد والقيود أو بدلاً منها.

ومن حسن الحظ ، انه لا حاجـة لنا للمفـاضلة بين هـذه الاجابـات المختلفة في هذا الكتاب. ولكن المدخـل اللغوي الاجتمـاعي قد يسـاعدنـا على حذف بعض الاجابات الأخرى فلنفترض مثلاً انه من المفضّل استخدام تركيب مثل **The liquid was boiled** ( **لقد غلى السائل** ) في سياق التقرير العلمي على **The liquid was boiled by us** أو **We boiled the liquid** ( **لقد غلينا السائل** ). وحتى نستطيع تقـرير مثـل هذه الحقيقـة علينا أولاً أن نضـع التركيب الأول في السيـاق الاجتماعي المنـاسب. ولكن السؤال هو كيف نعـرّف مثل هـذه التراكيب ؟ فلو استطعنا مثلاً تعريف هذه التراكيب بالـرجوع الى قـاعدتـين نحـويتين منفصلتـين ( أولاهما خـاصة بتحـويـل التـركيب الى صيغـة المبني للمجهول وثانيهما خاصة بحذف الفاعل Agent وهو في هذا الحال **by us** ، فاننا

ـ في هـذه الحالـة ـ نشك في صحـة التحليـل لأنـه من الصعب ان نـطلق على أي من هاتين القاعدتين مصطلح وحدة لغوية كاملة. وعلى عكس ذلك ففي مقدورنا ان نفعل ذلك بسهولة إذا استخدمنا التعبير المعروف ( تجريدياً ) باسم « المبني للمجهول بحذف الفاعل » Agentless Paaive . وسنعرض في هذا الفصل الى الأدلة الخاصة بان وحدات لغوية مختلفة ( في نفس اللغة ) قد يكون لهـا « توزيعـات اجتمـاعيـة مختلفـة » social distributions. ( وذلـك حسب المتحـدثين والـظروف ) ومن الممكن ان نفترض انـه من المحتمل أن يكـون التوزيع الاجتماعي لوحدة لغوية بعينها فريداً في نوعه. والحقيقة ، ان التدليل على هذا أكثر صعوبة من بيان الاختلاف بين الوحدات المختلفـة لأنه ينبغي علينا أن نقارن الوحدة الفريدة في نوعها بكـل الوحـدات الأخرى في اللغـة ذاتها ، بغية أن نتأكد ان ليس هناك وحدة مماثلة لها نفس التوزيع. فمن السهل مثلاً أن نظهر ان توزيع الكلمات التالية في انكلترا ( she ( she, her, hoo, shoo يختلف تماماً عن الكلمات التالية ( am( am, is, be, bin ( أنظر الخرائط في واكلين Wakelin ١٩٧٨ : ٢١ و ٢٣). ولكنه من الصعب أن نظهر ان أي من هذه الكلمات لها نفس توزيع أية كلمة أخرى أي ان نفس المتحدثين يستخدمونها تحت نفس الـظروف. وليست هناك قـاعدة معينـة تمنـع الـوحـدة اللغـويـة من أن يكون لها توزيع فـريد في نـوعه. ولـذلك فقـد يبدو انـه من المعقول ان نفترض وجود توزيع فريد لبعض هذه الكلمات على الأقل.

### ٢ ـ ١ ـ ٣ نوعيات من اللغة Varieties of Language :

لو اننا تصورنا ان « اللغة » ظاهرة تتضمن كل لغات العالم فان مصطلح « نوعية من اللغة » ( أو حتى مصطلح « نوعية » بمفرده على سبيل الايجاز ) ، يمكن استخدامه للدلالـة على مـظاهرهـا المختلفة كـما نفعل عنـدما نتصـور ان الموسيقى ظاهرة عامة ثم نميّز مـا بين « نـوعيات مختلفـة من الموسيقى ». وما يميّز بين نوعية من اللغة ونوعية أخرى هي الوحدات اللغوية التي تتضمنها

وبالتالي فمن الممكن أن نعرف نوعية من اللغة على انها **مجموعة وحدات لغوية لها نفس التوزيع الاجتماعي**. ويمكننا مثل هذا التعريف أن نطلق على أي من الظواهر التالية مصطلح « نوعيات من اللغة » وهي : الانكليزية ، والفرنسية ، والانكليزية اللندنية ، والانكليزية المستخدمة في التعليق الكروي ، واللغات التي يستخدمها قاطنو أحد البيوت الكبيرة في شمال غرب منطقة الأمازون واللغة أو اللغات التي يستخدمها شخص بعينه.

وسوف نبين من هذه القائمة ان المفهوم الفضفاض لمصطلح ( نوعية ) يتضمن ما يمكن أن نطلق عليه عادة لغات ولهجات وسجلات سياق registers ( وهو مصطلح معناه بصفة عامة « أسلوب » وسنناقشه في الجزء ٢ ـ ٤). وان ميزة وجود مصطلح واحد عام يشمل كل هذه المفاهيم هو ان ذلك المصطلح يسمح لنا بطرح أسئلة عن الأسس التي تميّز بين هذه المفاهيم ـ فعلى سبيل المثال : لماذا نطلق على بعض النوعيات لغات مختلفة وعلى بعضها الآخر لهجات مختلفة من نفس اللغة ؟ وسنعرض في الأجزاء التالية وهي ٢ ـ ٢ ، ٢ ـ ٣ ، ٢ ـ ٤ لمثل هذه الأسئلة ، وسنحاول أن نصل الى النتيجة التالية وهي انه ليس هناك أي أساس ثابت للتمييز بين هذه المصطلحات. وبذلك لا يبقى لدينا سوى مصطلح « نوعية » نستخدمه للاشارة الى الأشياء التي يطلق عليها غير المتخصصين « اللغات » و « اللهجات » و « الأساليب ».

وقد تبدو هذه النتيجة جذرية ، ولكن التعريف الذي طرحناه آنفاً لمفهوم « النوعية » والأمثلة الواردة في القائمة تمثّل خروجاً أكبر على التقاليد اللغوية المتعارف عليها. وهذا التعريف يجعلنا نلح على أن نتعامل مع كل اللغات التي يستخدمها فرد أو جماعة من متعددي اللغات Multilingual باعتبارها نوعية واحدة ، ما دامت كل الوحدات اللغوية في هذه النوعية لها توزيع اجتماعي متشابه ـ أعني ان كل هذه الوحدات يستخدمها نفس المتحدث ونفس

الجماعة. وبالتالي فان « النوعية » قد تكون أوسع بكثير من مفهوم « اللغة » عند العامة لأنها قد تتضمن عدداً من اللغات المختلفة. وبالمقابل، فان « النوعية »، بناء على هذا التعريف، قد تتضمن ما لا يزيد على حفنة من « الوحدات اللغوية » أو حتى في بعض الأحيان النادرة لا تتضمن أكثر من « وحدة لغوية » واحدة، وذلك إذا عرفناها حسب الذين يستخدمونها على تفاوتهم أو في إطار الظروف التي تُستخدم فيها. ويمكننا أيضاً، على سبيل المثال، أن نعرف « نوعية » ما على أساس انها مكونة من الوحدات اللغوية التي تستخدمها أسرة أو قرية بعينها. وبالتالي فان « النوعية » قد تكون أصغر حجماً من « لغة » ما أو حتى « لهجة » بعينها. وتسمح مرونة مصطلح « النوعية » لنا بطرح أسئلة عن الأسس التي يُستند اليها في اطلاق تسميات مثل « اللغة » أو « اللهجة » أو « سجلات السياق » على مجموعات من « الوحدات اللغوية ». أترانا نفعل ذلك لأن الوحدات تتجمع في مجموعات أكبر ترتبط بعضها بعضاً بشبكات مترابطة من العلاقات البنيوية من نوع أو آخر، وذلك على النحو الذي تذهب اليه المدرسة البنيوية في علم اللغة في القرن العشرين ؟ والاجابة على هذا السؤال، كما ترد في الأجزاء التالية، هي اجابة بالنفي لأن المجموعات التي تتكون منها الوحدات اللغوية لا تربطها سوى علاقة « فضفاضة »، ومن السهل ان تنتقل الوحدات من مجموعة الى أخرى الى حد ان هذه المجموعات قد تختلط بعضها بعضاً. وسنناقش أقصى حالات الاختلاط في الجزء ٢ ــ ٥.

وفي النهاية، علينا أن نقول ان دراسة اللغة في علاقتها بالمجتمع ستتكون من مقولات تشير ــ لغوياً ــ الى الوحدات اللغوية المفردة أو الى النوعيات التي ليست إلّا مجموعات من هذه الوحدات. وليست هناك أية قيود مفروضة على العلاقات القائمة بين هذه النوعيات، فهذه العلاقات قد تكون متراكبة أو متشابكة وقد تتضمن النوعية نوعية أخرى. وان ما يحدد كل نوعية هو علاقتها أو درجة ارتباطها بالمجتمع ــ أو بتعبير آخر مَنْ الذي يستخدم هذه

الوحدات اللغوية ومتى يستخدمها. والسؤال الأمبيرقي الذي يطرح نفسه هو الى أي حد نستطيع أن نوائم بين المفاهيم التقليدية ــ وهي مفاهيم « اللغة » و « اللهجة » و « السجل السياقي » ــ وبين « النوعيات » المعروفة بالطريقة المذكورة هنا ؟ وسنرى في الأجزاء التالية ان التماثل بين مفهوم النوعية والمفاهيم التقليدية ( لغة ) و ( لهجة ) و ( سجل سياقي ) هو مجرد تماثل تقريبي في أحسن الحالات وفي بعض المجتمعات ( أو عند بعض الأفراد ) يصبح من الصعب للغاية أن نتعرف على النوعيات المناظرة للتصنيفات التقليدية.

٢ ــ ١ ــ ٤ **الجماعات الكلامية Speech Communities** :

قد يكون من المفيد في هذه المرحلة ان نناقش نوعية الجماعة التي يمكن ربط « النوعيات » أو « الوحدات اللغوية » بها. ويعد مصطلح « الجماعة الكلامية » Speech Community من المصطلحات شائعة الاستخدام في علم اللغة الاجتماعي وهو مصطلح يُستخدم للدلالة على جماعة تعرف على أساس اللغة. ويُستخدم مصطلح « الجماعة اللغوية » Linguistic Community بنفس المعنى أيضاً. فلو استطعنا القيام بتحديد « الجماعة الكلامية » لأمكننا القيام بدراستها. ومن الممكن أن نجد اختلافات هامة بين الجماعات ، وعادة تتلازم هذه الاختلافات مع الاختلافات اللغوية. ولذلك فقد اهتم علماء اللغة بدراسة الجماعات الكلامية منذ زمن غيروجيز ، وخاصة منذ كتب ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield فصلاً كاملاً عن الجماعات الكلامية في كتابه **اللغة Language** (١٩٣٣ : الفصل ٣). وبالرغم من ذلك فهناك اختلاف وخلط كبير في التعريف الدقيق لماهية الجماعة الكلامية كما يتضح من العرض التالي :

( ١ ) ويعد التعريف الذي قدّمه جون ليونز John Lynos للجماعة الكلامية أبسط هذه التعريفات (١٩٧٠ : ٣٢٦) :

« الجماعة الكلامية هي كل الناس الذين يستخدمون لغة ( أو لهجة )

بعينها ». ويمكن على أساس هذا التعريف ان تتراكب الجماعات الكلامية أو تتشابك ( حيث يكون هناك أفراد مزدوجي اللغات ) دونما حاجة الى ان تتميز الجماعة بالوحدة الاجتماعية أو الثقافة. ومن الواضح ان تحديد ماهية الجماعة الكلامية بهذا الشكل يستند أساساً الى امكانية تحديد وتعريف ماهية اللغة أو اللهجة.

( ٢ ) وقد قام تشارلز هوكيت Charles Hockett بتعريف الجماعة الكلامية بشكل أكثر تعقيداً (١٩٥٨ : ٨ ). فقال :

« تقوم كل لغة بتعريف جماعتها الكلامية وهي أي جماعة من الناس يتصلون بعضهم بعضاً سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة وذلك عن طريق لغة شائعة بينهم ». وقد أضاف هوكيت معيار الاتصال داخل الجماعة كشرط لوجود الجماعة الكلامية ، فحتى لو تحدثت جماعاتان بنفس اللغة دون أن يكون بينهما اتصال فان ذلك يجعلهما جماعتين كلاميتين منفصلتين.

( ٣ ) والتعريف التالي ينقل مركز الثقل تماماً من قضية اللغة المشتركة الى قضية الاتصال وقد قدّم ليونارد بلومفيلد Leonard Bloomfield صورة مبسّطة من هذا التعريف (١٩٣٣ : ٤٢) :

« إن الجماعة الكلامية هي مجموعة من الناس تتعامل وتتصل عن طريق الكلام ». ولكن ذلك التعريف يترك الباب مفتوحاً لاحتمال وجود بعض الأفراد في الجماعة اللغوية يتعاملون بلغة بعينها بينما يتعامل البعض الآخر بلغة أخرى. وقد تعامل جون جمبرز John Gumperz مع هذه المشكلة بوضوح في التعريف التالي (١٩٦٢) :

« ونعرف ( الجماعة اللغوية ) على انها مجموعة اجتماعية قد تكون احادية اللغة monolingual أو متعددة اللغات multilingual ، تتماسك كجماعة واحدة من خلال تواتر أنماط التعامل الاجتماعي ، ويفصلها عن الجماعات الأخرى في المناطق المجاورة ضعف « خطوط

الاتصال » .

( ٤ ) وهناك تعريف أحدث قدّمه جمبرز يشترط فيه أن تكون هناك اختلافات لغوية محددة بين أفراد « الجماعة الكلامية » ومن لا ينتمون اليها (١٩٦٨) :

« الجماعة الكلامية » : أي تجمع انساني يتميز بكثرة وانتظام التعامل بين أفراده ، وذلك بواسطة مجموعة من الرموز الكلامية المشتركة بينهم ، ويختلف هذا التجمع عن غيره من التجمعات البشرية الأخرى باختلافات هامة في استخدام اللغة » .

وعلى عكس التعريف رقم (٢) فان التعريف السابق لا يشترط أن تكون هناك لغة واحدة فقط في الجماعة الكلامية. ومن أثار نقل مركز الثقل في التعريف من اللغة الى الاتصال والتعامل الاجتماعي ، كما هو الحال في التعريفين الأخيرين ، صعوبة تراكب وتشابك الجماعات الكلامية ، وذلك على عكس التعريفات السابقة ، حيث يتم التشابك ــ تلقائياً ــ نتيجة لوجود الازدواج اللغوي .

( ٥ ) والتعريف التالي تعريف حديث نسبياً ينقل مركز الثقل الى الاتجاهات المشتركة Atittudes في اللغة ويؤكد عليها أكثر من تأكيده على السلوك اللغوي المشترك ، وهو تعريف قدّمه لنا ويليامز لابوف ( ١٩٧٢ ــ أ : ١٢) :

« لا تعرف « الجماعة الكلامية » على أساس ما بين أعضائها من اتفاق ملحوظ في استخدام عناصر لغوية معينة ، قدر ما تعرف على أساس اشتراك أفراد الجماعة في مجموعة من المعايير المشتركة. ويمكن ملاحظة هذه المعايير في الأنماط العلنية للسلوك التقويمي ( أنظر ٦ ــ ٢ فيما بعد ) ومن خلال الأنماط الموحدة المجردة للتباين ، والتي لا تتغير أو تتبدل في مستويات بعينها من « استخدام اللغة » ( أنظر ٥ ــ ٤ ــ ١ ) .

وهناك تعريفات مشابهة تؤكد أهمية « المعايير المشتركة » والأنماط المجردة للتباين بدلاً من السلوك اللغوي المشترك ، ومن هذه التعريفات تعريف دل هايمز Dell Hymes (١٩٧٢) ومايكل هاليداي Michael Halliday (١٩٧٢). وسنرى ان هذا النوع الأخير من التعريفات يؤكد على أهمية الجماعة الكلامية باعتبارها مجموعة من الناس تدرك انها مجتمع بمعنى من المعاني ، وذلك أكثر من اعتبارها مجموعة لا يستطيع تحديدها سوى عالم لغة دخيل عليها ، كما هو الحال في بعض التعريفات السابقة.

( ٦ ) وأخيراً هناك الاتجاه الذي يتجنب مصطلح « الجماعة الكلامية » تماماً ، ولكنه يشير الى جماعات في المجتمع لها خصائص كلامية مميزة بالاضافة الى خصائص اجتماعية أخرى. ولابد ان ننوه الى ان المجموعات هي تلك التي يدرك المتحدث الفرد وجودها ، وليست بالضرورة هي نفس المجموعات التي قد يحددها عالم الاجتماع مستخدماً منهجه العلمي الموضوعي. وليس من الضروري أن ينتمي كل سكان المجتمع الى هذه المجموعات ، ولكنها قد تمثّل الحالات الواضحة لأنماط اجتماعية بعينها ( أعني النماذج الأصول Prototypes كما سنحاول تعريفها في ( ٣ ــ ٢ ــ ٢ ) وقد تبنّى هذا المدخل روبرت لي باج Robert Le Page ١٩٦٨ ــ أ ) :

« يقوم كل فرد بابداع أنظمة سلوكه الكلامية بحيث ــ يتماثل وأنظمة الجماعة أو الجماعات التي يود ، من وقت لآخر ، أن ينتمي اليها ويتوقف ذلك على :

آ ــ قدرته على تحديد هذه المجموعات.

ب ــ أن تكون لديه القدرة والفرصة على ملاحظة وتحليل أنظمتها السلوكية ،

جـ ــ وأن تكون دوافعه من القوة بحيث تدفعه الى ان ينتقي

ويكيّف سلوكه ويطوعه لتلك الأنظمة ،

د ــ وما زال يمتلك القدرة على تكييف سلوكه وتطويعه ،

وهذه هي وجهة النظر ذاتها التي سبق ان ذكرناها في ١ ــ ٣ ــ ١ ، والتي ترى ان الفرد يستطيع ان « يحدد موقعه في حيّز متعدد الأبعاد » وتتحدد هذه الأبعاد بالجماعات التي يستطيع الفرد التعرف عليها في مجتمعه. وعلى عكس « الجماعات الكلامية » التي سبق ان عرفناها في التعريفات (٣) و (٤) و (٥) فان هذه المجموعات تتراكب وتتشابك ، لا محالة. فقد يتعرّف الطفل ، مثلاً ، على مجموعات بعينها على أساس الجنس والسن والموقع الجغرافي واللون ، وقد تسهم كل من هذه التقسيمات في تكوين الوحدات اللغوية التي يختارها لغة خاصة به.

ويقوم دوايت بولينجر Dwight Bolinger في النص التالي بتحديد هذه المجموعات كجماعات كلامية ، ويؤكد مرة ثانية على درجة التعقيد المتناهية في ذلك ( بولينجر ١٩٧٥ : ٣٣٣) :

> « ليست هناك حدود للوسائل التي يستطيع بها الناس ان يتجمعوا في شكل مجموعات وذلك من أجل التعرف على الذات والاحساس بالأمن والمكسب والمتعة والعبادة وأية غايات أخرى مشتركة. وبالتالي فليست هناك حدود لعدد ونوعية الجماعات الكلامية القائمة في مجتمع بعينه. ».

ووفقاً لتلك النظرة يمكننا أن نتوقع ان سكان أي مدينة أو قرية أو حتى دولة بأكملها يمكن أن يضموا عدداً هائلاً من « الجماعات الكلامية » ، وغالباً ما تتطابق الانتماءات الى هذه الجماعات وتتشابك ، كما وتتطابق

أنظمتها اللغوية وتتشابك. وفي الواقع فان الشرط ( أ ) الذي ذكره لاباج Le Page وهو ( قدرة الفرد على تحديد هذه المجموعات ) يطرح إمكانية ادراك مختلف الأفراد لعدد مختلف من المجموعات. فلو تبنينا الموقف القائل بانه لابد ان تحمل الجماعات الكلامية نوعاً من الحقيقة النفسية بالنسبة لأفرادها ( كما ورد في التعريف (٥) أنظر ما سبق ) لوجب علينا أن نتعرف على مختلف الجماعات الكلامية في نفس المجتمع ، وذلك وفقاً لمنظور الفرد الذي نتبنّى وجهة نظره.

وبذلك تكون فد انتقلنا من تعريف بالغ البساطة « الجماعة الكلامية » الى تعريف أكثر تعقيداً. فكيف ، إذن ، نقيم كل هذه التعريفات المختلفة ؟ وقد تكون احدى الاجابات ان كل هذه التعريفات « صحيحة ، لأن كلاً منها تسمح لنا بان نعرف مجموعة من الناس يجمعهم أمر لغوي مشترك ، وقد يكون ذلك لغة أو لهجة أو تعامل بواسطة الكلام أو مجموعة من « النوعيات » والقواعد الخاصة بها أو مجموعة محددة من الاستجابات والمواقف تجاه هذه « النوعيات » أو الوحدات اللغوية. وقد تتباين مجموعات الناس المعرفة على أساس المعايير المختلفة ، تبايناً جذرياً ــ إذ يسمح أحد المعايير بتراكب المجموعات بينما يحظرها الأخير ، وهكذا دواليك ــ ولكن لا يبدو ان هناك حاجة لمحاولة التوفيق بين التعريفات المختلفة لأن كلاً منها يحاول أن يعكس عدداً من الظواهر المختلفة. ومن ناحية أخرى ، فان كل هذه التعريفات تدعي انها تقوم بتعريف الشيء نفسه ــ أي ، « الجماعة الكلامية » وتوحي بعض هذه التعريفات ( خاصة تعريف لابوف رقم (٥) الى ان القضية هي قضية ايجاد التعريف الحقيقي « للجماعة الكلامية ». وفضلاً عن ذلك فان كلمة « جماعة » تعني ضمناً وجود أكثر من خاصية مشتركة واحدة. أيّاً كان

الأمر ، فانه يستحيل أن يتحدث المرء عن « جماعة » من الناس تتكون من كل الأفراد الذين تبدأ أسماؤهم بحرف « هـ » أو الذين قد تجاوزوا أرصدتهم سحباً. وحتى نكون محقين عندما نطلق كلمة « جماعة » على مجموعة من الناس ينبغي أن تتميز هذه المجموعة عن غيرها بأكثر من خاصية واحدة ، ويجب أن تكون بعض هذه الخصائص هامة من منظور حياة الأفراد الاجتماعية. والسؤال المطروح ، إذن ، هو أي تعريف من تعريفات « الجماعة الكلامية » يؤدي الى تحديد الجماعة الحقيقية.

قد يخيل للبعض ان كل ما سبق من تعريفات يفي بالغرض. حتى لو أخذنا أبسط هذه التعريفات الذي يقول بان « الجماعة الكلامية » هي مجرد مجموعة من الناس يستخدمون لغة أو لهجة بعينها ، فانه يصعب ان نتصور ألا يشترك أفراد مثل هذه الجماعة إلّا بلغة مشتركة أو لهجة تميزهم عن المجموعات الأخرى ، دونما اشتراك في الثقافة أو منطقة سكنية واحدة ، الخ.

وإن مجرد اضافة عنصر التعامل الاجتماعي الى التعريفات يغنينا عن الاشارة الى وجود عناصر مشتركة أخرى ، ولهذه الاجابة جاذبيتها في حل مشكلة التوفيق بين التعريفات المختلفة « للجماعة الكلامية ». إلّا انها تؤدي حتماً الى نتيجة فحواها ان « الجماعات الكلامية » المختلفة قد تتداخل بطرق معقدة ، فيمكن مثلاً ، للجماعة المعرفة على أساس التعامل الاجتماعي ان تتضمن عدداً من قطاعات من عدة جماعات أخرى معرفة على أساس نوعيات لغوية مشتركة. ومن الواضح ان ذلك هو في الواقع مفهموم « الجماعة الكلامية » كما سبق تعريفها في (٦). وعليه نستطيع ان نتخذه على انه التعريف الأمثل والأشمل الذي يمكن ان يتضمن كل التعريفات الأخرى.

وقد يبدو ان هذه النتيجة التي وصلنا اليها مرضية لأنها توفق ما بين عدد من التعريفات المتعارضة وتستبدل بهما جميعاً تعريفاً واحداً. ولكن هذه النتيجة تضعنا أمام مشكلة هامة لأن استخدام مفهوم « الجماعة الكلامية » كما عرف

هنـا ، في الوصـول الى تعميمات عن اللغـة والكـلام ، هـو أكـثر صعـوبـة من استخدام المفاهيم التي جرى تعريف الجماعة عـلى أساسهـا ، سابقـاً . وان ما قد يساعد عالم اللغة الاجتمـاعي في عمله هو إمكـانية اكتشـاف نوع من الجماعة الكـلامية الـطبيعية يستنـد اليه في اطـلاق تعميماتـه ، كافـة ، وقد استندت معظم دراسات علم اللغة الاجتماعي الى ذلك. فمثلاً يستند تعريف لابوف « للجماعة الكلامية » الى دراسته عن مدينة نيويورك التي زعم فيها انه يمكن التعامل مع كل مدينة نيويورك على انها جماعة كلامية واحدة ، وهو ما يشكّل أساساً لعدد كبير من التعميمات ولا يتوقف لابوف عنـد ذلك وإنمـا يذهب الى ان هـذه الجماعـة تشترك في « اجـرومية جمـاعيـة » واحـدة Community Grammar ( أنظر ٥ ــ ٥ ــ ١). ويرفض التعـريف الذي سبق انتقاده « للجماعة الكلامية » (٦) إمكانية قيام جمـاعة كـلامية كبيـرة واحدة ــ تضم كل قاطني مدينة نيويورك ــ تمكن لعالم اللغة الاجتماعي ، ان يتخذها أسـاسـاً لاطـلاق التعميمـات ، بـل عـلى العكس من ذلـك ، فـانـه يمكن ان تنسحب مزاعم أخرى على جماعات تم تحديدها بأشكال مغايرة. وسوف تتأكد هذه النتيجة بالحقائق والمناقشات التي سنقدمها فيما يتبع من أجزاء.

ولعل ما هو أهم من ذلك كله هو الشكوك التي تحيط بمفهوم « الجماعة الكلامية » ، وفيما إذا كان هذا المفهوم مفيداً أم مضللاً. فهذا المفهـوم يعني ضمناً وجود عدد من الجماعات المستقلة في المجتمع والتي يتـوجب على عـالم اللغـة الاجتماعي التعـرف عليها ، ممـا يستتبع أن ينتمي الفـرد الى جمـاعـة أو لأخـرى. والمشكلة الأولى هي ان التعريف رقم (٦) يـربط حقيقـة هـذه الجماعات الكلامية بادراك المتحدث لها ، مما يفتح المجال واسعاً أمام وجود بعض الجماعات الكلامية غير الواضحـة بالنسبـة له. فقـد يدرك المتحـدث ان « أهل الشمال » أو ان الأطفال يستخدمون نوعية أو وحدة بعينها ، إلاّ انه لا يعـرف كيف يفصل بـوضـوح ودقـة مـا بـين أهـل الشمـال والجنـوب ، أو ما بين الأطفال والبالغـين. والمشكلة الثانيـة التي سنعرض لهـا بالتفصيـل

في ٥ ـ ٤ ـ ٣ هي انه قد ثبت ، في بعض الحالات ، انه من الأفضل أن نحلل علاقات الناس ببعضهم بعضاً على أساس « شبكات العلاقات الفردية » networks of individual relations بدلاً من تحليلها على أساس الجماعات التي قد ينتمون اليها أو لا ينتمون. أو بعبارة أخرى ، فمن المحتمل ألّا يكون للجماعات الكلامية وجود حقيقي في المجتمع إلّا في صورة نماذج أصول في عقول الناس. وفي هذه الحالة يصبح البحث عن التعريف « الحقيقي » للجماعة الكلامية بحثاً عن سراب.

## ٢ ـ ٢ اللغات :

### ٢ ـ ٢ ـ ١ اللغة واللهجة "Language" and "Dialect" :

نمضي بقية هذا الفصل في مناقشة أهم أنماط النوعيات اللغوية وهي : « اللغة » و « اللهجة » و « سجل السياق » Language, Dialect & Register ونحاول أن نبين ان هناك كثير من المشكلات الخاصة بهذه النوعيات الثلاث ، من حيث ايجاد تعريفات عامة تميز كل منها عن الآخر ، ومن حيث تحديد المعايير الخاصة التي تميز كل نوعية عن الأخرى.

ينبغي علينا أولاً أن نمحص مفهوم « اللغة ». فماذا نعني عندما نقول ان نوعية بعينها هي « لغة » ؟ ويعد هذا السؤال ، في المقام الأول ، سؤالاً عن الاستخدام الشائع لكلمة « لغة » : أي ماذا يعني الناس عندما يقولون أن نوعية بعينها هي لغة بعينها ؟ وبما اننا أجبنا على هذا السؤال المطروح بهذه الصورة فاننا يمكن ـ أو لا يمكن ــ أن نستخدم كلمة « لغة » كمصطلح فني ، ونقرر كيف نستخدم كلمة « لغة » في علم اللغة الاجتماعي. وكم كنا نود أن نفعل ذلك لو وجدنا ان الاستخدام الشائع لكلمة « لغة » يعكس نوعاً من الحقيقة التي قد نود الاشارة اليها في علم اللغة الاجتماعي. ولكننا لو انتهينا الى ان هذا الاستخدام الشائع لا يعكس شيئاً من الحقيقة فلن يكون هناك أي جدوى من تعريف أوضح لكلمة « لغة » من أجل استخدامها

كمصطلح فني .

ولكننا لابد ان نعترف بأهمية دراسة الاستخدام الشائع لكلمة لغة باعتباره مجرد جزء من مفردات اللغة الانكليزية مثل دراسة الكلمات اللغوية الأخرى مثل « قول محكم » أو « محادثة » وغيرها ، وهي كلمات تعكس بدورها الأجزاء الثقافية المرتبطة باللغة والكلام . وان التمييز بين « اللغات » Language و « اللهجات » Dialects هو جزء لا يتجزأ من ثقافتنا . وحين نستخدم ، هذين المصطلحين ، فاننا في الواقع نطرح نمطين مختلفين من التمييز بينهما . ونستطيع ان نخلص من ذلك ، الى نتائج محددة عن نظرة ثقافتنا الى اللغة ( كما نفعل تماماً عندما نستخدم المفردات بوصفها أدلة على جوانب أخرى من الثقافة ـ أنظر ٣ ـ ٢ ـ ١ ) .

ونستطيع ، في مثل هذا الصدد ، أن نعقد مقارنة بين ثقافتنا وثقافات أخرى لا يوجد فيها مثل هذا التمييز . وقد كان هذا هو الحال في انكلترا ، حسب ما يقول اينار هاجين Einar Haugen ، الى حين استعارة كلمة لهجة Dialect كمصطلح علمي من اليونانية في عصر النهضة . وبالفعل ، فان التمييز ما بين « اللغة » و « اللهجة » في الثقافة البريطانية أثر من آثار الثقافة اليونانية ، حيث تطور هذا الفصل بين الكلمتين لوجود عدد من النوعيات المكتوبة والمستخدمة في اليونان القديمة في مناطق وآداب مختلفة . ولذا فقد كانت دلالات هاتين الكلمتين اليونانيتين اللتين ترجمتا الى « لغة » و « لهجة » باللغة الانكليزية مختلفتين تماماً عن دلالاتيهما في اللغة الانكليزية الآن . ولعل مرادفتيهما في اللغة الفرنسية أقرب الى الأصلين اليونانيين لان الكلمة الفرنسية لهجة **dialecte** تستخدم لتدل فقط على نوعيات اقليمية مكتوبة ، ذات تراث أدبي ، بعكس نوعيات اقليمية غير مكتوبة ، يُطلق عليها مصطلح **patois** والغرض من هذه المناقشة هو ان نبين ان ليس هناك شيء مطلق في هذا التمييز القائم في اللغة الانكليزية بين « اللغات » و « اللهجات » ( أما بالنسبة للقراء الذين يعرفون لغات أخرى غير اللغة الانكليزية فان هذه

المناقشة قد تكون غير ذات شأن ) .

ما هو الفرق إذن عند المتحدثين باللغة الانكليزية بين « اللغة » و « اللهجة » ؟ هناك طريقتان منفصلتان للتمييز بين المصطلحين ويعد هذا الغموض في المعنى ambiguity مصدراً كبيراً للخلط . ( ويرى هاجين ١٩٦٦ Haugen ) ان السبب في ذلك الغموض والفوضى الناتجة عن ذلك هو ان كلمة « لهجة » dialect قد أُستعيرت من اللغة اليونانية حيث كان نفس الغموض قائماً . ) .

فهناك من ناحية اختلاف كبير في الحجم لأن اللغة أكبر حجماً من اللهجة ، وذلك يعني ان النوعية التي تتضمن العدد الأكبر من الوحدات اللغوية هي « اللغة » بينما النوعية الأصغر هي « اللهجة » . وذلك هو المعنى الذي نقصده نتعامل مع الانكليزية كلغة فهي تتضمن مجموع المفردات القائمة في كل لهجاتها . وما « الانكليزية المتواضع عليها » standard dialect إلاّ لهجة واحدة ضمن عدد من اللهجات ( منها لهجة يوركشاير الانكليزية ، واللهجة الانكليزية الهندية ، الخ ) . ولذلك فان اللغة الانكليزية هي النوعية الأكبر حجماً كما ان التعارض الآخر بين « اللغة » و « اللهجة » هو قضية المكانة Prestige ، فـ « اللغة » لها « مكانة » تفتقدها « اللهجة » . فلو استخدمنا المصطلحات بهذا المعنى فان « الانكليزية المتواضع عليها » ( ومن الأمثلة على هذه ، النوعية الانكليزية المستخدمة في هذا الكتاب ) ليست لهجة على وجه الاطلاق بل هي بالفعل لغة ، في حين ان النوعيات غير المستخدمة في الكتابة الرسمية هي لهجات . ويستند الحكم على نوعيةٍ ما بانها « لغة » أو « لهجة » الى المكانة التي تتمتع بها ، وذلك أمر واضح بالنسبة لمعظم الناس لأنه يعتمد في المقام الأول على ما إذا كانت النوعية تستخدم في الكتابة الرسمية أم لا . وبالتالي ، فان الناس في بريطانيا يعدون اللغات غير المكتوبة ( أو التي يعتقدون انها لا يُكتب بها ) « مجرد لهجات » فحسب ، دون ان يأخذوا في الاعتبار وجود لغة ( فعلية ) تنتمي اليها أو عدمه . ( وانه

لمِنَ العبث بالتأكيد أن نستخدم مصطلح « لهجة » بمعنى « الحجم » فقط )
ويعد الاهتمام بحقيقة إذا ماكانت النوعية تستخدم أم لا تستخدم في الكتابة
ــ كمعيار للتمييز ما بين اللغة واللهجة ــ حقيقة هامة يجب أن نعرفها
عن الثقافة البريطانية. وسنعود الى أهمية الكتابة في الجزء ٢ ــ ٢ ــ ٢ .

**٢ ــ ٢ ــ ٢ اللغات المتواضع عليها « Standard Languages :**

ومن الانصاف أن نقول ان النوعية التي قد تعد « لغة فعلية » ( بالمعنى الثاني لكلمة « لغة » ) هي « اللغة المتواضع عليها » . وتكتسب اللغات المتواضع عليها أهميتها من علاقتها المتميزة بالمجتمع ، وهي علاقة غير طبيعية إذا ما وضعناها في سياق عشرات ( بل مئات ) الآلاف من السنين التي أُستخدمت فيها اللغة . فبينما نتصور ان اللغات العادية قد تطورت بطريقة عشوائية ، وغالباً ما يكون هذا التطور دون مستوى الادراك الواعي للمتحدثين فان « اللغات المتواضع عليها » قد تطورت نتيجة لتدخل المجتمع المباشر والمقصود. ويؤدي مثل هذا التدخل الذي يُطلق عليه « المواضعة » standradization الى لغة متواضع عليها لم تكن من قبل سوى « لهجات » ( أي نوعيات غير متواضع عليها ) Non standard varieties .

ومفهوم « اللغة المتواضع عليها » مفهوم غير دقيق ، غير انه لابد أن تكون اللغة المتواضع عليها قد مرت بالمراحل التالية ( هاجين ١٩٦٦ Haugen ، أنظر جارفين وماثيوت ١٩٥٦ Garvin & Mathiot من أجل قائمة مختلفة بعض الشيء ).

**( ١ ) مرحلة الاختيار Selection :**

ينبغي أن يكون قد وقع الاختيار على نوعية بعينها بصورة أو بأخرى كي تصبح النوعية الصالحة للتطور الى مستوى اللغة المتواضع عليها. وقد تكون نوعية قائمة فعلاً مثل النوعيات المستخدمة في المراكز السياسية أو التجارية

الكتاب الذي يعرض بالتفصيل للقضايا واسعة النطاق في علم اجتماع اللغة ( أنظر الجزء ١ ـ ١ ـ ٣ ، لترجع الى الاختلاف ما بين علم اللغة الاجتماعي وعلم اجتماع اللغة ). ولكننا قد قمنا بضم هذا الجزء هنا لأسباب ثلاثة. أولاً : لأنه مرتبط بمناقشة المعنى الثاني للغة وهو ما عرضنا له في الجزء ٢ ـ ٢ ـ ١ ( حيث « اللغة » = « اللغة المتواضع عليها » ). وثانياً : من المهم أن نرى كيف يتحكّم المجتمع باللغة عمداً. وثالثاً : وربما ذلك هو أهم الأسباب الثلاثة ، هو ان هذه المناقشة تظهر الخصائص غير العادية ا'عات المتواضع عليها ، وهي تعد أقل اللغات أهمية لأي من المهتمين بطبيعة اللغة البشرية (كما هو حال جميع علماء اللغة ) فنستطيع ، مثلاً ، أن نقوم بوصف اللغات المتواضع عليها ، بانها حالة شاذة. نتيجة لافتقارهاالى التباين والتنوع diversity. وأذا ما أردنا رؤية اللغة في حالتها الطبيعية ، ينبغي أن نجد نوعية ليست لغة متواضع عليها أو لهجة ثانوية تابعة للغة متواضع عليها ( لأنه تظهر على هذه النوعيات بدورها نفس الأعراض المَرَضية ، وذلك لصعوبة اطلاق الأحكام على اللغة غير المتواضع عليها ، دون أن تتأثر هذه الأحكام باللغة المتواضع عليها ) والمفارقة العجيبة هي ان علم اللغة الأكاديمي لا يظهر غالباً إلاّ في المجتمعات ذات اللغات المتواضع عليها ، مثل بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا ، وان اللغة الأولى التي يهتم بها علماء اللغة في هذه الدول هي لغتهم ـ وهي لغة متواضع عليها.

### ٢ ـ ٢ ـ ٣ تحديد ماهية اللغات The Delimitation of Language :

ونعود الآن للسؤال الذي سبق أن طرحناه في بداية الجزء ٢ ـ ٢ وهو : ماذا نعني بالضبط لو أطلقنا على نوعية بعينها لفظة« اللغة » ؟ ونستطيع الآن أن نوضّح هذا السؤال بالتمييز بين معنيين للفظة « اللغة » ويستند المعنى الأول على مفهوم «المكانة » Prestige والثاني على مفهوم « الحجم » size. وقد سبق ان أجبنا على هذا السؤال استناداً الى « المكانة » التي تتمتع بها اللغة ، وهي

ان اللغة هي اللغة المتواضع عليها. ومن ناحية المبدأ، يعد هذا التمييز تمييزاً مطلقاً: فالنوعية قد تكون لغة متواضع عليها. أو لغة غير متواضع عليها (ومن الواضح أيضاً ان بعض اللغات متواضع عليها بدرجة أكبر من اللغات الأخرى. فعلى سبيل المثال، قننتْ الفرنسية بصرامة أكثر من اللغة الانكليزية المتواضع عليها). ولو عدنا الى المعيار الثاني للتمييز، وهو معيار « الحجم » size، لوجدنا ان الموقف يختلف تماماً، لأن كل شيء يصبح نسبياً ــ فلو قارنا على سبيل المثال، بنوعية أخرى فان النوعية المنتقاة قد تكون أكبر في الحجم، ولكن عند مقارنة النوعية المنتقاة مع نوعية أخرى فقد تكون صغيرة حجماً.

فالنوعية التي تتضمن كل الوحدات المستخدمة في بريطانيا تبدو ضخمة، إذا ما قورنتْ بالانكليزية المتواضع عليها أو الانكليزية الكوكني Cockney ولكنها قد تبدو نوعية صغيرة إذا ما قورنتْ بالنوعية التي تتضمن كل الوحدات اللغوية المستخدمة في كل البلاد التي تتحدث باللغة الانكليزية English speaking countries وما دام الأمر كذلك فان الادعاء بان نوعية بعينها لغة من ناحية الحجم أمر لا يعني شيئاً. هل توجد، إذن، وسيلة ما نستطيع ان نقلل بها من درجة النسبية في التمييز ما بين « اللغة » و « اللهجة » على أساس الحجم؟ (والاجابة مقدماً هي قطعاً بالنفي).

والمعيار الاضافي الوحيد الباقي هو معيار « الفهم المتبادل » Mutual[1] Intelligebility فإذا استطاع متحدثان بنوعيتين مختلفتين أن يفهم كل منهما الآخر فان النوعيتين المعنيتين تعتبران مثالين من نفس اللغة. ودون هذا الفهم المتبادل، لا تكون النوعيتان لغة واحدة. ويعد هذا المعيار معياراً شائع الاستخدام، ولكننا لا نستطيع أن نأخذه على محمل الجد، لأن هناك الكثير من المشكلات الخطيرة في تطبيق مثل هذا المعيار واستخدامه.

(١) ولا يتفق « الاستخدام المتواضع » Popular Usage مع هذا المعيار، لأن النوعيات التي يطلق عليها العامة وصف اللغة قد تكون مفهومة لكلا الطرفين فهماً متبادلاً Mutually Intelligible (ومثال ذلك، كل اللغات

الاسكاندينافية باستثناء اللغة الفنلندية واللاب Lapp. إلّا ان بعض النوعيات التي قد نعتبرها نماذج لنفس اللغة قد تكون في الواقع غير ذلك ( ومنها ، على سبيل المثال ، ما يُسمى « باللهجات » الصينية ). فغالباً ما يلجأ الاستخدام الشائع الى الاستناد الى التعريف الثاني للغة والذي يعتمد على المكانة التي تتمتع بها ، وحتى إذا كانت النوعيتان لغتين متواضع عليهما أو كانت كل منهما تابعة للغة أخرى متواضع عليها ، فانهما تعتبران لغتين مختلفتين ، وعلى العكس من ذلك فانهما تعتبران لغة واحدة لو تبعت كل منهما نفس اللغة المتواضع عليها. وقد يُفسّر ذلك الاختلاف بين آرائنا حول النوعيات الاسكاندينافية والنوعيات المستخدمة في الصين ، فكل دولة اسكاندينافية لديها لغة منفصلة متواضع عليها ( ففي النرويج لغتان متواضع عليهما ) بينما لا يوجد في الصين بأكملها سوى لغة واحدة متواضع عليها ( وقد تكون نتائج الموقف الصيني غريبة حقاً : إذ لا يستطيع شخص من بكين أن يفهم شخصاً من كانتون أو هونج كونج عندما يتحدث كل منهما بلهجته الخاصة ، ويستطيع كل منهما أن يفهم الآخر فهماً تاماً عندما يكتبان باللغة المتواضع عليها ).

( ٢ ) والفهم المتبادل Mutual Intelligebility مسألة درجة قد تتراوح بين درجة الفهم التام الى عدم القدرة على الفهم اطلاقاً. ما هو إذن مقياس الفهم الذي ينبغي أن تقع اللغتان في إطاره حتى نستطيع ان نعتبرهما نوعيتين من نفس اللغة ؟ ومن الأفضل أن نتجنّب مثل هذا السؤال لأننا لا نملك إلّا أن نجيب اجابة اعتباطية عليه. ( ومن الجدير بالذكر ان جيليان سانكوف Gillian Sankoff قد استحدثت نظاماً خاصاً بحساب درجات الفهم المتبادل (١٩٦٩) ، ويظهر من هذا النظام ان الفهم المتبادل قد يكون جزئياً فقط عند تطبيقه على جماعات

معينـــة ).

( ٣ ) يمكن تنظيم النوعيات على « متواصل اللهجات » Dialect continuum قائم على النوعيات المتجاورة التي يتميز كل زوج منها بالفهم المتبادل ، أما أزواج النوعيات المأخوذة من النهايـات المتباعـدة للمتواصـل فهي غير قائمـة على الفهم المتبـادل ، ويُقال ان مثـل هذا المتـواصل يمتـد من امستردام عبر ألمـانيا حتى فينـا ، ويمتد متـواصل آخـر من باريس الى جنوب إيطاليا . ويستند معيار الفهم المتبادل الى العـلاقة القـائمة بـين اللغات في حـين يختلف هذا المعيـار عن معيار تمـاثل اللغـات . فلو كانت اللغة « أ » هي نفس اللغة « ب » واللغة « ب » هي نفس اللغة « جـ » فان اللغتين « أ » و « جـ » يجب أن يكونا نفس اللغة ، وهكذا دواليك . وعلى ذلك ، فان علاقة « تماثل اللغات » هي علاقة « متعـدّيـة » Transitive بينـما عـلاقـة « الفهم المتبـادل » Mutual Intelligebility هي علاقة « لازمة » Intransitive . فلو كانت اللغة « أ » واللغة « ب » مفهومتين فهماً متبـادلاً ، واللغة « ب » واللغـة « جـ » مفهومتين فهماً متبادلاً فان ذلك لا يعني بالضرورة ان اللغة « أ » واللغة « جـ » مفهومتان فهماً متبادلاً . والمشكلة هي ان العـلاقة « الـلازمة » لا يمكن أن تُستخدم لايضاح العلاقة « المتعدية » .

( ٤ ) والحقيقة ان علاقة الفهم المتبادل ليست علاقة قائمة بين النوعيات بل هي علاقة قائمة بين الناس ، حيث ان الناس ، وليست النوعيات ، هم الذين يفهمون بعضهم بعضاً . حيث ان الأمر كذلك ، فان درجة الفهم المتبـادل لا تعتمد عـلى درجة التـطابق بين الـوحدات اللغـوية في نوعيتين بعينهما ، بل تعتمد على خصائص المتحدثين . ومن أهم هذه الخصائص وأوثقها صلة بالفهم المتبادل مسألة « الدوافع » Motivation . فإلى أي حد يود الفرد « أ » أن يفهم الفرد « ب » ويعتمد ذلك في المقام

؛أون ، على مجموعة من العناصر منها مثلاً الى أي حد يميل الفرد « أ »
الى « ب » ، أو بـأي قـدر يـود هـذا الفـرد أن يؤكـد التشـابهـات
أو الاختلافات الثقافية بينهما ، الخ . و « الدافع » عنصر هام لأن فهم
شخص آخر يتطلّب دائماً مجهوداً كبيراً من جانب المتلقي ، ويظهر جلياً
عندما يقرر الفرد ألّا يسمع أو يفهم عندما لا تكون دوافعه نحو الفهم
قوية بما فيه الكفاية . فكلما زادت الاختـلافات بـين النوعيـات المعنية
تطلَّب الأمر مجهوداً أكبر من جانب المتلقي . فلو لم يستطع الفرد « أ »
أن يفهم الفرد « ب » ، فان ذلك يعني ان مهمته كانت أصعب وأكبر
من دوافعه ، ونحن لا نستطيـع ان نخمّن ماذا كـان يمكن أن يحدث
لو كانت دوافعه أقوى . ومن خصائص المتلقي الهامة أيضاً مقدار خبراته
السابقة : فما هو مقدار خبرتـه بالنـوعية المعنيـة الصعبة التي يستمـع
اليها ؟ ومن البديهي ، انه كلما زادت خبرته السابقة بنوعية بعينها زاد
احتمال فهمه لها . وقد يثير كل من هاتين الخـاصيتين مشكلة أخـرى
حـول استخـدام « الفهم المتبـادل » كمعيـار ، وبخـاصـة انـه ليس
من الضـروري أن يكون هـذا الفهم « **كامـل التبـادل** » need not be
reciprocal لأنـه قـد لا تتـوفـر لكـل من « أ » و « ب » نفس القـدر
من الدوافع حتى يفهم أحدهما الآخر ، وقد لا يتوفر لكـل منهما نفس
القدر من الخبرة بنوعية الآخر . وانه لَمِنَ الأيسر على المتحدث بغير اللغة
المتـواضع عليهـا أن يفهم المتحدث بـاللغة المتـواضع عليهـا . وليس
العكس صحيحـاً ، ذلك لأن المتحـدث بغير اللغـة المتواضع عليهـا
ستكون لديه خبرة أكبر بالنوعية المتواضع عليها ( غالباً من خلال وسائل
الاعلام ) ، وقد يكون ذلك نابعاً جزئياً من رغبة المتحدث بـالنوعيـة
غـير المتـواضـع عليهـا في ان يقلل من الاختـلافـات الثقـافيـة بينـه
وبين المتحدث باللغة المتواضع عليها ( ولو ان ذلك ليس ضروريـاً ،

بأي حال من الأحوال ) ، بينما يود المتحدث بـالغة المتـواضع عليهـا أن يؤكد هذه الاختلافات .

وفي النهـاية ، فـان الفهم المتبادل لا يصلح معيـاراً لتحديـد اللغات من ناحية « الحجم » . وليس هناك معيار بديل نستطيع أن نأخذه في الاعتبار ولـذلك علينـا أن نصل الى الخـلاصة التـالية ( وفي ذلـك نتفق مع مـاثيـوز Matthews ١٩٧٩ : ٤٧) أنــه ليس هنــاك أي أســاس حقيـقي لـلتمـييــز بين « **اللغة** » و « **اللهجة** » باستثناء « المكانة » التي تتمتع بها لغة بعينها حيث يحسن استخدام لفظة « لغـة متواضـع عليها بـدلاً من مجرد استخـدام لفظة « لغة » فحسب ) . وبتعبير آخر ، لا مكان لمفهوم مثل مفهـوم اللغة ( س ) في علم اللغة الاجتماعي ، ولنفس الأسباب ، لا يبدو ان لهـذا المفهوم دور يطلع به في علم اللغة بصفة عامة . انكل ما نحتـاج اليـه بالفعـل هـو فكرة « النوعية » « س » Variety X كما نحتاج الى الحقيقة البديهية القائلة بان نوعية بعينها قد تكون متشابهـة نسبياً مـع بعض النوعيـات الأخرى ومختلفـة نسبياً عن غيرها من النوعيات .

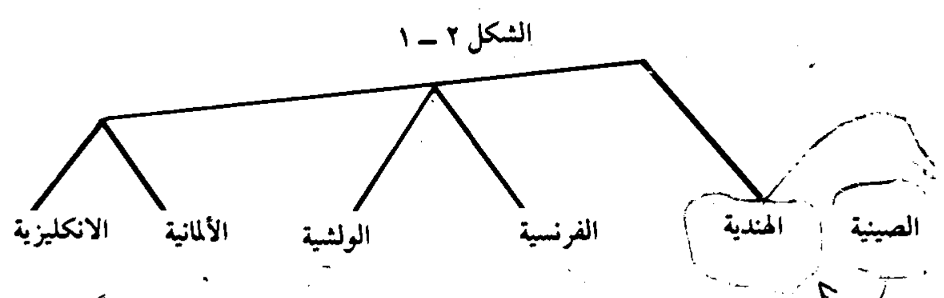
## ٢ ـ ٢ ـ ٤ نموذج الشجرة الأسرية The Family Tree Model :

إن الطريقة الـمُثلىٰ لاظهار العلاقات بين النوعيات هي « نموذج الشجرة الأسرية » ، وهو نموذج أُبتكر في القرن التاسع عشر كوسيلة إيضاح في مجال الدراسات التاريخية للغات ( من أجل دراسة ممتازة أنظر بينون ١٩٧٧ : ٦٣ Bynon ) . ويسمح لنا مثل هذا النموذج بإيضاح العلاقات الوثيقـة القائمـة بـين بعض النوعيـات المستخدمـة حاليـاً ، وكيـف اختلفتْ هذه النـوعيـات عن بعضها بعضاً نتيجة للتغيرات التاريخية ونستطيع أن نضرب مثلاً لمحاولة إيجاد العلاقات القائمـة بين النـوعيات التـالية ، وهي الانكليـزية والـولشية والألمـانية والفـرنسية والهنـدية . فلو قمنـا ببناء شكـل شجري يتصـدّر هذه النوعيات كما في الشكل ٢ ـ ١ نستطيع أن نقول ان الانكليزيـة أقرب صلة

بالألمانية ، وأقل قرباً الى الـولشية والفـرنسية ، وأبعـد من ذلك عن الهنـدية ( من أجل الحصول على صورة كاملة للعلاقات ما بين هذه اللغـات ولغات كثيـرة أخرى من أصـل « هندو أوروبي » Indo — European أنـظر بولينجـر ( Bolinger ٤٤٦ : ١٩٧٥ .

وقد أضفنا الصينية لايضاح انه لا توجد أية علاقة بينها وبين اللغات الأخرى.

الشكل ٢ ــ ١




فإذا ضم نفس الشكل نوعيتين مختلفتين ، فاننا نفترض ان كـلاً منهما قد«انحدر» ، خلال عمليات التغير التاريخي ، من نوعية أصلية واحدة يمكن إيـرادها في الشكـل ذاته ، وبـذلـك يمكننـا اضـافـة اللغـة الهنـدو أوروبيـة الأصل ـــ Proto Indo — European

في العقـدة الواقعـة في أعلى الشجـرة ، ممـا يبـين أن كـل النوعيات المذكورة في أسفل الشجرة ( باستثناء الصينية قد « انحدر » من نوعية أصل واحد. وكذلك يمكن أيضاً أن نطلق على العقدة node التي يلتقي فيها فرعا الألمانية والانكليزية مثلاً ــ عقدة « اللغة الألمانية الأصل » Proto — Germanic node بغية توفير تسمية للنوعية التي انحدرتا عنها.

وتكمن القيمة الأساسية لنموذج الشجرة الأسرية المستخدم في علم اللغة التاريخي في انه يوضّح العلاقات التاريخية بين النوعيات التي نبحثها ويوضّح بصفة خاصة التوقيت النسبي للتطور التاريخي الذى أدى الى اختلاف هـذه النوعيات وتباينها . أما من وجهة نظرنا الحالية ، فيتميّز مثل هذا النموذج بانه

يـوضّح العـلاقات الـدَرَجيـة Hierarchical القائمـة بين النـوعيات المختلفـة التي لا تفـرق بين « اللغـات » و « اللهجات ». ومن الشـائع في علم اللغـة التاريخي أن نطلق على النوعيات التي انحدرتْ من اللاتينية لفظة « اللهجات » الـلاتينية ( أو لهجـات الرومـانس The Romance Dialects بالـرغم انها تضم نوعيات يُطلق عليها مصطلح لغة استناداً الى معيار « المكانة ) ومثلها الفرنسية المتواضع عليها. ولو اننا أردنا اضافة انكليزية يوركشايـر Yorkshire English أو الانكليزية الكوكني ( Cockeny English ) الى قائمة النوعيات ، فمن الممكن اضافتها تحت اللغة الانكليزية دون ان نميّزهما باعطائهما مكانة مختلفة عن بقية النوعيات. والتغيير الوحيد الذي سنضطر للقيام به في تأويلنا لشكل الشجرة الأسـرية هـو ان « العقد العليـا » Higher nodes لن تمثّل النـوعيـات الأسبق من الناحية التاريخية ( مثل الهندو أوروبية الأصل Proto — Indo — European والتي انحدرتْ منها النوعيات العصرية ، ولكننـا سنعتبرهـا ممثلة للنوعيـات الأضخم من ناحية الحجم ، والتي ستتضمن بدورها كل الوحدات اللغويـة في النوعيات الواردة أسفلها.

وليس هنـاك ميزة لاستخـدام نموذج لشجـرة الأسريـة في علم اللغـة الاجتماعي إلّا ما أسلفنا ذكره ، لأن مثل هذا النمـوذج يمثّل تبسيـطاً هائـلاً idealization للعلاقات القائمة بين النوعيات ، وبخاصة لأن مثل هذا النموذج لا يسمح بتوضيح تأثير نوعية في نوعية أخرى ، الأمر الذي قد يؤدي في بعض الحالات المتطرفة الى « التطابق » ، convergence ، وذلك عندما تنحدر نوعية واحدة من نوعيتين منفصلتين ( أنظر تروجـوت ١٩٧٧ Traugott ). وسنرى في ٢ ــ ٥ ان ذلك يحدث فعلاً ، وسنقوم في الجزء ٢ ــ ٣ ــ ٢ بتقديم نموذج أفضل من النموذج الحالي ، وهو نموذج « نظرية الموجات » Wave theory .

## ٢ ـ ٣ اللهجات Dialects :

### ٢ ـ ٣ ـ ١ اللهجات الاقليمية و « خطوط توزيع اللهجات »*:

**Regional Dialects and Isoglosses**

الآن ، وقد رفضنا الفصل بين « اللغة » و « اللهجة » ( باستثناء التمييز بينهما على أساس « المكانة » التي تتمتع بها كل منهما ) يمكننا أن نطرح سؤالاً أساسياً ، هو : بأي درجة من الوضوح يمكننا أن نضع الحدود الفاصلة بين النوعيات ؟ ويعني التنظيم الدرجي لنموذج الشجرة الأسرية ضمنياً ان الحدود بين النوعيات واضحة على كل مستويات الشجرة . فهل الأمر بالفعل كذلك ؟ وهل يمكننا بصفة خاصة الاستمرار في متابعة التفريغ الميلي للشجرة نحو جذورها حتى نوضّح النوعيات الأصغر ثم الأصغر الى ان نصل الى مستوى « لهجة الفرد الواحد » idiolect ؟ لابد أن تكون الاجابة على هذه الأسئلة بالنفي .

فلو أخذنا في الاعتبار الاختلافات الواضحة ، والتي تستند الى الاختلاف الجغرافي ، لأمكننا ، إذا صح نموذج الشجرة الأسرية ، أن نتعرف على « اللهجات الاقليمية Regional Dilects الواقعة في إطار النوعيات الكبرى ، مثل اللغة الانكليزية ، ومن حسن الحظ ، انه توجد لدينا الكثير من الدلائل التي ترتبط مباشرة بمثل هذا السؤال ، وقد تولدتْ كل هذه الأدلة من علم معروف باسم علم **اللهجات** Dialectology وبخاصة ما عُرف منه باسم **علم جغرافيا اللهجات** Dialect Geography ( أنظر على سبيل المثال : بلومفيلد Bloomfield ١٩٣٣ : الفصل ١٩ ، شامبرز وترد جيل Chambers & Trudgill ( ما زال في طور الاعداد ) ، هوكيت Hockett ١٩٥٨ : الفصل ٥٦ ، وهيوز

---

( * ) « خطوط توزيع اللهجات « Isoglosses » وقد وُضِعَ هذا المصطلح قياساً على المحطات المتماثلة في درجات النهايات العظمى للحرارة في الخرائط الجوية وتسمى Isotherms .

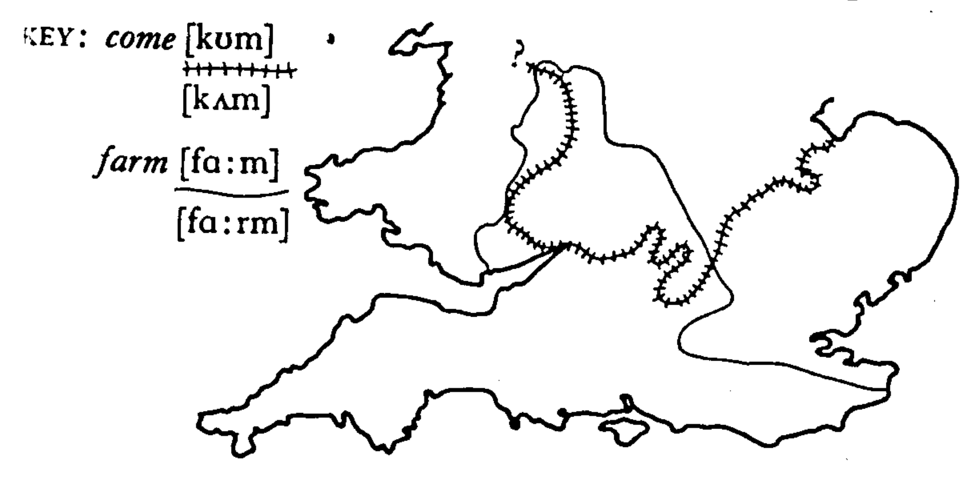
وتـــردجـــيـــل Hughes & Trudgill ١٩٧٩ ، وســـانـــكـــوف و واكـــلن Wakelin & Sankoff ١٩٧٢ . أنظر أيضاً ٥ ــ ٤ ــ ٢ من هذا الكتاب . وقد قام علماء اللهجات Dialectologists في أوروبا والولايات المتحـدة ( وفي بريطانيـا على نطاق ضيق ) منذ القرن التاسع عشر بدراسة التوزيع الجغرافي لمختلف الـوحدات اللغـويـة مثـل أزواج المتـرادفـات ( مثـلاً ، جـردل و دلـو **Pail & Buckett** ) ، أو عدد من الصيغ مختلفة النطق لنفس الكلمة مثل صيغة **form** بـوجود أو بـدون وجود حـرف / r /. وقد سجلتْ نتـائج هـذه الـدراسـات على خرائط موضّحة توزع هذه الوحدات في مختلف القرى ( وذلك لأن علم جغرافيا اللهجات يجنح نحو دراسة المناطق الريفيـة حتى يتجنّب التعقيدات القـائمة في المـدن ). إذن ، يستطيـع عـالم جغـرافيـا اللهجـات أن يفصـل ما بين المناطق التي تستخدم فيها وحدات معينة ومناطق أخرى تُستخدم فيها وحدات أخرى ، محدداً حدوداً فاصلة لكل منطقة معـروفة بـاسم « خطوط توزيع اللهجات » أو **Isogloss** ( وهو مصطلح مشتق من السابقة اليونانية ــ **iso** وتعني « نفس » الجذر **Gloss** ــ وتعني اللغة واللسان ).

ويمكّننا نموذج الشجرة الأسرية من توقع شيء هام خاص « بخطوط توزيع اللهجات » وهو ان هذه الخطوط لا ينبغي ان « تتقاطع » أو تتداخل. وينبع هذا التوقع من التنظيم التدرجي الصارم بين النوعيات القائمة في النموذج ، والذي يسمح بقيام نوعين من العلاقات بين كل نوعيتين على النموذج ، وهما أن تكون احداهما قد انحدرتْ عن الأخرى أو أن تكون النوعيتان « أختين ». فلنتخيل وجود عالم فرضي توجد فيه نوعية ضخمة نطلق عليها النوعية « ل » وهي تتضمن وحدتين لغـويتين همـا « س » و « ص » لا ينسحب استخدام أي منهما على كل المتحدثين بالنوعية « ل ». وبذلك يمكننا التمييز داخل النوعية « ل » بـين أزواج من النـوعيـات تتضمـن « س » أو تخلو منهـا ، ( أي نوعية + س ، ونوعية − س ) كما يمكننا التمييز بين نوعيتين تتضمن احداهما

« ص » والأخرى تخلو منها ( أي نوعية + ص ، ونوعية - ص ) وثمة احتمال لوجود التركيبات الأربعة الممكنة لهذه النوعيات ، وهي كالتالي متحدثون يستخدمون كلتيهما ( أي + س + ص ) ، ومتحدثون لا يستخدمون أياً منهما ( أي - س ، - ص ) ، ومتحدثون آخرون يستخدمون واحدة أو أخرى ( أي + س ، - ص أو س ، + ص ). ما هي إذن العلاقات القائمة بين النوعيات التي عرفناها على انها س ( أي + س ، - س ) والنوعيات التي عرفناها بصاد ( أي + ص ، - ص ) ؟ أي ، ما هي العلاقة بين النوعية + س والنوعية + ص ؟ من الواضح ، ان احداهما لم تنحدر عن الأخرى ، لأن احداهما لا تتضمن الأخرى كلية ، ولكنهما ليستا بأختين أيضاً ، لأن كلاً منهما تتضمن الأخرى بصورة جزئية ولا يتلاءم مثل هذا النوع من التنظيم مع نموذج الشجرة الأسرية.

وهناك كثير من المواقف الفعلية التي توازي مثل هذا الموقف الافتراض. ولنضرب مثلاً واحداً فقط على ذلك ، هناك « خطان لتوزيع اللهجات » متداخلان في جنوب انكلترا ، كما يظهر من الخريطة ٢ ــ ١ ( وهي مأخوذة من ترودجيل Trudgill ١٩٧٤ ــ ب ١٥٩ و واكلين Wakelin ١٩٧٨ : ٩) يفصل أحد « خطوط توزيع اللهجات » هذين ما بين ( منطقة في الشمال ) حيث تُنطق كلمة **come** بنفس الحرف الصائت الذي تُنطق به كلمة **stood** ، وبين المنطقة التي يُنطق فيها نفس الحرف كحرف صائت مفتوح كما يُنطق في « النطق المتواضع عليه » RP Received Pronunciation وهي لكنة المكانة العليا في انكلترا ( أنظر جيمسون Gimson ١٩٦٢ : ٨٣ ) ، ويفصل « خط توزيع اللهجات » الثاني ما بين المنطقة ( الواقعة في الشمال الشرقي ) التي لا يُنطق بها حرف الـ **r** في كلمة **farm** والمنطقة التي يُنطق بها بحرف الـ **r**. والطريقة الوحيدة التي يمكن أن نطوع بها مثل هذا النمط ليتلائم مع نموذج الشجرة الأسرية هي أن نعطي الأولوية « لخط تحديد لهجة » على حساب الآخر ، ولكن مثل هذا الاختيار اعتباطي ، وسيترك المنطقة.

المحددة بخط تحديد اللهجات الثانوي دون ارتباط بالمنطقة الأخرى ، في حين يمثّل كل من الخطين تقسيماً فرعياً لنوعية مختلفة ، بينما يمثّل كلاهما في الواقع وبوضوح ظاهرة واحدة .




الخريطة ٢ ـ ١ . تقاطع خطان لتوزيع اللهجات في جنوب انكلترا

ونستطيع أن نقدم عدداً ، لا حصر له ، من الأمثلة المشابهة ( ومن أجل مثل واضح آخر أنظر بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٣٤٩ ، ومن أجل عرض علمي لهذه القضية أنظر سانكوف Sankoff ١٩٧٣ ـ أ ) .

وقد استخلص علماء اللهجات من مثل هذه النتائج ان لكل وحدة توزيع خاص بها بين جماهير المتحدثين وان ليس هناك مبرر لتصور ان الوحدات المختلفة لها توزيعات متطابقة ( بينون Bynon ١٩٧٧ : ١٩٠ ) . ويبدو ان هذه النتيجة هي النتيجة الوحيدة المعقولة التي يمكن استخلاصها من المادة العلمية ، بالرغم من انه قد يكون لنا تحفظات على مدى الاختلاف بين الوحدات المختلفة : فنوعية النمط سالف الذكر ـ على سبيل المثال ـ والتي تتداخل فيها « خطوط تحديد لهجات » وتتشابك بطريقة فوضية ، أقل شيوعاً في ألمانيا عنها في فرنسا ( بينون Bynon ١٩٧٧ : ١٩١ ، ماثيو

Matthews ١٩٧٩ : ٤٧). وقد يؤدي هذا بنا الى نتيجة فحواها ان خطوط تحديد اللهجات لا تقوم بتحديد النوعيات إلّا بالمعنى الساذج ، وذلك عندما تكون هذه النوعيات مكونة من وحدة لغوية مفردة. وإذا لم يكن بوسعنا الاعتماد على خطوط تحديد اللهجات في تحديد النوعيات فما هو البديل ؟ ولا يبدو ان هناك بديل لهذه الخطوط ، وهكذا نجد أنفسنا في موقف مشابه لموقفنا السابق عند مناقشتنا لقضية اللغات. فليست هناك وسيلة لتحديد النوعيات ، ولذلك ينبغي علينا ، إذن ، أن ننتهي الى ان النوعيات غير موجودة. كل ما تبقى لدينا ، إذن ، هو الناس والوحدات اللغوية ، وقد تتشابه الناس الى حدٍ ما فيما تتضمنه لغتهم من وحدات. وبالرغم من ان هذه النتيجة لا تأتي بجديد ، فانها على الأقل نتيجة حقيقية ، وقد يؤدي الى اثارة أسئلة جانبية مثل : ما الذي يحدد مقدار ونوع التشابه القائم بين الناس ؟

**٢ ـ ٣ ـ ٢ الانتشار ونظرية الموجات Diffusion and the wave theory :**

وقد أُستحدث كبديل لنموذج الشجرة الأسرية في القرن التاسع عشر لتفسير نوعية الظواهر التي بحثناها للتو. وتعرف هذه النظرية « بنظرية الموجات » wave theory وهي تستند الى الفرضية القائلة بأن التغيرات في اللغة تنتشر من داخل مراكز التأثير الى المناطق المحيطة بها بنفس الطريقة التي تنتشر بها الموجات من مركز سقوط الحجر في بركة الماء.

فقد اتفق معظم علماء اللغة على وجهة النظر هذه كتفسير للتغير اللغوي في كل من علم اللغة التاريخي Historical Linguistics ( أنظر بينون Bynon ١٩٧٧ : ١٩٢ من أجل مناقشة لهذا الموضوع ) وعلم اللغة الاجتماعي حيث طوّرها بصفة خاصة شارلز جيمس بيلي Charles — James Bailey (١٩٧٣) وديريك بيكرتون Derek Bickerton (١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥) ودافيد ديكامب David DeCamp (١٩٧١ ــ ب ). ( وسنعرض للدراسات النظرية الخاصة بنظرية الموجات والتي قام بها أولئك العلماء اللغويون في الفصل

٥ ــ ٥ ــ ٢ ).

وتقدم نظرية الموجات تفسيراً للأسباب التي تؤدي الى تداخل خطوط تحديد اللهجات عن طريق افتراض بؤر جغرافية Geographical foci مختلفة لانتشار الوحدات المختلفة ، فخط تحديد اللهجات الفاصل بين وحدتين ميل كلمة **farm** بالحرف / f / أو بدونه يبيّن مكان توقف تأثير وحدة معينة وبدء استخدام الوحدة الأخرى. ولو افترضنا ان احدى هذه الوحدات تمثّل وحدة مستحدثة فان ذلك يعني ان خط تحديد اللهجات يبيّن أبعد النقاط التي وصل اليها تأثير الوحدة الجديدة حينما قام عالم اللهجات بجمع مادته العلمية.

وليس هناك ما يمنع من وقوع استخدامات جديدة في نفس الموقع وفي نفس الوقت ، الأمر الذي قد يؤدي الى تحديد خطوط تحديد لهجات مختلفة وجديدة. وعليه لا يوجد ما يمنع من أن يتداخل عدد من خطوط تحديد اللهجات.

ولو عدنا الى التشبيه السابق ، لوجدنا انه لا يوجد ما يمنع من سقوط حجرين أو أكثر في نفس المكان من بركة الماء ، ولذلك قد تكون هناك مراكز عديدة للتأثير تبدأ منها الموجات وتنتشر وتتداخل. وفضلاً عن ذلك ، فان هذه المراكز قد تتغير ، مع الزمن ، بتغير المؤشرات سواء قويتْ أو ضعفتْ. ويمثّل كل مركز وحدة مستحدثة تنطلق منها الموجات وتنتشر في مختلف الاتجاهات.

ولكن هذا التشبيه يعجز عن نقل الصورة الحقيقية الكاملة لأن موجات التأثير اللغوي « تتجمّد » وتتوقف عن الامداد لأن العامل المؤثر في مركز هذه الأمواج لا يكفي لدفعها نحو الاستمرار. وبتعبير آخر ، فقد يتوقف تأثير الوحدة عندما يقرر الأفراد لسبب ما عدم استخدامه حتى لا يأخذوا على انهم من المنتمين الى الجماعة التي تستخدم هذه الوحدة ، وذلك في إطار نظرية « أفعال توكيد الهوية » ( أنظر ١ ــ ٣ ــ ١ ). ويعني ذلك ان موقع خط تحديد اللهجات لم يتغيّر عما كان عليه منذ قرن مضى ، وذلك على عكس ما نعرفه

عن الموجات في بركة الماء ، لأن تأثير الجماعة التي تستخدم هذه الوحدة قد لا يكفي لدفعها الى أبعد مما وصلتْ اليه. وفضلاً عن ذلك ، فليس من الضروري أن تكون الوحدة مستحدثة حتى تؤثر على الناس ، لأن درجة تأثيرها تعتمد على المكانة الاجتماعية التي تتمتع بها الجماعة التي تستخدمها ( والتي سبق ان أطلقنا عليها مصطلح « الجماعة الكلامية »Speech Community في ٢ ــ ١ ــ ٤ ) ، وليست القضية درجة حداثة الوحدة. فمن الممكن أن تُستَبدل كلمة قديمة بكلمة حديثة بعد أن يشيع استخدام القديمة ، فعلى سبيل المثال ، بدأت بعض مناطق الولايات المتحدة حالياً بنطق كلمات مثل **farm** بحرف / r / بعد أن كانت تنطقها دون حرف / r / ، وبالرغم من ان الصيغة الأخيرة هي الصيغة المستحدثة ( كما قد نستنتج من تهجئة الكلمة ) ، وسنعرض لواحدة من هذه المناطق في الجزء ٥ ــ ٢ ــ ٢ .

ويبدو انه من الأفضل ان نتخلى عن تشبيه سقوط الحجر في بركة الماء لوجود الكثير من التحفظات عليه. وقد يكون التشبيه التالي أكثر صلاحية لوصف الموقف وهو تشبيه مستعار من عالم النبات ، فعندما تُبذر عدة فصائل من النباتات في حقل بعينه ، تنشر بذورها خارج نطاق المنطقة المحددة لها ، وستمثّل كل فصيلة نباتية وحدة لغوية معينة في إطار هذا التشبيه ، بمعنى ان لها طريقتها الخاصة في الانتشار ونشر البذور ، ويمثّل « خط تحديد اللهجات » الحدود المفروضة على انتشار هذه الفصيلة النباتية. ومن الممكن أن تتعايش الكثير من الفصائل النباتية في نفس المنطقة ( ويعد هذا بمثابة نوع من التساهل والتصرف في قواعد علم النبات ) ، ولكن يبدو انه من الضروري تحديد فصائل معينة من النباتات تنافس بعضها بعضاً على نحو شبيه بالوحدات اللغوية التي تقدم طرقاً مختلفة لنطق نفس الكلمة ( مثل صيغتي نطق كلمة **farm** ). ومن ميزات هذا التشبيه هو انه يتجنّب التغير المستمر في توزيع الفصائل النباتية في الحقل لكل وحدة من الوحدات ، هذا الى جانب انه يمكننا من تمثيل كل الوحدات اللغوية لا الوحدات المستحدثة فحسب.

وفي إطار هذا التشبيه الجديد فان أي استحداث لغوي يعد بمثابة فصيلة مستحدثة تولدت ( من خلال عملية التغير الوراثي أو الاستجلاب من الخارج ) ، وقد تنبت أو لا تنبت ، فلو انها نَمَتْ وانتشرتْ ، فانها قد تحل محل النباتات المنافسة لها ، فإن لم تفعل ، قد تندثر تماماً أو تظل محدودة في رقعة صغيرة من الحقل ( أي ان استخدامها يقتصر على جماعة كلامية صغيرة ). ويعتمد نمو وازدهار فصيلة بعينها أساساً على قوة مستخدميها ( أي على قوة ومدى تأثير الجماعة الكلامية التي تستخدمها ) ، فكلما زاد حجم النباتات زاد عدد البذور التي تنتجها وزادت فرصتها في النمو والاستيطان في مناطق جديدة.

## ٢ ــ ٣ ــ ٣ اللهجات الاجتماعية : Social Dialects

ولا تستند اللهجات في توزيعها على التوزيع الجغرافي فحسب كما قد توحي به المناقشة السابقة. إذ ان هناك مصدرين رئيسيين يساهمان في اضافة بعض التعقيدات على المشكلة ، أولهما القدرة على التحرك الجغرافي ، فالناس ينتقلون من مكان الى آخر يحملون معهم لهجاتهم ، وإن عدلوا منها لتتوافق بمرور الزمن مع بيئتهم الجديدة. ولذلك ، فان مجرد تحديد المتحدثين على خريطة قد ينتج عنه نمط غير منتظم ، وذلك حسب مقدرة السكان على التحرّك ( وغالباً ما نتجنّب هذه المشكلة في علم اللهجات بانتقاء « رواة » informants من أُناس وُلِدوا ونشأوا في مكان سكناهم ).

والمصدر الثاني لتعقيد المشكلة هو ان العنصر الجغرافي ليس إلّا عنصراً من العناصر المرتبطة باختلاف اللهجات ، وهناك عناصر أخرى ترتبط باللهجات منها الطبقة الاجتماعية والجنس والسن ( أنظر ٥ ــ ٤ ــ ٢ ). ولذلك غالباً ما يتحدث علماء اللهجات عن اللهجات الاجتماعية Social Dialects, Sociolects ، وهم يقصدون بذلك الاختلافات اللغوية التي لا تستند الى اختلافات اقليمية. ونتيجة لوجود هذه العوامل فان المتحدث قد يكون أكثر

قرباً من لغته الى لغة مَنْ ينتمون الى نفس المجموعة الاجتماعية ويقطنون منطقة مختلفة عنه الى أناس من مجموعة اجتماعية مخالفة ، يقطنون نفس المنطقة .

ومن أهم الخصائص المميزة للبنية الهرمية الطبقية في بلد مثل بريطانيا وجود أسبقية للطبقة الاجتماعية على التوزيع الجغرافي ، كعنصر محدد لنوعية الكلام ، ولذلك فهناك قدر من التباين الجغرافي بين مَنْ ينتمون الى الطبقات الاجتماعية الدُنيا أكبر من التباين الموجود بين « علية القوم » في المجتمع البريطاني. وقد تمادى الناس في ذلك لدرجة ان المقتدرين الذين تعلّموا في المدارس الخاصة باهظة التكاليف Public Schools ( أو الذين يرغبون في الكلام مثلهم ) يتكلمون انكليزية خالية تماماً من الخصائص الاقليمية. قد تنفرد بريطانيا دون غيرها من البلاد بهذه الصفة ، فلا توجد هذه الصفة في بلاد أخرى مثل الولايات المتحدة أو ألمانيا حيث تظهر الأصول للمتحدثين من « علية القوم » في نطقهم للغة ، أكثر من ظهورها في سمات أخرى من لغاتهم. وبسبب الاختلاف والاحساس بالفوارق الاقليمية والاجتماعية بين النطق والجوانب الأخرى للغة ، فمن الطبيعي ان نميّز ما بين **اللكنة Accent واللهجة dialect** ، فنستخدم مصطلح اللكنة للدلالة على الاختلافات في النطق فحسب بينما يُستخدم مصطلح اللهجة للدلالة على مختلف أوجه الاختلافات اللغوية ومن بينها النطق أيضاً. وقد يسمح لنا ذلك بالتمييز بين « اللهجة المتواضع عليها » standard dialect ( والتي ينبغي أن نصفها « باللغة المتواضع عليها ، ( أنظر ٢ ــ ٢ ــ ٢ ) وبين اللهجات غير المتواضع عليها ، وقد يمكننا ذلك من اطلاق أحكام خاصة عن النطق فقط في صورة دراسة وصفية للكنات المختلفة. ولذلك ، يمكننا القول ان كثيراً من الناس في بريطانيا يستخدمون لكنة اقليمية أو لهجة متواضع عليها ، ولكن بعض الخاصة يستخدمون لكنة متواضع عليها مع نفس اللهجة المتواضع عليها. وقد يؤدي الخلط بين مصطلحي اللهجة المتواضع عليها ( وهو يشمل

المفردات والتراكيب والصرف ) ومصطلح اللكنة المتواضع عليها الى كثير من الارتباك.

إن كل ما حاولت أن أفعله في هذا الجزء هو تقديم مصطلحات مثل « اللهجة الاجتماعية » و« اللكنة » مشيراً الى ان هناك اختلافات بين المتحدثين لا يمكن تفسيرها بالرجوع الى الاختلافات الجغرافية القائمة بينهم فحسب ، بل يجب الرجوع الى عناصر اجتماعية أيضاً. ويمكننا أيضاً المقارنة بين المشكلات الخاصة بتحديد اللهجات الاقليمية والمشكلات الخاصة بتحديد اللهجات الاجتماعية ، وهو أمر سنتحقق منه في الفصل الخامس. وقد يكون من الصعب أن نقوم بتحديد خطوط تحديد اللهجات الاجتماعية لأننا لا نستطيع تسجيلها إلاّ على خريطة متعددة الأبعاد ، ولكن لا شك في اننا لو استطعنا رسم مثل هذه الخريطة لوجدنا ان كل خط لتحديد لهجة سيتبع نمطاً فريداً في نوعه. وعلى ذلك فمن الطبيعي أن نرفض مفاهيم « اللهجة الاجتماعية » و« اللكنة » لنفس الأسباب التي سبق أن رفضنا من أجلها مفهوم « اللهجة الاقليمية » ، اللهم إلاّ كوسيلة جاهزة وغير دقيقة للدلالة على ظواهر معينة.

### ٢ ــ ٣ ــ ٤ نماذج من الوحدات اللغوية Types of Linguistic Items :

لعل من أهم الأسئلة التي تطرحها دراسة النوعيات على بساط البحث هي السؤال التالي : هل كل الوحدات اللغوية معرّضة للتباين بنفس الأسلوب ؟ ولقد اقترحنا عند مناقشتنا لمفهوم « اللكنة » انه من الممكن أن يكون هناك اختلاف عام بين وحدات النطق والوحدات النوعية الأخرى مثل وحدات ( المفردات والتراكيب والصرف ) ويكمن الفارق في أن النطق أقل عرضة « للمواضعة ». وأذا سلّمنا بالعلاقة الخاصة القائمة بين عملية « المواضعة » standarization والكتابة ، وسلّمنا بعدم ضرورة امتداد عملية المواضعة الى النطق (٢ ــ ٢ ــ ٢) ، فاننا لن ندهش لو كان الأمر كذلك ،

بالرغم من انه يكون مخالفاً لذلك.

ويبدو ان النطق يختلف عن النماذج الأخرى من الوحدات من حيث الوظيفة الاجتماعية التي يؤديها. فاننا نجد، على سبيل المثال، انه بالرغم من التأثير الواضح للولايات المتحدة على بريطانيا، فان التأثير الأمريكي على الانكليزية البريطانية يقتصر على المفردات، ويبدو أيضاً أن لا وجود لهذا التأثير على تطور الجماعات الأكثر تعرضاً له والأكثر قابلية مثل جماعات المراهقين (أما مذيعو الأغنيات في الراديو ومطربو «البوب» فهم يعدّون من الاستثناءات المعقدة والغريبة). ومن الغريب ان الاختلاف بين النطق والنماذج الأخرى من الوحدات قد تكون له مظاهر مختلفة، كما هو الحال عند بعض الأطفال والمراهقين الزنوج من الطبقات المتوسطة في ديترويت، والذين قام بعض العلماء بدراستهم في إطار مشروع بحثي عن «علم لهجات المناطق الحضرية» Urban Dialectology (وذلك هو الموضوع الرئيس من الفصل الخامس). وقد ذهب والتر ولفرام Walter Wolfram الذي كتب تقريراً عن هذا المشروع (١٩٦٩ : ٥ ــ ٢) الى ان الوحدات الصرفية والتراكيبية التي يستخدمها هؤلاء المتحدثون هي ذاتها نفس الوحدات التي تستخدمها الطبقات المتوسطة بصفة عامة (ومن الأمثلة على ذلك ندرة صيغة «النفي المتكرر» Double negative وهي صيغة شائعة في حديث الطبقات الدُنيا في ديترويت) غير ان أسلوبهم في النطق مطابق تماماً لأسلوب نطق شباب الطبقات الدُنيا فيها. وقد ذهب ولفرام أيضاً (١٩٦٩ : ٢٠٤) الى ان الاختلافات في النطق قد تكون اختلافات كمية quantitative بينما قد تكون الاختلافات الأخرى اختلافات كيفية qualitative ، ومعنى ذلك ان الفوارق الطبقية في المجال الصوتي phonological ، هي مسألة عدد المرات التي تُستخدم فيها وحدة معينة، بينما الفوارق الطبقية في مجال التراكيب syntactic والصرف morphological هي مسألة أي من الوحدات هي المستخدمة. ولكن هذه التعميمات ليست مدعمة إلّا بقدر ضئيل من الأدلة،

ولم تؤكدها أبحاث أخرى.

من المحتمل ، إذن ، ان يؤدي كل من النطق والوحدات الأخرى وظائف مختلفة في أفعال الفرد المؤكدة للهوية ndividual's act of identity والتي سبق ان ذكرناها. فقد يكون استخدام النطق ، على سبيل المثال ، دلالة على تحديد أصولنا ( أو للاشارة الى انتمائنا الى مجموعة بعينها ، سواء أكانت هذه هي الحقيقة أم لم تكن ـ قارن بين البريطانيين الذين يكتسبون اللكنة الانكليزية المتواضع عليها ( RP ) في وقت متأخر من حياتهم ، وبين الشباب الزنوج من الطبقات المتوسطة في ديترويت الذين اكتسبوا لكنة الطبقات الدنيا في بداية حياتهم ). وعلى العكس من ذلك ، فاننا قد نستخدم الصرف والتراكيب والمفردات حتى نحدد مكانتنا الراهنة في المجتمع ، مثل تحديد مقدار التعليم الذي تلقيناه. وقد يعد كل ذلك مجرد تخمين في الوقت الحالي ولكن هناك قدر كافٍ من الأدلة يشير الى الاختلافات القائمة بين النطق ومجالات اللغة الأخرى مما يدفعنا للبحث عن تفسيرات عامة لهذه الظواهر. وقد سبق ان اقترحنا ان هذه الاختلافات قد تكون مجرد نتاج لعملية المواضعة ولذلك فمن الضروري أن نبحث عن أدلة في مجتمعات لم تتأثر بعملية المواضعة. ولو وُجِدَتْ هذه الاختلافات في تلك المجتمعات ، فاننا يمكن أن نفترض عندئذ اننا قد قمنا باكتشاف حقيقي وجوهري عن اللغة.

هل هناك أية أدلة على وجود اختلافات داخل ما أشرت اليه بتعبير « النطق » تجنباً لطرح أسئلة غير ضرورية عن العلاقة بين علم الأصوات Phonology وعلم الأصوات العام Phonetics ؟ هل هناك ، على سبيل المثال أية أدلة لتدعيم وجهة النظر القائلة بأن الصيغ التحتية Underlying representations ( أي المعلومات المقدمة في المفردات اللغوية عن نطق كلمة معينة ، وذلك على عكس التفاصيل التي نقدّمها عن نطق هذه الكلمة في تراكيب بعينها ) أقل عرضة للتباين variation بين فرد وآخر من القواعد الخاصة بنطق الوحدات

الصوتية المجـردة phonemes بعينها ( وقـد اقترح كـل من تشومسكي وهـالي Chomsky & Halle وجهة النظر هذه ١٩٦٨ : ٤٩) ؟ وليس هناك قدر كافٍ من الأدلـة لتـدعيم وجهـة النـظر هـذه ، ولكن الجـميـع يـتفـقـون على ان الاختلافات في « الصيغ التحتية » Underlying forms ( أي الاختلافات في المفردات ) أمر شائع . ومن الأمثلة على ذلك ان الذين ينطقون حرف / r / في كلمة **farm** قد نفترض ان لديهم عدداً من « الصيغ التحتية » المختلفة لهذه الكلمة ( وكل الكلمات الأخرى التي يقع فيها حرف / r / قبل ساكن consonant أو في نهاية الكلمة ) ، وتختلف هذه الصيغ عن الصيـغ التحتية عنـد الذين لا ينـطقون الحـرف / r / ( أنـظر ٥ ــ ٥ ــ ١). وفي الحقيقـة فـان أي نـوع من التبـاين يمكن تصوره عـلى أسـاس علم الأصـوات Phonology مـوجـود بالفعل ، وعلى نطاق واسع . ( أنظر الدراسات والبحوث الخاصة بمسح أنواع التباين variation في النطق في أوكونور O'Connor ١٩٧٣ : ١٨٠ ، تروبتزكوي Trubetzkoy ١٩٣٦ ، ويلز Wells ١٩٧٠).

وقـد يطرح المـرء أسئلة مشـابهـة عن الجـوانب اللغـويـة الأخـرى ، غير النطق . هل هناك أية أدلة على صحة الرأي القائل بان الجانب التراكيبي syntax أقل عرضة للتباين من الجوانب اللغوية الأخرى مثل الصيغ الصرفية morphology والمفردات ؟ ويبدو انه من المؤكد ان الأمثلة المتوفرة في نوعية يبلغ حجمها حجم لغة والدالة على اختلافات تراكيبية syntactic differences تذكر في الأدبيات بقدر أقل من ذكر الاختلافات القائمة في جوانب النطق والصيغ الصرفية ، وهمـا ما يصعب الفصـل بينهما ، غـالباً ، ومن الأمثلة عـلى ذلك تساؤلنا عن الاختلاف بين « **ing—** » و « **in—** » في كلمات مثل **coming** ، فهل هذا اختلاف في النطق أو الصيغة الصرفية ؟ وفضلاً عن ذلك ، فغالباً ما يكثر ذكر ومناقشة الاختلافات الموجودة في المفردات بـدرجة أكبـر من اختلافـات التراكيب في أدبيات اللهجات . ويبدو ان هناك خلافاً بين مستوى التراكيب وبقية مستويات وجوانب اللغـة ، وذلك أمـر يحتاج الى تفسـير. ( من أجل

مناقشة أوسع لهذه النماذج من الوحدات المتباينة أنظر ٥ ــ ٣ ــ ١ ).

ومن الضروري ان نحذّر من مثل هذا الاختلاف الظاهري . فقد يُعزى عدم وجود أمثلة في الأبحاث الراهنة على الاختلافات التراكيبية نتيجة لصعوبة دراسة مثل هذه الاختلافات لأنها نادراً ما تتكرر في الكلام العادي ، ومن الصعب ان نجد وسيلة مباشرة لاستخراجها ( من الراوي ) Direct elicitation وبخاصة لو قُورِنَتْ باستخراج المفردات ، مثلاً . ثانياً ، قد يكون الاستقرار الظاهري للتراكيب أمراً مضللاً ، لأنه لا يوجد سوى عدد ضئيل نسبياً من الوحدات التراكيبية ( أي الصيغ ) constructions ، مقارنة بالمفردات ، وعلى ذلك فانه حتى في حالة تباين النسبة من الوحدات التراكيبية ، فان الناتج قدر ضئيل جداً من التباين . ثالثاً ، حتى لو كان هناك اختلاف بين التراكيب وبقية اللغة فقد يكون ذلك مجرد نتاج « لعملية المواضعة » process of standardization .

وبالرغم من كل هذه التحفظات ، إلّا انه يبدو ان هناك جنوحاً أكبر نحو « التوحيد » uniformity أو عدم التباين في جانب التراكيب ، لا نجده في الجوانب اللغوية الأخرى ، وقد يكون من الصعب إيجاد تفسير لذلك . فهل هناك ميل لالغاء أو رفض البدائل في مجال التراكيب ، بينما هناك بحث إيجابي عن البدائل في المفردات ؟

ويأتي الدليل على صحة هذا الرأي من مصدرين :

فعادة ما تكون « الوحدات التراكيبية » منتشرة عبر حدود « اللغة » الى المناطق المجاورة . وغالباً ما يُطلق على الخصائص المشتركة بهذه الطريقة من الانتشار والتي لا يمكن تفسيرها كأثر من آثار وجود لغة أُم مشتركة مصطلح « الملامح الجغرافية » Areal features أنظر بينون Bynon ١٩٧٧ : ٢٤٤ من أجل دراسة لمثل هذه الملامح ) . فعلى سبيل المثال ، توجد ثلاث لغات متجاورة في البلقان ( وهي اللغة البلغارية والرومانية والألبانية ) ، وتشترك هذه اللغات الثلاث في ظاهرة لغوية غير عادية وهي وجود أداة التعريف

كـلاحقة مثبتـة في نهاية الكلمـة suffixed definite article وعـلى ذلـك نعـرف ان كلمـة "mik" في الألبـانيـة تعني « صـديق » بينـما تعني كلمـة "mik—u" « الصديق » .

ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة اللغوية المشتركة إلاّ « بالانتشار » Diffusion في الماضي القريب ( أي منذ عهد اللغـة اللاتينيـة التي انحدرتْ عنهـا اللغة الرومانية ) . ويبدو ان انتشار مثل هذه الظواهر اللغوية عبر حدود اللغات ناتج عن « الازدواج اللغوي » Bilingualism وقد يكون شيوع الـظواهر التـراكيبية في الملامح الجغرافية أحد نتائج جنوح الأفراد مزدوجي اللغات لرفض أو عدم استخدام صيغة تراكيبية بعينها في احدى اللغتين اللتين يتحدث بهما ، وبذلك يسـاعد عـلى نشر استخـدام هـذه الصيغـة التـراكيبيـة في اللغـة الأخـرى . ومن الصعب أن نفهم ظـاهـرة الانتشـار الجغـرافي areal diffusion للظواهـر التراكيبية دون التفسير السابق ، لأن التراكيب لا تتأثر غالباً بالتغير التاريخي Historical change .

وهناك دليل آخر يؤيد النظرية القائلة باننا نمتنع عمـداً عن استخدام البدائل التراكيبية ، وقد قدم هذا الدليل كل من جون جمبرز John Gumperz وروبرت ويلسون R. Wilson (١٩٧١) ، وهو مأخوذ عن قرية هندية صغيرة اسمها كابور kupwar يتحدث سكانها الذين يبلغون ٣٠٠٠ نسمة ثلاث لغات وهي : المـاراطي Marathi والاردو Urdu وكـلاهمـا من أصـل هنـدو أوروبي أما الثالثة فهي الكانادا kannada وهي لغة غير هندو أوروبية . ( وهناك عدد قليل من الناس يتحدثون بلغـة رابعة هي التيلجـو Telugu ، وهي لغة غـير هندو أوروبية . وكما هو معتاد في الهند تنقسم هذه القريـة الى جماعـات مميزة بوضوح ( أي طوائف عنصرية ) castes يمكن التعرف عليها من خلال لغتها . ولكن من الطبيعي ان تحتاج هذه الجماعـات المختلفة الى الاتصـال بعضهم بعضاً ، ولذلك تعد ظاهرة الازدواجية اللغويـة أو ثلاثتهـا Bilingualism ( or trilingualism ) ظاهرة واسعة الانتشار خاصة بين الرجال . فقد تعايشتْ هذ

اللغات المختلفة على هذا النحو قروناً عديدة إلّا انه على الرغم من ذلك الاتصال الطويل فانه لم يحدث أي تغير في مجال المفردات vocabulary ويرى كل من جمبرز و ويلسون ان السبب في ذلك يرجع الى ان الاختلافات اللغوية تقوم بوظيفة تحديد الفوارق بين الطوائف الاجتماعية ، التي يحافظ عليها أهل القرية بصرامة شديدة ، ولذلك فان للمفردات وظيفة الحفاظ على الفوارق بين الطوائف الاجتماعية ، ولولا تلك الوظيفة لأمكنَ لضروريات كفاءة الاتصال أن تزيل مثل هذه الاختلافات بين المفردات عبر القرون . أما بالنسبة للتراكيب فان هذه اللغات الثلاثة الرئيسية قد أصبحتْ أكثر تطابقاً في كابور عنها في أي مكان آخر . فعلى سبيل المثال ، لا يوجد في لغة الكانادا المتواضع عليها لفعل is في تراكيب مثل **The postman is my best friend** بينما تتضمن هذه التراكيب فعل في لغة الاردو والماراطي ، ولكن توجد في لغة الكانادا المستخدمة في كابور كلمة لمثل هذا الفعل ، وذلك احتذاء لنموذج الاردو والماراطي . ويبدو ان هذا المثال يتفق على أقل تقدير مع فرضيتنا المطروحة والقائلة بان البدائل لا تستخدم غالباً على مستوى التراكيب ، بينما يفضل استخدامها على مستوى المفردات والنطق ، وتستخدم كشواهد ترمز الى الفوارق الاجتماعية . و لايبدو انه توجد ثمة أمثلة على العلاقة العكسية ، حيث يوجد قدر من التباين في المفردات والنطق أقل منه في التراكيب بين أفراد الجماعة .

وقد تبرز فرضية ضعيفة حول الأنماط المختلفة للوحدات اللغوية وعلاقاتها بالمجتمع ، ترى في التراكيب syntax شاهداً على وحدة cohesion المجتمع حيث يحاول الأفراد ازالة التراكيب من لغتهم الفردية ( ويبدو ان في مقولة وولفرام Wolfram عن جنوح الفوارق التراكيبية الى ان تكون فوارق كيفية qualitative أكثر منها فوارق كمية quantitative تأييد لمثل هذا الرأي ) . وعلى العكس ، فان المفردات شاهد على وجود الفوارق الفردية في المجتمع، وغالباً ما يقوم الأفراد بتنمية، البدائل حتى يقوموا بارساء فوارق اجتماعيا

دقيقة. فالنطق يعكس الجماعة الاجتماعية الدائمة التي يود المتحدث ان ينتمي اليها. ويؤدي ذلك الى ميل الأفراد الى كبت البدائل وهو أمر يعاكس ميول الأفراد في مجال التراكيب حيث تمتنع المجموعات المختلفة عن استخدام البدائل حتى تميّز نفسها عن المجموعات الأخرى، ويحاول بعض الأفراد الحفاظ على بعض البدائل (حيّة) حتى يستطيعوا تحديد أصولهم بشكل أدق، باستخدام هذه البدائل بنسب مميزة بالعلاقة الى البدائل الأخرى. وبالرغم من ان ذلك قد يبدو غير قابل للتصديق للوهلة الأولى إلّا انه يمثّل واحدة من طرق استخدام «متغيرات النطق pronunciation variables كما سنرى في الفصل الخامس.

والسبب الرئيس وراء تقديم الآراء السابقة هنا هو أن نبيّن انه من الممكن طرح فرضيات هامة وقابلة للبحث في إطار النظرة غير المحدودة الى اللغة، والتي نحن بصدد طرحها هنا، تلك النظرة التي اكتشفنا ان ليس بها مكان لمفاهيم مثل «اللغة س» أو «اللهجة س» أو حتى «النوعية س».

## ٢ ــ ٤ سجلات السياق Registers :

### ٢ ــ ٤ ــ ١ سجلات السياق واللهجات Registers & Dialects :

يشيع استخدام مصطلح «سجل السياق» Register في علم اللغة الاجتماعي، ونقصد به «النوعيات المعرفة حسب سياق الاستخدام "varieties according to use" وذلك على عكس مصطلح «اللهجات» والذي نقصد به «نوعيات معرفة حسب المستخدم» "Varieties according to user" (هاليداي وماكينتوش وستريفينز ١٩٦٤ Halliday, McIntosh & Strevens أنظر أيضاً كريستال ودافي ١٩٦٩ Crystal & Davy وجريجوري وكارول ١٩٧٨ Gregory & Carroll). وهذا الفصل ضروري لأننا نحتاج للتمييز بين وحدات لغوية مختلفة للغاية قد يستخدمها نفس الفرد ليعبّر عن نفس المعنى بصورة أو أخرى في مختلف المواقف، ولا ينبغي توسيع مفهوم «اللهجة»

حتى يتضمن مثل هذا التباين. فيمكن لنا عند كتابة خطاب ، مثلاً أن نبدأه هكـذا « أود أن أقـول لـك ان. . . » أوان نكتب « أحيـطكم علماً بـأن » ، ونستطيع ان نقدّم عدداً لا متنـاهياً من الأمثلة المشـابهة ، وان نثبت ان قـدر « التبـاين » الناتـج عن اختـلافـات سجـل السيـاق ( لـو أمكن احصـاؤهـا من النّاحية الكمية ) يمكن أن يكون مماثلاً للاختلافات الناتجة عن اللهجة.

ويمكننا تفسير سبب اختلافات سجل السياق بالرجوع الى نموذج « أفعال توكيد الهوية » كما فعلنا بالنسبة للاختلافات الناتجة عن اللهجات. ففي كل مرة يتحدث الفرد أو يكتب فانه لا يقوم فقط بتحديد موقعه الذاتي من المجتمع حوله ، ولكنه يقوم أيضاً بالربط بين هذا الحدث الاتصالي بعينه ونظام معقّد لتصنيف السلوك الاتصالي. ومثل هذا النظام يتخذ شكل جدول متعدد الأبعاد مثل الصورة العقلية التي يتصورها كل فرد لمجتمعه ( أنـظر ١ ــ ٣ ــ ١ ). وبالرغم من ان ما سنقوله قد يعد تبسيطاً للأمور فمن الممكن القول ان لهجة الفرد تكشف عن هويته ، بينما يكشف سياقه عمّا هو بصـدد فعله ( بالـرغم من ان هذه المفاهيم أقل وضوحاً مما تبدو عليه هذه العبارة الطنّانة كما سنرى فيما بعد ، والأبعاد التي قد نستخدمها في تحديد موقع أي حدث اتصالي ليست أقل تعقيداً من الأبعـاد المستخدمـة في تحديـد حالـة المتحدث الاجتمـاعية. وقد قام مايكل هاليداي بالتمييز بين ثلاثة أنواع رئيسة من هذه الأبعاد وهي كالتـــالي :

المجال Field والمنحىٰ Mode والعلاقة Tenor ( وأحياناً يُستخدم مصطلح أسلوب style بدلاً من ( العلاقة ) ولكن من الأفضل تجنب استخدام مصطلح « أسلوب » لأن استخـدامه الشـائع بـين العـوام ممـاثـل لمصـطلح « سجـل السيـاق » ). ويُقصد بـالمجال Field مقصـد وموضـوع Purpose الاتصال ، ويُقصـد « بالمنحىٰ » Mode الـوسيلة المستخدمـة في الاتصال ، وخـاصة أذا ما كانت منطوقة أو مكتوبة وتستند « العلاقة » Tenor الى العلاقـات القائمـة

. ... ـركـين participants الحـدث الاتصـالي communicative event .
وقد يساعدنا مرة أخرى استخدام العبارات الطنّانة لشرح هذه العلاقـات. ويُقصد « بالمجال » Field ما هو مقصد وموضوع الاتصال ، ويُقصد بالمنحىٰ Mode « كيفية » حدوث الاتصال ، ويُقصد بالعلاقة Tenor بِمَنْ « يتم الاتصال ( أي كيف ينظر المتحدث الى المتلقي الذي يحاول الاتصال به ). وفي إطار هذا النموذج فان افتتـاحيتي الخطابـين الذين أوردنـاهما من قبـل كأمثلة تختلفـان من حيث العلاقة ، فاحداهما غير شخصية وذات علاقة رسمية ( فـالخطاب موجه الى متلقٍ لا تربطه بالكاتب سوى علاقة رسمية ) أما الأخرى فهي ذات علاقة شخصية ــ إلّا ان « مجال » و « منحىٰ » الافتتاحيتين متطابقان.

طبقاً لهذا النموذج تتألف اختلافات السجل السياقي من أبعاد ثلاثة. وقد طرح ديل هايمز Dell Hymes **١٩٧٢** نموذجـاً آخر شـائع الاستخـدام به ما لا يقل عن ثلاثة عشر متغيراً variable تسهم في تحديد الوحدات اللغـوية التي يختارها المتحدث ، هذا بالاضافة الى متغير « اللهجة ». ومن المشكوك فيه جـداً ان يعكس هذا العـدد الكبير من المتغيـرات على كثـرته كـل تعقيدات الاختلافات النـاتجة عن السجـل السياقي. وبـالرغم من ذلـك ، فان كـل من هذه النماذج يقدم لنا اطاراً نستطيع من خلاله ان نحدد الأبعاد الرئيسة للتـطابق والاختـلاف ، وتتضمن عـلاقـات المتحـدث Speaker والمخـاطب addressee مثـلاً أكـثر من بُعـد واحـد ( كـما سنكتشف في **٤ ــ ٤ ــ ٢**) ومن بين هذه الأبعاد بُعد القوة power وبُعد يحدد ما إذا كان المتحدث تـابعاً أو مساوياً أو متفوقاً على المخاطب ، ومنها أيضاً بُعد التضامن solidarity وهو الـبُعد الذي يحدد درجات علاقة المتحدث والمخاطب وهي علاقة قد تكون وثيقة للغاية أو بعيدة و واهية. فالمتحدث باللغة الانكليزية يحدد علاقته بالمتلقي استنـاداً الى هذين الـبُعـدين ، وقد يـظهر ذلـك بشكل واضـح في انتقـائـه لمصطلحات التخاطب terms of address ومنها على سبيل المثال Mr. Smith, Sir. John, mate.... الخ.

وقد عرضنا حتى الآن لمفهوم « السجل السياقي » كما يُستخدم بصفة عادية وباعتباره اسماً يُطلق على نوعية بعينها توازي اللهجة. ومع ذلك، فقد بينا من قبل ان « اللهجات » غير قائمة كنوعيات مستقلة، وعلينا الآن ان نسأل ما إذا كان مفهوم « السجل السياقي » قائماً كنوعية مستقلة. ويبدو ان الاجابة على هذا السؤال هي ان السجل السياقي لا يزيد عن « اللهجة » من ناحية كونه نوعية مستقلة. ومن السهل أن ندرك، مثلاً، ان انتقاء الوحدات اللغوية في تركيب بعينه يعكس عناصر مختلفة استناداً الى ماهية الوحدات المستخدمة. فاحدى هذه الوحدات قد تعكس، مثلاً، رسمية الموقف بينما تعكس الأخرى خبرة المتحدث والمخاطب. وذلك هو الحال في جملة مثل **We obtained some sodium chloride** ( *لقد حصلنا على بعض كلوريد الصوديوم ) حيث يعد استخدام كلمة **obtained** ( *حصلنا ) كلمة رسمية ( وذلك بالمقارنة بكلمة **got** أي « أخذنا » أو اعطونا ) بينما تعد كلمة **sodium chloride** مصطلحاً فنياً ( وذلك بمقارنتها بكلمة **salt** أي ملح ). وعلى ذلك فان محور « الرسمية » formality مستقل تماماً عن محور درجة « الفنية » technicality وقد يظهر ذلك بوضوح عندما نجد ان الاختيار بين **get** و **obtain** لا يرتبط بالاختيار بين **salt** و sodium chloride ولذلك يمكننا أن نتمثل التركيبات الأربعة « الرسمية » و « الفنية » في التراكيب الأربعة التالية :

رسمي وفني **We obtained some sodium chloride.** لقد حصلنا على بعض كلوريد الصوديوم*.

رسمي وغير فني **We obtained some salt.** لقد حصلنا على بعض الملح .*

غير رسمي وفني : **We got some sodium chloride** لقد أخذنا / بعض كلوريد الصوديوم .*

غير رسمي وغير فني : **We got some salt** لقد أخذنا / بعض الملح*.

وتشير مثل هذه الأمثلة البسيطة الى ان الوحدات اللغوية المختلفة قد

تتأثر بدرجات متفاوتة بالجوانب المختلفة لعملية الاتصال The act of communication بنفس الطريقة التي تتفاعل بها الوحدات المختلفة مع الخصائص المختلفة للمتحدث ( ٥ ــ ٤ ــ ٢ ) ولا يمكننا التحدث عن « سجلات السياق » إلّا باعتبارها نوعيات ، بالمعنى الأكثر بساطة ، وهي انها مجموعات من الوحدات اللغوية لها نفس التوزيع الاجتماعي ، أي انها تُستخدم في نفس الظروف أو في نفس المواقف . ويبتعد هذا المفهوم كل البعد عن مفهوم النوعية حيث يتمسك المتحدث بنوعية واحدة في كلامه ، أي انه يتحدث بلهجة واحدة ( وربما تكون اللهجة الوحيدة التي يستطيع التحدث بها ) و « سجل سياق واحد » . وبالرغم من ذلك فانه من الواجب أن نقول ان الذين يستخدمون مصطلح « سجل السياق » ( والذي يستخدمه علماء علم اللغة الاجتماعي كمصطلح فني فقط ) لم يقصدوا الى استخدامه بهذا المعنى ، وذلك لأن كل النماذج المطروحة تؤكد ضرورة الحاجة الى تحليل متعدد الأبعاد « لسجلات السياق » .

وهناك وجه آخر للتشابه ما بين « اللهجات » و « سجلات السياق » وهو انهما غالباً ما يتداخلان الى حد كبير ، فلهجة فرد بعينه قد تكون سجل سياق فرد آخر ، والوحدات التي قد يستخدمها فرد بعينه ، مثلاً ، تحت كل الظروف وفي جميع المواقف غير الرسمية قد يستخدمها فرد آخر في المواقف الرسمية فقط ، وذلك عندما يشعر الأخير بحاجته الى ان يتحدث مثل الفرد الأول قدر استطاعته . وهذه هي العلاقة التي تربط ما بين المتحدثين الأصليين native speakers باللهجات المتواضع عليها واللهجات غير المتواضع عليها . والصيغ اللغوية التي قد تكون جزءاً من « لهجة » المتحدث بنوعية متواضع عليها وقد تكون جزءاً من السجل السياقي « الخاص بالمتحدث بالنوعية غير المتواضع عليها . وسنقدم أيضاً كماً كبيراً من الأدلة والبراهين لتدعيم هذا الرأي بالرغم من أن ذلك قد يكون غير ضروري عندما تكون الحقائق واضحة كما هو الأمر هنا .

ونتهي الى اننا قد قدّمنا نموذجاً للغة يختلف اختلافاً جذرياً عن النموذج الذي يستند الى مفهوم « النوعية » vraiety. وعليه ، فان أي نص قد يمثل في الغالب نوعية واحدة ( بالرغم من اننا يجب أن نعترف باحتمال وقوع « تحويل الشفرة » code — switching ( أنظر ٢ ـ ٥ ) . ومن الممكن أن نقوم بارساء قواعد « نحو » أو « اجرومية » نوعية بعينها ، أعني اننا نستطيع ان نقدّم وصفاً لكل أنواع الوحدات اللغوية القائمة في النصوص التي تمثّل تلك النوعية .

ونستطيع أن نطلق على مثل هذا النموذج عبارة « نموذج النوعية » varie- ty — based model وذلك على عكس النموذج الذي قدّمناه وهو « نموذج الوحدة » item — based model وترتبط كل وحدة لغوية في اطار النموذج الأخير بتوصيف اجتماعي يحدد مَنْ يستخدمها ومتى تُستخدم . وهناك مجال لوجود تشابهات بين الوحدات من جهة توصيفها الاجتماعي الى حد انه يمكن تصنيف هذه الوحدات المتشابهة في صورة واهية من صور « النوعية » ، وذلك تبعاً لدرجة تشابهها . وقد يكون هناك الكثير من مثل هذه التصنيفات للوحدات في لغة فرد بعينه ، وقد يكون هناك أيضاً الكثير من هذه الوحدات ذات الوصف الاجتماعي المتفرد في نوعه ولا يشير التوصيف الاجتماعي لمختلف الوحدات الى نفس العوامل ، ولا حاجة ثمة الى ذلك ، وعليه فقد تعكس بعض الوحدات في التركيب الواحد ( أعني بعض الكلمات ) مسقط رأس المتحدث وتعكس وحدات أخرى طبقته الاجتماعية ، وقد تعكس وحدات أخرى علاقة المتحدث بالمخاطب ووحدات أخرى رسمية الموقف ، الخ . وعلى ذلك فان الغرض من الوصف في علم اللغة الوصفي descriptive Linguistic ليس مجرد وصف « نوعية » بعينها بل الوحدة اللغوية ذاتها . والسؤال الذي سنحاول الاجابة عليه هو الى أي درجة نستطيع أن نصل الى تعميمات عن الوحدات اللغوية في داخل اطار لغة الفرد الواحد من ناحية ، ومن خلال لغة الأفراد ، من ناحية أخرى . وبالطبع علينا ان نجيب أيضاً على السؤال

التالي : أي نوع من التعميمات يمكن أن نصل اليه ؟

## ٢ ـ ٤ ـ ٢ العرف والضرورة Convention and Necessity

من أهم الأسئلة التي طرحناها عند حديثنا عن « التوصيف الاجتماعي » social descriptions في الفقرة السابقة هو : هل يمثّل هذا التوصيف الاجتماعي « معايير اجتماعية » Social norms ، ناتجة عن العرف أم ان هذه المعايير نتاج حتمي للطريقة التي نتعلّم بها اللغة ونستخدمها. وتنشأ هذه المشكلة بالعلاقة بكل من « اللهجات » و « سجلات السياق » بمعنى انها تنشأ بالعلاقة الى التوصيف الاجتماعي سواء أشار هذا التوصيف الى المتحدث أم أشار الى الظروف. وسنقتصر هنا في حديثنا على « الظروف » أو « المواقف » حيث القضايا أكثر وضوحاً.

فاللغة الانكليزية المستخدمة في الخطابات الرسمية تتضمن صيغاً تعبيرية expressions مثل :

**further to our letter of..., we note that..., we regret that...,**

( **بالرجوع الى خطابنا المؤرخ.... قد لاحظنا ان... ونأسف لابلاغك بأن**... وهكذا دواليك. لماذا إذن تُستخدم مثل هذه التعبيرات الخاصة ، بينما هناك صيغ تعبيرية أخرى ذات معنى مماثل مثل **"We are sorry to tell you..."** ( **نأسف لاخبارك ان**... ) غير مستخدمة ؟ وقد تكون احدى الاجابات الممكنة على مثل هذا السؤال هي ان المسألة مجرد مسألة عرف متبع ، أو يمكن القول ان تفضيل هذه الصيغ التعبيرية على بدائلها التي كان من المُمكن أن تؤدي نفس الغرض دون خلل يُذكر هو مجرد صدفة تاريخية. وقد تكون الاجابة هي ان العرف المتواضع عليه ، قد يتحول الى ضرورة لأي سبب من الأسباب ، أعني ان هذا العرف يتوجب اتباعه حتى يصبح الخطاب خطاباً عادياً ومقبولاً لدى المتلقين. ولكن ينبغي علينا ان نقول انه لم يكن هناك ما يحتم في أول الأمر تفضيل هذه الصيغ على البدائل الأخرى المناسبة. وثمة

اجابة أخرى ، هي انه ليس هناك مطلقاً أية بدائل أخرى مناسبة تؤدي نفس المعنى ولذلك فان استخدام صيغة تعبيرية بعينها يعتبر ضرورة ملحة لا يمكن تجنبها إذا أردنا التعبير عن معنى محدد.

ومن الصعب أن نحسم مسألة الصراع القائم بين الضرورة والعرف بما يعتبر تفسيراً لهذه الحقائق . والمشكلة هي ان احدهما قد يكون مصيباً في بعض الحالات بينما يكون الآخر صائباً أيضاً في بعض الحالات الأخرى. ويعد الاختيار ما بين الفعلين get و obtain ( وكلاهما يعني يحصل على ) مسألة يتحكّم فيها العرف ، لأنه ليس ثمة ما يحتّم أن يكون احدهما أكثر رسمية من الآخر ( قارن أيضاً ما بين مركبة وسيارة car و vehicle وعلى العكس فان الاختيار ما بين لفظي ( الملح ) salt و sodium chloride وكلوريد الصوديوم مسألة تحتمها ضرورة الاستخدام وذلك لأنه من الضروري أن نتجنّب الغموض Ambiguity في استخدام المصطلحات الفنية ، وكلمة ملح salt مستخدمة بالفعل ( وتعني مركّب من أيونين ions مختلفين ) من ناحية ، ومن المفيد ، ومن ناحية أخرى ، أن يكون هناك اسم لملح الطعام تظهر منه علاقات هذه المادة مع المركّبات الكيميائية الأخرى وذلك الاسم هو sodium chloride كلوريد الصوديوم ، ومن الصعب أيضاً أن نجد صيغاً تعبيرية بديلة باللغة العادية للصيغ التالية :

**further to our letter of..., we note that...**

ولذلك فان استخدامنا لمثل هذه الصيغ للتعبير عن هذه الدلالات يصبح مسألة تحتمها الضرورة. وعلى العكس من ذلك يعد تفضيل الصيغة الأولى . . . we regret to inform you that التي تدل على نفس المعنى » . . . we are sorry to tell you that على الصيغة الثانية مسألة عرف متبع لا غير.

ولمثل هذاالفصل بين الضرورة والعرف نتائج عملية هامة حيث ان هناك ميل بين العوام للتعامل مع كل الاختلافات الناتجة عن سجل السياق ...

واعتبارها على نفس الدرجة من الأهمية وذلك لنفس السبب. وعلى ذلك يمضي الأطفال الكثير من الوقت ويبذلون الكثير من الجهد في تعلّم العرف اللغوي ( مثل العرف الخاص باستخدام صيغة المبني للمجهول passive voice عند كتابة التقارير العلمية باللغة الانكليزية ) كما يفعلون في المسائل الخاصة بالضرورة اللغوية مثل المصطلحات العلمية في الكيمياء.

إن الفصل بين القيود الاجتماعية الناتجة عن العرف المتبع وبين القيود الاجتماعية الناشئة عن الضرورة أمر هام جداً وذلك بسبب قوة تمسكنا بالحفاظ على سلامة العرف ويتضح ذلك بصفة خاصة في حالة « المحظورات اللغوية » Linguistic taboos مثل كلمات السباب والشتائم باللغة الانكليزية والمعروفة بـاسم four — letter words ( أنـظر بلومـفيـلد Bloomfield ١٩٣٣ : ١٥٥ وبولينجر Bolinger١٩٧٥ : ٢٥٥ ). وهناك عرف قوي للغاية يحد بل يحظر من استخدام كلمات بعينها مثل ( shit ) ( خــراء ) ويعرف معظم الناس هذه الكلمات جيداً ولكنهم يحافظون على مثل هذا العرف بصرامة شديدة الى درجة انهم يمتنعون تماماً عن استخدامها ، ( حتى في حالة اخبار الآخرين ان أطفالهم قد بدأوا في استخدامها ). ولو نظرنا الى هذه الحقيقة نظرة موضوعية لوجدنا ان هذه مسألة غريبة جداً ، وفضلاً عن ذلك فان القانـون يسانـد مثل هـذا العرف لدرجة انه يمكن محاكمة الناشرين إذا ما تجرأوا وخالفوا هذا العرف بطبع ونشر مثل هذه الكلمات. ويبدو ان استخدام هذه المحظورات اللغوية يؤدي الى اعطاء مثل هذه الكلمات قيمة رمزية زائدة عند استخدامها كرمز للغضب أو الاحتجاج. ويتضح ذلك بشكل جلي للغاية في الحالات التي تعتمد فيها القيمة الاجتماعية للكلمة على العرف المتبع ، لأن الكلمات الأخرى الدالة على نفس المعنى ليست من المحظورات ( وذلك بالـرغم من ان استخدامها قد يقتصر على الاستخدام الفني مثل faeces ( أي البراز ) أو الكلمات الخاصة بـالأطفال مثـل "poo — poo"( أي كا ـ كـا ) الخ . ان قضيـة « المحظورات

اللغوية » وأشباه المحظورات اللغوية semi — taboo language ( مثل اللغة العامية السوقية والسباب والشتائم والاهانات الخ ) تستحق المزيد من البحث الجاد من قبل علماء علم اللغة الاجتماعي ، فهي قد تخبرنا بالكثير عن اللغة وعلاقتها بالمجتمع.

**٢ ـ ٤ ـ ٣ ازدواج اللهجات ( الديجلوسيا ) Diglossia :**

إذا كنّا فيما سبق قد أكدنا على الامكانية النظرية لأن تتسم كل وحدة لغوية بتوزيع اجتماعي فريد تبعاً لظروف استخدامها ، فينبغي علينا أن نقرر الآن ان مثل هذه الامكانيات لا تُسْتَغَل في بعض المجتمعات ، حيث يوجد نظام بسيط يسمى بالازدواج اللهجي أو الديجلوسيا Diglossia وهو نوع من القيود الاجتماعية المفروضة على الوحدات تتخذ صورة قيود على « نوعيات واسعة الانتشار » Large scale varieties بدلاً من القيود التي تقتصر على كل وحدة على حدة. وقد كان شارلز فرجسون Charles Fergusson (**١٩٥٩**) هو أول مَنْ استخدم هذا المصطلح في أبحاث علم اللغة الاجتماعي لوصف المواقف اللغوية الموجودة في اليونان والعالم العربي بصفة عامة ، وسويسرا المتحدثة باللغة الألمانية وجزيرة هايتي. ويوجد في كل هذه المجتمعات نوعيتان منفصلتان متميزتان تميزاً كافياً بشكل يسمح للعوام بوصفهما على انهما لغتان منفصلتان تُستخدم احداهما في المواقف الرسمية والعامة ، بينما تُستخدم الأخرى في الظروف العادية واليومية.

وقد عرَّف فرجسون Fergusson الازدواج اللهجي على النحو التالي :

« الديجلوسيا أو الازدواج اللهجي موقف لغوي ثابت نسبياً توجد فيه بالاضافة الى اللهجات الأساسية للغة بعينها ( والتي قد تتضمن لهجة متواضعاً عليها أو لهجات اقليمية متواضعاً عليها ) نوعية أخرى مختلفة صارمة من ناحية التقنيين ( وهي غالباً ما تكون أكثر تعقيداً

من ناحية قواعدها النحوية ) . هذه النوعية غالباً ما تكون مفروضة من جهة عليا ، وهي أيضاً لغة الكتابة الأساسية في الأدب ولغة التراث وربما لغة لجماعة كلامية في الماضي ، وهذه « النوعية » يدرسها ويتعلّمها الناس من خلال النظام التعليمي الرسمي للبلاد . وهي تُستخدم في جميع المواقف والأغراض الرسمية المنطوق منها والمكتوب ، ولكنها ليست مُستخدمة في أي قطاع من قطاعات المجتمع لتجاذب أطراف الحديث اليومي والعادي .

فعلى سبيل المثال ، تكون اللغة المُستخدمة في المنزل في أي جماعة « ديجلوسية » تتسم بالازدواج اللغوي نوعية محلية من اللغة العربية ( وقد تكون هناك اختلافات هائلة بين أي من اللهجات العربية واللهجات الأخرى ، وقد تصل هذه الاختلافات أحياناً الى درجة من عدم الفهم المتبادل ) ، ولا تتباين بين أكثر الناس حظاً من التعليم وأقلهم حظاً منه . ولكن لو أراد أحدهم أن يلقي محاضرة في الجامعة أو خطبة في المسجد وجب عليه أن يستخدم اللغة العربية المتواضع عليها وهي نوعية تختلف في كل المستويات عن النوعية المحلية ، ويشعر الجميع انها تختلف كثيراً عن اللهجة المحلية الشائعة vernacular لدرجة ان هذه النوعية تدرس في المدارس بنفس الطريقة التي تدرس بها اللغات الأجنبية في المجتمعات المتحدثة باللغة الانكليزية . وعندما يتعلّم الأطفال الكتابة والقراءة فانهم يتعلّمونها أو يدرسونها باللغة العربية المتواضع عليها بدلاً من اللهجة المحلية الشائعة .

والاختلاف الواضح بين « المجتمعات » التي « تتسم بالازدواج اللهجي » والمجتمعات المتحدثة باللغة الانكليزية يكمن في انه لا يوجد في المجتمعات الديجلوسية فرد واحد من المتمتعين بميزة تعلّم « النوعية العالية »

High variety ( المستخدمة في المواقف الرسمية وفي التعليم ) في تعلّمها باعتبارها لغته الأُم لأن الجميع يتحدثون « بالنوعية الدارجة » Low variety في المنزل. ونتيجة لذلك ، فالطريقة المثلى لاكتساب « النوعية العالية » في مثل هذه المجتمعات هي الذهاب الى المدارس لا النشأة في أسرة من نوع معيّن. وهناك بالطبع اختلافات بين الأسر في قدرتها المادية على تحمل نفقات التعليم . ولذلك ، فان الازدواج اللهجي لا يضمن المساواة اللغوية Linguistic equality بين الغني والفقير. ولكن هذه الاختلافات لا تظهر إلاّ في المناسبات العامة الرسمية التي تتطلّب استخدام النوعية العالية على عكس ظهورها في المواقف التي تحدد فيها انتماءات الفرد الاجتماعية فور نطقه باللغة ، ( كما يحدث في المجتمعات المتحدثة باللغة الانكليزية ). وسنقول الكثير عن المواقف في المجتمعات غير الديجلوسية في ٦ ـ ٢ و ٦ ـ ٤ .

ومن الواضح ان تعريف الازدواج اللهجي الذي قدّمه فرجسون شديد التحديد في عدد من النقاط. ويطالب فرجسون على سبيل المثال أن تكون النوعيتان الدارجة والعالية منتميتين الى نفس اللغة ، مثل العربية المتواضع عليها ( الفصحى ) والعربية الدارجة. ولكن بعض العلماء قد تجاوزوا ذلك التحديد باستخدام هذا المصطلح للدلالة على مواقف قد لا تعد ديجلوسية تماماً إذا ما اتبعنا هذا التعريف بدقة. فجوشوا فيشمان Joshua Fishman ، على سبيل المثال يصف باراجواي Paraguay على انها مثال على الجماعة الديجلوسية (١٩٧١ : ٧٥ ) ، بالرغم من ان النوعيتين العالية والدارجة فيها تنتميان الى الاسبانية والجوارنية Guarani. وهي لغة هندية لا تنتمي على وجه الاطلاق الى الاسبانية. ولأننا نوافق على فكرة عدم وجود فرق بين نوعيات لغة بعينها ونوعيات اللغات الأخرى فمن المعقول قبول مثل هذا التساهل في تطبيق مثل هذا التعريف في مواقف بعينها.

ولكن فيشمان Fishman ( متبعاً جون جمبرز John Gumperz تجاوزا أيضاً هذا التعريف المصطلح وطبقه على كل مجتمع تُستخدم فيه نوعيتان أو أكثر تحت

ظـروف مختلفة أو في مـواقف مختلفـة ١٩٧١ : ٧٤). وقـد يبـدو ان ذلـك استحـداثاً يثـير الأسف لأنه يجعـل كل المجتمعـات مجتمعـات ديجلوسيـة ، حتى المجتمعات المتحدثة باللغة الانكليزيـة ( باستثنـاء المهاجـرين من ذوي اللغـات الأصليـة الأخـرى ) حيث تُستخـدم « سجـلات السيـاق » ) و « اللهجات » في ظروف ومواقف مختلفة ( قارن على سبيل المثال بين الخطاب الوعظي والتعليق الرياضي ). وتكمن القيمة الحقيقية لمفهوم « الديجلوسيا » في إمكانية استخدامه في التصنيفات الدراسيـة للنوعيـات Typology المختلفة في علم اللغة الاجتماعي ، وأعني بذلك تصنيف الجمـاعات وفقـاً للموقف الاجتماعي اللغوي الذي يميزها. وتقدم لنا الديجلوسيا أو الازدواج اللهجي موقفاً معارضاً للمواقف السائدة في دول مثل بـريطانيـا أو الولايـات المتحدة والتي قد نطلق عليها « اللهجة الاجتماعية » social dialectia ويظهر من ذلك المصـطلح ان هذه النـوعيات تعـد من قبل اللهجـات الاجتمـاعيـة وليست سجلات سياق.

وأخيراً ، كيف يمكننا ان نـوفق بين تعـريف الديجلوسيـا وبين زعمنـا ان النوعيات لا توجد إلّا باعتبارها وسيلة غير رسمية للتحدث عن مجموعات من الوحدات اللغوية ذات التوزيع الاجتمـاعي المتشابـه ؟ ولو تمسكنـا بهذا الموقف الأخير فاننا قد ننظر الى هذه الجماعات الديجلوسية على انها جماعات تنتمي فيها معظم الوحدات اللغوية الى احدى مجموعتين منفصلتين تستخدم كل منهما تحت ظروف أو في مواقف مختلفة.

وعـلى نقيض هذا المـوقف ، فان الـوحـدات اللغـويـة في الجمـاعـة غير الديجلوسية لا تقع في عدد ضئيل من المجموعات المنفصلة ، ولكنها أقرب الى النقيض الآخر حيث يكون لكل وحدة توزيع اجتماعي متميز عن غيرها. ولو اتخذنا هذا النمط كنموذج ، فاننـا سنجد ان الاختـلاف بين الجمـاعات الـديجلوسية وغـير الديجلوسيـة ليس أقل أهميـة أو أحقية بـالبحث ، ولكنـه قد يتضح انه أقل وضوحاً مما ضمنه فرجسون في تعريفه للديجلوسيا.

## ٢ ـ ٥ خليط النوعيات Mixture of Varieties :

### ٢ ـ ٥ ـ ١ تحويل الشفرة Code — Switchinr :

سنستخدم مصطلح « نوعية » في هذا الجزء للدلالة على ما يعبّر عنه تقليدياً باللغة أو اللهجة أو السجل السياقي ، وقد يساعدنا ذلك على المناقشة في هذا الجزء. ولكن هناك أسباب اضافية تجعلنا نشك في جدية مفهوم « النوعية » كجزء من نظرية علم اللغة الاجتماعي لأن ما يُطلق عليه عادة لفظة النوعية قد يكون مختلطاً مع نوعيات أخرى حتى في نفس الفقرة من الحديث. ومن أوضح الأمثلة على ذلك وأوسعها انتشاراً الظاهرة المسماة « بتحويل الشفرة » code — switching حيث يستخدم المتحدث الواحد أكثر من نوعية واحدة في أوقات مختلفة. ويعد ذلك نتيجة تلقائية لوجود العديد من « سجلات السياق » ، لأن المتحدث قد يستخدم بالضرورة سجلات مختلفة في مواقف مختلفة ( أنظر دينسون Denison ١٩٧١ وباركين Parkin ١٩٧٧ من أجل عدد من الدراسات الواضحة لظاهرة تحويل الشفرة في مجتمعات بعينها ). وإذا كان ذلك هو مفهوم « تحويل الشفرة »فماذا أضاف هذا المفهوم لما نعرفه بالفعل ؟ ولكن هناك مزيد على ذلك.

أولاً : هنالك ما يُطلق عليه « التحويل المجازي للشفرة » Metaphorical code — switching ( بلوم وجمبرز Blom and Gumperz ١٩٧١ ) ، حيث يتم استخدام نوعية بعينها تُستخدم في موقف معيّن غالباً ، في موقف آخر مختلف ، لأن الموضوع هو من النوع الذي قد يُثار عادة في النوع الأول من المواقف. ومن الأمثلة على ذلك ، الموقف المذكور في أبحاث جان بيتر ـ بلوم Jan — Petter Blom وجون جمبرز John Gumperz عن مدينة همنسبرجت Hemnesberget في شمال النرويج حيث يتسم الموقف هناك بالازدواج اللهجي Diglossic situation وتعد احدى اللغتين وهي النرويجية المتواضع عليها ( البوك مال ) Bokmal النوعية العليا وتعد اللهجة المحلية ( الرانامال )

Ranamal وهي النوعية الدارجة.

« لاحظنا خلال صباح أمضيناه في مكتب إدارة الجماعة ان الموظفين يستخدمون تعبيرات من كل من اللغة المتواضع عليها ومن اللهجة المحلية أيضاً ، ويعتمد ذلك في المقام الأول على ما إذا كانوا يتحدثون عن مسائل رسمية أم لا. وكذلك فعندما يتقدم بعض المواطنين بطلبات للموظفين ، فان التحيات والاستفسار عن صحة أسرة المواطن عادة ما تكون باللهجة المحلية ، بينما يجري الجزء الرسمي من التعامل باللغة المتواضع عليها.

( بلوم وجمبرز Blom and Gumperz ١٩٧١ : ٤٢٥ )

ويظهر من مثل هذه الأمثلة ان المتكلمين يملكون القدرة على التحكم في المعايير التي تتحكّم بدورها في استخدام النوعيات ، وذلك بنفس الأسلوب الذي يتحكّم به المتكلمون بقواعد معاني الكلمات عند استخدامها استخداماً مجازياً. وذلك شيء يعرفه الجميع من خبرتهم اليومية ، ولكنه يستحق أن يُذكر صراحة في كتاب عن نظرية علم اللغة الاجتماعي لأنه يساعدنا على تجنّب النظر الى المتحدثين على انهم آلات لغوية اجتماعية ذاتية الحركة ، لا تستطيع التحدث إلّا في اطار الحدود التي تحددها المعايير الاجتماعية.

وهناك شيء آخر يجعل من « تحويل الشفرة » أمراً أكثر أهمية ، وهو ان المتكلم يستطيع أن يحول الشفرات ( أي النوعيات ) في اطار التركيب الواحد ، وقد يفعل ذلك مرات عديدة. ويقترح جون جمبرز John Gumperz ١٩٧٦ استخدام مصطلح « تحويل الشفرة »في المحادثة — conversational code switching لمثل هذا النوع حق يمكن تمييزه عن « تحويل الشفرة في المواقف » situational code — switching ( والذي يطلق هو عليه « الازدواج اللهجي » بمعناه الأكثر عمومية والمذكور سابقاً ) والذي تتطابق لحظة تحويل الشفرة فيه

مع لحظة تغير الموقف. ولا يطرأ مثل هذا التغيير على الموقف في « تحويل الشفرة في الحديث » ، كما لا يوجد أي تغيير في الموضوع قد يؤدي الى « التحويل المجازي للشفرة ». وعلى خلاف ذلك ، فان الانطباع الذي نخرج به هو ان الغرض من تحويل الشفرة في المحادثة هو انتاج أمثلة من النوعيتين بنسبة متعادلة تقريباً. ويمكننا تحقيق مثل هذا التوازن عن طريق استخدام نوعية للتعبير عن تركيب بعينه ونوعية أخرى للتعبير عن تركيب آخر ، وهكذا دواليك ، ولكن من الممكن أيضاً استخدام النوعيتين في أجزاء مختلفة من التركيب الواحد. ويبدو ان « تحويل الشفرة في المحادثة » أمر مسموح به في بعض المجتمعات وغير مسموح به في مجتمعات أخرى. وهو شيء لا يفعله الفرد مزدوج اللغة إلاّ عندما يتحدث الى عضو من أعضاء المجتمع الذي يسمح بذلك.

ومن أوضح الأمثلة على « تحويل الشفرة في المحادثة » ، هو تلك الأمثلة التي تكون فيها النوعيات المستخدمة مختلفة للغاية ، كما هو الأمر عندما تكون هذه النوعيات لغات مختلفة. والفقرة التالية نص من حديث متحدث من أصل « بورت ريكي » Peurto Rican من سكان مدينة نيويورك وقد قدّم ذلك المثل ويليام لابوف ١٩٧١ ، وقد ترجمت الأجزاء الاسبانية من هذا الحديث داخل أقواس :

> por eso cade **(therefore each...), you know it's** nothing to be proud of, porque yo no estoy ( **be — cause I'm not** ) proud of it, as a matter of fact I hate it, pero viene vierne y sabado yo estoy, tu me ve hacia mi, sola **(but come (?) Friday and saturday I am, you see me, you look at me, alone)** with a, aqui solita, a veces que frankie me deja **(here alone, sometimes frankie leaves me)**, you know a stick or something...

وتعد مثل هذه الأمثلة هامة حيث انها تظهر ان التصنيفات التراكيبية

المستخدمة في تصنيف الوحدات اللغـوية قـد تكون مستقلة عن تـوصيفاتهـا الاجتماعية. ففي النص السابق ، مثلاً ، نتبع الفعل الاسباني **estoy** (**am**) صفة ولكنه استخدم صفة من اللغة الانكليزية (proud). وقد يؤيد ذلك وجهة النظر القائلة بان بعض التصنيفات التـراكيبية ( وتصنيفـات أخرى غيـرها ) المستخدمة في التحليل اللغوي قد تكون تصنيفات « شمولية » Universals ، أي انها لا تقتصر على لغة بعينها بل تتعداها لتصلح لتصنيف معظم اللغات الأخرى.

وهناك مثال أوضح من ذلك على « تحويل الشفرة في المحادثة » داخل التركيب الواحد قد اقتبسته جيليان سـانكوف Gillian Sankoff وهـو مأخـوذ من كلام رجل أعمال من قرية في غينيا الجديدة ( سانكوف Sankoff **١٩٧٢** : **٤٥**) ، واللغات المعينة هنا هي ما يُسمى بالبوانج Buang والرطانة الميالنيزية الحديثة « Neo — Melanisian Pidgin أو « توك بيزين » Tok Pisin ( والتي سنعود اليها في الجزء ٢ ــ ٥ ــ ٣).

فصيغة النفي في لغة البوانج تتحدد باستخـدام صيغة **su** قبـل المسند Predicate وصيغة **re** بعده. ولكن وجد المسند في أحد التراكيب ( وهو أطول من ان نورده هنا ) باللغة الانكليزية ، ولكنـه وقع بـين حدي صيغـة النفي في البـوانـج وهمـا **su ... re**. ونستـطيـع أن نصـل الى نتيجـة فحـواهــا انـه حتى الوحدات التي تنتمي الى لغتين مختلفتين مثل البوانج والرطانة المالينيزية الحـديثة يمكن ان يصنفهـا المتحـدثـون وعلماء اللغـة عـلى صـورة مجمـوعـة من التصنيفات التراكيبـة المشتركـة ( كما هـو الحال بـالنسبة للمسنـد في هذه الحالة ). والموضوع الجدير بالبحث في اطار جماعة تسمح « بتحويل الشفرة في المحادثة » هو أمكانية وجود أية قيود عـلى مكان وقـوع التغيير في الشفـرة في التركيب. فهل يمكن مثلاً أن يحدث هذا التغيير في منتصف أشباه الجمل الاسمية ، NOUN PHRASE.

وسـواء أكانت هـذه القيود نـاتجة عن العـرف الاجتمـاعي أو نـاتجـة

عن قصور قدرات العقل البشري ، فان نتائج مثل هذه الأبحاث قد تكون هامة .

٢ ـ ٥ ـ ٢ الاستعارة Borrowing :

ومن الوسائل الأخرى التي قد تختلط بها النوعيات المختلفة بعضها بعضاً هو حدوث ذلك من خلال عملية الاستعارة ( أنظر برلينج Burling ١٩٧٠ : الفصل ١٢ من أجل عرض موجز وجيد ، وهناك عرض أطول في بينون Bynon ١٩٧٧ : الفصل ٦). ومن الواضح ان ما نعنيه بكلمة استعارة هو استعارة وحدة بكاملها من نوعية الى أخرى مثل استعارة اسم طبق فرنسي **boeuf bourguignon** للاستخدام كمصطلح انكليزي وقد أُستعير بأكمله بما فيه نطقه باللغة الفرنسية ( وهو ينطق بحرف "r" « اللهوي » uvular "r" الخ ) والمتحدثون الانكليز الذين يعرفون ان هذه الوحدة جزء من لغة أجنبية يعيدون تصنيفها عن طريق تغيير وصفها الاجتماعي من « الفرنسية » الى اللغة « الانكليزية » ( تغيير صفتها من كونها كلمة يستخدمها الفرنسيون الى كونها كلمة استخدمها أنا ) . وعلى عكس عملية تحويل الشفرة ، فان هذه العملية لا تتطلب أي تغير في النوعية عند استخدام مثل هذه الوحدة في تركيب انكليزي مثل : **Let's have some boeuf bourguignon.** ما دامت كلمة **boeuf bourguignon** قد أصبحت جزءاً من اللغة الانكليزية من وجهة نظر المتحدث . ولو ان المتحدث قال : **Let's have du boeuf bouruignon.** فانه يكون قد حول الشفرة لأن كلمة **du** ( بعض ) كلمة فرنسية ، وليست كلمة انكليزية وهي لا تستخدم إلّا بصحبة اسم فرنسي ، ويمكننا ان نقول بمنتهي الثقة ان التركيب **let's have du bread.** لا يمكن حدوثه إلّا في حالة كون كلمة **bread** قد استعيرت من الانكليزية الى الفرنسية وعندئذ تعد كلمة فرنسية . ولا تُستعار غالباً كلمات مثل du كما تُستعار الكلمات المنفصلة مثل boeuf bourguignon لأنه ليست هناك حاجة لاستعارتها في النوعية المستعيرة .

ومن المألوف أن تستوعب assimilated الوحـدات المستعارة الى حـد ما في الوحدات القائمة فعلاً في النوعيات المستعيرة ، وغالباً ما تُستبدل الأصوات المحلية بالأصوات الأجنبية. فقد فقدت كلمة "restaurant" مثلاً حرف "R" اللهوي unvlar عندما أُستعيرت من الفرنسية الى الانكليزية ولـذلك فهي لا تُستخدم بحرف (r) اللهوي في التراكيب الانكليزية ، ألاّ كمثال على تغيير الشفرة. ومن الناحية الأخرى فانه لا يشترط أن يكون مثل هذا الاستيعاب استيعاباً كاملاً فكثير من المتحدثين ما زالوا يحتفظون بالصائت الأنفي nasal vowel في نهاية الكلمة ، ولولا كون الكلمة مستعارة من الفرنسية لما وُجِدَ هذا الصـوت في نهايتهـا. ومثـل هـذه الكلمـات تجعـل من الصعب أن نفصـل بـين الانكليزيـة والنوعيـات الأخرى وتجعـل من الصعب تـوصيف « نـظام الوحدات الصوتية الانكليزية المجردة » English Phoneme System لأن النظام الانكليزي غالباً ما يختلط مع أنظمة اللغات الأخرى. ومن ناحيـة أخرى ، فـان هذه الـظاهرة شـائعة للغـاية في اللغـة الانكليزيـة وكذلـك في اللغات الأخرى. لاحظ مثلاً الصوت الحنكي الاحتكاكي velar fricative في نهاية كلمة **loch** ( لوخ : بحيرة ، باللهجة الاسكوتلندية ) والحروف الاحتكاكية الجانبية المهموسة voiceless lateral fricatives في كلمـة **Llangollen** ، وكلاهمـا قد يقـع في تركيب انكليزي عادي دون وقوع أي تحويل في الشفرة. )

والكلمة المستعارة loan word غير المستوعبة تماماً تقع في احـدى نهايتي المتـواصل scale ، بينـما تقـع في النهـايـة الأخـرى وحـدات لا تـوجـد بينهـا وبين الكلمات الأجنبية الأصلية التي اشتقت منها أية علاقات شكلية. وغالباً ما يُطلق على مثل هذه الكلمات الأخيرة ترجمـات مستعارة loan translations فالكلمة الانكليزية مثلاً **superman** هي مجرد ترجمة مستعارة للكلمة الألمـانية **Ubrmensch** ، أمـا العبارة الانكليـزيـة I've told him I don't know how many times. فهي ترجمة للعبارة الفرنسية Je le lui ai dit je ne sais pas combien de fois . (بلومفيلد **١٩٣٣** : **٤٥٧**). ومـا يظهـر من هـذه الأمثلة هـو ان الاستعـارة

قد تحدث على مستوى التراكيب syntex والدلالة semantics دون الاخلال بالنطق. وذلك قد يرجعنا الى مسألة الملامح الجغرافية والتي سبق ان ناقشناها في ٢ ــ ٣ ــ ٤ ، حيث سبق أن رأينا انه من المألوف أن تُعار وتُستعار الخصائص التراكيبية من لغة الى لغات أخرى مجاورة ، وذلك عن طريق الأفراد مزدوجي اللغة ، ولدينا ثلاث وسائل يمكن من خلالها تفسير كيفية حدوث ذلك. أولاً : هناك ميل واضح نحو حذف البدائل في التراكيب ( أنظر ٢ ــ ٣ ــ ٤) ، ثم هناك أيضاً الترجمات المستعارة loan translations ، كتلك التي سبق ان ذكرناها والتي قد تقوم بدور نماذج تحتذى عندما يُراد تطوير بعض التعبيرات المحلية. وثالثاً : هناك تحويل الشفرة في المحادثة (٢ ــ ٥ ــ ١) ، وهو يساعد على ان تكون اللغات المتجاورة أكثر تشابها وتطابقاً من ناحية التراكيب ، حتى يصبح من السهل استبدال الوحدات بين كل من النوعيتين دون تغيير التركيب ، فإذا كانت اللغتان المعنيتان تضعان المفعول به object بعد الفعل ، مثلاً ، فان تحويل الشفرة يصبح أكثر يُسراً مما لو كانت احدى هاتين اللغتين تضعه قبل الفعل بينما تضعه الأخرى بعده. والسؤال الآن ، إذن ، هو هل ثمة جوانب لغوية لا يجوز استعارتها من لغة الى أخرى . ويبدو ان الجواب على هذا السؤال هو بالنفي ( بينون ١٩٧٧ : ٢٥٥). فحتى الصيغ الصرفية النحوية inflectional morphology يجوز استعارتها من لغة الى أخرى ، وكشاهد على ذلك يبدو ان اللغة التنزانية المسماة « مبوجو » Mbugu قد استعارت صيغها الصرفية من لغة « البانتو» أو من واحدة أو أكثر من لغات البانتو Bentu المجاورة بالرغم من ان جوانب لغة « المبوجو » النحوية الأخرى « غير بانتوهية » بالمرة Non — bantu . وتتضمن خصائص نحو « المبوجو » غير البانتوهية ضمائر الغائب personal pronouns والأرقام الأساسية من ١ الى ٦ ، والتي تعد في الظروف العادية من المفردات الأساسية في اللغة basic vocabulary والتي لا يجوز استعارتها ( بينون Bynon ١٩٧٧ : ٢٥٣). وتتسبب مثل هذه

الحـالات في خلق مشكلات كثيـرة لنموذج الشجـرة الأسريـة ، لأنه ينبغي ان تمثّل كل لغة في شجرة واحدة فقط ، بينما الواقع هو ان بعض الخصائص تنتمي في المقام الأول الى شجرة البانتو أما البعض الآخر فينتمي الى شجـرة أخـرى ( وقد تكـون هذه الشجـرة « شجرة » اللغـات الكوشيتيـة Cushitic Languages فكيف يمكننا إذن أن نجد حلاً لمثل هذه المشكلات ؟ هـل يمكننا تطبيق المبادىء العامة في الموازنة بين الأدلة المأخوذة من الصيغ الصرفية والأدلة المأخوذة من المفردات الأساسية » ؟ ( قد نلاحظ بطريق الصـدفة ان الصيـغ الصرفية مماثلة لأنماط العلاقات الوفاقية concord في قواعد لغة البانتو وهي تعد طبعـاً جزءاً من علم التـراكيب ) . وقد نتسـاءل عما إذا كـان هناك أي نـوع من « الحقيقة الخارجية » نستطيع ان نقيس عليها أو نقوم على أساسها اجاباتنا على مثل هذه الأسئلة .

ولو افترضنا انه ليست هناك جوانب لغوية لا تجـوز استعارتهـا فعلينا أن نـطرح أسئلة عن اللغة قـد تساعـدنا عـلى التمييز بـين الجوانب اللغـوية المختلفة . فعلى سبيل المثال ، هـل هناك أيـة قيود عـلى الظروف أو المـواقف التي يمكن استعارة الجوانب اللغوية المختلفة في ظلها ؟ قد نتصور مثلاً انه يجوز استعارة بعض الجوانب اللغوية في ظل ظروف أو مواقف « الازدواج اللغوي الواسع » wide spread bilingualism بينما يجوز استعارة جوانب لغـوية أخـرى عندما يكون بعض الأفراد في المجتمع مزدوجي اللغة في لغات بعينها . وتعد بعض الجوانب اللغوية في النوع الأول أقل قابلية للاستعارة ، بينما تعد جوانب النوع الثاني أكثر قابلية للاستعارة . وذلك يمكننا من ان نقيم « متواصلاً » يحدد قابلية الوحدات اللغوية للاستعارة ، وتقع في الجانب الأقل قابلية للاستعارة من هذا المتواصل الصيغ الصـرفية « والمفـردات الأساسيـة » ، مثل الأرقـام الصغيـرة ، بينما تقـع في الجانب الأكـثر قابليـة للاستعـارة المفردات الـدالـة على الأجهزة والأشياء ( مثل **areoplane** ( طائرة ) و ( هامبرجر ) **hamburger** .

ولا يُستعار ، مثلاً ، المفرد الدال على « واحد » إلاّ في الحالة التي يمتلك الجميع فيها القدرة على التحدث باللغتين « اللغة المستعيرة » borrowing language واللغة المصدر source language فبينما يمكن استعارة مفردات مثل « طائرة » بسهولة عندما لا يكون أحد من المتحدثين قادراً على التحدث باللغتين بطلاقة ، ولكن قد يكون ثمة شخص أو شخصان من المتكلمين على معرفة باللغة المصدر بشكل يسمح له ، أولهما ، بمعرفة المفرد الدال على طائرة مثلاً . غير انه قد يتضح ان الحقيقة أكثر تعقيداً مما تصورناه ، وبخاصة فيما يتعلّق بتنظيم الوحدات اللغوية على صورة مستويات منفصلة كالتراكيب والمفردات والأصوات ، لأنها تضع المفردات في النهايتين المتضادتين للمتواصل . « فالاستعارة » ظاهرة لغوية قادرة على الكشف عن التنظيم الداخلي للغة وبخاصة علاقة اللغة بالمجتمع ، وذلك إذا قام العلماء بالنوع الصحيح من البحث العلمي .

**٢ ـ ٥ ـ ٣ « الرطانة » Pidgin :**

وهناك وسيلة أخرى بالاضافة الى « تحويل الشفرة » و « الاستعارة » قد تؤدي الى وقوع اختلاط بين النوعيات وخاصة في حالة تكوين نوعية جديدة مشتقة من نوعيتين ( أو أكثر ) من النوعيات القائمة فعلاً . وعملية « تركيب النوعية » variety —synthesis قد تتخذ أشكالاً عديدة على سبيل المثال تكوين لغات صناعية اضافية Artificial auxiliary languages مثل لغة الاسبرانتو Esperanto واللغة الانكليزية الأساسية Basic English ( أنظر بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٥٨٠). وعلى أية حال ، فان خير مثال على ذلك هو عملية تكوين الرطانة ، أو ما يمكن ان نطلق عليه عملية « الترطين » pidiginisation وهي العملية التي تتكون عن طريقها اللغات الرطنة أو الرطانات Pidigin language or Pidgins . وقد تكونت هذه النوعيات لأغراض عملية ومباشرة بغرض الاتصال بين أناس لا توجد لديهم لغة اتصال مشتركة ، وغالباً ما يتعلّمها فرد

من آخر داخل جماعات بعينها باعتبارها وسيلة مقبولة للاتصال بأفراد جماعة أخرى ( وهناك عرض ممتاز للقضايا المدروسة هنا وفي الجزء ٢ ــ ٥ ــ ٤ في كتاب ديكامب DeCamp ١٩٧٧ ) .

ولأن السبب الرئيس للرغبة في الاتصال بأفراد الجماعات الأخرى هو التجارة فان « الرطانة » غالباً ما تكون هي « لغة التجارة » Trade language ، ولكن لا يقتصر استخدام كل الرطانات على هذا الغرض ، وبالتالي فليست كل لغات التجارة رطانات . وخلافاً لذلك يمكن ان تستخدم الجماعات الأخرى لغة جماعة بعينها في المنطقة لأغراض التجارة المشتركة . وقد سبق ذكر ان لغة التوكانو Tukano ، وهي لغة واحدة من عشرين قبيلة من القبائل التي تقطن منطقة شمال غرب الأمازون ، تُستخدم لغة للتجارة بين القبائل الأخرى في نفس المنطقة . كما تُستخدم اللغتان الانكليزية والفرنسية على نطاق واسع باعتبارهما لغتي تجارة في مناطق كثيرة من أفريقيا . وعلى عكس ما يحدث بالنسبة لهذه اللغات ، فان الرطانة نوعية تتكون خصيصاً بغرض الاتصال بجماعة أخرى لا للاتصال بين أفراد الجماعة أنفسهم .

ويعتقد الكثيرون ان مصطلح الرطانة باللغة الانكليزية Pidgin مشتق بتحريف من الكلمة الانكليزية Business ( وهي تعني « العمل » « الأعمال » و « التجارة » ) كما تنطق في الرطانة الانكليزية التي تكونت في الصين ( وذلك لأن كلمتي Business English كانت تُنطق Pidgin Englash أنظر ديكامب DeCamp ١٩٧١ ــ أ ) . وينتشر عدد كبير من لغات الرطانة في كل قارات العالم بما فيها أوروبا حيث استطاع العمال المهاجرون ، من بلد مثل ألمانيا ، تكوين نوعيات رطانة من اللغة المحلية القومية المستخدمة في البلد التي يعملون فيها بعد الهجرة . وقد تكونت كل من هذه الرطانات لتناسب احتياجات مَنْ يستخدمونها ، وقد يعني ذلك ان مثل هذه الرطانات يجب أن تتضمن كل المصطلحات والتراكيب التي قد يحتاج اليها هؤلاء العمال في الاتصال والتعامل

العـادي الذي غـالباً مـا يقع بـين هذه الجمـاعات ، وليس من الضـروري ان تتعدى الرطانة هذه الحدود لتقوم بسد الحاجة للاتصال في المناسبات نادرة الـوقوع . فلو اقتصـر هذا الاتصـال أو التعامـل على بيـع الماشيـة ، مثـلاً ، فان المفردات اللغوية الخاصة بمثل هذا التعامل هي التي تتكون وتُستخدم ، وعلى ذلك فلن تكون هناك مفردات أو وحدات تسمح بالتحدث عن نوعيـة الخضروات أو العواطف أو أية موضوعات أخرى نستطيع التحدث عنها في أية لغة عادية .

ومن المتطلبات الرئيسية الأخرى في الرطـانة أن تكـون بسيطة وسهلة التعلّم وبخاصة من قبل أولئك الذين لا ينتفعون إلّا قليلاً من تعلّم مثل هذه اللغة ، وعلى ذلك فان مفردات مثل هذه اللغة غالباً ما تؤخذ من مفردات لغة الجماعة الكلامية السائدة . وعلى سبيل المثال ، لن تنتفع جماعة العمال الأتراك المهاجرين الذين يعملون ويقطنون في المانيا كثيراً من رطانة اشتقتْ مفرداتها من اللغة التركية لأنه لا يوجد إلّا عـدد قليل من الألمـان على استعـداد لبذل الجهد الكافي لتعلّم مثل هذه الرطانة ، ولذلك فان الـرطانـة التركيـة تأخـذ مفرداتها من اللغة الألمانية . وبالمثل ، ففي موقف استعماري حيث يحتاج ممثلو السلطة الأجنبية المستعمرة للاتصال بالسكان الأصليين في المسائل التجاريـة والادارية تكون مفردات الرطانة الناتجة مأخوذة أصلاً من مفردات لغة القوة المستعمرة ، وذلك إذا كان من مصلحة السكـان الأصليين اكتسـاب القدرة على الاتصال ، ولذلك توجد أعداد كبيرة من الـرطانـات المنتشرة في مختلف أرجاء العالم مـأخوذة أصـلاً من اللغات الانكليـزية والفـرنسية والبـرتغاليـة والهولندية .

ولكن بالرغم من ان مفردات الرطانة قد تكون مأخوذة أصلاً عن لغة جماعة بعينها فان « النوعية » السائدة Dominant variety أي الرطانة تظل قائمة على نوع من التوفيق بين النوعية « السائدة » والنوعيات الثانوية الأخرى Sub-ordiante varieties ، وذلك من جهة تـراكيبها وصـوتياتهـا قد تكـون مشتقة

من النوعيات الثانوية ، مما يجعل تعلّم الرطانة أسهل على الجماعات الأخرى من تعلّم النوعية « السائدة » في حالتها العادية . أما « الصيغ الصرفية morphology فهي غير واردة تماماً في الرطانات ، وذلك يجعلها أيسر في تعلمها . وإذا كانت الاختلافات الناتجة عن اختلاف الزمن tense والعدد number والحالة الاعرابية case غير واضحة تماماً ، فانها يمكن أن يستدل عليها من خلال الحروف الاضافية المنفصلة ، لا من خلال الصيغ الصرفية . والحقيقة هي ان غياب الصيغ الصرفية يعد واحد من أهم الخصائص المميزة للرطانة . وإذا ما وُجِدَتْ نوعية معينة تتضمن صيغاً صرفية وبخاصة صيغ صرفية ذات وظيفة نحوية Inflectional Morphology فان معظم المتخصصين يترددون كثيراً في معاملة النوعية المتضمنة لتلك الصيغ على أساس انها رطانة ( ولا يعني ذلك بالطبع ان كل لغة لا تتضمن صيغاً صرفية تكون بالضرورة رطانة ) .

وغياب الصيغ الصرفية النحوية من الرطانات أمر هام ، وبخاصة إذا كان الأمر لا يزيد عن كونه خصيصة من خصائص المواقف الاتصالية سواء أكانت اللغة المعنية تتضمن قدراً هائلاً من الصيغ الصرفية ذات الوظيفة النحوية أم كانت هذه الصيغ نادرة في اللغة ( كالانكليزية مثلاً ) . وقد يشير هذا الأمر الى سمة عامة في اللغة الانسانية هي ان الصيغ الصرفية ذات الوظيفة النحوية تمثّل بمعنى ما وسيلة غير عادية للتعبير عن الاختلافات الدلالية والتراكيبية . وعلى ذلك ، فان هذه الصيغ لا تستخدم اطلاقاً في الرطانة حتى ولو كانت تتسم بالبساطة ، والمثال على ذلك الصيغة الصرفية للجمع في الانكليزية وهي الـ « s — » التي لا تظهر قط في الرطانات المشتقة من هذه اللغة ، فالذي يحدث غالباً هو استبدالها بكلمات منفصلة للدلالة على الجمع . وإذا كان الأمر في الصيغ الصرفية النحوية هو أمر صعوبة أو أمر عدم كفاءة في الاتصال ، فمن الغريب حقاً انتشار هذه الصيغ مثل هذا الانتشار الواسع بين كل اللغات ، وما هو أكثر غرابة من ذلك هو ان هذه اللغات قادرة

على تحمل كل هذا التعقيد والشذوذ في صيغها الصرفية النحوية والاحتفاظ به ، مع التسليم بان هذه الصيغ لا تفيد أحداً على وجه الاطلاق. وقد سبق في ١ ـ ٣ ـ ١ ان اقترحنا ان الدافع وراء استبقاء وتطوير الصيغ الصرفية الشاذة هو نوع من الضغط على الفرد حتى يلتزم بتطابق لغته مع لغة الآخرين. وقد يكون هناك ضغط مشابه واقع من قبل المجتمع على الأفراد ، وقد يعد ذلك تفسيراً لاستبقاء الصيغ الصرفية عامة والاحتفاظ بها سواء أكانت شاذة او عادية ، ومثل ذلك الضغط الاجتماعي الذي يمنع الأفراد من ازالتها عندما يكون المعيار اللغوي الوحيد هو كفاءة الاتصال وسهولته

وبتعبير آخر لو كانت النوعية المقصودة هي لغتك الأصلية Native language فانك ستستخدمها لتحديد انتمائك الى الجماعة التي تستخدمها ، وذلك عن طريق الالتزام بمعايير الجماعة اللغوية ، بما في ذلك أدق تفاصيل النطق والصيغ الصرفية .فلو بسطنا الصيغ الصرفيةالشاذةأو نظمناهافاننا بذلك نكون قد ميزنا أنفسنا عن بقية الجماعة وكأننا دخلاء غير منتمين. ولكن إذا كانت النوعية المعنية « رطانة » فلا يوجد ثمة مَنْ يستخدمها وسيلة لاظهار الانتهاء الى جماعة معينة. ولذلك لا توجد أية ضغوط لاستبقاء الجوانب الشاذة في النطق. ويقوم مثل هذا الرأي بالطبع على نوع من التخمين ، ولكن ظاهرة عدم وجود أية صيغ صرفية نحوية في الرطانات ظاهرة تستوجب التفسير. والرأي المطروح هنا واحد من التفسيرات التي تستحق البحث. ومن اليسير أن نرى من المناقشة السابقة ، العلة وراء اهتمام علم اللغة بالرطانة الى هذا الحد الكبير ، وذلك لأنها دليل على ما قد يحدث للغة إذا لم تُستخدم كرمز للهوية الاجتماعية.

ولنعد ، إذن ، الى السؤال الأكثر عمومية وهو ما يتعلّق بقضية العلاقة بين الرطانة والمجتمعات التي خلقتها. وكما رأينا من قبل فان الرطانة غالباً ما تنشأ بصفتها لغة التجارة ، وقد نعدها بصفة عامة نوعيات مستخدمة فقط

لغرض التجارة والادارة. ومن الأمثلة على الرطانات التي نشأت بهذه الطريقة أو تحت مثل هذه الظروف الرطانة المالبزية الحديثة Neo — Melanesian أو التوك بزين Tok Pisin أي بيدجين توك Pidgin talk ( أنظر ٢ ــ ٥ ــ ١ ). وهذه الرطانة مأخوذة عن اللغة الانكليزية المستخدمة في غينيا الجديدة وعدد من الجزر المجاورة New Guinea ، وقد نشأت تلك الرطانة وتطورتْ كوسيلة للاتصال بين الاداريين المتحدثين باللغة الانكليزية والسكان المحليين الذين يتحدثون بدورهم مجموعة ضخمة من اللغات المختلفة ( واحدى هذه اللغات هي لغة البوانج Buang ). وقد تعطينا التراكيب التالية من « التوك بيزين » Tok Pisin ( المقتبسة من بولينجر ١٩٧٥ : ٣٥٦) فكرة عن علاقتها باللغة الانكليزية. وتظهر الكلمات الواقعة بين قوسين الأصل الانكليزي لعبارات توك بيزين السابقة عليها :

Bimeby (by and by) leg belong you he — all — right gain (again)
'Your leg will get well again'
Sick he — down — im (him) me.
'I am sick'
Me like — im saucepan belong cook — im bread.
'I want a pan for cooking bread'

ومثل عدد كبير من الرطانات الأخرى فقد تطورتْ التوك بيزين بكفاءة عالية وأصبحتْ الوسيلة المقبولة للاتصال في العديد من المواقف لدرجة انها قد تحولتْ الآن الى « لغة متواضع عليها » في غينيا الجديدة ( هال Hall ١٩٧٢). ( وقد تحولتْ التوك بيزين أخيراً الى لغة كريولية كما سنرى في ٢ ــ ٥ ــ ٤).

ولكن كل الرطانات الأخرى دون استثناء لم تنشأ بدافع الحاجة الى لغة تجارية كما نشأتْ التوك بيزين. فهناك مواقف أخرى نشأتْ فيها الحاجة الى رطانات عندما اضطر أُناس من خلفيات لغوية مختلفة للتعامل مع بعضهم بعضاً والاتصال فيما بينهم أو مع الجماعة السائدة. وهذا هو الموقف الذي وَجَدَ

معظم الأفريقيين أنفسهم فيه عندما أُخذوا عنوة عبيداً الى العالم الجديد ، فقد حاول تجار العبيد دائماً فسخ الروابط القبلية اللغوية بين الجماعات حتى يقللوا من مخاطر التمرد والثورة. ولذلك أصبحتْ الطريقة الوحيدة التي يستطيع العبيد بها أن يتصلوا ببعضهم بعضاً أو بأسيادهم هي الرطانة التي تعلّموها من تجار العبيد والتي أُخذتْ في الأصل عن لغة هؤلاء التجار. ولأن معظم العبيد لم يكن لديهم الفرصة لتعلّم لغة أسيادهم العادية فقد أصبحتْ هذه الرطانة وسيلة العبيد الوحيدة للاتصال بقية حياتهم. وقد نتجتْ عن هذا الموقف نتيجتان. أولاهما ، ان الرطانات أصبحتْ مرتبطة بالعبيد ، ولذلك اكتسبتْ سمعة سيئة ( ووصم العبيد بالغباء لأنهم لم يتمكنوا من التحدث بلغة « صحيحة » ! ) وقد كانت النتيجة الثانية هي ان الرطانة قد تزايد استخدامها في كثير من المواقف المختلفة وذلك مما أدى تدريجياً الى اكتسابها مكانة اللغة الكريولية ( أنظر ٢ ــ ٥ ــ ٤ ).

وقد يكون من المفيد هنا أن نجمع بعض خصائص « الرطانة » التي قد تميزها عن الأنماط الأخرى من النوعيات وعن خليط النوعيات أيضاً variety mixture.

( ١ ) الرطانة المشتقة من النوعية س مثلاً ليست مجرد مثال على نوعية رديئة من اللغة س ، كما قد نصف محاولة الفرد الأجنبي الفاشلة لتعلّم النوعية س. فالرطانة بحد ذاتها « نوعية » مستقلة لها جماعة من المتحدثين بها يقومون بتوريثها الى الأجيال التالية ، وبالتالي فان الرطانةتاريخ خاص بها. ويعتقد الكثيرون في الواقع ان معظم الرطانات قد نشأت من أصل واحد هو الرطانة المشتقة من اللغة البرتغالية والتي تطورتْ بدورها في الشرق الأقصى وغرب أفريقيا خلال القرن السادس عشر تحت تأثير البحارة البرتغاليين ، وقد تكون لمثل هذه الرطانة المشتقة من البرتغالية جذور في « لغة التعامل

مع الأجانب » Lingue France والتي نشأتْ وتطورتْ في البحر الأبيض المتوسط منذ الحملات الصليبية. ويمثّل هذا الرأي محاولة من محاولات تفسير وجود عدد كبير من الخصائص المتشابهة القائمة في معظم الرطانات في مناطق كثيرة من العالم. ( أنظر ديكامب ١٩٧١ ـ أ ، ١٩٧٧ من أجل عرض ممتاز لكل هذه القضايا ).

( ٢ ) وليست الرطانة مجرد محصّلة كم هائل من الاستعارة بين نوعية وأخرى طالما انه لا يوجد نوعية سابقة معينة يمكن أن تستعير من نوعيات أخرى ، وأية رطانة مشتقة من « س » مثلاً ليست « نوعية » من « س » استعارت الكثير من التراكيب والخصائص الصوتية من نوعيات أخرى ، لأنه قد لا تكون هناك نماذج في هذه النوعيات الأخرى للتغيير في أشكال الكلمات وبخاصة فقدان الصيغ الصرفية الذي سبق ذكره. وليست الرطانة أيضاً نوعية من لغة أخرى قامت باستعارة الكثير من مفردات اللغة س ، لأنه لا يشترط أن تكون التراكيب والصوتيات والصيغ الصرفية مشابهة للنوعيات الأخرى المذكورة. وعلى أية حال فليس من الواضح ، أي الجماعات هي المستعيرة لأن الرطانة تتطور تطوراً مشتركاً بمساهمة كل من الجانبين اللذين يحاولان ايجاد وسيلة للاتصال. وهناك بالطبع قضية هامة تتصل بالاستعارة لأننا قد ندرس الاستعارة في رطانة قائمة بالفعل ، كما نفعل مع أي من النوعيات الأخرى بينما لا يمكننا أن نقول ان الاستعارة جزء من عملية تكوين الرطانة عند نشأتها. والمشكلة هنا ان ذلك قد يعني وجود فرق واضح بين فترتين في تاريخ الرطانة ، الفترة السابقة على نشأتها وتكوينها ، والفترة التالية لذلك. وقد تكون هذه المشكلة نتيجة لاعتمادنا الكامل على مفهوم « النوعية » الذي أشرنا من قبل الى ان هناك من الاسباب ما يجعلنا نتشكك فيه.

( ٣ ) وليس للرطانة كما هو الحال بالنسبة للغات العادية متحدثون أصليون يتحدثون بها باعتبارها لغتهم الأم ، وقد يكون ذلك نتيجة لاستخدام الرطانة بوصفها وسيلة للاتصال فقط بين أفراد الجماعات المختلفة حيث لا توجد نوعية عادية يمكن استخدامها وسيلة للاتصال. وليس هذا التحديد ، من ناحية أخرى ، واضحاً لأن هناك مواقف بعينها ، مثل موقف العبودية ، تنشأ من خلالها جماعة لا تملك لغة مشتركة سوى الرطانة ، هذا على الرغم من ان جميع أفراد هذه الجماعة قد تعلّموا تلك الرطانة باعتبارها اللغة الثانية ، وان عدم وجود جماعة من المتحدثين الأصليين محددة تحديداً واضحاً يؤدي الى نتيجة مؤداها وضع معظم الرطانات بالقرب من نهاية المتواصل « المنتشرة » diffuse وذلك يؤدي بدوره الى وجود تعارض تام بين النظام focussing والانتشار diffusion (١ ــ ٣ ــ ١). وقد يتعارض ذلك مع اللغات المتواضع عليها والمتضامة للغاية ( highly focussed ) مثل اللغة الفرنسية. وذلك أمر يجعل الرطانة هامة بالنسبة لعلماء علم اللغة الاجتماعي ، إلّا انه سبق أن ذكرنا ان بعض الرطانات هي التي تُستخدم في الوقت الحالي كلغات متواضع عليها ، وذلك يعني ان هذه الرطانات قد تحركتْ من مكانها على المتواصل نحو نهاية « التضام » focussing ــ ، وهي ظاهرة أخرى تستحق البحث من قبل أولئك المهتمين بعلاقة اللغة بالمجتمع.

**٢ ــ ٥ ــ ٤ الكريولية Creoles :**

عندما تكتسب الرطانة جماعة من المتحدثين الأصليين فانها تصبح لغة كريولية Creole Language أو كريول Creole ، والعملية التي تتحول بها الرطانة Pidgin الى « الكريولية » هي ما تسمى بعملية « الكريلة » creolization. ومن السهل أن نرى كيف تكتسب الرطانة متحدثين أصليين وخاصة عندما

يتحدث بها الأبـوان ثم ينشئون الأطفـال على الحـديث بالـرطانـة كلغة أُم .
وقد حدث ذلك بشكل واسع بين العبيد الأفريقيين الذي أخذوا عنوة الى العالم الجديد The New World ، كما حدث ذلك بشكل أقل انتشاراً في الجمـاعات الحضرية في مناطق مختلفة ، مثل منطقة غينيا الجديدة.

وتعد الكريولية من منـظور اجتماعي أكـثر أهمية من الـرطانـة لثلاثـة أسباب :

أولاً : إن عدد المتحدثين بالكريولية أكبر من عدد المتحدثين بالرطانة ، وقد قدر عدد المتحدثين بالكريولية في أحد التقديرات بمـا يتراوح بـين عشرة ملايين وسبعة عشر مليوناً ، بينما يتراوح عدد المتحدثين بالـرطانـة بين ستـة ملايين واثني عشر مليون ( ديكامب DeCamp ١٩٧٧). ثانياً : تعد معـظم اللغات الكريولية التي يتحدث بها أحفاد العبيد الأفريقيين ذات شأن عظيم بالنسبة للمتحدثين ذاتهم وبالنسبة لغيرهم ، باعتبارها أحد مصادر المعلومات التي تدل على أصولهم ، كما تعد أيضاً رمزاً على هويتهم . وهناك أيضاً اهتمام باللغة من جانب مَنْ يتحدثون بالنوعيات ذات الأصل الكريولي والتي « زالت عنها صفة الكريولية » "decreolized" ، أي انها تحركتْ باتجاه النوعية السائدة بفقدانها لمعظم صفات الكريولية وخصـائصها. ويبـدو ان اللغة الانكليـزية التي يتحدث بها الزنوج في الولايات المتحدة تنتمي الى هذه النوعية ، ولذلك فان اللغة الكريولية ذات اهمية خاصة بالنسبة لكثـير من علماء اللغة الأمـريكيين (أنـظر ١ ــ ٣ ــ ٢ و ٥ ــ ٤ ــ ٢ وهناك عرض ممتاز في وولفرام Wolfram ١٩٧١) . .
ثالثاً : هنـاك أقليات Minority groups ، مثـل المهاجـرين من الهند الغـربية الى بريطانيا ، يتحدث أفرادها نوعاً من الكريولية. وإذا كانت هذه الكريولية مشتقة من لغة الغالبية في البلد التي هاجرت اليها هذه الأقليات ، كالكريولية المأخوذة من اللغة الانكليزية English based — creole ، في حالـة المهاجـرين الى بريطانيا فقد تنشأ مشكلات تعليمية خطيرة في حالة عدم معرفة الطلاب أو المعلمين بدقة فيما إذا كانت هذه الكريولية لغة تختلف عن لغة الغالبيـة ،

أو انها مجرد لهجة من لهجاتها. فإذا اتضح انها نوعية مختلفة عن لغة الغالبية ، فانه يكون من المناسب استخدام وسائل تدريس اللغات الأجنبية لتعليم لغة الغالبية ( وهي اللغة الانكليزية في مثل هذه الحالة ) ، ولكن هذا الأسلوب يكون غير ملائم إذا كانت لغة المهاجرين مجرد لهجة من لغة الغالبية. وتحتاج هذه القضية ، بالتالي الى مزيد من البحث حتى نستطيع تحديد مدى اختلاف الكريولية عن لغة الغالبية. وهناك مشكلات مشابهة في الدول التي تكون فيها لغة الغالبية هي الكريولية ، وبخاصة عندما تكون اللغة التي يتطلبها النظام التعليمي هي ذاتها النوعية المتواضع عليها والمأخوذة عن الكريولية ، كما هو الحال في كثير من الدول الواقعة في منطقة البحر الكاريبي. وقد تبدو القضية أكثر صعوبة إذا أخذنا في الاعتبار ان لا يوجد اختلاف بين صفتي « التماثل » و « الاختلاف » ، وذلك عند استخدامها لوصف النوعيات اللغوية ، كما سبق ان بيّنا من قبل في ٢ ــ ٢ ، ولعل التوصل الى نموذج أكثر واقعية للغة قد يساعدنا على حل بعض هذه المعضلات. ( أنظر لاباج Le Page ١٩٥٨ ب من أجل دراسة أكثر تفصيلاً ).

ومع ذلك لا تكتسب الكريولية ، من منظور ما يُقال عن اللغة ، أهمية خاصة ذلك لأنها لا تختلف عن اللغات العادية إلاّ من ناحية أصولها. ( سانكوف Sankoff ١٩٧٧ ). وربما أمكن اضافة تعديل واحد على هذه المقولة ، وهو احتمال وجود علاقة خاصة بين الكريولية والنوعية التي تمثّل اللغة السائدة ، والتي اشتقت الرطانة في الأصل منها ، وذلك حين تتعايش النوعيتان في نفس المنطقة ، كما يحدث في أغلب الأحيان. وتعد جيانا Guyana من الأمثلة على الدول التي يحدث فيها هذا الموقف ، وقد قام ديريك بيكرتون Derek Bickerston (١٩٧١ ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥) بدراسة الكريولية في هذه الدولة. وقد استخدم في دراسته ، مصطلحات ويليام ستيوارت ، أحد مؤسسي دراسات الكريولية في الولايات المتحدة ، فأطلق بيكرتون على الكريولية

الخالصة اسم « اللهجة الأساسية » BASILECT ، وأطلق على النوعية المحلية من الانكليزية المتواضع عليها اسم « اللهجة العليا » ACROLECT ( والسابقة —ACRO هي من أصل يوناني ، وتعني « أعلىٰ » كما في كلمات مثل Acrobat أو Acropolis ) . كما قام بيكرتون بتحديد « متواصل » continuum يصل بين طرفي « اللهجة الأساسية » و « اللهجة العليا » مروراً بـ « اللهجات الوسطى » MESOLECTS على أساس ان هذه اللهجات الوسطى هي الطريق الوحيد المتاح للذين يودون « تحسين » لغتهم عن طريق دفعها نحو « اللهجة العليا » ACROLECT . وقد قدم بيكرتون عدداً من البراهين والأدلة العلمية تثبت بشكل قاطع إمكانية وضع غالبية المتحدثين في العينة الضخمة التي درسها. على هذا المتواصل وتحديد مواقعهم عليه ( أنظر الفصل ٥ ــ ٥ ــ ٢ من أجل مناقشة أكثر تفصيلاً ) . وقد بيَّن بيكرتون ان هناك اختلافات لا يستهان بها بين « اللهجة العليا » و « اللهجة الأساسية » في مجالي التراكيب والدلالة ، وبخاصة فيما يتعلّق بأزمنة الأفعال وصيغها Time and tense relations ، إذ تستخدم صيغ الفعل نفسها في اللهجة الأساسية ، مثلاً ، للدلالة على الأفعال التي تحدث وقت الحديث كما تستخدم في الوقت نفسه للدلالة على أفعال في صيغة الماضي ، بينما تستخدم الصيغتان من الفعل في « اللهجة العليا » ، أي الانكليزية المتواضع عليها ، للدلالة على كل من الحالتين.

قارن ما بين الصيغتين التاليتين :

I see my mistake.

After looking for an hour I saw my mistake.

( بيكرتون ١٩٧٥ : ٤٦ ).

وهناك خصيصتان تميزان « متواصل الكريولية » Creole continuum مقارنة بالموقف الذي لا نتوقع فيه وجود الكريولية . أولاً : هناك اختلافات بين النوعيات المتعايشة في مثل هذه الجماعة أكثر عمقاً مما قد نتوقع وجوده في مجتمع تمزّقه العمليات العادية لتكوين اللهجات Normal processes of dialect

formation ويـوجد عـلى وجه الخصـوص قدر من التبـاين variation في مجـال التراكيب syntax أكبر مما قد نتوقع ، وذلك للأسباب التي سبق ان ناقشنـاها في ٢ ــ ٣ ــ ٤ . وهذه الاختلافات أكثر شبهاً ، في حقيقتها ، بالاختلافات القائمة في مواقف « الازدواج اللهجي » Diglosia ، هذا مع العلم ان الموقف الـذي ندرسـه ليس موقف مـزدوج لغوي لأن كـلاً من « اللهجـة العليـا » و « اللهجة الأساسية » تستخدمها مجموعات مختلفة محلياً . والسبب في وجود هذه الاختلافات الكبيرة بين « اللهجة العليا » و « اللهجة الأساسية » هو انهما لم تنفصلا عن طريق عمليات الانتشار العادية diffusion ، التي غالباً ما تؤدي الى اختـلاف اللهجات ، ولكنهـما انفصلتـا عن طـريق عمليـات الـرطـانـة Pidginisation ، التي قد تؤدي تلقائياً الى الاختلافات الجذريـة بين الـرطانـة واللغة السائدة .

والخصيصة الثانية « لمتواصـل الكريـولية » هـو وجود سلسلة واحـدة من النوعيات تصل ما بين « اللهجة الأساسية » و « اللهجة العليا » ، وذلك ما لا يسمح للمتحدثين إلّا ببعد لغوي واحد يحددون عليه موضعهم بالنسبة لبقية المجتمع ، غير ان الصورة التي نقلها لنا بيكرتون هي بالفعل أكثر تعقيداً من ذلك ، لأن الأفراد المتحـدثين يستـطيعون استخـدام مجموعـة من range النوعيات الواقعة على هذا المتواصل بـدلاً من اقتصارهم عـلى نوعيـة واحدة ( بيكرتون Bickerton ١٩٧٥ : ٢٠٣ ) ، ولكن ، مـع وجود ، بُعـد لغوي واحد يحدد المتحدث عليه موقعه في أية مناسبة . ويتعارض مثل هذا الموقف تماماً مع الموقف الذي يوجد فيه عدد كبير من الأبعاد المنفصلة التي توفّرها للمتحدث وحـدات أية نـوعية ، والتي يستـطيع الفـرد استخدامهـا في تحديـد مـوقعـه على المتواصل . وقد يكون السبب في ذلك نشأة الكريوليات ، ومن الصعب أن نفهم بالتحديد السبب وراء ذلك . ( أنظر بيكرتون ١٩٧٥ : ١٧ ــ ١٧٨ والذي يطرح رأياً مختلفاً ) .

والكريولية لغة [illegible] باستثناء اختلافها في مسألة « المتواصلات » ، ولا تقدم لنا شيئاً خاصاً قد يعمق فهمنا للغة بصفة عامة. ويصدق هذا الأمر على [illegible] يوليات التي تأصلتْ منذ أجيال. وقد تكون معظم الكريوليات [illegible] من هذا النوع لأنها نشأتْ من خلال تجارة العبيد ، وبدأت وجودها في صورة كريولية منذ تلك اللحظة. ويمكننا تتبع تاريخ معظم تلك الكريوليات من خلال سجلات مكتوبة منذ قرون عديدة ( ومن الأمثلة على ذلك سجل لتاريخ كريولية مشتقة من اللغة الانكليزية في نيكاراجوا Nicaragua يقدمه هولم Holm ١٩٧٨ ). وعلى أية حال ، فان الاختلافات بين الرطانة والكريولية أقل وضوحاً مما قد نتوقعه تأسيساً على تعريفاتها ، وقد تكون المراحل الأولى من تطور الكريولية ونشأتها لها نفس أهمية الرطانة بالنسبة لنظرية علم اللغة العام.

وقد سبق ان ذكرنا ان « المراحل المبكرة » في نشأة الكريولية هي المراحل التي تبدأ فيها الكريولية في اكتساب متحدثين أصليين native speakers ، وعندئذ تتوقف عن أن تكون رطانة ، وتتحول الى كريولية ، وعندئذ نتوقع نوعين من التغيرات الفرضية : أولاً تغيرات ناتجة عن بدء المتحدثين في تعلم النوعية كلغة أولى أو أصلية بدلاً من تعلّمها كلغة ثانية ، فالأطفال معدون وراثياً لتعلّم اللغات العادية فحسب ، ولأن الرطانات ليست لغات عادية ولا يوجد بها صفات وخصائص اللغات العادية ، فعلينا إذن أن نتوقع حدوث تغيرات كثيرة بها عندما يحاول الأطفال تعلّم الرطانات كلغات أصلية ، لأنهم سيحتاجون لتعديل الجوانب التي تختلف فيها عن اللغات العادية ، وذلك حتى تصبح سهلة التعلّم ( ويرجع الرأي القائل بان الأطفال معدون وراثياً لاكتساب اللغات العادية فقط الى ناعوم تشومسكي Noam Chomsky ، ( أنظر على سبيل المثال ، تشومسكي Chomsky ١٩٦٥ ، ٤٧ ، و١٩٦٨ ). غير انه لا توجد في الوقت الحاضر أية أدلة على حدوث مثل هذه التغيرات بالفعل.

والنوع الثاني من التغيرات الفرضية ناتج عن البدء باستخدام الرطانة

في عدد كبير من المجالات والمواقف اليومية والمنزلية للتحدث عن موضوعات لا تستطيع لغة التجارة العادية التعامل معها. وعلى أية حال ، فمن الواضح ان هذا النوع ليس إلاّ استمراراً لما كان يحدث بالفعل في حالة الرطانة ، ولذلك لا تقتصر هذه التغيرات على « عملية التحول الى الرطانة » Process of creolization ، إذ يتحتم أن يكون الأبوان قد اكتشفا وسيلة ما للتحدث بالرطانة عن الشؤون المنزلية قبل انجاب أطفالهما ، وقد سبق ان رأينا ان بعض الرطانات كانت قد تطورتْ الى درجة استخدامها كلغة متواضع عليها ، كما هو الحال بالنسبة « للتوك بيزين » Tok Pisin ، وقد قامت كل من جيليان سانكوف GillianSankoff وبينلوب براون Penelope Brown (١٩٧٦) باجراء بحث هام في هذا الشأن على التوك بيزين. وقد درسنا فيه نشأة وتطور أشباه التراكيب الموصولة relative clauses في التوك بيزين ، وقد بينا كيف نشأت وتطورت أداة الوصل من كلمة ( ia ) و ( المشتقة ) أصلاً من الكلمة الانكليزية ( **here** ) ( هنا ) ، وهي أداة توضع الآن قبل وبعد الكثير من أشباه التراكيب الموصولة :

Na pik **ia** ol ikilim bipo **ia** bai ikamap olsem draipela ston.

( Now pig here past kill people here future become huge stone )

'And this pig which they had killed before would turn into a huge stone.'

« وقد يتحول هذا الخنزير الذي كانوا قد قتلوه الى حجر ضخم. »

سانكوف وبراون Sankoff & Brown ١٩٧٦ : ٦٣٢).

وقد يقدم مثل هذا التركيب مثالاً لتأثير تراكيب اللغات المحلية على تراكيب الرطانة ، لأن لغة البوانج Buang لديها كلمة تُستخدم كاسم اشارة demonstrative. وتُستخدم شاهداً على أشباه التراكيب الموصولة مثل كلمة **ia**.

وما يثير الاهتمام بشكل خاص في هذا البحث هو ان متحدثي الرطانة يستمرون في تطويرها مستخدمين كل المصادر المتاحة ، وتلك عملية مستقلة

عن عملية التحول الى كريولية. وقد أثبت سانكوف وبراون ان عملية التطوير ـ في التوك بيزين ـ كانت قد بدأت قبل عشرة أعوام على الأقل من وجود عدد ملحوظ من المتحدثين الأصليين بهذه اللغة. ولا توجد أيضاً في هذه الأبحاث أية براهين تدل على ان التغيرات التي تَمتْ خلال عملية التحول الى الكريولية مغايرة لتلك التي قد تحدث في رطانة ليس لها متحدثون أصليون.

ويبدو ان الخلاصة التي قد نصل اليها على أساس هذه الدراسة: انه لا يوجد اختلاف واضح بين الرطانات والكريولية، فيما عدا ان الكريولية لها متحدثون أصليون بينما لا يوجد متحدثون أصليون للرطانة. ولا يبدو ان هناك اختلافات أخرى بين الرطانة والكريولية ناتجة من الاختلاف السابق. وحيث اننا كنّا قد زعمنا ان الكريولية مجرد «لغة عادية» (مع بعض التحفظات على متواصلات الكريولية) وان الرطانة لغة مليئة «بالغرابة والشذوذ»، فقد يترتب على ذلك ان يكون التمييز بين ما هو «عادي» وما هو «غريب وشاذ» (كما هو متمثّل في المراحل المبكرة في عملية نشوء الرطانة وتكوينها) غير واضح، فهو اختلاف من نوع اختلاف المتواصلات وليس اختلافاً كيفياً. ومن الواضح، فضلاً عن ذلك انه ليست هناك لحظة بعينها تخرج فيها الرطانة الى الوجود، ولكنها فيما يبدو عملية من «عمليات تكوين النوعيات» processof variety — creation، وهي عملية نطلق عليها عملية نشوء وتكوين الرطانة pidginisation، وهذه العملية تخلق الرطانة من لا شيء. وقد نتسائل عما إذا كانت هذه العملية تختلف اختلافاً جوهرياً عما يحدث في عملية التعامل الاتصالي العادي interaction حيث يظن الناس انهم يتحدثون بالفعل نفس اللغة، ولكنهم في الحقيقة يقومون بتكييف حديثهم ولغتهم بصفة مستمرة، حتى يتلائم مع احتياجات بعضهم بعضاً (قارن بين هذا الرأي ورأي روبرت لاباج Robert Le Page (١٩٧٧ ب) في ان كل «فعل كلامي» Speech Act .. ليس سوى ردة فعل لرطانة مؤقتة instant pidgin ترتبط بالمقدرة اللغوية linguistic

competence لعدة أفراد ). ونستطيع ، على سبيل المثال ، ان نجد تشابهاً بين مواطنين من غينيا الجديدة يحاولون تعلّم مفردات قريبة من اللغة الانكليزية من بعضهم بعضاً ، تارة ، ومن الانكليز المقيمين ، تارة أخرى ، وبين طلاب علم اللغة وهم يحاولون تعلّم المفردات والمصطلحات التي يستخدمها أساتذتهم من بعضهم بعضاً تارة ، ومن أساتذتهم ، تارة أخرى . ومن الواضح في كلتا الحالتين ، من الذي يبذل جهداً أكبر في عملية التعلّم ، بالرغم من ان المجموعة السائدة بامكانها استخدام الصيغ اللغوية التي تستخدمها المجموعة التابعة حتى تسهل الأمر عليها. وتنشأ في كلتا الحالتين نوعية من اللغة يتناقلها الأفراد فيما بينهم ، وقد تطورتْ هذه النوعية نتيجة لمقابلات عديدة بين المعلمين والطلاب من جهة ، وبين الطلاب أنفسهم ، من جهة أخرى. وقد يبتسم قارىء هذا الكتاب عندما يتوقف أمام هذا الرأي القائل بأنه من متحدثي « رطانة علم اللغة » ، ولكني أعني أن يؤخذ هذا الرأي مأخذ الجدية .

## ٢ ـ ٦ الخلاصة :

عرض هذا الفصل لكثير من أنماط النوعيات اللغوية ، ومن ضمنها « اللغات » و « اللهجات » ( الاقليمية منها والاجتماعية ) و « سجلات السياق » و « اللغات المتواضع عليها » والنوعيات « العليا » و « السفلى » 'High' and 'Low' varieties في الازدواج اللهجي و « الرطانة « و الكريولية » . وقد وصلنا الى نتائج سلبية بخصوص قضية « النوعيات ». أولاً ، هناك مشكلات لا يستهان بها في فصل « نوعية » بعينها عن « النوعيات » الأخرى من نفس النوع ، ( ومن الأمثلة على ذلك محاولة تمييز لغة عن لغة أخرى أو لهجة عن لهجة أخرى ). ثانياً ، هناك مشكلات حقيقية عند محاولة تمييز الأصناف المختلفة عن النوعيات ، مثل محاولة تمييز اللغات عن « اللهجات » ، و « اللهجات » عن « سجلات السياق » واللغات العادية عن الكريولية والكريولية عن الرطانة. ( وكان بامكاننا أن نعرض لمثل هذه

المشكلات القائمة في التمييز بين « النوعيات المتواضع عليها » و « النـوعيات غير المتواضع عليها »). وثالثاً ، سبق ان اقترحنا ان الطريقة المثلى لحل بعض هذه المشكلات هو تجنب مفهوم النـوعية تمـاماً كمفهـوم تحليلي أو نـظري ، وان نركّز بدلاً من ذلك على « الوحدات اللغوية » المستقلة Individual linguistic item ، لأن كل وحدة مستقلة تتطلب نوعاً من « التوصيف الاجتماعي » يحدد مَنْ يستخدم تلك الوحدة ، وتحت أي ظروف يمكن استخدامها ، وقد يكون هذا التوصيف الاجتماعي أحياناً فريداً في نوعه ، بينما يكون التعميم في بعض الأحيان ممكناً على عدد كبير من الوحدات. وقد يكون هذا المنهج أكثر قـرباً الى مفهوم « النوعية » من حيث ان مجموعة من « الوحدات » ذات التوصيف الاجتماعي قد تكون نوعية ، ولكن خصائص تلك الـوحدات ( النـوعية ) تختلف من خصائص نوعيات ، مثل « اللغات » و « اللهجات » ، ومن ناحية أخرى ، يمكننا استخـدام مصطلحـات مثل « النـوعية » و « اللغـة » بشكل غير محدد علميـاً كما سبق واستخـدمناهـا في الأجزاء الأخيـرة دون ان نقصد استخدامها كوحدات نظرية محددة.

وقد وصلنا الى نتائج مشابهة بخصوص مفهوم « الجماعة الكـلامية » Speech community ، وهو مفهوم يبدو واضحاً فقط بقدر ما يستطيع فرد بعينه أن يتعرف على جماعة بعينها ، وان يحدد موقعه بـالنسبة الى هـذه الجماعـة . ولأن الأفراد المختلفين قد يحددون بالطريقة نفسها جمـاعات مختلفـة ، وعلينا أن نتخلى عن أية محاولة لوضع معايير موضوعية ومطلقة عند تحديد « الجماعات الكلامية ». وبذلك لا يتبقى أمامنا ، من ناحية ، سوى المتحدث ومجمـوع الوحدات اللغوية التي قد يستخدمها ، ومن الناحية الأخرى ، لا يتبقى لنـا سوى جماعات معرفة دون الرجوع الى اللغة ، ولكننا قد نجد انه من المفيـد ان نربط هذه الجماعات باللغة.

وبما اننا قد قصرنا موضوع علـم اللغة الاجتماعي على دراسة الوحدات

اللغوية المستقلة التي يستخدمها متحدثون بعينهم ، فعلينا إذن ان نتساءل عن ماهية نوعية التعميمات التي نستطيع اطلاقها على اللغة والمجتمع . وقد سبق ان رأينا ان هناك كثيراً من الأسئلة العامة التي تتطلب اجابات عليها مثل : هل ترتبط النوعيات المختلفة من الوحدات اللغوية بجوانب المجتمع المختلفة ( مثل النموذج الفردي الخاص بالمجتمع ) ؟ وقد سبق ان اقترحت بعض الاجابات على مثل هذا السؤال ، واجابات على أسئلة أخرى في هذا الفصل ، ولكننا لا نستطيع ان نقدم في هذه المرحلة المبكّرة سوى محاولات للاجابة تستند الى التخمين. ولكن لابد ان نفهم بوضوح ان هذه الأسئلة تستحق ان تُطرح ، وان البحث العلمي في المستقبل قد يقدم لنا اجابات على مثل هذه الأسئلة تدعمها الأدلة الاختبارية .

# . اللغة والثقافة والفكر

## Language, Culture and Thought

لقد رأينا في الفصل السابق انه لا توجد في ظاهرة اللغة أية تقسيمات طبيعية بين نوعيات اللغة ، نستطيع أن نطلق عليها اسم « لغات » ، أو « لهجات » أو « سجلات السياق » ، بالرغم من انه قد تكون هناك تقسيمات طبيعية داخلية في اللغة ذاتها ، تستند الى المستويات اللغوية مثل المفردات Vocabulary والتراكيب Syntax والصيغ الصرفية Morphology وعلم الأصوات Phonology وننتقل ، الآن الى دراسة علاقات اللغة بما هو خارجها ، فنتساءل : هل هناك فواصل طبيعية بين الظواهر التي تشتمل عليها لفظة « اللغة » وظواهر أخرى ، نخص فيها ما نطلق عليه الثقافة والفكر ؟ وسوف نصل مرة أخرى الى اجابة معقدة الى حدٍ ما ، ولكنها اجابة تؤكد التشابهات ، لا الاختلافات ، بين اللغة وهذه الظواهر الأخرى ( أنظر لاكوف Lakoff ١٩٧٧ من أجل معالجة مشابهة ) ، كما تؤكد هذه الاجابة الارتباطات الوثيقة بين الظواهر بدلاً من انفصالها. ومثال ذلك انني سأذهب الى القول ان كثيراً من خصائص اللغة التي درسناها في الفصل السابق هي أيضاً من خصائص الثقافة بصفة عامة وان أفضل سبيل الى دراسة المعنى أو الدلالة هو دراسته من ناحية علاقته بالثقافة والفكر. وبقدر ما تتضح صحة هذه النتائج ، فانها تشكّل تحدياً لوجهة النظر التي سادت علم اللغة في القرن العشرين ، وهي ان اللغة مستقلة ومنفصلة عمّا سواها.

وتجنباً للخلط ، ينبغي أن نبدأ الدراسة بتوضيح بعض الأمور المتعلّقة بالمصطلحات المستخدمة. أولاً كلمة ثقافة ستفهم بالمعنى المستخدم في علم الانثروبولوجيا الثقافية Cultural Anthropology الذي تكون الثقافة فيه. شيئاً يملكه كل انسان في مقابل « الثقافة » التي يقتصر وجودها على الدوائر المثقفة ، أي في دور الأوبرا والجامعات ، وما أشبه ذلك. ويُستخدم هذا المصطلح بعدد

من المعاني تختلف تبعاً لرؤية عالم الانثروبولوجيا الذي يستخدمه. ولكنه يدل دائماً على خاصية ما للجماعة، وخاصة عندما يُراد التمييز بين هذه الجماعة والجماعات الأخرى. ويهتم بعض علماء الانثروبولوجيا بما يُطلق عليه «الثقافة المادية» material culture أي الأجهزة والأدوات التي تستخدمها الجماعة كالأواني الفخارية أو المركبات أو الملابس الخ. ولكننا سنتبع تعريف وارد جوديناف Ward Goodenouh «للثقافة» والذي يحددها بانها **المعرفة المكتسبة «اجتماعياً»** Socially acquired **knowledge** :

> «إنني أعتقد ان ثقافة مجتمع ما من كل ما ينبغي ان يعرفه أو يؤمن به الفرد حتى يستطيع التعامل في مجتمعه بأسلوب يقبله الأفراد الآخرون ولما كانت الثقافة هي ما ينبغي على الناس تعلّمه، في مقابل سماتهم البيولوجية الموروثة، فلابد ان يكون قوامها هو الحصيلة النهائية للتعلّم، وأعني المعرفة بأكثر معانيها عمومية.
>
> (جوديناف Goodenough ١٩٧٥)

وكما ذكر جوديناف، علينا أن نأخذ المعرفة هنا بمعناها الواسع، بحيث تشمل على المعرفة العملية أو التطبيقية 'know — how' ومعرفة الحقائق النظرية 'know — that' بمعنى انه ينبغي ان تتضمن كيفية ربط العقد ومعرفة ان عشرة عشرات من القروش تشتري ما يشتريه الجنيه الواحد. ومن مميزات وجهة النظر هذه، والمقبولة على نطاق واسع بين علماء الانثروبولوجيا، انها تسمح لنا بمقارنة الثقافة باللغة (كما في ٣ ــ ٢ ــ ١).

وإذا كانت الثقافة نوعاً من المعرفة، فمعنى ذلك انها لا توجد إلّا داخل رؤوس الناس، ولذلك كانت هناك مشكلة في دراستها وهي : كيف نعرف

ماهية المعرفة الثقافية لدى زيد من الناس ؟ والأكثر صعوبة من ذلك ، هو كيف نعرف ماهية الثقافة الموجودة لدى الجماعة س ؟ هل ينبغي أن نفحص المعرفة الثقافية لدى كل من أفراد الجماعة ؟ وماذا نفعل لو كانت هناك اختلافات بين الأفراد ؟ مثل هذه المشكلات بالطبع مألوفة تماماً لدارسي علم اللغة ، والحلول التي نقدم لها واحدة تقريباً ، سواء أكنا من المهتمين بالثقافة أم باللغة.

أولاً ، ففي استطاعتنا ان نراقب السلوك العادي للناس ( أي خارج اطار المواقف الاختبارية التي نصطنعها ، ونتوصل الى استنتاجات عن المعرفة التي لابد انها كامنة وراء هذا السلوك. وثانياً ، نستطيع تنظيم لقاءات ونطرح على الناس مجموعة من الأسئلة المباشرة عن معرفتهم ، ومع أخذ اجابتهم بشيء من الحذر إذا ما احتاج الأمر. ثالثاً ، نستطيع أن نستخدم أنفسنا كرواة informants. رابعاً ، نستطيع القيام بتجارب نفسية من نوع آخر ، مثل قياس الزمن الذي يستغرقه الأفراد لاداء مهام محددة ، وذلك حتى نقوم بوضع مقياس لدرجة التعقيد أو الصعوبة النسبية لأنواع المعرفة المختلفة.
(develop a measure of the relative complexity of the knowledge involved)
( ومن أجل مناقشة تفصيلية للمناهج المستخدمة في مثل هذه التجارب أنظر ٥ ــ ٢). ويمكن استخدام كل هذه الأساليب ، وقد تمَّ استخدامها بالفعل في كل من علم الانثروبولوجيا الثقافية وعلم اللغة.

وبعد ان نكتشف الحقائق التي تلزمنا بالنسبة لعدد من الأفراد ، تبقى مشكلة التعميم في كل من هذين العلمين. فإلى أي حد ، يمكننا ان نفترض ان الأفراد الذين تمت دراستهم يمثلون بالفعل الجماعة بأكملها ؟ والى أي حد يمكننا أن نفترض انه إذا اشترك فردان في معرفة معلومة واحدة ، فانهما سيشتركان أيضاً في معرفة معلومة أخرى ؟ لقد سبق وان توصلنا عند مناقشة

الوحدات اللغوية في الفصل الثاني الى النتيجة القائلة بان من أصعب الأمور الوصول الى التعميمات بين الأفراد ، وكذلك بين الوحدات اللغوية ، وهذا يصدق على وحدات المعرفة الثقافية ( سانكوف Sankoff ١٩٧١ ) . ويعني ذلك بايجاز ان نفس المشكلات المنهجية القائمة في دراسة اللغة هي التي تعترض طريقنا أيضاً عند دراسة الثقافة .

وعلينا قبل أن نترك مسألة الثقافة ، أن ندرك ان المعرفة المتضمنة في ثقافة ما ، ليس من الضروري أن تكون صحيحة من الناحية الواقعية والموضوعية حتى نعمل لها حساباً . فقد يعتقد بعض الناس ، على سبيل المثال ، ان التدريبات البدنية العنيفة تدني الأجل ، وقد يعتقد البعض الآخر عكس ذلك ، ولكن طالما أمكن اثبات كلا من هذين الرأيين قد اكتسب اجتماعياً ( أعني من أفراد آخرين ) فاننا نعدهما معاً وحدات ثقافية . وكثيراً ما يُطلق على معرفة العوام اسم « المعرفة العادية الشائعة » common — sense knowledge وهو أهم أنواع المعرفة في نظر علماء الانثروبولوجيا ، مثلما ان علماء اللغة يهتمون بالاستخدام اليومي للغة أكثر مما يهتمون بقواعد النحو التعليمية والارشادية prescriptive grammars والمعاجم . ومن ناحية أخرى ، فان المعرفة الشخصية للعلماء والمثقفين جزء من المعرفة الثقافية ، ومن أهم ، إن لم يكن أهم الأسئلة المطروحة في دراسة الثقافة هو السؤال عن العلاقة بين المعرفة العادية الشائعة والمعرفة الشخصية ، إذ من الواضح ان التأثير والتأثر عملية متبادلة بين الطرفين . وقد كانت احدى مشكلات كتابة هذا الكتاب مثلاً وجود كمية كبيرة من المعلومات المبنية على المعرفة العادية الشائعة عن اللغة في كل الثقافات ، وقد يكون بعضها صحيحاً والبعض الآخر غير صحيح ، ولذلك من الصعب التنبؤ بمعتقدات القارىء الخاصة عن اللغة . وهناك مشكلة أخرى مشابهة بالنسبة لعلم اللغة الاجتماعي ذاته وهي ان عالم اللغة الاجتماعي يعرف ان بعض معتقداته الشخصية قد تكون خاطئة وغير مفيدة بينما قد تكون

بعض معتقداته الأخرى أقرب للحقيقة ولذلك يمكنه اعتبارها جزءاً من نظريته ، ولكنه لا يستطيع أن يعرف مقدماً أيهما صحيح وأيهما باطل .

### ٣ ـ ١ ـ ٢ الفكر Thought :

تشمل كلمة « الفكر » على أنواع مختلفة من النشاط العقلي تقع في مجال « علم النفس المعرفي » Cognitive Psychology . وسأحاول أولاً ، أن أميّز بين « الذاكرة » Memory و « الاستدلال » Inference وكذلك بين « المفاهيم » concepts و « القضايا » propositions باعتبارهما موضوعان من الذاكرة والاستدلال . ولا حاجة بنا أن نفسّر هذه المصطلحات ، وذلك لوضوحها ، فإذا اعتبرنا ان « القضايا » مطابقة بشكل تقريبي للمقولات statements والمفاهيم مطابقة للتصنيفات العامة التي تُصاغ القضايا على أساسها وتجهز الخبرات . فمثلاً ، تعد المفردات الانكليزية مثل زيت ، ماء ، ويطفو ، وعلى ، على انها أسماء لمفاهيم ( أعني انها تدل على مادتين و « حالة » "STATE" وعلاقة واحدة ) ، ولكننا نعد تركيب « **الزيت يطفو على الماء** » . **اسماً لقضية هي « الزيت يطفو على الماء » . وأعني ان احدى المادتين في حالة « طفو » على** المادة الأخرى . وقد نتذكّر هذه القضية ( المتخزنة فعلياً في الذاكرة ) أو نستنتجها ، ( أي نستدل عليها ) بمعنى انها قد تكون شيئاً نعرفه أو تكون شيئاً اكتشفناه ( وفي الحالة الأخيرة نضيفها الى ما هو قائم بالفعل في الذاكرة حتى تصبح مختزنة فيه كمعرفة قد نحتاج اليها بعد ذلك ) . وقد تكون المفاهيم أيضاً موجودة في الذاكرة باعتبارها احدى التصنيفات المستخدمة في الفكر ، أو قد نقرر تكوينها على شكل تصنيفات جديدة يمكن عندئذ اختزانها في الذاكرة . ( ومن الطبيعي في علم النفس أن نستخدم مصطلح « تكوين المفاهيم » Concept formation بدلاً من مصطلح الاستدلال Inference للدلالة على عملية تكوين المفاهيم الجديدة ، ولكن هذه العملية تبدو أكثر شبهاً بعملية الاستدلال على القضايا . وعندما نصل الى دراسة علاقة

الفكـر بالفكـر فاننـا سنجد انـه من المهم أن نميّز بـين هذه الأنـواع المختلفة من « الفكر ».

فما هي ، العلاقة بين « الفكر » و « الثقافة » ؟ إذا سلمنا بتعريف الثقافة على انها « معرفة مكتسبة اجتماعياً » ، فمن السهل ان نفهم ان الثقافة تمثّل أحد أجزاء الذاكرة ، وخاصة ذلك الجزء الذي نكتسبه اجتمـاعياً ، مقـابل الجزء الآخر الذي لا يتدخل الآخرون في اكتسابه. ومثل هذا التقسيم تقسيم مبهم للغـايـة ، وعلينـا ألاّ نثق بـه ثقـة عميـاء بـل يجب أن نـأخـذه بشيء من الحذر ، غير انه قد يساعدنا على التمييز بين نوعين من « القضايا » هما : « القضايا » التي نعـرف انها صحيحة نتيجـة لتجاربنـا الشخصية والقضـايا التي تعلّمناها من الآخـرين. ومن الأمثلة على النـوع الأول من « القضايـا » القضيـة التاليـة « لقد تنـاولت السجق على الغـداء اليوم » ، فهـذه القضية لا تدخل في مفهوم الثقافة ، أما قضية من نوع « اكتشف كولومبس أمريكا » فهي تنتمي بوضوح للمعرفة الثقافية ، لأننا تعلّمناها من الآخرين. وكذلك ، قد نعد بعض المفاهيم مفاهيم ثقافية بينـما لا يمكننا وصف المفـاهيم الأخرى بذلك ، فنحن نقوم بتكوين المفاهيم الثقافية لأننا نعرف ان الآخرين حـولنا يستخدمونها في تفكيرهم ، كما قد يتضح من المفاهيم التي يكونها طلاب علم اللغة وطلاب علم اللغة الاجتماعي إذ يكتشفون ان أساتذتهم يستخدمونها. ( وغالباً ما تكون هناك كلمة للدلالة على مثل هذه المفاهيم ، ولذلك فان أهم ما يهدي الطالب الى وجود مفهوم مثل « الازدواج اللهجي » هو وجود كلمة أو مصطلح للدلالة على ذلك ). أمـا « المفهوم غـير الثقافي » non — cultural concept فهو المفهوم الذي نكونه دون الرجوع للآخرين كوسيلة مناسبة لتأويل خبراتنا الشخصية ، مثل مفهوم « أنا » أو « الطريقة التي تتحدث بها زوجاتنا » أو « رائحة الصبغ ».

ويعتمد هذا التمييز بين « المعرفة الثقافية » و « المعرفة غير الثقافيـة »

على طبيعة مصدر هذه المعرفة. فإذا كانت هذه المفاهيم مشابهة لمفاهيم وقضايا تدور في أذهان الآخرين ، فانها تعد عندئذ مفاهيم ثقافية ، وإن لم تكن ، فهي غير ذلك. ومن أهم خصائص المعرفة الثقافية القدر المشترك من الخبرة الذي يستطيع من خلاله الناس أن يؤولوا سلوك بعضهم بعضاً وان يصلوا من خلال ذلك الى نفس المفاهيم والقضايا. وعلى سبيل المثال ، يحضر ملايين الناس ، كل عام ، أنواعاً مختلفة من الحفلات الموسيقية في بريطانيا ، ويبدو انهم جميعاً متفقون ( فيما عدا القلة القليلة ) على نفس مفاهيم تصنيف هذه الحفلات ( مثل « البوب » والكلاسيك والجاز الخ ) ، وتقوم هذه التصنيفات بتحديد نوع السلوك المناسب والمتبع في كل نوع من هذه الحفلات ( فغالباً ما يكون سلوك الحاضرين في الحفلات الكلاسيكية ومشاركتهم محدوداً للغاية وذلك لما يستطيعون فعله ومتى يمكنهم فعله ). فلو لم يشترك الناس في مثل هذه المعرفة التفصيلية فان سلوكهم في مثل هذه الحفلات قد يصبح عشوائياً ولا يمكن التنبؤ به ، وبخاصة ان بعض هذه التقاليد المتعارف عليها عشوائية التحديد.

ولا يعني ذلك ان المعرفة غير الثقافية يجب أن تختلف من فرد لآخر ، لأنه يمكن لأفراد مختلفين أن يصلوا الى استنتاجات متشابهة استناداً الى خبرات شمولية متشابهة أو بسبب استعداد وراثي مشابه. فلو وجدنا ان جميع الناس لديهم مفهوم « البعد الرأسي » vertical dimension ، فلا داعي لتصور انهم قد تعلّموه من آخرين ، وذلك حتى يمكننا الوصول الى تصور سلسلة الاتصال بينهم ، فمن المحتمل انهم جميعاً قد وصلوا الى نفس الاستنتاج لأنهم جميعاً يعيشون في عالم تسيطر عليه قوى الجاذبية الأرضية ويقطنه بشر يسيرون ممشوقي القوام. ( أنظر كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : الفصل ١٤ ، وبخاصة ص ٥٤٣ ، حيث يقدم دراسة ممتازة لأوجه الشبه بين المفاهيم غير الثقافية ).

وعلى ذلك نجد ان هناك ثلاثة أنواع من المعرفة :

( ١ ) **المعرفة الثقافية** : التي نتعلمها من الآخرين.

( ٢ ) **المعرفة المشتركة غير الثقافية** : وهي نوع من المعرفة يشترك فيه الناس داخل نفس الجماعة ، أو في العالم أجمع ، ولكنها ليست نوعية المعرفة التي نتعلّمها من الآخرين.

( ٣ ) **معرفة غير مشتركة وغير ثقافية** : وهي معرفة تقتصر على فرد واحد. ليس من الصعب أن نجد مكاناً للغة في مثل هذا النظام . إذ ان بعض أجزاء اللغة هي معرفة ثقافية لأنه يجب تعلّمها من الآخرين في حين ان أجزاء أخرى هي معرفة مشتركة غير ثقافية. وسنعود الى هذه المسألة فيما بعد في ٣ ــ ١ ــ ٣.

وقد يتشكك القارىء في قدرتنا على دراسة الفكر فعلاً ، ولا يتشكك في قدرتنا على اطلاق بعض الآراء التخمينية عنه ، ولذلك فمن المفيد أن نرجع بايجاز شديد الى الكم الهائل من الأبحاث التي أُجريتْ عن الفكر ، ونرجع الى النتائج التي أمكن التوصل اليها. ويمكننا انتقاء واحد من أحدث التطورات في مجال دراسة المفاهيم لعرضه ، وسنعود الى هذا البحث خاصة فيما بعد عند دراسة المعاني (٣ ــ ٢ ــ ٣). ( وقد تعرض كل من جونسن ليرد و واسون Johnson — Laird & Wason ١٩٧٧ : الجزء الثالث ، وكلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : ٤٦٤ بايجاز لتطور دراسة المفاهيم ). فترى احدى النظريات المطروحة عن المفاهيم ان كلاً منها يتكون من مجموعة من الخصائص الضرورية والكافية حتى يعد شيء بعينه مثالاً على هذا المفهوم set of features . فيتكون مفهوم « الطائر » مثلاً من مجموعة من الخصائص تتضمن الجناحين والريش والزغب والبيض وكونه شيئاً حيّاً animate ، الخ . ولكن هناك عدة مشكلات في قبول مثل هذه النظرية المطروحة وليس أقل هذه المشكلات شأناً انه من المستحيل في الواقع ان نحدد من ناحية المبدأ الشروط الضرورية

والوافية التي تجعل كائناً ما « طائراً ». وحتى يمكن التغلب على بعض هذه المشكلات قدم عدد من علماء النفس ومن بينهم بصفة خاصة الينور روش Eleanor Rosch نظرية بديلة عن هذه النظرية ، لا يعرف المفهوم فيها استناداً الى مجموعة من الخصائص الضرورية والوافية ولكن يعرف استناداً الى « النموذج الأصل » prototype ، وهو توصيف لمثال نموذجي بعينه. وعلى ذلك يعرف مفهوم « الطائر » بانه يتضمن وصفاً لطائر نموذجي مثل طائر « أبو الحناء » Robin في صورة مجموعة من الخصائص أو في صورة مرئية. واستناداً الى هذه النظرية فان الشيء ليس مجرد « طائر » أو ليس « طائراً » ولكنه يعد طائراً بقدر تشابهه مع « النموذج الأصل ». ( من أجل مناقشة أكثر تفصيلاً لهذا الموضوع أنظر ٣ ـ ٢ ـ ٢ فيما يلي ).

وهناك كثير من الأدلة والبراهين تؤكد صحة نظرية « النموذج الأصل » مقابل نظرية « الخصائص المميزة » Criterial features. ويستند معظم هذه الأدلة الى تجارب معملية. فقد ثبت من التجارب المعملية مثلاً ان الزمن الذي يستغرقه الناس للتحقق من ان كلمة « **س** » في التركيب س « **طائر** » مثلاً تدل على مفهوم حقيقي هو أقل كثيراً في الحالات التي يكون فيها **س** اسماً لطائر نموذجي عنه فيما إذا كانت « س » كلمة تدل على طائر مثل **البطريق** أو **النعامة** ، وهي طيور غير نموذجية ( روش ١٩٧٦). وهناك أدلة أخرى مأخوذة عن تجارب طُلِبَ فيها من المشتركين تصنيف مجموعة من الأمثلة المنتمية الى مجموعات عامة استناداً الى مدى انطباقها على هذا التصنيف. وتعد هذه التجارب ناجحة للغاية حيث وُجِدَ ان هناك قدراً كبيراً من الاتفاق بين الناس على « الترتيب » ranking النسبي لهذه الوحدات فعلى سبيل المثال كان هناك قدر كبير من الاتفاق على ان « **أبو الحناء** » و « **طائر الخطاف** » من أكثر الطيور تمثيلاً للنموذج في قائمة تتكون من ثمانية طيور ، بينما وُجِدَ ان « **الدجاج** » و « **البطريق** » من أقل الطيور تمثيلاً ، وبين وحداث الأثاث وُجِدَ

ان « الكـرسي » و « الخزانـة » من أكثر هـذه الوحـدات تمثيـلاً للنمـوذج ، بينما وُجِدَ ان « أجهـزة المذيـاع » و « الطفـايات » من أقلهـا تمثيلاً كـما وُجِدَ ان « التفاح » و « البرقـوق » تعد من أكـثر وحدات الفـاكهة تمثيـلاً للنموذج بينما وُجِدَ ان « جـوز الهند » و « الـزيتون » من أقلهـا تمثيلاً كـما وُجِدَ أيضـاً ان « البنطال » و « المعطف » من أكثر وحدات المـلابس تمثيلاً للنمـوذج بينما وُجِـدَ ان « أكياس النقـود » و « الأسـاور » أقلهـا تمثيـلاً ( كـلارك وكـلارك ١٩٧٧ : ٤٦٤). ولـو كانت هـذه المفاهيم مثـل « الطيـور » و « الأثـاث » و « الفاكهة » و « الملابس » قد عُرِفتْ بواسطة مجموعة من الخصائص المميزة ، فقد لا يكون لدينا ما يفسّر التفاوت في درجة ترتيبها. وان المرء ليتوقع ، بدلاً من ذلك ، تمييز محدداً وقاطعاً بين ما يُعد مثالاً وما يعـد غير مثـال على هـذه التصنيفات.

ومما يدعو الى لجوء عالم اللغة الاجتماعي وعالم الانثروبولوجيا الى نظرية النموذج الأصل Prototype انه ليس من الصعب فهم كيف يتعلّم الناس مثل هذه المفاهيم من بعضهم بعضاً. فلنتصور إذن ان طفلاً رضيعاً لم يتعلّم بعد وهـو يتعلّم مفهوم « المكـان الذي ينـام فيه » ، وهـو مثال واضـح للمفهوم الثقافي ، لأنه يعتمد على ما يتوقعه الآخرون من الطفل ، ولا يعتمد على مجرد رغبة الطفل ذاته . والمكان النموذجي لنوم الطفل ، بالطبع ، هو « المهد » ، وفي اللحظة التي يتمكن فيها الطفل أن يتعرّف على مهده على أساس انه المكان الأمثل لنومه تكون مهمة تكوين المفهوم قد انتهتْ بالنسبة له. وعليه ، فانه يمكن ، كلما دعت الحـاجة ، أن يـدرج تحت هذا المفهـوم ، أماكن أخـرى للنـوم ، مثـل المهـود الأخـرى ، وأسـرّة البـالغـين ، والأسـرّة المـوضـوعـة على الأرض ، أو حتى المقعد الخلفي في السيارة ، وهكذا دواليـك ، ويمكن في بعض الحالات تجاوز ذلـك المفهوم وقتيـاً ، ولكن إذا تكرر ذلـك الموقف فان الطفل قد يختزن مكان النوم الجديد في ذاكرته لدرجة انه يمكنه أن يستبدل

النموذج الأصل بنموذج أصل جديد. والغرض من ذكر هذا المثال هو أن نؤكد انه يمكن تعلّم النموذج الأصل من عدد صغير جداً من الأمثلة ، أو من مثال واحد ، وذلك دون أية محاولة لتعريفه تعريفاً شكلياً. بينما تستوجب نظرية الخصائص المميزة تعلّم مثل هذا المفهوم من عدد كبير من الأمثلة والأمثلة المضادة قبل أن يتمكّن المتعلّم من الاستدلال على الخصائص المميزة الضرورية وغير الضرورية.

ومن المزايا الأخرى لنظرية النموذج الأصل انها تسمح بنوع من المرونة الخلّاقة في تطبيق المفاهيم التي نمر بها في حياتنا الفعلية ، أعني انها تتنبأ مقدماً ان حدود هذه المفاهيم ستكون مبهمة fuzzy ، وغير واضحة المعالم ، وهي في الواقع كذلك. فنتخيل ، مثلاً ، ان لدينا مفهومين مثل مفهومي « الفاكهة » و « الخضار » يعتمد كل منهما على كلام الآخرين ، وعلى تجاربنا الشخصية غير اللغوية ، فالفاكهة ، مثلاً غالباً ما تؤكل كحلوى أو تؤكل بين الوجبات ، وهي حلوة الطعم ، وتنمو على الأشجار والشجيرات ، بينما تؤكل الخضروات مع اللحوم ، وتنمو على الأرض ، أو تحتها ، وهي لذيذة المذاق والرائحة. ويعد « التفاح » نموذجاً أصلاً للفاكهة ، إذ ان فيه كل خصائصها ، بينما يعد « الكرنب » مثلاً نموذجاً أصلاً للخضروات إذ ان فيه كل خصائصها. ولكن هناك حالات شاذة مثل « الطماطم » و « الرواند » ، حيث يمكن أن ينسب كل منهما الى النموذجين الأصليين ، ويعتمد الاختيار في مثل هذه الحالات على مدى اتصال المعايير بالمناسبة. ومهمة الفرد ، عند تطبيق مفهوم « الفاكهة » ، ليست مجرد البحث عن الخصائص المميزة للفاكهة في كل من الطماطم والرواند ، ولكن عليه أن يستخدم حساسية فائقة ومهارة ذكية في تحديد أي من المعايير تصلح لموقف بعينه. وعند مقارنة نظرية « الخصائص المميزة » بنظرية « النموذج الأصل » نجد ان الأخيرة تضع المسؤولية في الاختيار على المستخدم ، إلّا انها تعطيه حرية مطلقة في استخدام مفاهيمه

بطريقة خلاّقة.

وهناك ميزة ثالثة لتبنّي نظرية « النموذج الأصل » بصفة خاصة ، وهي انها تقدم لعالم اللغة الاجتماعي تفسيراً للكيفية التي يصنّف بها العناصر الاجتماعية المتصلة باللغة ــ وهي عناصر ، مثل نوعية الفرد المتحدث والظروف أو الموقف الذي يتحدث فيه. وكما رأينا في الفصل السابق ، فان الناس يتعلّمون ان هناك وحدات لغوية معينة ، وثيقة الاتصال بنوعية معينة من الناس ، أو مواقف بعينها. ولكننا لم نعرض لكيفية قيام الناس بتصنيف المتحدثين والمواقف. وإذا كانت هذه المفاهيم تستند في تكوينها الى نظرية « الخصائص المميزة » ، يصبح من السهل أن نقرر إذا كان المتحدث أو الموقف مثالاً على تصنيف بعينه أم لا . أما إذا كانت هذه المفاهيم تستند الى نظرية « النموذج الأصل » ، فكل ما نحتاجه عند اكتساب وحدة لغوية جديدة هو معرفة ماهية المتحدث أو المستخدم والظروف التي تُستَخدم فيها هذه الوحدة عادة ، تاركين بذلك الحالات الغامضة أو المبهمة دون ايضاح ، وذلك للتعامل معها عند الحاجة فقط.

ويعد ذلك أساساً سليماً لنظام تحليلي ابتكره وقدّمه جوشا فيشمان Joshua Fishman ، وقد أطلق عليه نظام « المجالات » domains ويتضمن هذا النظام مجموعة من المفاهيم مثل « منزل » « مدرسة » « عمل » « دين » ، الخ ( أنظر فيشمان Fishman ١٩٦٥ ، ١٩٧٢ د). والفرضية الأساسية التي يستند اليها هذا النظام التحليلي هي ان عملية انتقاء اللغة في مجتمع « مزدوج اللغة » bilingual تختلف من مجال الى آخر ، وان هذه المجالات تعد تركيبات متلائمة congruent تتكون من نوعية معينة من المتحدثين والمتلقين في مكان بعينه ، يتحدثون في موضوع معيّن. فإذا كان المعلّم يحدث الطلاب في المدرسة ــ مثلاً ــ عن موضوع تاريخي ، فان العناصر المؤثرة في هذا الموقف هي التي تحدد المجال ــ وهو مجال المدرسة ــ ، ولن تكون هناك صعوبة تذكر

في اختيار نوعية اللغة المستخدمة. ولكن إذا غيّرنا أحد هذه العناصر المتلائمة ، وجعلناه عنصراً غير متلائم ، كأن نغيّر المكان ــ مثلاً ــ من المدرسة الى بيت الطالب ، فاننا نجد ان نوعية الاتصال قد أصبحتْ مبهمة ، ويصبح في غير الامكان تصنيف نوعية الاتصال في مجال واحد دون ابهام أو غموض ، ولذلك يصبح من الضروري ان يستخدم المتحدث فطنته عند تحديد نوعية اللغة التي سيستخدمها.

لابد وانه قد اتضح من هذه الدراسة لنظرية « النموذج الأصل » في المفاهيم ان عالم اللغة الاجتماعي قد يتعلّم الكثير من علم النفس المعرفي Congnitive Psychology وعلم اللغة النفسي Psycholinguisr. ومن الضروري ان نعرف ان أية محاولة للفصل بين المداخل « النفسية » و « الاجتماعية » للغة قد يكون مدمّراً لدراستنا والمهتمين منا ، بصفة خاصة ، بالقضايا النفسية.

**٣ ــ ١ ــ ٣ اللغة والثقافة والفكر :**

كان الغرض الأساسي من الجزئين السابقين هو محاولة توضيح المصطلحات المتعلّقة بالثقافة والفكر ، وما بينهما من علاقة. ولكننا لم نقل شيئاً بعد عن اللغة في حد ذاتها ، وعلينا الآن أن نضع اللغة في مكانها الطبيعي في الصورة التي قمنا برسمها حتى هذه اللحظة. دعنا ، أولاً ، ننتهي من رسم الصورة الكاملة.

كما رأينا من قبل ، فاننا نستطيع تعريف الثقافة على انها نوع من المعرفة نتعلّمها من الآخرين سواء من خلال التعليم المباشر أو مراقبة سلوك الآخرين. ولكننا ميّزنا بين نوعين آخرين من المعرفة هما « المعرفة المشتركة غير الثقافية » و « المعرفة غير الثقافية وغير المشتركة ». ومن هذه الأنواع من المعرفة قلنا ان النوع المشترك هو أقربها ارتباطاً باللغة ، بالرغم من انه لا يأتي عنْ طريق التعلّم ، ويمكننا الآن تجاهل النوع غير المشترك من المعرفة لأن اللغة ترتبط ارتباطاً دائماً ووثيقاً بالمفاهيم المشتركة ( أو المفاهيم التي يُعتقد

انها مشتركة ).

وتقع كل هذه الأنواع الثلاثة من المعرفة ( كما نستخدم المصطلح هنا ) في مجال « الذاكرة » memory لا في مجال « الاستدلال » inference ، بالرغم من انه يمكن توسيع هذا المصطلح كي يشمل كل ما توصلنا الى معرفته ذاتياً في مناسبة بعينها. فإذا تحدثنا عن نتيجة ضرب رقمين ، لوجدنا ان اجابة الفرد ستتضمن الاجابات التي قام باستظهارها نتيجة لحفظ جدول الضرب ، ( مثلاً ٣ × ٢ = ٦) ، وستشمل أيضاً معرفته بالقواعد العامة لعملية الضرب. ولكن إذا وسّعنا مصطلح « المعرفة » ليشمل نتائج الاستدلال أيضاً ، فاننا قد نقول ان معرفة الفرد تتضمن أيضاً ان حاصل ضرب ٢٣ × ١٩ = ٤٣٧ ، لو قام بالعملية الحسابية اللازمة للحصول على تلك النتيجة.

وكل هذه الأنواع الثلاثة من « المعرفة » قد تتطلّب مفاهيم خاصة بها ، وهذه المفاهيم ترتبط ببعضها في شكل قضايا ، وتلعب المفاهيم والقضايا دوراً في عملية الاستدلال كما انها تؤدي وظيفة هامة في الذاكرة . ويمكننا تجاهل السؤال الهام الخاص بماهية نوعية الاختلاف بين « المفهوم » و « القضية » ، بالرغم من اننا قد اعترفنا ضمنياً بوجود هذا الاختلاف. ويمكننا أيضاً تجاهل العلاقة القائمة بين المعرفة التطبيقية العملية konw—how والمعرفة النظرية know—that ، وسنفترض جدلاً في الوقت الحالي ان كلا النوعين يمكن تضمينهما في فكرة « القضية ». ( وتعد هذه المعضلة من القضايا الهامة بالنسبة لعالِم اللغة. لأنها مسألة خلافية ما إذا كانت اللغة من الأمور التي تتطلّب « المعرفة النظرية » بان التراكيب محكمة ودلالاتها محددة ، أو انها تستلزم المعرفة التطبيقية في كيفية تكوين produce وفهم التراكيب. ) وقد سبق ان اتخذنا موقفاً من قضية طبيعة المفاهيم ، وذهبنا الى اننا يجب أن نراها على انها « نماذج أصول » تحدد الحالات الواضحة ، تاركة الحالات الأقل وضوحاً لعملية الاستدلال عندما يتطلّب الموقف ذلك.

وينبغي ان نعود الآن لدراسة اللغة. وهناك أربع نقاط تتصل فيها اللغة بالمعرفة. وسنعرض لهذه النقاط الأربع في هذا الجزء ونناقش هذه النقاط تفصيلياً فيما بعد في هذا الفصل.

### ( ١ ) الوحدات اللغوية مفاهيم Linguistic Items are Concepts :

أياً إن كانت نظرتنا لفكرة « الوحدات اللغوية ». ( أنظر ٢ ــ ١ ــ٢) ، فاننا يمكننا أن نراها على انها التصنيفات المستخدمة في تحليل تجاربنا ، أعني انها مفاهيم ذلك ان كل كلمة ، مثلاً ، تمثّل مجموعة من الخصائص الصوتية والتراكيبية والدلالية ، وذلك يشبه تماماً مفهوم « الفاكهة » الذي يمثّل بدوره مجموعة من الخصائص مثل موعد أكلها ، وأين تنمو ، وما هو مذاقها ، الخ. ويعد أي تركيب مجموعة معقدة من الخصائص بنفس الأسلوب نستخدمه في تعريف مفهوم « منضدة » على انه تنظيم معيّن من الأجزاء الرأسية والأفقية. وفضلاً عن ذلك فمن الواضح ان كثيراً من ( إن لم يكن كل ) الوحدات اللغوية تعرف على انها « نماذج أصول » تماماً ، مثل المفاهيم غير اللغوية ، وغالباً ما يكون ذلك هو السبب وراء استحالة التمييز الدقيق والثابت بين التراكيب « الجيدة » والتراكيب « السيئة ». وان المسند اليه النموذجي مثلاً لفعل مثل **يطهو** cook هو الفاعل أو مَنْ يقوم بالطهي ( **طهتْ ماري اللحم** **Mary cooked the meat.** ، ولكن هذا المسند اليه قد يكون أيضاً أداة instrument للطهو فقط ، مثل ( **طها الموقد اللحم** ـ **The oven cooked the meat.** وقد يكون أيضاً الشيء المطهى ، مثل **اللحم مطهى جيداً**. **The meat cooked well.** ان المسند اليه النموذجي لفعل مثل يطهو يتكون من عدد من الخصائص المختلفة التي قد تشمل كون هذا المسند اليه هو الفاعل Agent أو المسؤول الأول عن الحدث ، ولكن من الممكن أيضاً ان نعمم هذا التركيب على الحالات التي يكون فيها الفاعل مسؤولاً فقط عن الطهي ، لا عن الحدث كله ، مثل

حالة ( طهى الموقد اللحم .The oven cooked the meat ولكن إذا فقدنا مثل هذه الخصيصة ، فان التركيب يصبح أقل قبولاً مثل التركيب التالي « طها الانـاء اللحم .The saucepan cooked the meat ) أنظر لاكوف Lakoff ١٩٧٧ من أجل دراسة تفصيلية لمثـل هذه الأمثلة ، ويـدافع لاكـوف عن مدخـل « النماذج الأصول » بالنسبة لدراسة الوحدات اللغوية ) .

( ٢ ) المعاني مفاهيم Meanings are Concepts :

هناك جدل ونقاش كبير محتدم حول تعريف « المعنى » . ولكن هناك أيضاً اتفاق تام على ان معنى « الوحدة اللغوية يمثّل أحد معانيها sense » أعني ذلك الجزء الدائم المرتبط بعلاقتها الدائمة بالعالم وليس مدلولاتها كلها referents ، أي الأشياء والأحداث objeects & events التي تدل عليها الكلمة في مناسبات بعينها ( أنظر كمبسون Kempson ١٩٧٧ : ١٢ ، وليونز Lyons ١٩٧٧ الفصل السابع ) . وهناك قدر أكبر من الخلاف حول تحديد مغزى الكلمة وعلاقتـه بالمفهوم الذي ترتبط به في ذاكرة المتحدث ، أعني مطابقـة الوحـدة للمفهوم الذي تعبّر عنه ، فمغزى كلمة قط ، على سبيل المثال ، هو مفهوم قط ، الذي ربما كان موجوداً في ذاكرة الفرد قبل ان يتعلّم الكلمة التي تعبّر عن هذا المفهوم ( أنظر كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : ٤٣٩ ، ٤٤٩ ، الذي يقدم هذا الرأي ) . فليس لكل الوحدات اللغوية مفهوم مقابل مثل قط ، فبعض هذه الوحدات يبدو انها مجـرد محاولـة لمساعـدة المتلقي على الفهم مثـل أداة التعريف الـ ( the ) ونظيرها العكسي أداة التنكير ( a ) . وربما يكون التعميم الوحيد الصحيح الذي نستطيع ان نطلقه على المعنى هو انه « كيان ذهني » -men tal entity وانه قد يكون مفهوماً أو قد يكون أجراء procedure .

( ٣ ) التصنيفات الاجتماعية ، وثيقة الصلة باللغة مفاهيم :

Linguistically relevant social catagories are concepts

وكما أشرنا في نهاية ٣ ــ ١ ــ ٢ يمكننا افتراض ان الناس يقومون بتصنيف

المتحـدثين والـظروف في صورة مفـاهيم تستنـد الى « النمـاذج الأصـول » . وقد ذهبنا الى ان المتحدث يحدد نفسه في حيّز متعـدد الأبعاد بـالنسبة لبـاقي المجتمع ، وانه يحدد كذلك كل « فعل كلامي » في حيّز متعدد الأبعاد بالنسبة لبقية جوانب حياته الاجتماعية . ويمكننا القول ان كل « بعد » من هذه الأبعاد يتحدد بالنسبة لمفهوم بعينه لمتحدث نموذجي في موقف نموذجي . ويسمح لنا مثـل هذا الـرأي بالتنبؤ بكثـير من الظواهـر الموجـودة بالفعـل في علم اللغة الاجتماعي ، مثل التحويل المجازي للشفرة metaphorical code— switching ، وهي الظاهرة التي سبق ان ذكرناهـا في ٢ ــ ٥ ــ ١ ، كما يسمـح لنا بتـوقع الـدرجات الأخـرى المختلفة التي يحـدد بها حـديث الناس درجـة انتمـائهم الى جماعات بعينها ( الفصل الخامس وخاصة ٥ ــ ٤ ــ ٣ ، أدناه ) .

### (٤) معاني التراكيب قضايا : Sentence — meanings are prepositions

وبسبب الفصل القائم بين « المفاهيم » و « القضايا » ، يمكننا القول ان معظم الوحدات اللغوية المختزنة في الذاكرة يمكن تصور معانيها في صورة مفاهيم ، غير ان التراكيب التي تتكون عن طريق تجميع هذه الوحدات يمكن القول انها تعبّر عن قضايا . وعلى النقيض من معاني الوحدات اللغوية المختزنة في الذاكرة ، مثل الكلمات والعبارات ، فان المتلقي يصل الى معاني التراكيب المنطوقة عن طـريق الاستدلال ، بـالرغم من انـه ليس هناك مـا يحول دون اختزان تركيب بأكمله في الذاكرة واختزان معناه كذلـك ، وكثيراً مـا يحدث ذلـك . ( ومن الأمثلة العاديـة على مثـل هذه التـراكيب المختزنـة التركيبـان التاليان :

A good time was had by all.

Two and two make four.).

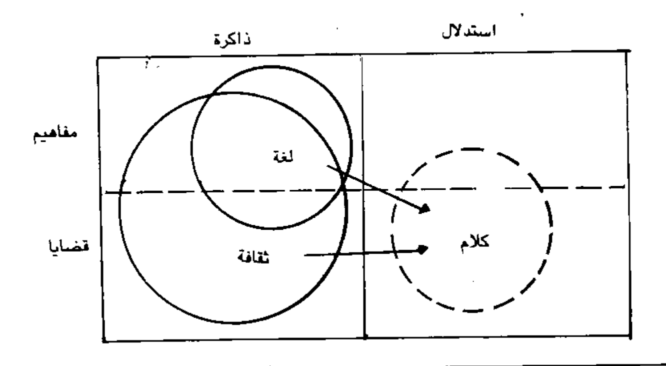
وذلك يعني ان علينا أن نعدل ما قلناه في الجزء رقم (٢) ، حيث قلنا ان المعاني مفاهيم ، لأن ذلك لا يصح إلاّ بالنسبة للوحدات المختزنة الأصغر

من أشباه التراكيب.

ولو بسّطنا الأمور نوعاً ما فاننا قد نخلص من ذلك الى ان ما يُختَزَن من النظام اللغوي في الذاكرة هو مجموعة من المفاهيم، وهي الوحدات اللغوية، وذلك بالاضافة الى معانيها المتمثلة في صورة مفاهيم أو قضايا. وتُختَزَن أيضاً بعض المفاهيم الاضافية التي تحدد التوزيع الاجتماعي للوحدات اللغوية. وعندما نتحدث أو نتلقى، فاننا نقوم باستخدام المفاهيم التي نعرفها حتى نستدل على القضايا ( أي معاني التراكيب ) وحتى نستدل أيضاً على التصنيفات الاجتماعية الـمُحَدَدَة في شكل مفاهيم.

أما بالنسبة للعلاقة بين اللغة والثقافة فان معظم اللغة مضمن في الثقافة. ولذلك فاننا لن نجانب الصواب عندما نقول « بان لغة المجتمع تمثّل أحد جوانب ثقافته... ان العلاقة بين اللغة والثقافة هي علاقة الجزء بالكل » ( جوديناف Goodenough ١٩٧٥). وتتكون منطقة التطابق بين اللغة والثقافة من كل الأجزاء اللغوية التي نتعلّمها من الآخرين. ولكن علينا أن نفهم ان بعض جوانب اللغة لا يتم تعلّمها بهذه الطريقة مثلما، يحدث في حالات بعض المفاهيم التي لا نتعلّمها من الآخرين. ومن هذا النوع المفاهيم المرتبطة بالكلمات ارتباط معنى فحسب. ( ومنها على سبيل المثال فهم الطفل لمفهوم « الرأسية » قبل أن يتعلّم الكلمة الدالة على ذلك )، وقد تكون هناك جوانب أخرى من اللغة لا يحتاج الطفل لتعلّمها وذلك مثل قائمة « الخصائص الصوتية » أو مفاهيم « الاسم » أو « الفعل ». وبقدر ما تكون هناك جوانب من اللغة لا نتعلّمها من الآخرين، تكون اللغة غير مضمنة كلية في الثقافة.

وقد يساعدنا الشكل ٣ ــ ١ على ايضاح العلاقة بين الفكر من جهة ( المربع كله ) والثقافة واللغة والكلام من جهة أخرى ( الممثلة بالدوائر الثلاث داخل المربع ).




الشكل ٣ ـ ١ العلاقات بين الفكر والثقافة والكلام

## ٣ ـ ٢ النسبية الثقافية والنسبية اللغوية Linguistic & Cultural Relativity :

### ٣ ـ ٢ ـ ١ معاني الكلمات والمكونات الدلالية : Word — meaning and semantic components

بعد ان قمنا بايضاح بعض جوانب العلاقة بين اللغة والثقافة ، علينا أن نلتفت الآن الى قضيتين سادتا مجال دراسة علاقة اللغة بالثقافة والفكر.
أولاً : الى أي مدى تختلف اللغات والثقافات عن بعضها بعضاً ؟ وهل تتبع كل منهما نفس الشكل عاكسة نمطاً « إنسانياً » تحتياً واحداً ، أما انهما تختلفان اختلافاً تعسفياً مطلقاً انعكاساً لحقيقة ان الشعوب المختلفة تعيش في عوالم فكرية ومادية مختلفة ؟ هذا هو السؤال الخاص بقضية النسبية relativity ، والتي يمكن دراستها من الجانب اللغوي أو من الجوانب غير اللغوية للثقافة أو من مواقع الالتقاء والاتصال بين الجوانب اللغوية والجوانب غير اللغوية للثقافة. وسنقوم بدراسة هذه العلاقة الأخيرة في هذا الجزء من الكتاب حيث سنحاول التركيز على اختلاف المعنى بين النوعيات المختلفة وبيان ما إذا كانت هناك أية ارتباطات بين الاختلافات الموجودة في المعنى وبين الاختلافات الثقافية ؟ أما القضية الثانية فهي قضية « الحتمية » determinism ( التي سنقوم بدراستها في ٣ ـ ٣) وهي تختص بدراسة أثر اللغة على الفكر.

ومن السهل ايضاح أحد جوانب « النسبية » لأننا نستطيع أن نذكر

وحدات بعينها في بعض اللغات تعبّر عن معانٍ لا يمكن التعبير عنها في لغات أخرى. وقد نرى ذلك بوضوح في صعوبة الترجمة بين اللغات التي تنتمي الى ثقافات مختلفة، ولذلك توجد فيها أسماء لأنماط مختلفة من العادات والتقاليد ( ومن الأمثلة على ذلك الاختلافات بأعياد الميلاد birthday ) وأسماء لبعض الأشياء ( مثل الهوفركرافت hovercraft والسجق sausages )وأسماء بعض المؤسسات ( مثل الجامعة University ). وهكذا دواليك. وعندما تكون هناك حاجة ملحة لترجمة مفهوم لا يوجد له مقابل ولا تعبّر عنه كلمة جاهزة في لغة بعينها، هناك سبيلان للتغلّب على مثل هذه الصعوبة. إما ان نقدم صيغة جديدة تحمل المعنى المطلوب، أو نفكك المعنى المرغوب في التعبير عنه. ( ولذا، يمكننا الدلالة على معنى كلمة « جامعة » بتفكيكها الى مكافىء هو **مكان يذهب اليه الناس ليتعلّموا أشياء صعبة بعد بلوغ سن الثامنة عشرة)**.

وسواء لجأنا الى هذا الحل أو ذاك، فالمفاهيم الموجودة في صورة وحدات لغوية مختزنة في احدى اللغات لا يتحتم وجود مثلها للدلالة في لغة أخرى.

ويمكننا توسيع هذه المقولة باتجاهين، على الأقل، أولاً، يمكننا أن نضع في الاعتبار ما قلناه في الفصل الثاني، وان نتخلى عن فكرة اللغة باعتبارها فكرة غير مفيدة ومضللة، وان، نركّز، بدلاً من ذلك، على الوحدات اللغوية القائمة لدى فرد بعينه. وذلك يسمح لنا بالقول بان أنواع الاختلافات التي سبق ان رجعنا اليها من قبل بالنسبة لجماعات بأكملها تماثل الاختلافات القائمة بين الأفراد داخل اطار الجماعة الواحدة. فنحن نعرف جيداً من خبراتنا اليومية ان بعض الناس يعرفون أسماء لأشياء ومؤسسات قد يجهلها أفراد أسرتهم أو أصدقاؤهم الى حدٍ يمكننا معه القول ان هناك اختلافات فردية في المعاني بين مجموع الوحدات اللغوية الموجودة لدى مختلف الأفراد. ولذلك فان كل مَنْ وصل في قراءة هذا الكتاب الى هذا الجزء سيكون قد اختزن عدداً من الوحدات اللغوية في ذاكرته ( منها مثلاً، « ازدواج لهجي » Diglossia

و « وحـدة لغويـة » Linguistic item و « خط تـوزيـع السمـات ا اللهجية »، Isogloss ، وهذه الوحدات ستكون غير قائمـة فعلاً لـدى مَنْ لم يدرس علم اللغة الاجتماعي . ثانياً ، يمكننا ان نتجاهل أية اشارة الى الثقافة غير اللغوية لأن هناك اختلافات في المعنى في أي لغة لا دخل لها بالجوانب الأخرى للثقافة ( على الأقل في حدود ما يمكن معرفته ) . فيوجد في اللغة الألمانية على ، سبيل المثال ، فعلان يعنيان « يأكل » ، يستخدم أحدهما **eassen** للدلالة على قيـام البشر بالأكل ، بينما يدل الآخر fressen على قيام الحيوانات بالأكل ، وذلـك عـلى عكس اللغـة الانكليـزيـة حيث يُستخـدَم فعـل واحـد ، للدلالـة على الفعلين . وبذلك تعبّر اللغتـان الانكليزيـة والألمانيـة عن معاني مختلفـة من خلال وحداتها اللغوية ، وتفتقر اللغة الألمانية الى وجود فعل يوازي الفعل الانكليزي يأكل ، بينما تفتقر اللغة الانكليزية الى الفعلين الأكثر خصوصيـة في اللغة الألمانية ( بالرغم من ان اللغتين تتضمنان فعلاً أكثر عمومية هو الفعل « يستهلك » consume ، غير انه يعني تناول الشراب أيضاً وعلى ذلك فنحن لم نضمنه في المناقشة ) . وانه سوف يكون من الصعـوبة بمكـان أن نجد أيـة ظواهر أخرى في الثقافتين الألمانية والانكليزية ترتبط بالاختلاف ، آنف الذكر .

وهكذا نرى ان هناك بعض الاختلافات بين فردٍ وآخر أو بين جماعـةٍ وأخرى من ناحية المفاهيم التي تعبّر عنها الوحدات اللغوية التي يستخدمونها . ولكن هذه النتيجة تترك عدداً من الأسئلة دون اجـابة . فهـل من الممكن ، مثـلاً ، ان تختفي هذه الاختـلافـات ، لـو وضعنـا في اعتبـارنـا المكـونـات components التي تصنع المعنى ، بدلاً من فحص التركيبات التي تظهر فيها هذه المكونات في اللغات المختلفة ؟ لو فعلنا ذلك لوجدنا ان الألمانية والانكليزية ، مثلاً ، أقل اختلافاً مما تصورنا عندما قارنا بين أفعال الأكل ، وذلك لأن كل المكونات الفردية التي تكون معاني **'essen'** و **'fressen'** يمكن التعبير عنها باللغة الانكليزية بوحدة مثل يأكـل + إنسان أو حيـوان ، ومن ناحيـة أخرى أكـثر

عمومية ، فقد يتضح من تفكك مكونات المعنى ( كما سبق ان فعلنا بالنسبة لكلمة جامعة ) ان هذه المكونات مشتركة بين هاتين اللغتين . ولذلك فان من لا يملك وحدة واحدة لكلمة جامعة ، ستكون لديه وحدات مختلفة لكلمات مثل « ناس » و « يتعلّم » الخ . وهي جدلاً المكونات التي تكوّن المعنى .

وقد لقي هذا الرأي رواجاً كبيراً بين علماء اللغة كأساس لنظرية الدلالة ( أنظر كمبسون Kempson ١٩٧٧ : ٩٦ من أجل مناقشة مفيدة ) . وقد يؤدي هذا الرأي الى اعادة طرح مشكلات عديدة ، ولكن ينبغي علينا ، أولاً ، أن نفحص بدقة مثالاً مطولاً عن التحليل الدلالي في صورة مكونات ، قبل أن نبدأ في بحث بعض هذه المشكلات . ( وغالباً ما يُطلق على هذا النوع من التحليل مصطلح « تحليل المكونات » Componential analysis وقد كان ويليام جوديناف Goodenough (١٩٥٦) عالم الانثروبولوجيا ، أول مَنْ ابتكره كأداة لدراسة بعض جوانب الثقافة وخاصة مسألة القرابة kinship terms ) . ويتناول هذا المثال ضمائر لغة البالونج Palaung ، وهي لغة تتحدث بها قبيلة صغيرة في بورما ( برلينج Burling ١٩٧٠ : ١٤) . حيث يمكننا ترتيب الضمائر في هذه اللغة في نظام محكم يسمح بالتمييز بين ثلاثة مكونات منفصلة هي :

( ١ ) هل يدل الضمير على المتحدث ( من بين الآخرين ) ؟

( ٢ ) هل يدل الضمير على المخاطب ( من بين الآخرين ) ؟

( ٣ ) هل يدل الضمير على واحدٍ أو اثنين أو أكثر ؟

الجدول رقم ٣ ــ ١ ، ضمائر البالونج Palaung
( مأخوذ من برلينج Burling ١٩٧١ : ١٧ )

| (١) المتحدث | (٢) المخاطب | (٣) واحد | أثنان | أكثر من اثنين |
|---|---|---|---|---|
| نعم | نعم | ـ | ar | E |
| نعم | لا | ɔ | yar | yE |
| لا | نعم | mi | par | PE |
| لا | لا | An | gar | gE |

ويوضّح الجدول ٣ ــ ١ كيف تتقاطع هذه المكونات لتحدد صيغة الضمير.

وتتميّز الضمائر في البالونج بانها تقوم بتحديد عدد من التميزات بالنسبة للمكونات المذكورة أكبر ومما يحدث في اللغة الانكليزية. فاللغة الانكليزية لا تميز بين « المثنى » و « الجمع » أو بين « المتحدث » و « المخاطب » ( **نحن** الشاملة inclusive we ) ) أو بين « المتحدث » و « فرد آخر غير المخاطب » ( **نحن المحددة** ). ولكن كل هذه المكونات الثلاثة مستخدمة في اللغة الانكليزية بشكل أو بآخر. أما بالنسبة لمكونات « المتحدث » و « المخاطب » ، فليس علينا إلّا ان نفحص نظام الضمائر حيث يُستخدم كلاهما للتمييز ما بين we **نحن** ( التي تتضمن المتحدث ) **وأنت** you ( **التي تتضمن المخاطب ولكنها لا تتضمن المتحدث** ) **و هم** they ( التي لا تتضمن أيّاً منهما ). أما بالنسبة للمكون العددي ، فاللغة الانكليزية تميّز ما بين كلهم **all** وكلاهما **both** أو لا أحد منهم **none** أو لا أحد منهما **neither** كما لو كان هناك مدلولان أو أكثر من مدلولين. وعلى ذلك ، فاننا نصل الى النتيجة التالية وهي ان كلاً من اللغة الانكليزية والبالونج لا تختلفان في مكوناتها الدلالية ، ولكنهما تختلفان في الطريقة التي تستخدم كل منهما بها هذه المكونات.

والفرضية التي نناقشها هنا هي ان اللغات تختلف في الطريقة التي تركّب

بها المكونات الدلالية ولكن المكونات ذاتها ليست مختلفة. ويبدو ان الأدلة والمادة المقدمتان هنا تدعمان هذه الفرضية ( ويمكننا اضافة الكثير الى هذه المادة ). ولكن هناك مشكلة مباشرة تواجهنا لو سلّمنا بما سبق أن قلناه ( في ٣ ــ ١ ــ ٣) من ان هذه الدلالات تعد مفاهيم فردية ). ولو كان الأمر كذلك ، لكان معنى ذلك ان معنى كلمة نحن we في الانكليزية مفهوم فردي يتضمن « المتحدث » و « كثيرين » كخصائص مميزة لهذه الكلمة بدلاً من كونها مكونات لمعنى كلمة we ( نحن ) ذاتها. وأعني ان العلاقة بين الكلمات والمفاهيم مثل « المتحدث » و « المخاطب » و « الكثيرين » ليست علاقة مباشرة ، وإنما يتوسطها مفهوم يصل بينها كمعنى. فلو اننا اتخذنا هذا المنظور لوجدنا ان ما أطلقنا عليه مصطلح « مكونات الدلالة » ليس جزءاً من علم الدلالة على وجه الاطلاق ، بل هو جزء من « البنية المعرفية العامة » general cognitive structure ومن هنا نخلص الى القول ان المعاني تختلف في اللغات المختلفة اختلافاً كبيراً. ( فمعظم الضمائر في لغة البالونج لها معانٍ لا يمكن التعبير عنها بأي من الضمائر الانكليزية ، والعكس صحيح ايضاً.). وعلى أية حال فقد يعد ذلك في المقام الأول خلافاً على المصطلحات ، وهو أمر لا أرى أية ضرورة في الاستمرار فيه بجدية هنا.

### ٣ ــ ٢ ــ ٢ « النماذج الأصول » Prototypes :

ويبدو ان من نتائج دراسة المكونات التي تسهم في تكوين المعنى ان النظم الدلالية للغات المختلفة تبدو أكثر شبهاً بعضها بالبعض الآخر وأقل اختلافاً عما إذا كنا قد درسنا المعاني كاملة دون تفتيتها الى مكونات. وإذا درسنا النماذج الأصول ( أنظر ٣ ــ ٢ ــ ١ ) التي تنظم من حولها معاني الكلمات ، فقد يتضح من ذلك أيضاً ان هذه النماذج أكثر تشابهاً وأقل اختلافاً عما لو درسنا معاني الكلمات ذاتها. وقد يبدو ذلك صحيحاً بصفة خاصة بالنسبة لمجالين من مجالات المفردات ، وهما مجالا اللون colour والقرابة kinship ، وهما

المجـالان اللذان أُستخدمـا مراراً لتبيـان الاختـلافـات الشـديـدة القـائمـة بين اللغات. وفيما يتصل بـالألوان ، تُقَسِم اللغـات المختلفة ألـوان الطيف تقسيمـات مختلفـة. وطـالما لفتت هـذه الحقيقـة نـظر علماء اللغـة وعلماء الاثنوغرافيا. فكلمة واحدة بلغة الزوني Zuni على سبيل المثال ، توازي معنى كل من اللونين البرتقالي orange والأصفر yellow باللغة الانكليزية ( بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ٢٤٥) ، أما الكلمة الـويلشية جـلاس **gals** فهي تشمل الألوان التالية : في اللغة الانكليزية : الأخضر والأزرق والرمـادي ( روبينز Robins ١٩٦٤ : ٧٢).

أما فيما يتعلّق بالمفردات الدالة على مفاهيم القرابة فان اللغات تختلف اختلافاً مذهلاً في الطريقة التي تصنّف بها هذه المفاهيم كما سنـرى فيما بعـد ( أنظر كلارك وكلارك Clark & Clark الذي يقدم مناقشة تفصيلية لمصطلحات الألوان ١٩٧٧ : ٥٢٤ ، وأنظر أيضاً روش (١٩٧٤) الذي يقدّم عرضاً جيداً لكل الدراسات التجريبية الحديثة عن النسبية اللغوية ).

ولعل أهم التطورات التي سنرجع اليها بالنسبة لمصطلحـات القرابـة kinship terminology هي التي استحدثها عالم الانثروبولوجيا فلويد لونزبـري Floyd Lounsbury والذي توصـل الى فكرة المعـاني التي ترتكّـز الى « النماذج الأصـول » بمنأى عن الأبحـاث النفسية التي أجـرتها الينـور روش Eleanour Rosch ، والتي سبق ان ذكرناها في ٣ ــ ١ ــ ٢ ( أنظر بصفة خاصة لونزبري Lounsbury ١٩٦٩ ، والدراسة الموجودة في برلينج Burling ١٩٧٠ : ٤٩). ولنبدأ هذه الدراسة لمصطلحات القرابة بفحص المادة العلمية التي يتصدى لها دارسو هذه المصطلحات من علماء الانثروبولوجيا.

ويمكننا استخدام مصطلح ( س ) في الكثير من المجتمعات ومن بينها مجتمع هنود السيمنولا Seminole Indians الذي يقطنون فلوريدا وأوكلاهـوما ومواطنو جزر التروبيراند ( الواقعة شرق غينيا الجديدة ) للدلالة على العلاقات

التـاليـــة :

(١) الأب — 1) Father

(٢) أخو الأب ( العم ) — 2) Father's brother (English **Uncle**)

(٣) ابن أخت الأب ( ابن العمة ) — 3) Father's sister's son (English **Cousin**)

(٤) ابن أخت أُم الأب (ابن خالة الأب) — 4) Father's mother's sister's sob (English?)

لا يوجد مصطلح

(٥) ابن بنت أخت الأب (ابن بنت العمة) — 5) Father's sister's daughetr son (English?)

لا يوجد مصطلح

(٦) ابن أخ أخ أب الأب (ابن أخي الجد) — 6) Father's father's brother's brother's son (English?)

لا يوجد مصطلح

(٧) ابن ابن أخت أب الأب (حفيد عمة الأب) — 7) Father's father's sister's son's son (Englosh?)

لا يوجد مصطلح

وقد قمنا بـذكر مصـطلحات القـرابة الانكليـزية بـين قوسـين ، إذا وُجـدَتْ ، غير ان المصـطلحات الانكليـزية ليست بـالترجمـة الدقيقـة لهـذه المصطلحات لأن لها معاني أوسع من المعاني المعطاة هنا : فيدل لفظ **العم uncle** باللغة الانكليـزية مثـلاً على أخ الأب أو أخ الأم ( الأخـير بالعـربية خـال ) بينما لا يجوز استخدام ( س ) للدلالة عـلى أخ الأم. وفضلاً عن ذلـك فانـه لا يوجد بـالنسبة لمعـظم المتحدثـين باللغـة الانكليزيـة مصطلح مـا للدلالة على المعاني المذكورة في أرقـام ٤ و ٥ و ٦ و ٧ ، بالـرغم من انه مـا من شك في وجـود قلة ضئيلة من ذوي الخبرة في هـذه الأمـور ، ( وهم أقليـة ضئيلة في بريطانيا ) يمكنهم ايجاد أو تركيب تركيبات مثل **second cousin twice removed** وليس من الضروري التأكيد ثانية على انه لا توجد مصطلحات انكليزية مرادفة للمصطلح ( س ) في هذه اللغات.

وليس معنى ( س ) محيّـراً بـالنسبـة للمتحـدث الانكليـزي العـادي

فحسب ، ولكنه قد يحيّر أيضاً المتخصص ، وذلك في تحليل الخصائص المميزة للأقرباء الذين يمكن الدلالة عليهم بمصطلح ( س ) من القرابة ، واحدى هذه الخصائص العامة هي وجوب كون المدلول عليه ذكراً ، ولكن يصعب بعد ذلك ايجاد أي من الخصائص الأخرى التي تحدد ( س ). ( وعلينا أن نلاحظ ان ( س ) لا تعني قريباً ذكراً من جانب الأب لأنها لا تتضمن أب الأب ، مثلاً ). ولو اننا اتبعنا منهج « النماذج الأصول » بدلاً من منهج البحث عن الخصائص المميزة فان الأمور قد تبدو مختلفة ــ إذ يمكننا ــ وعلى حد قول لونزبري ــ التنبؤ بكل هذه المعاني ، لو افترضنا ان المعنى الأصلي ( النموذج الأصل ) هو مجرد « الأب » والمعاني مشتقةٍ منه ، وذلك عند تطبيق أي واحد من قواعد التكافؤ الثلاثة التالية :

آ ــ أخت الرجل = أمه.

ب ــ الأخوة والأخوات = بعضهم بعضاً لو كانوا من نفس الجنس.

جـ ــ الأخوة غير الأشقاء = الأخوة الأشقاء.

ونحن نحتاج لهذه القواعد الثلاثة ، دون سواها حتى يمكننا التنبؤ بمعاني مصطلحات القرابة الأخرى في هذه اللغات. فلنبدأ إذن بمثل سهل ، وهو « أخو الأب » ويمكننا اشتقاق المصطلح (٢) من القاعدة ب ، حيث ان الأب وأخاه أخوة من نفس الجنس ولذلك فهما متكافئان. أما بالنسبة للمصطلح (٣) « ابن أخت الأب » ، فعلينا تطبيق القاعدة « ب » محولين بذلك « الأب » الى « أخو الأب » ثم تطبيق القاعدة « جـ » التي تستبدل « بالأخ » « ابن الأم » و ( هي وسيلة للدلالة على الأخوة غير الأشقاء ). وأخيراً تطبيق القاعدة « أ » مستبدلين « أم الأب » ب « أخت الأب » ، ويعطينا ذلك العلاقة التي نسعى وراءها وهي « ابن أخت الأب » ، ويتضح من الجدول ٣ ــ ٢ كيف نشتق المعنى (٧) ابن ابن أخت أبو الأب « من » « الأب ».

## الجدول ٣ ـ ٢ اشتقاق مصطلحات القرابة في بعض اللغات

| القاعدة | المعنى | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| الأنموذج | الأب | | | | |
| ب. أخ = أخ | أخو | الأب | | | |
| جـ. أخ غير شقيق = أخ شقيق | ابن | أبو | الأب | | |
| ب. أخ = أخ | ابن | أخو | أبو | الأب | |
| جـ. أخ غير شقيق = أخ شقيق | ابن | ابن | أم | أبو | الأب |
| أ. الأخت = الأم | ابن | ابن | أخت | أبو | الأب |

والشيء اللافت للنظر في هذا التحليل هو ان المعنى الأساسي لمصطلح ( س ) هو نفس مصطلح « الأب » باللغة الانكليزية ، وان الاختلافات بينهما ناتجة عن وجود قواعد اشتقاق derivation rules في اللغات الأخرى ، ليست قائمة في اللغة الانكليزية . ( وينبغي أن نلحظ ان هناك أيضاً معاني ثانوية أخرى لمصطلح « أب » Father باللغة الانكليزية مثل « قسيس » Priest أو « أب متبنى » ) . ويفتح هذا الاكتشاف آفاقاً جديدة للمقارنة بين معاني « النماذج الأصول » لمصطلحات القرابة في مختلف اللغات ( لو افترضنا انه بامكاننا تحديد معانيها ) ، وسنجد انه لا توجد سوى اختلافات بسيطة وضئيلة في عدد من الأنماط العامة ، ولكننا قد نجد اختلافات واسعة وكبيرة في قواعد الاشتقاق . وليس بامكاننا تجاهل هذه الاختلافات واعتبارها غير ذات أهمية ، لأنه قد يكون لهذه الاختلافات نتائج وآثار هامة وجسيمة . ولكننا نستطيع ، على أقل تقدير ، تقييد أنواع الاختلافات بين مصطلحات القرابة في اللغات المختلفة ، ولذلك فنحن

لا نستطيع اتخاذ هذه الاختلافات دليلاً على وجود النسبية اللغوية المتطرفة .

وقد يخطىء من يظن ان مدخل « النماذج الأصول » يجعل كل أنظمة مصطلحات القرابة تبدو وكأنها واحدة ، باستثناء قواعد اشتقاقها ، لأن ذلك ليس بالطبع هو الموقف. فحتى معاني « النماذج الأصول » قد تكون مرتبطة ارتباطاً شديداً بالتنظيم الاجتماعي لمجتمع بعينه . فهناك ، على سبيل المثال ، قبيلة من السكان الأصليين لاستراليا يُطلق عليها اسم « النجمال » Njamal ، وتشير عادات الزواج في هذه القبيلة الى وحدة يطلق عليها علماء الانثروبولوجيا « الفخذ » moiety حيث تقسّم هذه العادات القبيلة الى فخذين ( قارن بذلك المصطلح الفرنسي **moitié** ويعني « النصف » ) ويعتمد الوصف التالي أساساً على دراسة برلينج Burling ١٩٧٠ : ٢١). وفيها ينتمي الفرد الى الفخذ الذي ينتمي اليه أبوه دائماً ولا ينتمي الى فخذ أمه ، لأن القواعد تحتم على الزوج والزوجة الانتماء الى « فخذين » مختلفين different moieties .

ولا تنعكس أهمية اختلاف الفخذين في قواعد الاشتقاق فقط ( والتي صيغتْ أصلاً لتمنع الخلط بين الأقارب الذين ينتمون الى فخذين ، مختلفين ، وذلك عند الاشارة اليهم بنفس المصطلح ) ، بل تنعكس أيضاً في معاني « النماذج الأصول » ، فهناك ، على سبيل المثال ، أربعة مصطلحات تدل أساساً على المنتمين لجيل الأبوين : مصطلح لكل من « الأب » و « الأم » ، كما هو الحال في كل اللغات ، ولكن هناك أيضاً مصطلحان اضافيان يدل أحدهما على « أخو الأم » mother's brother ويدل الآخر على « أخت الأب » father's sister . والسؤال هو لماذا تمَّ اختبار هاتين العلاقتين دون العلاقات الأخرى مثل « أخو الأب » للاشارة اليهما بمصطلحين بعينهما ؟ ويبدو ان الاجابة على هذا السؤال هي ان هاتين العلاقتين تقدمان لنا تعارضاً جنسياً أساسياً مستقلاً عن « تعارض الأفخاذ » miety contrast إذ ينتمي « الأب » و « أخت الأب » ، مثلاً ، الى نفس الفخذ الذي ينتمي اليه الفرد

المعنى ، ولكنهما من جنسين مختلفين ، بينما « الأم » و « أخو الأم » ينتميان الى الفخذ الآخر ، ولكنهما من جنسين مختلفين أيضاً ). وعلى العكس فأخو « الأب » ينتمي الى نفس الفخذ ونفس الجنس الذي ينتمي اليه « الأب » ، ولذلك فانه لا يعد « نموذجاً أصلاً » منفصلاً ومميزاً .

ويبدو اننا حتى لو اتخذنا « النماذج الأصول » مدخلاً للتعامل مع مصطلحات القرابة فانه سيظل هناك مجال كافٍ يعكس الاختلافات القائمة في التنظيم الاجتماعي سواء أكان ذلك الاختلاف في « النماذج الأصول » ذاتها أم في قواعد اشتقاق المعاني الأخرى من هذه « النماذج الأصول » . ( يمكننا مثلاً ان نعرف مفهوم « الأب » في صورة عدد من العناصر المختلفة مثل « أبوة الدم » و « الولاية » و « الوصاية العادية » ويمكن تأكيد هذه العناصر المختلفة من وجهات نظر مختلفة في مجتمعات مختلفة ) . وفضلاً عن ذلك ، يبدو اننا سنحتاج الى مفهوم مثل « الفخذ » moiety ، وذلك عند محاولة تعريف النماذج الأصول في لغات مثل لغات النجمال Njamal ، ولكننا لن نحتاج الى مثل هذا المفهوم في اللغات المرتبطة بأنواع أخرى من الأنظمة الاجتماعية . وعليه فاننا لا يمكن أن نكون على يقين من « المكونات الدلالية » semantic components المكونة » النماذج الأصول مكونات شمولية universal components .

أما النقطة الأخيرة في هذه المناقشة فهي خاصة بمفهوم النماذج « الأصول » في حد ذاته . سبق ان ناقشنا ثلاثة طرق ، يمكننا بها تجاوز المعنى النموذجي الأصل » للكلمة word's prototypical meaning أولاً ، يستطيع المتحدث استخدام ما سبق ان أطلقنا عليه « المرونة الخلّاقة » creative flexibility (٣ ــ ١ ــ ٢) ، ومعنى ذلك ان المتحدث سيتجاوز معنى الكلمة بطريقة مبتكرة ، ويمكننا أن نطلق على هذا النوع من التجاوز « التجاوز المجازي » metaphorical extension (ومن الأمثلة على هذا النوع من التجاوز ، استخدام « نموذج أصل » شائع الدلالة للدلالة على شيء غريب تماماً

لا يناسب هذا أو يتلائم معه ). ثانياً ، قد تكون هناك قواعد ثابتة وواضحة لتجاوز المعنّى ، كما هو الحال في تحليل لونزبري لمصطلحات القرابة Louns- bury's analysis ، وربما نفترض ان بعض هذه المعاني التجاوزية هي معاني يتم توليدها عند استخدامها كل مرة دون اختزان في ذاكرة المتحدث. ثالثاً : هناك مفردات تتركّز دلالتها في نموذج أصل بعينه ولكن معانيها التجاوزية قد تكون مختزنة أيضاً في الذاكرة. فقد نفترض مثلاً ان أحد معاني sense كلمة « الأب » والتي تسمح باستخدامها بمعنى « القسيس الكاثوليكي » مختزنة أيضاً في الذاكرة بالرغم من انها قد اشتقت تاريخياً من المعنى الأولى البيولوجي لكلمة « أب ». وهناك كثير من الأسئلة الهامة التي يمكن طرحها عن العلاقات بين هذه الأنواع الثلاثة من التجاوز ، وهي أسئلة لا نستطيع طرحها ومتابعتها هنا. ولكن قد يلحظ القراء الذين يألفون دراسات « تكوين المفردات word formation ان الطرق التي يمكن بها تجاوز معاني النماذج الأصول » يمكن مطابقتها تماماً مع الطرق التي تتكون بها الأعداد الترتيبية ordinal numbers فالمتحدث ، على سبيل المثال ، الذي ينطق بالرقم « سبعة وعشرين » يقوم بصياغة شكل أو صيغة جديدة عن طريق تطبيق احدى القواعد ( الحالة ٢ ) ، أما المتحدث الذي يقول **أولاً** و **ثانياً** فلابد انه استخرج شكلاً مختزناً من الذاكرة ( الحالة ٣ ) ، أما الذي يود الدلالة أو الرجوع الى المثال المرقم ٣ ــ ١ بالقول انه **المثال الثالث أ** فانه يقوم عندئذ بعملية صياغة أو خلق جديد ( الحالة ١ ) ( أنظر بولينجر Bolinger ١٩٧٥ : ١٠٨ ، وليتش Leech ١٩٧٤ الفصل ١٠ ، وماتيوز Matthews ١٩٧٤ : الفصل ٣ ، وهم يقدمون دراسة ومناقشة لموضوع « تكوين الكلمات » word formation.

### ٣ ــ ٢ ــ ٣ مفاهيم المستوى الأساس Basic — level concepts :

سبق ان رأينا ان التركيز على المكونات الدلالية و« النماذج الأصول » يؤدي الى تضييق هوة الاختلافات القائمة بين اللغات من ناحية المعاني.

وسنصـل الآن الى النـظريـة التي استحـدثتهـا الينـور روش Eleanor Rosch ( التي قدمت كما سبق ان ذكرنا مفهوم النموذج الأصل » في علم النفس ). وتفترض هذه النظرية وجود قدر أقل مما نتوقعه من الاختلافات بـين اللغات من ناحية **تنظيم** organization معاني الكلمات ( أنظر على سبيل المثال كلارك وكـلارك Clark & Clark ١٩٧٧ ، وروش ١٩٧٦ ، وقد تنبـأ بـراون ببعض جوانب هذه النظرية في ١٩٥٨ أ ، ب ). والمنطلق الأساس لهذه النظرية هو الفرضية القائلة بان الأسلوب الذي تنظم به اللغة العالم من حولها ، من خلال المعاني التي تقوم بتمييزها ، يعتمد في جزء منه على بناء وتنظيم العـالم ذاته ، ويعتمد أيضاً على احتياجات المتحدثين الاتصالية. ويستند مفهوم « النموذج الأصل » الى الحقيقة القائلة بان الخصائص لا تتجمع في العالم بطريقة عشوائية بل ان هناك ميلاً نحو تواجدها في مجموعات معقدة. ومن الأمثلة على ذلك انه من المحتمل أن تكون لذي الريش رجلان وان يكون قـادراً على الـطيران ، ان يكون له منقار وانه يبيض ولا يلد. وكل ما نفعله عنـدما نكـون مفهومـاً لنموذج أصل هو اننا نبدأ في ادراك هذه الحقيقـة عن العالم مـوقنين في نفس الوقت بان هناك حالات استثنائية لا تنطبق عليها هذه القواعد. ويمكننا القول بان هذا المنهج أكثر قدرة من بديله ، والذي يتلخص في تحديد تصنيفات مانعة جامعة لكل « الخصائص المميزة » الكافية والوافية.

وقد استخلصتْ روش نتيجة أخرى من هذه الفرضية الأساسية وهي ضرورة وجود ما نطلق عليه « مفاهيم المستوى الأساس » ، وذلك على عكس المفاهيم الأخرى التي قد تكون على درجة أعلى من الخصوصية أ والعمومية. فلو افترضنا ان هنـاك نوعـاً من التدرج الهـرمي في تنظيم مفـاهيمنا ، حيث تشتمـل ، في مثل هـذا النظام ، المفـاهيم الأكثر عمـومية « مثـل الأثـاث » على المفاهيم الثانوية أو الأقل عمومية مثل « مقعد » أو « كـرسي » ، يصبح من السهل ان نحدد في اطار هذا التدرج الهرمي مستوى المفاهيم التي تعطينا

أكبر قدر من المعلومات ( أي التي تشتمل على معظم مكونات المفهوم ، بأقل قدر من الجهد ( أعني باستخدام أقل عدد من المفاهيم المستقلة ). فهناك قدر أكبر من المعلومات في قولنا « لقد اشتريت كرسياً » يزيد عن قولنا « لقد اشتريت قطعة من الأثاث ». لأن لفظة كرسي تتضمن عدداً من الخصائص المادية ( مثل وجود سطح أفقي وعدد من الأرجل وظهر رأسي ) بينما لا تتوافر هذه الخصائص لكل قطع الأثاث. وتحمل لفظة كرسي أيضاً معلومات خاصة عن الوظيفة التي يؤديها كقطعة من الأثاث ، أي انه يخبرنا بما نستطيع ان نفعله به ، على عكس لفظة قطعة من الأثاث ، والتي لا تخبرنا إلّا بقدر قليل من المعلومات الغامضة عن وظيفتها الحقيقية. أما لفظة كرسي المطبخ ، فلا يضيف سوى خصيصة اضافية واحدة عند مقارنتها بلفظة كرسي ، وهي خصيصة غير ذات فائدة عظيمة وغالباً ما تكون هذه الخصيصة غير مرتبطة بالموقف. ويعد الجهد المبذول للتعرف على كرسي ما بانه كرسي مطبخ بدلاً من كونه مجرد كرسي جهداً أكثر مما نحتاجه لتحديد هذه الخصيصة. ولذلك يعد مفهوم كرسي من مفاهيم المستوى الأساس ، لأنه التصنيف الأكثر حضوراً بشكل طبيعي ، عندما نود الدلالة على شيء يمكننا تسميته أثاثا أو كرسياً أو كرسي مطبخ. ومما يؤكد هذه النظرية هو كون لفظة كرسي مكونة من كلمة واحدة ، بعكس كل من لفظتي كرسي المطبخ وقطعة من الأثاث ، ومعظم هذه الأدلة مأخوذة من الطريقة التي يستخدم بها المتحدثون هذه الكلمات ، كما وردت في دراسة روش.

إن علاقة مفاهيم المستوى الأساس بقضية النسبية اللغوية علاقة ذات شقين. أولاً : إذا ثبت ان المفاهيم تُرَتَب هرمياً فوق المفاهيم الأساسية ، فينبغي علينا أن نتوقع وجود قدر من التشابه بين اللغات في تنظيمها الدرجي للمفردات. وقد أكدتْ دراسات علم « الاحياء الشعبي » folk biology التي أجراها برنت برلين Brent Berlin وزملاؤه هذه النظرية. ( وهناك ملخص

لهذه الدراسات في كلارك وكلارك Clark & Clark ١٩٧٧ : ٥٢٨ ) . وقد وَجَدَ برنت برلين ان أسماء النباتات والحيوانات قد رُتِبَتْ في صورة خمسة أو ستة مستويات في عدد كبير من اللغات ، ويشكّل فيها المستوى الثالث من القمة المستوى الأساس . فقد وَجَدَ ، مثلاً ، ان اللغة الانكليزية فيها نظام ترتيبي يتمثّل في مصطلحات مثل **نبات** و **شجرة** و **الصنوبرية** و **الصنوبرية الباندورسية** و **الصنوبرية الباندورسية الشمالية** .

**Plant, tree, Pine, Ponderosa Pine,** and **Northern Pine**

وتمثّل كلمة الصنوبرية **Pine** المستوى الثالث في هذا النظام وهو المستوى الأدنى . الذي تُستخدم فيه كلمة واحدة . مما يشير الى انها مستوى الأساس . ومن الغريب حقاً ان برلين وزملاؤه قد وَجَدوا ان كل اللغات التي درسوها ، وهي حوالي ٥٠٠ لغة ، بها نفس العدد من مصطلحات المستوى الثالث في متدرج « الاحياء » Biology Hierarchy ، وتمثّل هذه النتائج نسبة عالية من التشابه بين اللغات من ناحية بنيتها الدلالية Semantic Structure ، بالرغم من ان المفاهيم ذاتها قد تختلف حسب اختلاف أنواع الحيوانات والنباتات التي تستوطن الأماكن التي تُستَخدم فيها هذه اللغات المختلفة .

والشق الثاني من العلاقة بين مفاهيم المستوى الأساس ومسألة النسبية اللغوية يتلخّص في ان هذه المفاهيم تضيف الى معلوماتنا مجالاً اضافياً يختلف فيه الناس من الناحية اللغوية ولذلك تبدو النسبية اللغوية أكثر مما هي عليه فعلاً . فالناس يختلفون فيما يعتبرونه مفاهيم أساسية . فقد ظهر ، على سبيل المثال ، من الأبحاث التي أجراها روش ان أهل الحضر يعدون لفظة **شجرة** لفظاً أساسياً ، ولا يعدون لفظة **صنوبرية** كذلك ( روش Rosch ١٩٧٦ ) ، وذلك لأنهم لا يألفون خصائص الأشجار الصنوبرية كما يألفها أهل الريف الذين دَرَسَهم برلين وزملاؤه . وعلى عكس ذلك ، فاننا قد نتوقع أن نجد ان لفظة « الصنوبرية البندروسية » تعد من مفاهيم المستوى الأساس بالنسبة

لِـمَنْ يعملون في الحراجة ، وقد ينعكس ذلك في اختصارهم للاسم الى كلمة واحدة وهي **بندروسا** ( كلارك وكلارك ١٩٧٧ : ٥٥٣). ( والاسم البديل « **للصنوبرية** » هو « **شجرة الصنوبر** » ، وقد يكون من المهم أن نعرف إذا ما كان أولئك الذين يعدون لفظة **شجرة** من مفاهيم المستوى الأساس أكثر قدرة من أهل الريف على استخدام الصيغة الأطول **للصنوبرية** ).

**٣ ـ ٢ ـ ٤ الخلاصـــة :**

هنـاك عدد من الجـوانب الهامـة لقضية النسبيـة التي لم نناقشهـا بعد في الأجزاء السابقة ، وخصوصاً قضية النسبية في مجالات المعنى التي تنعكس في التراكيب أو الصيّغ أكثر من انعكاسها في المفردات. لقد اهتممنا اهتمـاماً خاصاً بالمفردات لأننـا قد تـوقعنا حـدسياً أن نجـد في القضايـا Propositions التي يمكن التعبير عنها من خـلال التراكيب قـدراً من التباين أقـل مما نجـده في المفاهيم التي تعتمد على المفردات. ولكن ، لو وَجَدنا ان النسبية محدودة ، حتى في المفردات ، فان ذلك يعد أمراً غاية في الأهمية. وهناك أيضاً اختلافات في المفاهيم التي تعكسها الصيـغ الصرفيـة حيث تتفاوت هـذه الاختلافـات بين اللغات الغنية بالصيغ المعبّرة واللغات التي لا توجد بها صيّـغ صرفيـة. ومن ناحية أخرى ، فان عدداً من المفاهيم مثل الزمن time والعـدد number والحالة أو المنحى mood ( أعني موقف المتحدث من مضمون قوله ، مثل مدى يقينه من صحة قوله أو القضية المضمّنة في قوله ) غالباً ما يُعبّر عنها من خلال الصيّغ في كثير من اللغات. وقد تكون هناك إذن قيـود صارمـة على النسبيـة في مجال الدلالة بصورة موازية للصيّغ الصرفية ، ولذلك فهي مثل التراكيب قد لا تمثّل مجالاً مناسباً ، كالمفردات ، للبحث عن النسبية.

ولذلك تقتصر النتيجة التالية عـلى المعاني ، كـما تنعكس في المفردات فقط ، وذلك يعني اننا لن نتعامل إلاّ مع هذا الجزء من المعنى والذي يقتصر

على المفاهيم بدلاً من « القضايا ». لقد وصلنا الى النتيجة القائلة بان موقف « النسبية المتطرّفة » Extreme relativism غير مقبول ، لأن هناك قيوداً واضحة على نوعية وطبيعة الاختلافات القائمة بين الناس في صورة المفاهيم التي تعبّر عنها لغتهم ، وقد تكون هذه القيود ناتجة عن قيام الناس ، على اختلافهم ، وانتمائهم الى مجتمعات شديدة الاختلاف ، باستخدام نفس المفاهيم في تعريف معاني الكلمات ، أو بعبارة أخرى قيامهم بتعريف معاني الكلمات في شكل « مكونات » « دلالية » غالباً ما تكون مشتركة لا بين هذه اللغات فحسب ، بل ربما بين الجنس البشري بأجمعه. ويمكن « للمكون الدلالي » ان يكون مكوناً شمولياً universal لأنه جزء من التركيب أو البنية المعرفية البشرية » human cognitive make — up ، مثل القدرة البشرية على ادراك الأشكال والألوان ، أو لأنه جزء من عالم الانسان العادي ، مثل التعارض القائم بين البعدين « الرأسي » و « الأفقي » أو القائم بين أفراد الأسرة البيولوجية الواحدة.

ويمكننا تفسير القيود الأخرى الموضوعة على النسبية على أساس انها ناتجة عن وحدة متطلبات البشر الاتصالية وخاصة الحاجة الى توصيل أكبر قدر من المعلومات بأقل قدر من الجهد. ويمكن أن يكون قد أدى الى وجود اتجاه شمولي لاعطاء الأولوية لمفاهيم المستوى الأساس وأن يكون ذلك هو السر وراء تفضيلها على كل من مفاهيم المستويين الأعلى والأدنى higher and lower level concepts. وقد نتج عن ذلك أيضاً التشابه في الأنظمة أو الأبنية التدرجية hierarchical structure القائمة في المفردات دون التقيد بالمضمون الفعلي للمعاني التي تعبّر عنها. وترجع أنواع القيود الأخرى المفروضة على النسبية الى احدى سمات العالم من حولنا وهي اتجاهه لفرض بنيته الذاتية ، وذلك عن طريق تقديم مفاهيم جاهزة يمكن استخدامها « نماذج أصول » وهي نماذج يقل تباينها بين الأفراد أو المجتمعات عن المفاهيم « التجاوزية » extended المبنية عليها

( أنظر المناقشة عن كلمة « أب » في عدد من اللغات المختلفة ، أعلاه ) .

وينبغي علينا أن نؤكد ان هذه النتائج مجرد فرضيات مطروحة لم يتم اختيارها إلّا من خلال قدر ضئيل من المادة العلمية ولكنها تستوي مع الفرضيات البديلة والخاصة « بالنسبية المتطرفة extreme relativism أو الشمولية المتطرّفة extreme universalism ( والتي تزعم عدم وجود أية اختلافات في المعاني التي تعبّر عنها مختلف أنظمة المفردات ) .

هذا بالاضافة الى ان هذه الفرضيات تستند الى تفسيرات بسيطة ومقنعة ويؤيدها قدر معقول من المادة العملية data .

وبغية الانصاف والموضوعية ، يتوجب علينا الآن أن نوجز النتائج التي تبينّ وجود اختلافات دلالية بين اللغات ، وان هذه الاختلافات واسعة النطاق ، وذلك مقارنة بالنتائج السابقة وفحواها ان تلك الاختلافات محدودة . لقد سبق ورأينا ان هناك اختلافات في المكونات الدلالية ، حتى في تلك المجالات الشمولية . محكمة البناء ، مثل مصطلحات القرابة ( فمصطلح « الفخذ » moiety ذو أهمية في بعض الأنظمة بينما هو مفهوم غير ذي شأن في الأنظمة الأخرى ) . ومن الواضح ان هناك اختلافات في تركيب مكونات معاني الكلمات ( قارن مثلاً بين الضمائر في البالونج والضمائر في اللغة الانكليزية ) . وهناك أيضاً اختلافات في « النماذج الأصول » ( مثل « جامعة » أو أي نموذج يشير الى « فخذ » ) . وهناك أيضاً اختلافات هائلة في الطرق التي يمكن بها تجاوز دلالة « النماذج الأصول » ( ومنها على سبيل المثال القواعد الثلاثة ، لتجاوز « نماذج » القرابة « الأصول » في لغة مثل السمينولا Seminole والتي لا توجد في أي مكان آخر ) . وأخيراً يوجد هناك اختلاف في المفاهيم التي يعدها البعض مفاهيم أساس وهي مفاهيم تختلف من جماعة الى أخرى ، وتختلف من متحدثٍ لآخر في نفس الجماعة حسب خبرة المتحدث ومهارته . ويمكننا القول بايجاز ان أوجه الشبه والاختلاف قائمة بكثرة وفي صور عديدة ،

ويجدر بنا لذلك ان نولي دلالة المفردات من ناحية الدراسة المقارنة عناية أكبر مما أوليناها حتى الآن.

## ٣ ـ ٣ اللغة والكلام والفكر :

### ٣ ـ ٣ ـ ١ اللغة وبقية الثقافة :

ينبغي علينا الآن ان نتناول قضية « الحتمية اللغوية » Linguistic determinism فإلى أي حد وبأي الطرق تحدد اللغة الفكر ؟ وغالباً ما تتم الاجابة على هذا السؤال بالرجوع الى فرضية سابير - هورف — SAPIR WHORF HYPOTHESIS والتي تفترض ان اللغة تحدد الفكر الى حدٍ كبير، وبشتى الطرق ، وسنناقش هذه الفرضية بايجاز في ٣ ـ ٣ ـ ٥ . وعلى أية حال ، هناك نقاط التقاء بين اللغة أو الكلام والفكر.

يجب علينا أولاً تحديد العلاقة بين اللغة والجوانب الأخرى للثقافة . ونظراً لأننا نتعلّم الوحدات اللغوية من الآخرين ، فانها تمثّل جزءاً واحداً من الثقافة الاجمالية ، وعليه فانه من المرجّح أن ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالجوانب الأخرى من الثقافة ، والتي نتعلّمها ، لذلك من الآخرين. ولذلك علينا ان نتوقع انه لو تعلَّم فرد بعينه وحدتين لغويتين مختلفتين من جماعتين مختلفتين من الناس أن تكون كل من هذين الوحدتين مرتبطة بمجموعة مختلفة من القيم والمعتقدات الثقافية. وفضلاً عن ذلك ، فلن يكون من الصعب تصور ان كلاً من هاتين الوحدتين تحرض مجموعة مختلفة من المعتقدات والقيم عند استخدامها ، ويمكننا القول ان اللغة ( في هذه الحالة اختيار نوعية لغوية بعينها بدلاً من الأخرى ) ، تُحدد الفكر.

وهناك بعض الأدلة على وقوع ذلك بالفعل كما ظهر من سلوك بعض اليابانيات اللائي انتقلن الى الولايات المتحدة زوجات لجنود أمريكيين سابقين ، وتعلَّمنَ اللغة الانكليزية في وطنهم الجديد. وقد اشتركتْ هؤلاء

النسوة في تجربة أجرتها سوزان أرفين تريب Susan Ervin — Tripp وهي من رائدات الدراسات النفسية والاجتماعية للغة. ( أرفين تريب Ervin — Tripp) ١٩٥٤ ، ١٩٦٤ ). وقد أجرت أرفين تريب مقابلات مع كل من هؤلاء النساء مرة بالانكليزية ومرة أخرى باليابانية ، وطلبت منهن القيام بمهام مختلفة تتطلّب الاستخدام الخلّاق للغة. وتطلبتْ احدى هذه المهام اكمال الجمل الناقصة ( باللغة التي تجري بها المقابلة ) ، انني أحب القراءة. . . ( أو ما يقابلها باليابانية ). وقد تكون التكملة المثالية لهذه الجملة باليابانية « هي انني أحب قراءة علم الاجتماع » وتعكس هذه الاجابة مجموعة من القيم اليابانية ، بينما تكون أفضل اجابة باللغة الانكليزية لنفس السيدة هي « أحب قراءة المجلات المصورة بين الحين والآخر لأنها تريح أعصابي ». وربما تعكس هذه الاجابة مجموعة القيم التي تعلّمنها في أمريكا. وقد ظهرتْ اختلافات مشابهة في مهام أخرى طُلِبَ منهن أن يقمنَ بها ، فقد طلبتْ منهن وصف صورة تصور مزرعة بها مزارع يحرث الأرض في الخلفية ، وامرأة مستندة الى شجرة ، وبنت شابة في المقدمة تحمل كتباً تحت ذراعها. وكانت الاجابة التالية اجابة نموذجية في المقابلة اليابانية :

> تبدو الشابة كما لو كانت تمر بصراع نفسي بسبب دخولها الجامعة. فأُمها مريضة وأبوها يقوم بعمل شاق دون جزاء مالي كاف. وبالرغم من ذلك فانه يستمر في العمل بمهارة وجد دون أن ينبس ببنت شفة ، داعياً لابنته بالنجاح والتوفيق ، وهو زوج لا يشكو همومه لزوجته أبداً.

وعندما أُجريتْ نفس المقابلة باللغة الانكليزية مع نفس السيدة قدمتْ الوصف التالي لنفس الصورة :

> تبدو في الصورة طالبة علوم اجتماعية تراقب المزارعين وهم يعملون ، وربما تشدها صعوبة الحياة وعمل


صفحة مفقودة

لفردين أو أكثر بالاتفاق على تعريف واحد لمشكلةٍ ما ، ثم مناقشة حلول هذه المشكلة.

إن هذه العلاقات بين الكلام والاستدلال واضحة للغاية ، ولا تحتاج لأية أدلة اثبات ، ولكن توجد أدلة على ان تأثير الكلام على الفكر الاستدلالي أكثر مما تصورنا. فالكلام المُستَخدَم في تعريف مشكلة بعينها قد تكون له نتائج جذرية بالنسبة لقدرتنا على حلّها. ومن هذه الأدلة ، على سبيل المثال ، احدى التجارب التي عُرِضَتْ في كلارك وكلارك (١٩٧٧ : ٥٥٦). وقد قُدِمَ للمشتركين في هذه التجربة شمعة وعلبة من دبابيس الحائط وعودان أو ثلاثة من الثقاب ، وطُلِبَ منهم إيجاد وسيلة لتثبيت الشمعة على الحائط عمودياً بحيث لا يسقط الشمع المذاب على الأرض. وقد قُدِمَتْ هذه الأشياء لبعض المشتركين دون أن يُقال لهم ماهية هذه الأشياء ، بينما قُدِمَتْ للبعض الآخر بعد اخبارهم بماهية هذه الأشياء ، وهي علبة وبعض دبابيس الحائط وعدد من عيدان الثقاب وشمعة. ولكن مجرد تسمية الأشياء قد لَفَتَ أنظار المشتركين الى العلبة كشيء منفصل بدلاً من مجرد كونها وعاء لدبابيس الحائط ، وقد ساعد ذلك المشتركين على إيجاد حل للمشكلة ، وهو تثبيت العلبة على الحائط بواسطة الدبابيس ثم وضع الشمعة أُفقياً عليها. ولكن المشتركين الذين تسلّموا الأشياء دون اخبارهم بماهيتها استغرقوا في المتوسط خمسة عشر ضعفاً من الوقت الذي استغرقه الذين أُخبروا بماهية الأشياء ، ولكن من المرجّح ، من ناحية أخرى ، أن يكون تفوقهم في ايجاد الحل راجعاً لتسمية الأشياء **الهامة** ، لا مجرد تسمية كل الأشياء ، فلو انهم استخدموا لفظة **علبة من الدبابيس** بدلاً من **علبة وبعض الدبابيس** لما كان ذلك قد ساعد المشتركين على حلِّ المشكلة. وربما جعل ذلك التغيير البسيط المشكلة أكثر صعوبة لأنهم في هذه الحالة يؤكدون الميل الطبيعي نحو تجاهل العلبة. ومن المؤسف حقاً ان هذا الاحتمال لم يُختَبَر في التجربة.

إن العلاقة بين هذه التجربة وعلم اللغة الاجتماعي قد لا تتوضح لأول وهلة ، ولكنها قد تتضح أكثر لـو اننا تـذكّرنـا ان واحدة من أهم الـوظائف الاجتماعية للكلام موجودة في مجال « حلّ المعضلات » problem — solving ، وهو المجال الذي يمكننا من حلٍّ أية مشكلة عن طريق الكلام. وغالباً ما نجد حلّ معضلة ما في مجرد التحدث عنها بدلاً من الاعتماد على حلٍّ يقدّمه احد الحاضرين ، فالتحدث عن أمر قد يساعدنا على أن نراه بشكل أكثر وضوحاً. وكلما تحسّن فهمنا لتأثير الكلام على قدرتنا على الاستدلال ، اقتربنا من معرفة السبب في ذلك.

**٣ ـ ٣ ـ ٣ الكـلام واكتسـاب السـلوك الاجتمـاعي Speech and Socialisation :**

وهناك أيضاً نقطة التقاء أخرى بين الكلام والفكر هي قيام الجيل الأكبر سناً باستخدام الكلام لنقل ثقافته الى جيل الشباب. أي ان الكلام هو الأداة التي تُستَخدَم لتهيئة الجيـل الجديـد وتأهيله لاكتسـاب السلوك الاجتماعي socialisation ، وهي العملية التي تحوّل الأطفال الى أعضاء كاملين ومؤهَلين لدخول المجتمع. ومن الواضح ان كل جـوانب الثقافـة لا تُنقل من خـلال الكلام ، فهناك ، مثلاً ، عدد كبير من جوانب السلوك الظاهري يمكن تعلّمها من الملاحظة والمشاهدة مثل كيفية المشي والضحك والاشارة ( عِلماً بأن هذه الأمور تختلف من مجتمع الى آخر ). ويمكننا القول بأن الفرد يتعّلم اللغة بنفس الطريقة ، لأن الكلام لا يُستَخْدَم عادة كوسيلة لنقل المعرفة بل كنموذج يصلح للاحتذاء. ولكن جزءاً كبيراً من الثقافة يُنقل شفهياً ، وقد قيل مراراً ان تطور مَلَكَة اللغة لدى الانسان قد أدى الى استبدال قانون التـطور والرقي الثقـافي بقانون النشوء والترقي البيولوجي الذي يقوم بتعديل الجينات الوراثيـة لدى البشر ، ويعمل قانون التـطور والرقي الثقـافي على تـطوير العقـل البشري. ولا داعي لمزيد من النقاش حول الرأي القائـل بان الكـلام مكوِّن أسـاسي

في عملية اكتساب السلوك الاجتماعي .

ومن الغريب أن يختلف الناس في الأسلوب الذي يستخدمونه لاكتساب السلوك الاجتماعي . فقد يختلف الكثير من المحاضرين والأساتذة الجامعيين في أسلوب ادائهم لمهمتهم الأساسية وهي تأهيل طلّابهم اجتماعياً في مجالاتهم الثقافية المختلفة ، وبذلك يقدمون أفضل مثال على ذلك. فقد يستخدم بعض المحاضرين الكلام لتوصيل حقائق محددة بدلاً من المبادىء العامة ، بينما يقوم آخرون بعكس ذلك تماماً ، ويؤكد البعض الآخر الجانب الترفيهي أو الجانب الخاص باثارة الاهتمام ، بينما يحاول آخرون اشراك طلّابهم عاطفياً وفكرياً عن طريق حثّهم على استخدام الكلام لتطوير شتى القضايا. وهناك اختلافات مشابهة لذلك بين رجال السياسة ورجال الوعظ الديني ورجال الاعلام والصحافة. وهذه الاختلافات التي نذكرها هنا ليست الاختلافات الخاصة بسجل السياق ( أنظر ٢ ــ ٤ ). أي كيفية قول الأشياء ، وإنما هي اختلافات خاصة **بما يُقال** وبأي جانب من جوانب اكتساب السلوك الاجتماعي أكثر أهمية من الجوانب الأخرى. فلو اننا نظرنا الى أهم جوانب عملية اكتساب السلوك الاجتماعي وهي تأهيل الأطفال لاكتساب هذا السلوك ، لَوَجَدنا ان هناك دلائل على ان الأبوين ــ وخاصة الأُم ــ يستخدمون الكلام بعدة أساليب في محاولة لتأهيل أطفالهم لذلك. وتستند كل هذه الأدلة الى أبحاث عالِم الاجتماع بازيل برنستاين Basil Bernstein من لندن وروبرت هِس Robert Hess من شيكاغو ( برنيستاين وهندرسون Bernstein & Henderson ١٩٦٩ وهِس وشيبمان Hess & Shipman ١٩٦٥ ، أنظر روبينسون ١٩٧٢ Robsinon : الفصل التاسع الذي يقدّم ملخصاً مفيداً عن هذا الموضوع ). والفرضية المطروحة للبحث هي ان الأُمهات اللائي ينتمين الى طبقات اجتماعية مختلفة يستخدمن الكلام بشكل مختلف في عملية تأهيل أطفالهن لاكتساب السلوك الاجتماعي. فإن صح ذلك ، فان هذه

الفرضية قد تقدّم لنا تفسيراً جزئياً للاختلافات القائمة بين أطفال الطبقات الاجتماعية المختلفة في طرق استخدامهم للكلام . وسنناقش هذه الاختلافات في كلام الأطفال في ٦ ـ ٣ ـ ٢ و ٦ ـ ٤ ـ ٢ ، ولكننا سنقتصر هنا على السؤال الخاص بأسلوب الأُمهات في الكلام .

وقد حصلنا على معظم المعلومات التالية من مقابلات سئلت فيها الأُمهات عن مواقف افتراضية ، مثلاً ، ما مدى صعوبة قيام الأبوين بالعمل ( س ) مع أطفالهم لو لم يكن الأبوان يستطيعان الكلام ؟ ( وقد تكون س « مجرد اللعب مع أطفالهم ألعاباً مختلفة » أو «ارشادهم الى الصواب والخطأ » أو عدد متنوع من الأنشطة المختارة التي قد تساعد الأطفال على اكتساب سلوك اجتماعي ؟ أو ماذا تقول لو عاد طفلك الى المنزل ومعه شيء أخذه من موقع بناء عمارة ؟ وهناك مشكلات واضحة في تأويل اجابات مثل هذه الأسئلة إذا ركّزنا اهتمامنا أساساً على ما تقوله الأُمهات في الواقع لا على ما قد يقلن انهن سيقلن . فَمِنَ المرجّح ان بعض الأُمهات سيقدمن لنا سلوكهن المثالي . ولكن على أية حال فقد ظهر ان هناك اتفاقاً شبه كامل بين اجاباتهن ، وقد اتفق ذلك أيضاً مع نتائج بعض التجارب القليلة التي حاولتْ اختبار سلوك الأُمهات الحقيقي ( في موقف اختباري ) ، ولذلك نستطيع القول ان هذه التجارب تعكس ما ستقوله وتفعله الأُمهات ، نوعاً ما .

ويظهر من نتائج هذا البحث ان هناك بالطبع اختلافات بين أُمهات الطبقات المتوسطة وأُمهات الطبقات العاملة الدُنيا ، وهما الطبقتان اللتان قارن بينهما بازيل برنيستاين Basil Bernstein . ويبدو ان أُمهات الطبقة المتوسطة يستخدمن كماً من الكلام أكثر من أُمهات الطبقة العاملة الدُنيا في المسائل الشخصية الخاصة بالعواطف بينما تستخدم أُمهات الطبقة العاملة الدُنيا الكلام أكثر من أُمهات الطبقة المتوسطة في تعليم المهارات . ويبدو أيضاً ان أُمهات الطبقة المتوسطة لديهن استعداد أكبر من أُمهات الطبقة العاملة

الـدُنيـا لاستخدام صيـغ تفسير الأوامـر وتعليلهـا ( **يجب عليـك ألّا تفعـل لأن . . .** ) وأيضاً لتقديم المعلومات العلدية عن الأشياء والناس ، وقد يكون نتيجة ذلك ( فرضاً ) انهن أكثر قدرة على اثارة فضول أطفالهن وارضائهم .

فإن صحتْ هذه النتائج فقد تكون لها آثار ضمنية بعيدة المـدى سواء من الناحية النظرية أو من الناحية العمليـة ، وسنناقش بعض هـذه النتائـج في ٦ ـ ٤ . ولسوء الحظ ، فقد كانت دلائل اختـلاف « أسلوب الأُمهات » maternal style جزءاً من نظرية عامة كانت تشتمل أيضاً في وقتٍ من الأوقات على نظرية فرعية عن الاختلافات اللغوية بين أطفال الطبقة المتوسطة والطبقة العاملة . غير ان هذه النظرية قد أُسْتُبعِدَتْ الى حدٍ كبير في الوقت الحالي ( أنظر ٦ ـ ٣ ـ ٢ ) . وقد أدى ذلك الى انصراف النقّاد من علماء اللغة عن مشكلة أسلوب الأُم في الكلام ، ولم يعودوا يأخذونها مَأخَذاً جدياً .

وهناك بالطبع اختلافات هائلة بين مختلف الثقـافات في طبيعـة الدور الـذي يؤديه الكـلام في اكتساب السلوك الاجتمـاعي . فالجـونجا Gonja ، على سبيل المثال ، الذين يقطنون غرب أفريقيا ينظرون الى الأسئلة عـلى انها نوع من تأكيد سيادة فرد على آخر ، ولذلك فليس من المستَحب أن يوجه التلميذ أسئلة الى أستاذه . وبالتالي ، يتحتم على الصبية الذين يتدربون على صناعـة الغـزل ان يحذقـوا هـذا الفن دون أن يسـألـوا عنـه أسئلة مبـاشـرة ( جودي Goody ١٩٧٨ ) .

وقد تبيّن هذه الأمثلة لنا كيف تتصارع متطلبات بعض جوانب عملية اكتساب السلوك الاجتماعي ( وهي عدم توجيه أسئلة للرؤساء ) مع جوانب أُخرى لنفس العملية ( وهي تعلّم الـغَـزَل ، ويمكننا ان نقـول نفس الشيء عن الاختلافات القائمة بـين الطبقـات الاجتماعيـة في أساليب الأُمهـات ، والتي سبق أن ذكرناها .

### ٣ ـ ٣ ـ ٤ اللغــة واكتســاب السـلوك الاجتمــاعي Language and Socialissation :

يعد الكلام أحد العناصر الهامة في عملية اكتساب السلوك الاجتماعي إلّا من خـلال ما ينقله لنـا من معلومات وافيـة فقط بل من خـلال المفـاهيم التي يـطالب الطفـل بالتعـرف عليها كمعـاني للوحدات اللغـويـة المختلفـة التي يتعلَّمها من كلام الآخـرين. وبعبارة أخـرى ، فان اللغـة التي يتعلَّمها الأطفال ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالمفاهيم التي يتعلَّمونها كجزء من عملية اكتساب السلوك الاجتماعي. والسؤال هو : هل نستطيع القول بأن اللغة تؤثر على هذه المفاهيم أَم تعكسها فقط ؟ ويبدو ان الاجابة الصائبة على هذا السؤال تتضمن كِلا الجانبين.

نستـطيع أن نؤكـد ان بعض المفاهيم تكـون مستقلة تمامـاً عن اللغـة بما في ذلك تلك المفاهيم التي نتعلَّمها أطفالاً رُضّع قبـل أن نكتسب اللغة ، أي في أواخـر العام الأول من حيـاتنا وهنـاك أيضاً مفـاهيم أخـرى تتكـون فيما بعد ، دون الرجوع الى اللغة ، وذلك لأننا لا نملك مفردات للتعبير عنها في لغة البالغين. فلدينا على سبيل المثال مفهوم للأشياء التي نشتريها من بائع الجرائد Newsagent ( أو بائع التبـغ أو المتاجـر التي تبيع أدوات ومـواد عمل الاصلاحات بنفسك ) ، ولكن ليس لدينا اسم لأي من هذه المفاهيم ، وذلك على عكس الأشياء التي نشتريها من أنواع أخرى من المتاجر مثل « البقّالة ». ولا يؤثر وجود أو عدم وجود أسماء لمثل هذه المفاهيم ، بأية حال ، على قدرتنا على تعلُّم هذه المفاهيم. ويمكننا أيضاً أن نرى وجه الشبه بين المسامير العادية والبراغي والصواميل ، الخ. فكل هذه الأشياء تؤدي نفس الوظيفة ونتوقع أن يختزن الناس في ذاكرتهم كل هذه الأشياء متجاورة ، ولكن لا يوجد باللغة الانكليزية اسم لهذا المفهوم. ويمكننا تقديم الكثير من هذه الأمثلة التي تعـد بمثابة عقبة تمنعنا من افتراض عدم وجود المفاهيم التي لا توجد أدلة لغوية تشير

الى وجـودها . ومن الـطريف ان هـذه « الفجـوات المعجميـة » lexical gaps تقع في مستوى أعلى من المستوى الأساس ( أنظر ٣ ــ ٢ ــ ٣) ( ومن الصعب التعرف على الفجوات الموجودة قبل هذا المستوى أو تحديدها لأنه من الممكن إيجاد صيغ مركبة compound لملء هذه الفجوات « مثل » الصنوبرية البندروسية ( **Ponderosa Pine** ) .

وهناك من الناحيةالأخرى مفاهيم لا توجد إلاّ من خلال اللغة ، من أهمها وأوضحها المفاهيم المتعلّقة باللغـة ، كظاهـرة ، ومنها ، المفـاهيم الخاصـة « باللغة » و « المعنىٰ » و « الكلمة » ، وما الى ذلـك . وهناك مفـاهيم أخرى لا نتعلّمها إلاّ بعد أن نتعلّم اسماءها ، وقد يكون الاسم هـو دليلنا الـوحيد على وجودها . وقد قدّم لنا كـلارك وكلارك Clark & clark (١٩٧٧ : ٤٨٦) واقعة قالتْ فيها أُم لابنها ذي الخمس سنين « لابد أن نتـرك الباب السلكي مغلقاً يا حبيبي حتى نمنع الذباب من الدخول ، فالذباب يجلب معه الجراثيم الى داخل المنزل » . وعندما سئل الطفل ، فيـما بعد ، عن مـاهية الجـراثيم قال : « هي أشياء يلعب بها الذباب !! » وقد توضّح لنا هذه الواقعة الطريفة التي تصبح فيها كلمة جديدة دليلاً على وجود مفهوم مجهول ، وذلك عن طريق ترك المستمع يحاول فهم هذا المفهوم من خلال الدلائل اللغـوية المـوجودة . ويفعل كثير من طلاّب علم اللغة ذلـك في مواقف معينـة عندمـا يواجهـون مصطلحات جديدة مثل تجريبي empirical أو حتى مكمّلات complementiser .

وفضلاً عن ذلك ، فاننا نتعلّم كثيراً من المفاهيم عندما يحـدثنا أحـد عنها ، وخاصة أثناء عملية التعليم الرسمي ، ولذلك فاننا بالفعل نتعلّم الكثير من المفاهيم من خلال اللغة سواء استطعنا أن نتعلّم هذه المفاهيم دون اللغة أو لم نستطع . فلو لم تكن هناك لغة فاننا لن نجد المفاهيم التي نطلق عليها هذه الأسـماء **شبه جـزيـرة ، اقـطاعي ، والتـأيض Metabolism**[1] **وكـلاسيكي ،**

---

( ١ ) مجموعة العمليات المرتبطة ببناء البروتابلازما في الخلايا الحيّة .

وعنصر. ويعد تعلّم المفاهيم من أهم الوظائف التي تقوم بها عملية التعليم كما يعد تعلّم المصطلحات الفنية أهم وسائل المعلِّم الايضاحية لاداء هذه المهمة. ( وعلينا أن نلاحظ على أية حال أن هناك جنوحاً واضحاً من ناحية المعلمين نحو الخلط بين معرفة المفهوم ومعرفة المصطلح الفني الصحيح ).

وختاماً، ينبغي علينا أن نقول ان اللغة اساسية عند تعلّم مفاهيم معينة، دون غيرها. وقد يكون المبدأ العام هو ان اللغة قد تصبح أكثر أهمية عندما تكون المفاهيم المعينة بعيدة عن تجربة الفرد الحسّية المباشرة، أو بعبارة أخرى، عندما تصبح المفاهيم أكثر تجريداً.

**٣ ـ ٣ ـ ٥ فرضية سابير هورف Sapir — Whorf hypothesis :**

وفي النهاية، نأتي الى فرضية سابير هورف المشهورة. وقد أُطلق على هذه الفرضية هذا الاسم تخليداً لذكرى كل من عالمي اللغة الأمريكيين أدوارد سابير Edward Sapir (١٨٨٤ ـ ١٩٣٩) وبنيامين لي هورف Benjamin Lee Whorf (أحد تلاميذ سابير ١٨٩٧ ـ ١٩٤١). وقد أسهم كل من سابير هورف بالكثير في الدراسات اللغوية للغات الهندية الأمريكية، وقَدَّما الكثير لزيادة معرفتنا بهذه اللغات وأسهما في تطوير نظرية علم اللغة العام ( لو تجاهلنا كل ما قَدَّمه سابير لعلم الانثروبولوجيا وعلم النفس ). وقد أجريا أبحاثهما الخاصة بهذه الفرضية في نهاية حياتهما العلمية، أي في الثلاثينات، بعد حياة علمية حافلة، كرّساها للدراسة الجادة في علم اللغة والثقافة، ولذلك لا نستطيع أن نأخذ دراستيهما إلاّ بشيء من الجدية. وليس من الواضح، من الناحية الأخرى، أي من صياغات هذه الفرضية كان مقبولاً لدى سابير وهورف، لأن كليهما لم يحاولا تعريف هذه الفرضية، كما ان كليهما قد غيّرا وجهة نظرهما جذرياً في القضايا المرتبطة بهذه الفرضية من وقتٍ لآخر. ولذلك فَمِنَ الأفضل أن نبدأ عرضنا هذا بالصيغة المتطرفة لما فهمه العلماء الآخرون من فرضية سابيرو وهورف، وذلك في صورة التصنيفات التي سبق تقديمها. ( من أجل

عرض لفرضية سابير وهورف أنظر مثلاً ، براون Brown ١٩٥٨ ب : ٢٢٩ ـ ٢٦٣ ، وكارول Carroll ١٩٥٦ : « مقدمة » ، و ١٩٦٤ الفصل السابع ، وسلوبين Slobin ١٩٧١ ، وأعمال سابير Sapir الكاملة الموجودة في ماندلبوم Mandelbaum ١٩٤٩ ، وأعمال هورف Whorf في كارول Carroll ١٩٥٦) .

والصيغة المتطرفة من هذه الفرضية عبارة عن مزيج من النسبية المتطرفة Extreme Relativism والحتمية المتطرفة Extreme Determinism وترى هذه الصيغة المتطرفة انه ليس هناك أية قيود على كم ونوع التباين القائم بين اللغات المختلفة ، ومن ضمنها الاختلافات في البُنىٰ ( الأبنية ) الدلالية ، وترى أيضاً أن تأثير اللغة على الفكر تأثير كامل ، أي أن ليس هناك فكر دون لغة . ولو جمعنا بين هذين الرأيين ، فسنكتشف انه لا توجد أية قيود على التباين القائم بين الناس في أسلوب تفكيرهم ، وخاصة في المفاهيم التي يكونونها ، وينتج عن ذلك اننا لو وجدنا وسيلة للتحكّم في اللغة التي يتعلّمها الناس فاننا بالتالي نستطيع التحكمّ في أسلوبهم في التفكير كما يحدث في رواية جورج اورويل ١٩٨٤ ( 1984 ) **أربعة وثمانون وتسعمائة وألف Ninteen Eighty Four** .

ومن الواضح ان الفرضية المتطرفة خاطئة . ولقد ذكرنا من الأسباب والمبررات ما يكفي لرفض هذه الصيغة المتطرفة في الجزئين الأخيرين ، ولذلك لن نكرر هذه المناقشة مرة أخرى ، ولكن هناك شيء من الحقيقة في كل جانب من النسبية والحتمية . فعلينا أن نتوقع ان اللغة مسؤولة عن بعض الاختلافات القائمة في مفاهيم الناس ، وسنورد فيما يلي نصاً يتضمّن فقرة كاملة من خورف Whorf (١٩٤٠) وتقدم لنا هذه الفقرة احدى الصياغات الأكثر تطرفاً لنظريته ونظرية سابير ، وهي صياغة يمكن مقارنتها بالفرضية المتطرفة التي أشرنا إليهـــا :

« إن مهاد النظام اللغوي ( أي الاجرومية ) للغة بعينها ليس مجرد أداة للتعبير عن الأفكار ، ولكنه يشكّل تلك

الأفكار. انه البرنامج الموجّه لنشاط الفرد الذهني وتحليل انطباعاته وتركيبه للأفكار التي يستخدمها في حياته. فصياغة الأفكار ليست عقلانية مستقلة مقصورة على العقلانية في مفهومها التقليدي ، إنما هي جزء من اجرومية خاصة ، وهذه الاجرومية تتفاوت من لغةٍ الى أخرى. فنحن نصنّف العالَم استناداً الى الخطوط القائمة في لغتنا الأصلية. والتصنيفات والأنماط التي نستخرجها من عالَم الظواهر ليست قائمة أمامنا بالفعل ، بل على العكس من ذلك ، فاننا نستقبل العالَم على صورة دفق من الانطباعات المشوّشة ، يتولى أمر تنظيمها ، والى حدٍ كبير ، النظام اللغوي القائم في عقولنا.

فنحن نصنّف الطبيعة وننظّمها في مفاهيم ، وإذ نفعل ذلك فاننا نحدد الأهميات ، وذلك لأننا ، في المقام الأول ، شركاء في اتفاقية تحتّم علينا أن ننظمها على ذلك النحو ، وهي الاتفاقية التي تنسحب على مجموع جماعتنا الكلامية ، وتقنن في أنماط لغتنا. وغالباً ما تكون هذه الاتفاقية ضمنية وغير صريحة ، ولكن شروطها اجبارية بصورة مطلقة. وذلك لأننا لا نستطيع الكلام مطلقاً دون أن نشترك في الاتفاقية الخاصة بتنظيم وتصنّيف المادة العلمية حسب الاتفاقية المسبقة... وبذلك نكون قد عرضنا لمنظور جديد من النسبية ، وينصّ ذلك المنظور على ان كل مَنْ يعيشون في العالَم لا يصلون الى نفس الصورة للعالَم

من خلال المادة العلمية المقدّمة إلاّ إذا كانت خلفياتهم اللغوْية واحدة أو يمكن قياسها بشكلٍ أو بآخر ».

ويكشف لنا هذا النص عن طبيعة المعضلات المرتبطة بتأويل هورف وسابير . فبعض الفقرات تمثّل النسبية المتطرفة والحتمية المتطرفة ، ومنها على سبيل المثال ، « فنحن نصنّف العالَم استناداً الى الخطوط القائمة في لغتنا الأصلية » بينما هو يعدل من تأكيداته مستخدماً « الى حدٍ كبير » و « في المقام الأول » في أجزاء أخرى من النصّ ( وقد أكدت أهمية ذلك بوضع خطوط تحتها ) وذلك من شأنه أن يترك لنا فرصة للقول بامكانية وجود فكر دون لغة . فهل نستطيع القول إذن ان هذا النصّ يمثّل صورة متطرفة من الفرضية ؟

من الضروري أن يكون قد اتضح لنا ان كل ما تضمنه هذا النصّ ، بما فيه من بلاغة ، يعارض كل ما ذكرناه في هذا الفصل . فالأفكار هي التي تشكّل وتحدد اللغة لا العكس ، وذلك باستثناء المسائل المجرّدة من الفكر وصياغة الأفكار عملية مستقلة عن اللغة الى حدٍ كبير . فنحن نقوم بتصنيف الكون وفقاً لمعايير تضعها الطبيعة وتحددها احتياجاتنا المعرفية والاتصالية لا حسب لغتنا . ويمكن للفرد تعديل وتكييف معاني الوحدات اللغوية حسب حاجته بواسطة « التجاوز » الاستعاري . ولأننا نتعلَّم المعاني من الآخرين فلا حاجة بنا لاتفاق الجماعة الكلامية بأسرها على المعاني لأن هناك كثيراً من الجماعات الكلامية الثانوية المتخصصة Specialist Sub — Communities ذات نظم دلالية خاصة بها من جهة ، ومن جهة أخرى فلأن أثنان من أكفأ علماء اللغة قد رأيا غير ذلك ، فان ذلك يدعونا للتريث والتفكير قبل أن نقبل أية مزاعم خاصة ( ومن ضمنها ما قدّمناه في هذا الفصل ) عن اللغة والفكر .

# ـ الكلام باعتباره نوعا من التعامل الاجتماعي

**Speech as Social Interaction**

٤ ـ ١ الطبيعة الاجتماعية للكلام :

٤ ـ ١ ـ ١ مقدمـة :

نقوم في هذا الفصل بدراسة ما أطلقنا عليه لفظة « الكلام » ، أي مجموعات الوحدات اللغوية سواء أكانت طويلة اَم قصيرة ومستخدَمة في مناسبات معيّنة لأغـراض بعينها. وقـد سبق أن استخدمنـا لفـظة « الكـلام » ليشمـل كـلاً من النصوص المكتوبة والمنطوقة ، على حدٍ سواء ، هذا بالرغم من اننا لم نذكر شيئاً عن المكتوب منها. ولن نذكر شيئاً عن النصوص المكتوبة كما ونتجـاهل أنواعاً مختلفة من النصوص المنطوقة حتى نستطيع التركيز على ما يُـطلق عليه **التعامل القـائم على اللقـاء المباشـر** **FACE — TO — FACE INTERACTION** أو بعبارة أخرى ، ماذا يحدث عندما يتحدث فرد مع آخر وجهاً لوجه. وبالرغم من اننا سنتجاهل جميع أنواع الاتصال غير الشخصي مثل وسائط الاعلام ، على الرغم من أهميتها في الحياة العصرية ( وأيضـاً تحدث الفـرد مع نفسـه ) فسيتبقىٰ أمامنا الكثير من أنواع الأنشطة الكلامية مثل : المحـادثة والمنـازعة والنكات ومحاضر الاجتماعات والمقابلات والمقدمات والمحاضرات والمغازلـة والمشاكسة والهزل وأنواع أخرى كثيرة.

ويعد السؤال الخاص بالموازنة بين ما هو اجتماعي وما هو فردي من أهم الأسئلة التي يجب أن نطرحها هنـا. وتميل الكفـة ـ في اللغة ـ الى الجـانب الاجتماعي ، ما دامت تعني المعرفة بالوحدات اللغوية ومعانيها ، وذلك لأن الناس يتعلّمون اللغة من الآخرين. وفي الوقت نفسه تعد لغة كل فرد بذاته لغة فريدة في حد ذاتها لأنه لا يوجد فردان لهما نفس الخبرة باللغة. ماذا إذن عن مثل هذه الموازنة في الكلام ؟ زعـم فرديناند دي سوسيـور Ferdinand de Saussure ان الكلام مسألة فردية تمـاماً لأنه يعتمـد على « ارادة المتحـدث » will of the speaker (١٩١٦/١٩٥٩ : ١٩) ، بينما اللغة ، عـلى عكس ذلك ، مسـألة اجتماعية تماماً لأنها تتطابق تماماً بين جميع أفراد الجماعة الكلامية. من الواضح انه أخطأ الحكم بالنسبة « للغة » ، ولكن هل كان مصيباً بالنسبة « للكلام » ؟

سنرى انه لم يكن مصيباً كذلك بالنسبة للكلام.

ولقد سبق أن رأينا ان اللغة مسألة ذات أهمية في عدد من الأنشطة الاجتماعية ، ومن بينها اكتساب السلوك الاجتماعي ( أنظر ٣ ــ ٣ ــ ٣) ، وليس من الضروري أن نؤكد أهمية اللغة في الحياة الاجتماعية بصفة عامة ، فتلك مسألة واضحة وجلية. فالكلام يسمح لنا بالاتصال بعضنا بعضاً على مستوى أكثر تركيباً وتعقيداً ، عمّا لو لم يكن هناك كلام ، ولأن الاتصال نشاط اجتماعي ، يمكننا القول بأن الكلام نشاط اجتماعي أيضاً. رغم ان ذلك صحيح ، إلّا انه يرتبط بزعم دي سوسيور ان الكلام مسألة فردية بحتة ، حيث انه لم يأخذ باعتباره إلّا المعرفة المضمنة في الكلام دون استخداماته الفعلية. وقد اعتقد دي سوسيور انه لا توجد أية قيود اجتماعية على الكلام ، بينما اعتقد ان اللغة مقيدة من الناحية الاجتماعية تماماً. وطالما عرف المتحدث اللغة المناسبة ، التي عرفها دي سوسيور بانها معرفة التركيبات والأنماط الصوتية المستخدَمة للدلالة على معنى بعينه ، فبإمكانه الكلام بطريقة صحيحة ومناسبة كلما أراد ذلك. ولكننا نود أن نظهر ان هناك ، على عكس ذلك ، قيوداً اجتماعية social constraints مفروضة على الكلام بالاضافة الى القيود المفروضة على الوحدات اللغوية المعروفة لدى الناس.

ومن الواضح ان هناك كثيراً من هذه القيود المفروضة على اللغة ،والتي تختلف من مجتمعٍ لآخر. ففي بريطانيا ، مثلاً ، علينا أن نرد التحية عندما يحيّينا الآخرون ، وعندما نتحدث عن أحد علينا أن نضع في اعتبارنا ما يعرفه المخاطب عنه من قبل ، وعندما نخاطب أحداً علينا أن نختار الكلمات بدقة حتى نحدد علاقتنا الاجتماعية به ، وعندما يتحدث شخص آخر علينا أن نلزم الصمت ( ولا نعني بذلك الصمت التام ). وليس الأمر بالضرورة كذلك في كل المجتمعات الأخرى وسنحاول أن نوضّح ذلك فيما يلي :

ومهمتنا في الفصل الحالي أن ندرس أنواع القيود التي يفرضها علينا المجتمع الذي نعيش فيه ، وان نكتشف العلاقة بين هذه القيود وما نقوم به كأفراد ، سواء امتثلنا لهذه القيود الاجتماعية اَم رفضناها أو استخدمنا مبادراتنا الشخصية في المواقف التي لا يقدم لنا المجتمع فيها أي نوع من العرف المتبع . وفي نهاية الفصل ، نرجو أن يتّضح لنا ان الموازنة بين المجتمع والفرد ستكون في صالح الفرد بالنسبة للكلام ( وفي هذا ، كان دي سوسيور على حقٍ في رأيه عن الكلام ) ، ولكن هناك من القيود الاجتماعية المفروضة علينا ما هو أكثر مما قد ندرك للوهلة الأولى .

وقد يتّضح لنا أيضاً في نهاية هذا الفصل ان التمييز بين « اللغة » و « القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام » Social constraints on speech ليس تمييزاً واضحاً ، لأن معظم هذه القيود التي سنبحثها فيما يلي تدل على وحدات لغوية بعينها ، أو تصنيفات عريضة من هذه الوحدات ، ولذلك فَمِن الممكن أن نعتبرها جزءاً مما نعرفه فعلاً عن اللغة ، اضافة الى ما نعرفه عن المعاني . ولا ينبغي أن يبدو ذلك شيئاً غريباً لأن معظم الوحدات اللغوية تدل على بعض جوانب « الأحداث الكلامية » Speech events التي تُستخدم في إطارها . ومنها بصفة خاصة كل « الوحدات الاشارية diectc الدالة على المتحدث ( **أنا** و **نحن** ) والمخاطب ( **أنت** ) وزمن الحديث ( صيغ المضارع والماضي و **اليوم** الخ ) ومكان الحديث ( هنا الخ ) ( أنظر ليونز Lyons ١٩٧٧ : الفصل ١٥ من أجل مناقشة كاملة لهذه الوحدات ) . وفضلاً عن ذلك فقد رأينا ان الكثير ( ٢ ــ ٤ ) من هذه الوحدات ما يقتصر استخدامه على مواقف اجتماعية بعينها مثل الفعلين الانكليزيين get vs. obtain أي ( **يحصل على ويظفر بــ** ) وقدسبق لنا أن قلنا ان كل هذه المعلومات جزء من معرفتنا بلغتنا .

ولذلك فقد يعد من الطبيعي أن نطرح نفس الافتراض على المعلومات

المرتبطة بالكلمة الفرنسية **tu** ( أنت ) والتي يقتصر استخدامها على مخاطبة المقربين ( والأطفال والحيوانات ). وبما اننا قد قررنا ان مثل هذه المعلومات جزء من معرفتنا بلغتنا ، فَمِن السهل ، عندئذ ، ان تشتمل اللغة على المعلومات عن تصنيفات بأكملها مثل تصنيف الأسماء الأولى باللغة الانكليزية ، والتي تُستخدم فقط مع الأصدقاء المقربين ( على عكس الألقاب مثل Mr. Brown ( أنظر ٤ ــ ٢ ــ ٢ ) فيما يلي من أجل مناقشة أكثر تفصيلاً للقيود المفروضة على الضمائر الفرنسية وأسماء العَلَم الانكليزية ).

ومن السهل أن نرى كيف تختلط « اللغة » « بالقيود الاجتماعية على الكلام » ، وسنحاول أن نوضّح من بعض نقاط المناقشة التالية ان القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام لا تسري فقط على السلوك الكلامي ولكنها تسري أيضاً على كل أنواع السلوك الاجتماعي . ( ويبدو ان هذه الخلاصة تؤيد الرأي المعروض في الفصل الثالث حيث قررنا انه ليس ثمة فصل واضح بين « اللغة » وجوانب « الفكر » الأخرى ، وخاصة فيما يختص بالمعاني ). والمصطلح الشائع المُستخدَم للدلالة على جوانب السلوك الذي نستطيع من خلاله التأثير على الآخرين والاستجابة لهم « التعامل الاجتماعي » Social Interaction ، وليس الكلام إلّا جانباً واحداً من هذا السلوك ولكنه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بجوانب السلوك الأخرى. ويعد مايكل ارجيل Michael Argyle واحداً من أهم الباحثين في هذا المجال ( مجال علم النفس الاجتماعي Social Psychology ، وقد وصف هذا المجال على النحو التالي ( ارجيل ١٩٧٣ : ٩ ) :

> « يعد تحديد العناصر الأساسية التي يتكوّن منها « التعامل الاجتماعي » من أهم منجزات الأبحاث الحديثة في هذا المجال ، وتحاول الأبحاث الراهنة الكشف عن كيفية قيام هذه العناصر بأداء وظائفها .

> ومن المعروف [illegible] ان قائمة العناصر هذه تتكون من عدد من الاشارات المتنوعة منها :
>
> الشفاهي وغير الشفاهي والمحسوس والمرئي والمسموع ـ بالاضافة الى أنواع مختلفة من الاتصال الجسدي Bodily contact والتجاور Proximity واتجاه الجسد ووضعه والمظهر الخارجي وتعبيرات الوجه وحركة الرأس واليدين واتجاه النظر وتوقيت الكلام والنبرة العاطفية للكلام والأخطاء الكلامية ونوعية العبارات المنطوقة والبُنىٰ اللغوية المُستخدَمة. ويمكن اعادة تقسيم هذه التصنيفات واعادة تحليلها لاكتشاف أبعاد جديدة ، فكل منها يقوم بدور متميّز في التعامل الاجتماعي بالرغم من تواشج كل هذه العناصر ».

وسنحاول في الجزء ٤ ـ ٤ دراسة بعض الجوانب غير الشفهية للتعامل الاجتماعي بشكل تفصيلي وسنبحث ماهية العلاقة القائمة بينها وبين الكلام.

وتتطلّب دراسة الكلام باعتباره جزءاً من التعامل الاجتماعي ، الاستعانة بكثير من العلوم الأخرى مثل علم النفس الاجتماعي Social Psychology وعلم الاجتماع والانثروبولوجيا والايثولوجيا Ethology ( وهو عِلم دراسة سلوك الحيوان ) والفلسفة والذكاء الاصطناعي Artifical Interlligerce ( أي دراسة الذكاء الانساني من خلال محاكاة Simulation الحاسب الآلي ) وعِلم اللغة الاجتماعي وعِلم اللغة. وتقدم كل من هذه العلوم عدداً من المعضلات والمناهج المختلفة ، التي قد تساعدنا بدورها على كشف وجهات نظر جديدة في دراسة المادة ، وكل من هذه العلوم يمكن أن يفيد من العلوم الأخرى. والمناهج الرئيسة المُستخدَمة في هذه الدراسات هي منهج الاستبطان Introspection ومنهج ملاحظة المشتركين في التعامل

الاجتماعي ، بالاضافة الى قدرٍ محدود من التجارب ( يقوم بـه علماء النفس الاجتماعيون وعلماء الايثولوجيا ) ومحاكاة Simulation الحاسب الآلي ( ويقوم بذلك باحثو الذكاء الاصطناعي ). ومن أهم الاسهامات الجـديدة في هـذا المجال ، ما قدّمه علماء الانثروبولوجيا ، الذين قاموا بارساء مبادىء ما يُسمى باثنوجـرافيا الحـديث أو اثنوجـرافيا الاتصـال The Ethnography of Speaking أو The Ethnography of Communication وهو مجال تحكمه أعمال ديل هايمز Dell Hymes ( أنظر مثلاً ، هايمز ١٩٦٢ ، ١٩٦٤ ـ ب ، ١٩٧٤ ، وأنظر أيضاً المجموعات التـالية : بـاومان وشيـرزر Bauman & Sherzer ١٩٧٤ ، جمبرز وهـايـمز Gumperz & Hymes ١٩٦٤ ، ١٩٧٢ ) ، ومن أهم الاسـهـامـات التي قُـدِمَتْ في هذه الأبحـاث ، تقديم مـادة علميـة عن مجتمعـات أخـرى غـير المجتمعات الغـربية المتقـدمة التي يعيش فيهـا معـظم علماء علم اللغـة المعـاصر ،وتـوضيح كم التبـاين القائم عـلى القيود الاجتمـاعية المفـروضـة عـلى الكلام. وعـلى القراء أن يتـوقعوا عـدداً من المفـاجـآت في الصفحـات التالية ، ولكن النسبية اللغوية محدودة في هذا المجال كما هي محدودة في مجال المعنى ، ( أنظر ٣ ـ ٢ فيما يلي ) كما سيتبيّن فيما يلي :

### ٤ ـ ١ ـ ٢ وظائف الكلام The Function of Speech :

ما هو الـدور الذي يؤديـه الكلام في التعـامل الاجتمـاعي ؟ لا يبدو ان هناك اجابة بسيطة ، أو حتى اجابة مركّبة واحـدة عن هذا السؤال ، لأن الكلام يؤدي وظائف عديدة في مختلف المواقف والمناسبات. وقد صرح عالم الانثروبولوجيا بـرونيسلاف مـالنيوفسكي Bronislav Malinowski «ان اللغـة في استخداماتها البدائيـة ، تقوم بـدور حلقة في سلسلة الأنشـطة الانسانيـة المتـآلفة ، بـاعتبارهـا جزءاً من السلوك الانسـاني. فهي وسيلة من وسـائـل الفعـل ، وليست أداة للتـأمـل ». ( مـالـونيسكي Malonowski ١٩٢٣)

ومن الأمثلة على ذلك ، نوع الكلام الذي نسمعه من عمال نقل الأثاث :

« خذ عليك . . . ودلوقتي ارفع شويه لفوق . . . » وما الى ذلك ، حيث يقوم الكلام بالتحكّم بالأنشطة الجسدية البشرية والجهد البشري المبذول ، وذلك على عكس وظيفته عند القاء المحاضرات حيث يُستخدَم في التأثير على أفكار المتلقين لا على أفعالهم . ومن وظائف الكلام الأخرى ، استخدامه لتأسيس العلاقات والروابط الاجتماعية أو تحسينها ــ وقد أطلق مالينوفسكي على هذه الوظيفة مصطلح « التواصل الودي » Phatic Communion وهو نوع الحديث الذي يتجاذب الناس أطرافه للتعارف والتواصل . ويمكننا أن نضيف كثيراً من استخدامات الكلام الى هذه القائمة ، ومنها الكلام المُستخدَم للحصول على المعلومات ( مثلاً ، **أين براد الشاي ؟** ) وللتعبير عن العواطف والمشاعر ( مثلاً ، **يا لها من قبعة جميلة ؟** ) أو الكلام من أجل ذاته ( **انها تبيع القواقع البحرية بجانب شاطىء البحر** )[1] وما الى ذلك . ولن نحاول تقديم تصنيف دقيق لوظائف الكلام في هذا المستوى ولكننا سنقتصر على القول بان الكلام يؤدي وظائف عديدة في التعامل الاجتماعي ، لا تنحصر فقط في توصيل القضايا التي لا يعرفها المتلقي . ( من أجل عرض لمحاولات تصنيف وظائف الكلام ، أنظر روبينسون Robinson ١٩٧٢ : الفصل الثاني ) .

وسنخص بالذكر هنا ، واحداً من أهم مداخل التصنيفات الوظيفية للكلام Functional Classification of Speech لأنه ذو تأثير هام وأهمية عظيمة . ويشير ذلك المدخل الى « الأفعال الكلامية » Speech Acts وهو المدخل الذي ابتكره أصلاً مجموعة من الفلاسفة وعلماء اللغة الذين تأثروا بأعمال الفيلسوف البريطاني ج . ل . اوستين J. L. Austin ( أنظر اوستين Austin ١٩٦٢ ، وهناك أيضاً عرضان ممتازان في ليونز Lyons ١٩٧٧ : الفصل ١٦ ، وكمبسون Kempson ١٩٧٧ : الفصلين ٤ ، و ٥ ) . وكان اوستين قد ذهب الى ان دراسة

المعنى يجب أن تبتعد عن التراكيب الجوفاء مثل **الجليد أبيض** ، بمعزل عن سياقها لأن اللغة عادة تُستخدَم داخل سياق الكلام لتأدية كثير من الوظائف ، فعندما نتكلم فاننا نقدم اقتراحات suggestions ونبذل وعوداً promises ونوجه الدعوات invitations ونبدي مطالب requests ونذكر محظورات Prohibitions وما الى ذلك. وبالطبع فاننا نستخدم الكلام ذاته ، في بعض الحالات ، لتأدية فعل بعينه( كما قال مالينوفسكي Malinowski ) وخاصة عندما يصبح الكلام هو الفعل ذاته ، فهناك على سبيل المثال ، العبارات التالية « **لقد اطلقت على هذه السفينة اسم سوسي سو** » ، وهي عبارة يجب استخدامها حتى تتم تسمية السفينة. ويُطلق على مثل هذه العبارات « العبارات الادائية Performative utterances وينبغي علينا عند تقديم وصف لكل هذه الوظائف المختلفة للكلام صياغته في اطار نظرية متكاملة للنشاط الاجتماعي ، وهذا ما حاول اوستين وأتباعه أن يقدموه.

« فالفعل الكلامي » ما هو إلاّ جزء من الكلام الـمُستخدَم كجزء من التعامل الاجتماعي ، وذلك على عكس التراكيب والأمثلة اللغوية الخارجة عن السياق التي يستخدمها علماء اللغة والفلاسفة. فالثقافة البريطانية ، مثلاً ، تتضمن مجموعة غنية من المفاهيم لتصنيف أجزاء التعامل الاجتماعي ، وهي بذلك تعكس أهمية التعامل الاجتماعي في المجتمع ، فنحن نميّز مثلاً بين « العمل » و « اللعب » أو « تزجية الفراغ » ، ونميّز بين « اللعب » و « التقاتل » وبين « التزاور » و « المعايشة ».

وهناك ، أيضاً الكثير من المفاهيم الثقافية ، ذات العناوين اللغوية ، لأنواع من الأفعال الكلامية ، وغالباً ما ترتبط دراسة هذه الأفعال الكلامية بمعاني هذه المصطلحات ، ومن الأمثلة على ذلك ، ما هو معنى مصطلح **الوعد** promise بالتحديد ؟ ( أنظر سيرل Searle **١٩٦٥** ، من أجل اجابة على هذا السؤال ).

ومن أهم ما قدّمه اوستين Austin هو محاولة الفصل بين ما يُطلق عليه « القـوة البلاغيـة » Illocutionary force للفعل الكـلامي و « قوتـه التأثيـريـة الفعليـة » Perlocutionary force وليس من السهـل تعـريف المصـطلح الأول بدقة ، ولكنه بشكل أو آخر « الوظيفة الكامنـة » imerent function في الفعل الكلامي ، ويمكننا تحديد تلك الوظيفة بفحص الفعل ذاته وعلاقته بالمعتقدات السائدة في اللحـظة ذاتها. ويمكننـا على سبيـل المثال ، ان نصنّف عبـارة انه « **سيغادر المكان في الحال** » على انها نوع من **الوعد** ، لو اننا تصورنا ان المتلقي سيسعد لتلقي هذا الخبر ، أعني لأن فلاناً سيغادر المكان بالفعل. أما « القوة التأثيرية الفعلية » للفعل الكلامي فهي خاصة **بآثاره أو نتائجه** ، أي سـواء كانت مقصودة أو فعلية ، فالقوة التأثيرية الفعلية المقصودة لعبارة « انه سيغادر المكان حالاً » قد تكون إسعاد المتلقي.

ويعد التمييز السابق هاماً ، لأنه يعكس ميلاً عاماً نحو تصنيف أجزاء من التعامل الاجتماعي حسب طريقتين مختلفتين ، حسب (١) خصـائصها الكـامنة. (٢) وتـأثيرهـا ، فنحن نميز ، عـلى سبيل المثـال بين « التقـاتـل » و « الفـوز » وبين « اللعب » و « امتـاع النفس » أو مجـرد قضـاء الـوقت ». ان هـذا الترادف بـين « التصنيف الوظيفي للكـلام » وبين الأنـواع الأخرى من السلوك الاجتماعي هو ما قد نتوقعه بداهة ، لو سلمنا بوجهة النظر القائلة بان الكلام مجرد نوع واحد من أنواع السلوك الاجتماعي. وقد نتوقع أيضـاً أن تكـون المفـاهيم الـمُستخـدَمـة في تصنيف الأفعـال الكـلاميـة هـو ذاتـه الـمُستخدَم في المفاهيم الثقافية ، لأنها معرفة في صورة « نماذج أصول » ( أنظر ٣ ــ ١ ــ ٢ ) ، وذلك هو ما سنجده بالطبـع ، لو حـاولنا تحـديد الشـروط الضـرورية حتى يعـد الفعل الكـلامي وعداً. فـالوعـد النموذجي ، ينبغي ان تتوفر فيه صفة الصدق (sincerity ، ولكن يبدو انه من الطبيعي ان نقول ان فلاناً قد وَعَدَ حانثاً (insincerity) ( دون اخلاص ) أن يفعل شيئاً ما.

ولو اننا اعتبرنا تصنيفات الأفعال الكلامية نوعاً من المفاهيم الثقافية ، لأصبح من الطبيعي أن نتوقع تباينها من مجتمع الى آخر ، وذلك هو ما يحدث فعلاً. ومن الأمثلة النمطية لنوع من الأفعال الكلامية ذات « القوة البلاغية » « المميزة الفعل الكلامي الخاص » بالتعميد في « الدين المسيحي » ، وهناك فعل (verb) خاص بهذا الفعل وهو ( عمد Baptise والذي يُستخدم في « العبارات الادائية » من نوع ( عمدتك. . . ). وتقتصر القوة التأثيرية الفعلية لهذا النوع من العبارات على المجتمعات التي تعد فيها عملية التعميد عرفاً قائماً ، وهناك أيضاً أمثلة أخرى مشابهة من العبارات ذات القوة التأثيرية الفعلية والتي يقتصر استخدامها على ثقافات بعينها ( ومن أجل أمثلة أخرى ، أنظر ليونز ١٩٧٧ : ٧٣٧). ومن المهم أن نقارن بين المفاهيم المنبثقة عن اللغة الانكليزية ومفاهيم المجتمعات الغربية غير المألوفة لنا مثل مفاهيم ثقافة هنود التزلتال Tzeltal ( وهم فرع من ثقافة المايا Maya في المكسيك ) ، وقد قدّم هذه الاختلافات ودرسها براين ستروس Brian Stross (١٩٧٤). ويملك هنود التزلتال حصيلة ضخمة من مصطلحات تصنيف « الأفعال الكلامية » مثل « كلام البيع » أو « كلام ينفي فيه المتكلّم اللوم عن نفسه حتى لا يُلام وحده ». ويبدو ان هذه أمثلة على تصنيفات « القوة البلاغية » ، ولكن حصيلتهم من هذه المصطلحات تتعدى التصنيفات القائمة ، فهي تشمل مصطلحات مثل « كلام الشهيق » ، و « كلام الزفير » و « كلام الليل » أو « المساء » أو « كلام مَنْ يزور منزلاً آخر ويمضي الوقت في الحديث بالرغم من مرض الآخر ». وتعبّر لغة التزلتال عن كل هذه المفاهيم بوحدة لغوية واحدة ، مكوّنة من كلمة واحدة تتبعها كلمة Kop وتعني « الكلام ». ومن المعقول ان نتصور ان متحدث التزلتال يختزن كل هذه المفاهيم في ذاكرته ( بينما ينبغي على القارىء أن يعيد بناءها على انها مفاهيم جديدة ذات تركيب داخلي معقّد ) وذلك كما يختزن المتحدث الانكليزي مفاهيم مركّبة مثل « يعد »

و « يعمد » و « يقترح » . ومع ذلك فليس هناك قدر من التطابق بين النظامين اللغـويين حتى مـع الفحص الدقيق لمصـطلحات لغـة التزلتـال ذات القـوة البلاغية .

كيف إذن نوفق بين تصنيف « الأفعال الكلامية » وتصنيف الوظائف الكلامية الـذي سبق ان ناقشنـاه عند حـديثنا عن التـواصل الـودي Phatic communion وعن « الكلام للحصول على المعلومات » الخ ؟ ويمكننا الاجابة عن هـذا السؤال بقولنـا ان كلاً من هـاتين المجمـوعتين من المفـاهيم تصلح لتصنيف أجزاء من الكلام مختلفة الطول ، فتوضع الأفعال الكلامية التي هي أقصر أجزاء الكلام في اطار « القوة البلاغية » أو « القوة التـأثيريـة الفعلية » بينما تصنّف الأجزاء الأطول من الكلام تحت مفهوم « التواصـل الودي » . . وهكذا غير ان هذه الاجابة تسلم جدلاً بوجود نظام تدرجي لتنظيم الكلام ، وسنبحث هذه الفرضية في القسم ٤ ــ ٣ ــ ٢ فيما يلي ، ولكننا لا نستـطيع التسليم جدلاً بمثل هذا التنظيم التدرجي للكلام . ويمكننا أيضاً طرح اجابة بديلة على السؤال السابق فحواها ان للمتحدثين نوايـا متباينـة في أية لحـظة من لحظات الكلام ، وتتراوح مجالات هذه النوايا بين نوعين : الدائمة مثل الرغبة في المحافظة على حُسْنِ العلاقة بالمتلقي ، والنوايا المؤقتـة مثل الـرغبة في إسعاد المتلقي ، أو بذل الوعد ، وما الى ذلك . وتمكننا وجهة النـظر هذه من التعامل مع أي تغيير في نوايا المتحدث ، وهذا هو ما يميّزها عن النموذج التدرجي . ولكننا لا نستطيع على أية حال القيام بأي تحليل وظيفي مُرضٍ لأية قـطعـه من الكـلام بـاقتصـارنـا عـلى استخـدام مجمـوعـة واحـدة فقط من التصنيفات ، لأنه من الممكن ان تجتمع مقاصد المتحدث المختلفة في نفس الوقت ، وبذلك نجد ان المتحدث هنا أيضاً يحدد كلامه في حيّز متعدد الأبعاد مثلما يفعل بالنسبة للآخرين من البشر ( أنظر ١ ــ ٣ ــ١ و ٢ ــ ١ ــ ٤ ) ومثلما يفعل بالنسبة للأنواع الأخرى من المواقف ( أنظر ٢ ــ ٤ ــ ١ ) .

### ٤ ـ ١ ـ ٣ الكـلام باعتبـاره نوعـاً من العمل المـاهر Speech as skilled work :

سبق أن رأينا ان الكلام ، في علاقته بالمجتمع ، أهمية تضعه في مكانة خاصة ، مما يفرض معاملته معاملة خاصة في اطار الثقافة ، وذلـك صحيح بالنسبة لأية ثقافة ، باعتباره شيئاً يمكن تصنيفه والكلام عنه . ولكن ذلك في حد ذاته لا يجعل الكـلام عملية اجتمـاعية بـالمعنى الذي يقصـده دي سوسيـور de Saussure ، وذلـك لأنه من المحتمـل ان تعكس التصنيفات المعترف بها اجتماعياً ، طرق استخدام الكـلام في المجتمع ، ولا تحـددها ، أي بعبـارة أخرى ، لو أراد أن يقول شيئاً لا يتوافق مع أي من التصنيفات المعترف بهـا اجتماعياً أو يناسبها فان ذلك لن يمنعه من قول ما يريد ( بالرغم من ان هذه المسألة قابلة للجدل والنقاش ) .

وننتقل الآن لمناقشة جانب من جوانب الكلام أكثر تحديداً من الجوانب السابقة . وهو الذي سبق أن أطلقنا عليه مصطلح « العمل الماهر » . والكلام « **عمل** » لأنه يتطلّب مجهوداً ، وتعتمد درجة النجاح أو التوفيق فيه على قدر الجهد المبذول . وهو عمل « **ماهر** » لأنه يتطلّب معرفة نظرية know—how ، ويعتمـد النجـاح في ذلـك عـلى درجـة المـران الـــذي حصـل عليــه الفـرد ( وعـلى عناصـر أخرى منهـا درجة الـذكـاء الفـردي ) . ولـو جمعنـا هـاتـين الخصيصتين سوياً ، يمكننا القول بان الكلام قد يكون أكثر نجـاحاً في بعض الأحيان عنه في أحيان أخرى ، وقد يتقنه بعض الناس أكثر من بعض . وليس هناك أدنى شك في ان الأمر كذلك فعلاً : فكلنا نعرف اننا أحياناً نشعر باننا غير قادرين على الكلام وان بعض النـاس يجدون صعـوبة شـديدة في إيجـاد « القـــول المنـاسب في الـــوقت المنـاسب » . ( ولن نلتفت في هـــذا الفصـل الى الاختلافات النـاتجة عن تبـاين اللهجات حيث تتـأثر الأحكـام بالعـرف الاجتمـاعي المتبع والتحيـزات الاجتمـاعيـة Social conventional prejudices

السائدة ( أنظر ٦ ـ ٢ ) .

وإذا كان الكلام نوعاً من العمل الذي يتطلّب المهارة فان ذلك يصدق أيضاً على جوانب التعامل الاجتماعي الأخرى ، في الاتصال المباشر — Face to— face communication ( أو التعامل الاجتماعي المركّز focussed interaction ) « ومن المفيد ان ننظر الى سلوك الأفراد المشتركين في الاتصال المباشر على انه نوع من الاداء المنظَم والماهر مثل المهارات الأخرى ، ومنها على سبيل المثال ، مهارة قيادة السيارات » ( ارجيل وكندون ١٩٦٧ Argyle & Kendon ) . فمثلما يكون بعض السائقين أكثر مهارة من الآخرين ( أي بقدر ما ينجح بعض الناس في امتحانات القيادة ويفشل البعض الآخر ) يكون بعض الناس أكثر مهارة في التعامل الاجتماعي من الآخرين . ولكن ينبغي أن نذكر تحذيرين أساسيين . أولهما : ان النجاح في الكلام يتباين حسب الوظيفة التي يؤديها وحسب الجوانب الأخرى للموقف . ولذلك ، فان بعض الناس يتميّزون بالمهارة في المناظرات الفكرية ولكنهم غير ماهرين في المواقف التي تقتضي « التواصل الودي » و العكس صحيح وسنرى في ( ٦ ـ ٤ ) ان الأطفال الذي يتميّزون بمهارة عالية في الألعاب الكلامية verbal games قد يفشلون في الكلام في الفصول الدراسية أو في المقابلات الرسمية .

ثانيهما : من الصعب أن نقيس درجة النجاح إلاّ بالنسبة لقدرة المتحدث على تحقيق نواياه . وعلى سبيل المثال ، إذا التقى شخص ثرثار ( حـ ) مثلاً مع شخصٍ آخر ( س ) يلزم الصمت حين يتحدث الآخرون ، فان ( حـ ) قد يعتقد ان ( س ) غير ناجح في مسألة الكلام ، لأنه لا يقوم بدور في سد ثغرات الحديث ، وقد يعتقد ( س ) انه ناجح تماماً ( لأنه ليس لديه شيء ذو أهمية يقوله ) ، كما يعتقد ان ( س ) شخص ثرثار لا يقول سوى الأشياء التافهة . ويسري هذان التحذيران أيضاً على جوانب التعامل الاجتماعي الأخرى .

وليس هنا مجال تحديد أنواع المهارات المطلوبة للحديث الناجح ، لأنها تتضمن بالطبع كل المهارات العامة المطلوبة في التعامل الاجتماعي بالاضافة الى المهارات اللغوية الخاصة بالمقدرة على استخدام الوحدات اللغوية. وتتباين هذه المهارات اللغوية بين المهارات الخاصة ( مثل ، متى ينبغي استخدام لقب سيدي عند المخاطبة ) وبين المواقف الخاصة ( مثل كيفية عقد صفقة تجارية من خلال مكالمة تليفونية باهظة التكاليف عبر الأطلسي ،وبين المهارات اللغوية العادية مثل كيفية انتقاء الاسم المناسب لمدلول بعينه. وربما نتصور ان هذه المهارات منظّمة بطريقة هرمية أي بأكثرها تحدياً وتخصصاً في أسفل الهرم وأكثرها عمومية في قمته ، وقد نتصور أيضاً ان المتكلّم عند التعامل مع مواقف خاصة سيبحث عن المهارة المناسبة ، والتي قد يفضّلها على نظائرها الأكثر عمومية ، حيث قد تتطلّب الأخيرة مجهوداً معرفياً أكبر ولكنها قد تكون أقل نجاحاً. فعند شراء تذكرة لحافلة عامة ، مثلاً ، يبدو انه من الأيسر استخدام العبارة التي نعرفها للتحديث الى جابي التذاكر ، وذلك بدلاً من استخدام القاعدة العامة الخاصة بالمطالبة بصفة عامة من أي شخص ( مثلاً تقول « **بعد اذن سيادتك هل تسمح ان تبيعني تذكرة من . . . الى** ). ( ان الرأي الخاص بدرجية المعرفة استحدثه علم الذكاء الاصطناعي ، حيث أثبت جدارة كبيرة في حلّ المشكلات ـ أنظر مثلاً وينوجراد Winograd **١٩٧٥**). وقد يمكننا تخمين ان أحد الأسباب الكامنة وراء حُسْنِ اداء بعض الناس في بعض المواقف هو انهم قد تعلّموا بعض المهارات الخاصة والمناسبة للاستخدام في مثل هذه المواقف غير ان ذلك لا يعدو ان يكون في الوقت الراهن تخميناً لا يؤكده دليل . وهذا يثير بدوره سؤالاً عن مدى ارتباط المهارات بمواقف بعينها ، أثبتَ كل من كارين واتسون جيجيو Karen Watson Gego وستفين بوجز Stephen Boggs (**١٩٧٧**) ان الأطفال في هاواي يستيطيعون نقل transfer المهارات التي يستخدمونها عادة في تبادل الشتائم والسباب الى مجال

رواية الحكاية وهو موقف مختلف عن الموقف الأول.

ويمكننا الآن أن ندرك الى أي حدٍ يعد الكلام عملاً **اجتماعياً** : فنحن نتعلّم قواعد ومهارات استخدام الكلام من الآخرين بنفس الطريقة التي نتعلّم بها الوحدات اللغوية. فنحن نتعلّم ، مثلاً ، كيفية الحصول على تذكرة من مشاهدة الآخرين وسماعهم مثلما نفعل تماماً عندما نتعلّم كيفية تنظيم الأسماء والأفعال في شكل تراكيب على النحو الذي نسمعه من الآخرين.

وهناك جانب اجتماعي آخر للكلام يرتبط « بالعمل » أكثر من ارتباطه بالمهارة ، وخاصة ان المجهود الذي يبذله الانسان في الكلام يعتمد على الدافع إليه motivation وهو ينشأ بدوره جزئياً من علاقات الفرد بالمشتركين الآخرين. ويقدم لنا علم النفس الاجتماعي عدداً من النظريات في تفسير استعداد الناس لبذل الجهد اللازم للقيام بالتعامل الاجتماعي. واستعدادهم أيضاً للالتزام بالقيود الاجتماعية المفروضة والتي سبق أن ناقشناها في **٤ ــ ١ ــ ٤**). ويبدو ان السبب الرئيس المتكرر في جميع هذه النظريات هو ان الناس يستجيبون لمطالب الآخرين لأنهم يرغبون في حب وقبول الآخرين.

واحدى هذه النظريات هي النظرية التي قدمها عالم الاجتماع ارفينج جوفان ERVING GOFFMAN وهي نظرية ذات أهمية خاصة فيما يتعلّق بمناقشة الكلام ، وهي خاصة بما أطلق عليه جوفان (**١٩٥٥**) « عمل الوجه » FACE—WORK وأعني الطريقة التي يتعامل بها الفرد من خلال تعبيرات الوجه ( بالمعنى القائم في **يفقد ماء الوجه** ). وهو ما يتم عن طريق تقديم صورة واحدة متسقة للآخرين ، وقد نفقد ماء وجهنا أو نحافظ عليه عن طريق إفساد تلك الصورة أو تحسينها. وكلما تحسّنتْ هذه الصورة لدى الآخرين ، زاد قبول الآخرين لنا ، ولكن من الخطورة أن نطمح الى ما ليس لنا قدرة عليه لما ينطوي عليه ذلك من احتمال فقدان ماء الوجه بالوقوع في الخطأ. وعليه ، فان هنالك للتطلع الى البقاء ميلاً واضحاً في متوسط الجماعة التي ننتمي اليها بدلاً

من المتطلّع الى ما هو أعلى من ذلك. وهناك ميل واضح من جانب الجميع في الجماعة نحو استخدام نفس المعايير في الحكم على الناس لأن الجميع يعرفون انها نفس المعايير التي يتم بها الحكم عليهم. ومن الصعب ، مثلاً ، ان ننتمي الى جماعة مؤمنة بالمحافظة على نظافة البيت أو باجادة التزحلق بالقبقاب أو التفوق في الامتحانات العامة دون أن نقبل هذه المعايير معايير هامة بالنسبة لنا.

ويعد الكلام من أهم الوسائل التي تمكّن الفرد من أن ينقل صورته أو ملامحه الشخصية للآخرين حتى يتمكّن الآخرون من تقييمها من خلال ما يقوله الفرد ومن خلال طريقته في الكلام. ( براون ولفينسون ١٩٧٨ Brown & Levinson ) وفضلاً عن ذلك فان معظم الناس يودون لو ينقلون الى مَنْ حولهم صورة من الكياسة والتهذيب لأن ذلك سيزيد من شعبيتهم لدى الآخرين ، وبذلك يتحوّل الكلام الى نشاط تعاوني **co—operative** حيث يقوم الجميع ببذل قصارى جهدهم حتى يساعدوا الآخرين على المحافظة على صورتهم الشخصية. وغالباً ما نحاول أن نتجنّب فضح مواطن ضعف الآخرين أو اثارة المناقشات الحامية حتى نتأكد انها لن تؤثر على مواقف الآخرين تجاهنا إلّا إذا كنا لا نبالي برأيهم فينا. وغالباً ما نحاول باعتبارنا متلقين فهم ما يقوله الآخرون ، حتى عندما يتطلّب ذلك قراءة ما بين السطور ( أنظر العدد الكبير من الأبحاث المنشورة عن « مبدأ التعاون » Co—operative principle والذي قدّمه بول جرايس Paul Grice وكيفية استخدامه لقراءة ما بين السطور ، أنظر مثلاً كمبسون ١٩٧٧/ ٦٩ Kempson وليونز Lyons ١٩٧٧ : ٥٩٢).

وينبغي علينا كمتحدثين أن نتوقع مقدماً المشكلات التي قد يقابلها المتلقون عند محاولة فهم ما نقوله ، ولذلك يجب أن نتوخى الحذر في اختيار ما نقوله وما نتوقع أن يفهموه. وبالطبع ، فان الناس يختلفون في مقدرتهم على توقع رد فعل المتلقي لما يقولون أو في قدرتهم على تجنّب وقوع سوء التفاهم ، ولكن

نظرية « عمل الوجه » Face—work تقول بان كل البالغين يدركون ادراكاً واعياً حاجة المتحدثين للقيام بتسهيل مهمة المتلقي .

إن نتائج الفشل في التعاون بنجاح قد تكون وخيمة كما يقول جوفمان Goffman (١٩٥٧) :

> « فالشخص الذي يتسبب في عدم استراحة الآخرين من كلامه ويقوم دائماً بإفساد التواصل يعد فاشلاً في قدرته على القيام بالاتصال الاجتماعي ، وقد تكون لذلك نتائج وخيمة على حياته الاجتماعية والحياة الاجتماعية من حوله ، ويمكن أن نصفه بانه شخص فاشل أو ناقص » .

وإذا اقتنعنا بوجهة النظر القائلة بان الكلام والاتصال الاجتماعي بصفة عامة هما نوع من العمل الماهر فاننا نخلص الى ان مثل هذا الفشل الذي يصفه جوفمان ينتج عن نقص في المهارة أو فقدان الدافع للنجاح ( أو عن كليهما ) . وكما رأينا فيما سبق فان كلاً من المهارة والدافع للعمل ينتج عن المجتمع الذي يعيش فيه الفرد ( وبالقدر الذي يؤثر فيه ذلك المجتمع على الكلام يمكن أن تخلص الى ان دي سوسيور كان مخطئاً في تصور ان الكلام نوع من النشاط الفردي لا يدين بشيء المجتمع من حوله أو يؤثر فيه .

## ٤ ـ ١ ـ ٤ المعايير المتحكّمة في الكلام The norms governing speech :

تعتمد درجة المهارة في الكلام على مجموعة من العوامل ، وتتضمن هذه العوامل معرفة القواعد التي تتحكّم بالكلام . وتلك القواعد أنواع مختلفة ترتبط بجوانب الكلام المختلفة ، وكل ما نستطيع أن نفعله هنا هو ذكر بعض الأمثلة . فالقواعد المعمول بها تختلف من مجتمع لآخر ، وذلك يسهل التعرف على وجود هذه القواعد ، ولا يجب أن يؤخذ ذلك على انه يعني ضمنياً ان كل هذه القواعد متباينة بنفس الطريقة . ( ومن المحتمل أن تكون بعض هذه

القـواعد ، واسعـة الانتشار ، إن لم تكن قـواعد شمـولية ، هـذا بـالـرغم من ان الأبحاث في هذا المجال غالباً ما تهتم بتأكيد الاختلافات بين الثقافات بدلاً من مجرد تأكيد أوجه التشابه بينها ). وسنطلق على هـذه القواعـد لفظة **المعايير Norms** ، لأنها تحدد السلوك المعياري الشائع في مجتمـع بعينه ، دون أن ترتبط بالعقـوبات التي قـد تُفرض عـلى مَنْ لا يتبعها. ( ويتضمن كتـاب براون وليفنسون Brown & Levinson ١٩٧٨ ، مناقشة للعلاقة المركّبة القائمة بين المعايير والعقلانية كعناصر محددة للكلام ).

أولاً : هناك معايير خاصـة بالتحكّم في الحجم للكـلام الذي يقـوله الناس ، وهذا الحجم الكمي قد يتراوح ما بين القليـل جداً والكثـير جداً. وقد قام ديل هايمز Dell Hymes بوصف مجتمع يكون المعيار فيه قدر قليل جداً من الكلام ( هايمز Hymes ١٩٧١ ــ ب ) :

> قام بيتر جاردنر Peter Gardener (١٩٦٦) ببعض العمل الميداني في جنوب الهنـد مع قبيلة تـدعى باسم البـوليا Puliya وَصَـفَ فيـه اكـتسـاب أفـرادهـا لـلسـلوك الاجتمـاعي . ولا تـوجـد في هـذا المجتمـع زراعـة أو صناعة ، ولا يبـدو ان هذا المجتمـع مجتمع تعـاوني بصفة خاصة ، أو انه من ذلـك النوع من المجتمعـات التي تتسم بالمنافسة الحادة ، ولذلك ينشأ الأطفال ، دون تعـويدهم عـلى التعاون بصفـة خاصـة ، أو حتى دون تغـذيتهم بروح المنـافسـة الحـادة فيـما بينهم ، ولكنهم ينشـأون على ممـارسة أعمـالهم الخاصـة في فلك درجة معقـولة من التجـاور المكاني. وقـد لاحظ جاردنـر انه عندما يبلغ الرجل سن الأربعين في هذا المجتمع يكون قـد توقف عن الكـلام تمامـاً : فليس لديـه ما يـدفعه

للكـلام. والناس هنـاك لا يتحدثـون كثيراً ، وغـالبـاً ما لا يجدون ما يتحدثـون عنه ، وقـد استنتج جـاردنر ان هـذه الـظروف قـد جـاءت نتيجـة لأنمـاط السلوك الاجتماعي الشائعة بينهم.

ونستطيع مقارنة المجتمع السابق بمجتمع آخر في روتي Roti ، وهي جزيرة صغيرة في شرق اندونيسيا وصفها جيمس فوكس James Fox (١٩٧٤) على النحو التالي :

« يعد الكلام بالنسبة لأهل روتي واحداً من أهم مباهج الحياة ، فالكلام ليس مجرد ثرثرة تافهة لاضاعة الوقت ، ولكنه نوع من اتخاذ المواقف الـرسمية ازاء المشكـلات التي لا تنتهي والمناقشات والقوافي أو المنافسة الكلامية ، وذلـك بـاستخـدام التعبيـرات المنمقـة في المنـاسبـات الـرسمية. . ويعـد عدم الكـلام علامـة عـلى الحـزن والاكتئاب. وغالبـاً ما يـردد القول بـأنهم ، حين تمـلأ الحسرة والحزن قلوبهم ، يصمتون. وعلى عكس ذلك ، فان الاتصال الاجتماعي بفرد ما يتطلّب محادثة واعيـة ونشطة ».

وقد تحدث مشكلات نتيجة للقـاء أفراد من مجتمعـات مختلفة ، تتبنّى معايير متباينة وتتضح هذه المشكلات في الحكاية التالية التي رواها كـولتهارد Coulthard (١٩٧٧ : ٤٩) ، حيث تـوجـد في هـذا الكتـاب أمثلة أخـرى من المعايير المختلفة المتصلة بالحجم الكمي للكلام ) :

« يصف أحد علماء الاثنوجرافيا زيارة قام بها لأقربـائه بالمصاهرة في الدنمارك ، حيث صحبه في الزيارة صديق أمـريكي ، أصـرَّ ، بـالـرغم من تحـذيـره مسبقـاً ،

على الاستمرار في الكلام بحدة أمريكية ، حتى غادرنا
المضيفون وآووا الى فراشهم في التاسعة ، ويبدو انهم
لم يستطيعوا احتمال هذا الموقف أكثر من ذلك . .

وهناك نوع آخر من المعايير يتحكّم في عدد الناس الذين يُسمح لهم بالكلام في نفس الوقت في المحادثة الواحدة. وقد يتفق معظم القراء مع المبدأ القائل بأن يُسمح لشخصٍ واحدٍ فقط بالكلام في وقتٍ بعينه ( وإلاّ جرتْ أكثر من محادثة في نفس الوقت كما يحدث في الحفلات ) ، ولكن يبدو ان هذا المعيار ليس معياراً شمولياً. فقد قام كارل رايزمان ١٩٧٤ Karl Reisman بوصف العرف المتبع في احدى قرى انتيجوا Antigua في جزر الهند الغربية في النصّ التالي :

« تكاد تبدو اعراف انتيجوا ، في ظاهرها ، فوضاوية
فليست هناك ، من ناحية الأساس ، شروط لا تسمح
لأكثر من فرد بالتحدث في وقتٍ واحد. فبدء فرد بالكلام
لا يعد اشارة للمتحدث بالصمت أو بالبدء في عملية
اختيار من سيستمر في الحديث. وعندما ينضم فرد
الى جماعة تتحدث بشكل عادي لا تتوفر له الفرصة لكي
يشترك في الحديث ، ولا توجد أية وقفات واشارات
رسمية تُعلن عن انضمامه لجماعة المتحدثين. ولا يبدو
ان احداً يعيره أي اهتمام. وعندما يشعر باستعداده
للحديث فانه يبدأ في ذلك على الفور. وقد يستمع إليه
الآخرون أو لا يستمعون إليه ، أو قد يتوقف بعضهم ،
وقد يبدأ بعضهم في النظر إليه وقد لا يفعلون ذلك.
فإن لم يسمعه أحد في المرة الأولى ، فانه سيحاول مرةً
أخرى ، وقد يحاول مرةً ثالثة ( في الغالب بادئاً بنفس
العبارة ). وقد يستمع إليه الآخرون في نهاية الأمر

أو ييأس هو من الحديث فيستسلم للأمر الواقع ».

وقد يتفق معي معظم القراء أيضاً ، بانه لابد أن تكون هناك حدود على عدد مرات المقاطعة المسموح بها في أية محادثة ، ولكن يبدو ان الأمر ليس كذلك بالنسبة لانتيجوا :

« قامت محدثتي أثناء محادثة قصيرة لم تستغرق أكثر من ثلاث دقائق بالنداء على أحد المارة في الشارع ، وبتوجيه تعليق لطفلٍ صغير ، وغنتْ قليلاً ، وطلبتْ من طفلٍ مار بأن يذهب الى مدرسته ، ثم غنّتْ قليلاً مرةً أخرى ، وطلبتْ من طفلٍ آخر التوجه لشراء الخبز الخ . . ، وطوال هذا الوقت استمرت في محادثتي عن أختها . ».

وتتناول معايير أخرى « مضمون » ما يُقال . فمثلاً ، يستلزم « مبدأ التعاون » الذي قدّمه بول جرايس Paul Grice ( والذي سبق أن ذكرناه بايجاز) الوفاء بعدد من الشروط ، ومنها الشرط « الخاص بأن يحملَ ما يقوله المتحدث قيمة اخبارية informative ( جرايس ١٩٧٥) . ومن نتائج هذا الشرط أن نحدد الشخص الذي نتحدث عنه بكل الدقة الممكنة والمتاحة . ولذلك ، فانني لو أردت أن أخبرك بان شقيقتك تنتظرك بالخارج ، فينبغي عليّ أن أقول « **ان شقيقتك** » ( وينبغي استخدام اسمها ، لو كنت أعرفه ، تنتظرك في الخارج بدلاً من ان أقول ان « **فلاناً** » أو « **بنت** » أو حتى **سواء أختك أم أخوك** قد حضر ، فإذا استخدمت احدى العبارات غير الدقيقة السابقة ، فسيكون من حقك ان « تقرأ ما بين السطور » ، وتفهم من ذلك انني لا أعرف مَنْ هذا الشخص بدقة كافية ، لأنك تعرف جيداً اننا خاضعون لمعيار القيمة الأخبارية فيما نقول ، كما تعرف انني كنت سأستخدم عبارة أكثر دقة لو كنت أستطيع ذلك .

وليس هذا المعيار « شمولياً » كما قد نتصور لأول وهلة . فعلى حد قول

الينور كينان Elinor Keenan (١٩٧٧) هناك منطقة في مدغشقر لا تأخذ لهذا المعيار. فَمِن الطبيعي ، للغاية ، مثـلاً أن تدل عـلى أختك مستخـدماً لفظ « بنت » ( وقد نصتّ كينان على مناسبة بعينها أخبرها فيها غلام في مـالجاس « ان هناك بنتاً قادمة » وكان بذلك يقصد أخته ) وأيضاً :

> لو ان ( أ ) سأل ( ب ) : « أين أمك » ؟ وأجاب ( ب ) قائلاً : « بأنها إما في المنزل أو في السوق » ، فان عبارة ( ب ) لا تؤخذ عادة على انها تعني ان ( ب ) لا يستطيع تقـديم المعلومـات الأكـثر دقـة ، والتي يـرغب المتلقي في ان يعـرفهـا . ان مثـل هـذا الاستنتـاج الضمني implicative لا يصـح ، لأن توقعنـا الفـرضي القـائـل بان المتحدثين سيلبون الاحتياجات الأخبارية للمتلقين ليس معياراً أو شرطاً أساسياً » .

وهناك عدد من الأسباب وراء عدم قيام المتحدثين بتقديم المعلومـات اللازمة في هذا المجتمع . وأحد هذه الأسباب انهم يخافـون من أن التعريف بفردٍ ما قد يؤدي الى جذب انتباه قوى الشـر الغيبية إليـه ، أو قد يسبب لـه متاعب من نوعٍ أو آخر ، والسبب الآخر هو انه لا يوجد قدر كافٍ من الأخبار في هذه القرى الصغيرة المنعزلـة ، ولذلـك يفضّل النـاس أن يحتفظوا بهـذه الأخبار ، وكأنها بضاعة ثمينة ! ولذلك ، لا يوجد ما يمنع من تداول الأخبار عندما تكون متوفرة لدى الجميع ، فلو كان هناك ، مثلاً ، اناء من الارز يُطهى على النار فان الناس سيشيرون اليه « بالارز » لأن الجميع يستطيعون رؤيته . ومن الواضح ان معايير الكلام المختلفة في كثير من هذه المجتمعات المختلفة يمكن تفسيرها بالرجوع الى الجوانب الأخرى لهذه المناقشات ، ولذلك لا يمكن دراستها دراسة وافية بمعزلٍ عن الثقافة التي تنتمي إليها .

وأخيراً هناك معايير بعينها تختلف من مجتمعٍ الى آخر مثل طلب التذكرة

من الكمساري ( جابي التذاكر ) في حافلة. وسنعطي مثالاً آخر ، ففي ألمانيا قـد تقول المضيفـة لضيوفهـا في حفل عشـاء رسمي « وسـأطلب منكم الآن أن تأخذوا أماكنكم حول المـائدة **Ich darf jetzt bitten, Platz zu nehmen** وهي تستخدم في ذلك عبارة اخباريـة declarative construction وذلك عـلى عكس استخدام صيغة السؤال التي تستخدمها المضيفة الانكليزية :

هل أطلب منكم أن تتفضلوا بالجلوس الآن ؟ May I ask you to come and sit down now ? وسنقـوم بـذكـر أمثلة أخـرى عـلى مثـل هـذه القيـود في الأجزاء التالية.

**٤ ـ ١ ـ ٥ الخلاصة :**

لعل هذه المناقشة تكون قد أوضحت الى أي مدى أخطأ دي سوسيور في اعتبار الكلام نتاجاً لارادة الفرد ولا يخضع لقيود المجتمع. وقد يكون ذلك أقـرب الى الحقيقـة بـالنسبـة لبعض جـوانب الكـلام في انتيجـوا ، ولكنـه غير صحيح بالمرة بالنسبة لمعظم المجتمعات المألوفة لدى القارىء ( وبالنسبة للمجتمعات المألوفة لدى دي سوسيور ، ذاته ).

فالمجتمع يتحكّم بالكلام بطريقتين. أولاً : عن طريق تحديد مجموعة من المعـايير norms نتعلّم كيفيـة الالتزام بهـا بمهارة ( أو حـزقها بـين الآونـة والأخرى ) وقد تختلف بعض معايير الكلام من مجتمعٍ لآخر ، ولو ان بعضها قد يكون أكثر شمولية وانتشاراً من بعضها الآخر ، فحتى في مدغشقر ، مثلاً ، يلتزم الناس بالمعايير الخاصة بالقيمة الأخبارية للكلام informativeness إلاّ عند تعارضها مع معايير أخرى ( مثل تأمين سلامة الآخرين أو الاحتفاظ بالأخبار للذات ) ، ويبدو ان معيار الأخبارية معيار شمولي. ثـانياً : يـوفّر المجتمـع الدوافع motivation الضرورية لحثّنا على الالتزام بهذه المعايير ، ولحثّنا على بذل الجهد في الكلام ( كما يحدث في العامل الاجتمـاعي بصفة عـامة ). وتفسّـر نظرية « عمل ــ الوجه » Face—work هذا الدافع ، كما تستطيع أن تفسّر لنا

أيضاً لماذا يبدو الكلام على انه مسألة سلسه وسهلة رغم مخاطر سوء التفاهم والصعوبات الأخرى القائمة في أية عملية اتصالية.

وبالاضافة للتحكّم في الكلام بهاتين الطريقتين ، يهتم المجتمع اهتماماً كبيراً بالكلام ، ويوفّر لنا على وجهِ الخصوص مجموعة من المفاهيم للتفكير فيه والتحدث عنه. واحدى هذه المجموعات من المفاهيم المجموعة الخاصة بوظائف الكلام ونظرية الأفعال الكلامية ، التي تعكس بدورها التصنيف الاجتماعي للكلام حسب وظائفه. ويُشار الى هذه التصنيفات الوظيفية ، الى حدٍ ما بمعايير الكلام ، فمثلاً ، لو طُلِبَ أن تُسمي سفينة ، فعليك أن تكتشف المعايير الخاصة بهذا النوع من التصنيفات الوظيفية ، وان تكتشف المعايير الخاصة ببذل الوعد أو القَسَم أو التعهد ، وهي أن تقول في بداية حديثك « **اني أعدك / اعاهدك على / أقسم لك**... ( بالرغم من ان هذه التعبيرات لا تغطي كل التعبيرات الخاصة بالتعهد أو القَسَم أو الوعد ).

وخلاصة القول ، ان هذا التصنيف الوظيفي للكلام هو جزء من الأداة التي يتحكّم بها المجتمع في الكلام.

ولقد استخدمنا لفظة المجتمع بطريقة عامة وغير محددة ، ولكننا نخطىء إذا أعطينا انطباعاً بان المجتمعات أكثر توافقاً وتجانساً من ناحية الوسائل التي تتحكّم بها في الكلام عنها من ناحية الطرق التي تتحكّم بها في الوحدات اللغوية التي يستخدمها الأفراد. فليس لدينا من الأسباب ما يدفعنا الى الاعتقاد بصحة هذا الزعم ، وعلينا أن نتوقع نفس القَدَر من التباين بين الأفراد في معايير الكلام ، كما هو الحال بالنسبة لاستخدام الوحدات اللغوية.

ومن الواضح أيضاً ان الناس يستخدمون الكلام مثلما يفعلون في حالة استخدام الوحدات اللغوية ، أي لتحديد موقعهم بالنسبة للجماعات الاجتماعية الأخرى التي يستطيعون تمييزها في المجتمع من حولهم.

والاختلاف الوحيد القائم بين معايير الكلام والوحدات اللغوية هو ان دراسة الأولى أكثر صعوبة نسبياً من دراسة الأخيرة ، وخاصة لو أردنا دراسة معايير الكلام ، كمياً ، ولذلك فانه من الصعب أن نقدم أدلة تجريبية لتدعيم وجهة النظر الـمُقَدَمة هنا.

## ٤ ــ ٢ الكلام باعتباره رمزاً للهوية الاجتماعية

**Speech as a signal of social identity :**

### ٤ ــ ٢ ــ ١ التصنيفات الاجتماعية اللاعلاقية

**Non — relational social categories :**

ربما كانت لكل لغة وحدات لغوية تعكس الخصائص الاجتماعية للمتحدث أو الـمُخاطَب أو العلاقة القائمة بينهما . وبالتالي فان الكلام الذي يشتمل على مثل هذه الوحدات ينبىء المتلقي عن الطريقة التي يرى بها المتحدث هذه الخصائص وسيعد المتحدث من المخالفين لهذه المعايير الكلامية إذا استخدم وحدات لغوية تدل على خصائص مغايرة . والمعايير التي سنعرض لها في هذا الجزء هي أكثر هذه المعايير شيوعاً في الدراسات والأبحاث .

ومن أبسط الأمثلة على ذلك الوحدات اللغوية التي تعكس الخصائص الاجتماعية لفرد بعينه سواء أكان متحدثاً أو متلقياً . ومن أغرب الحالات المذكورة في الأبحاث الاثنوجرافية هي حالة الابيبون Abipon في الأرجنتين الذين يقومون على حدِ قول هايمز Hymes (١٩٧٢) باضافة اللاحقة ( in ) ( ـ ان ) في نهاية كل كلمة ، إذا كان المتحدث أو المتلقي من المحاربين . وتتضمن لغة اليانا ( Yana ) في كاليفورنيا أيضاً صيغة خاصة تُستخدم في الكلام عن النساء أو فيما بينهن ( سابير Sapir ١٩٢٩ ) . وعلى أية حال ، فان المعايير في معظم هذه الحالات تشير الى المتحدث أو الى الـمُخاطَب .

أما بالنسبة للمتحدث فان أكثر الخصائص شيوعاً ، والتي تنعكس في الوحدات اللغوية ، هي خاصية الجنس . وهناك أمثلة كثيرة معروفة

على ذلك في كل من الأمريكتين وآسيا ( أنظر العرض الخاص بذلك في ترجيل Trudgill ١٩٧٤ ــ ب : ٨٤ ، وهاس Haas ١٩٤٤ ). وهناك على سبيل المثال ، أمثلة كثيرة على ذلك في لغة الكوساتي Koasati الـمُستخدَمَة في لويزينا Louisiana. فهناك اختلاف في صيغ الأفعال التي تستخدمها الاناث وتلك التي يستخدمها الذكور. ويقوم الذكر باضافة صيغة ( s ــ ) في نهاية الصيغ المؤنثة ( ومن الأمثلة على ذلك ان الذكور يستخدمون صيغة Lakáws بينما تستخدم النساء صيغة Lakáw وتعني الصيغتان « يرفع ». وهناك نوع آخر من علامات الجنس في لغة جزر الكاريب Garib في أمريكا الوسطى ، وينبئنا تاريخ هذه الجزيرة بدقة بمصدر هذه الاختلافات الجنسية ، لأن سكان الجزيرة قد انحدروا من نسل ذكور يتحدثون اللغة الكاريبية ونساء يتحدثن بلغة الاراواك Arawak وهن النساء اللائي قتل الكاريبيون أزواجهن ( ولا تتصل الاراواك Arawakبالكاريب ) ، ولذلك توجد اختلافات بين الرجال والنساء في عددٍ من جوانب لغتهم في جزيرة كاريب ، وأهم هذه الاختلافات الخاصة بالنوع بالنسبة للأسماء المجردة ، فبينما يتعامل النساء مع هذه الأسماء على انها مذكر ( نحوياً ) يعاملها الرجال على انها مؤنث ( تايلور Taylor ١٩٥١ : ١٠٣).

وبالرغم من انه قد يكون من غير المألوف وجود وحدات لغوية خاصة باستخدام الذكور وأخرى خاصة باستخدام النساء ، أو أن تكون هناك صيغ صرفية حسب جنس الـمُخاطَب إلّا اننا سنرى ( في ٥ ــ ٤ ــ ٣) ان هناك اختلافات كمية بين المتحدثين من الذكور والاناث في اللغة الانكليزية ، حيث تميل النساء نحو استخدام التعبيرات ذات المكانة الاجتماعية الراقية أكثر من الذكور الذين ينتمون الى نفس الخلفية الاجتماعية. ولكن من الخطأ أن نتعامل مع هذه الاختلافات الكمية كأمثلة من نفس نوع ظاهرة الاختلافات النوعية القائمة في لغة مثل لغة الكوساتي لأنها تقوم بوظيفتين مختلفتين. فبينما تؤدي الاختلافات القائمة على أساس الجنس في لغة الكوساتي

وظيفة الشاهد marker على الاختلافات النوعية بين المتحدثين ، مؤيدة بذلك أية اختلافات قائمة أخرى ، تقوم الاختلافات الكمية في اللغة الانكليزية بدور مختلف فهي تعد نتيجة لميل النساء الى اتخاذ مواقف أكثر ايجابية تجاه اللهجة ( أو اللكنة ) المتواضع عليها . ( أنظر اليان وآخرين Elyan et al ١٩٧٨ من أجل دراسة أكثر تفصيلاً ) . فالاختلافات الجنسية النوعية الموجودة في اللغة الانكليزية لا تقوم بوظيفة الشاهد على النوع لأنها لا تميز بين أنثى نموذجية من طبقة بعينها وبين ذكرٍ نموذجي من طبقة أعلى من طبقة الأنثى .

ولو نظرنا من زاوية المتلقي لوجدنا ان هناك طرقاً كثيرة قد تختلف بها طريقة المتحدث في الكلام ، ويعتمد ذلك ، في المقام الأول ، على نوعية أو ماهية المتلقي . ويبدو ان جميع اللغات تتضمن وحدات لغوية معينة لا تُستخدم إلاّ عند توجيه الحديث الى الأطفال مثل الوحدات الانكليزية **gee—gee** للاستدلال على **الحصان** . ( ومن الملاحظ ان هذه الاختلافات في اللغة الانكليزية لا تقتصر على المفردات ، فهناك تراكيب شائعة الاستخدام في اللغة الأنكليزية مثل **Mummy pick up baby** وهي تختلف عن التراكيب التي يستخدمها البالغون ، سواء من ناحية التركيب لأنها في صيغة « أمر للغائب » third person imperative أو من الناحية **البراجماطيقية** وذلك لأنها تتجنب استخدام الضمائر I و you ) وهناك أمثلة أخرى كثيرة مذكورة في أبحاث « لغة الرُضَّع » Baby talk في كل اللغات ، وهناك بعض الأمثلة على ذلك من اللغة الهندية الأمريكية لغة الكومانش Comanche ( كاساجراند Casagrande ١٩٤٨ ) . ويرى تشارلز فرجسون Charles Ferguson (١٩٧١) ان بعض مظاهر لغة الرُضَّع قد تكون شمولية ، لو قورنت بالحديث العادي . ومن هذه المظاهر عدم وجود فعل الكينونة ( الذي يقوم بوظيفة الوصل ) (copula—be) في التراكيب ، التي تتضمن هذا الفعل بصفة عادية مثل (Mummy tired) .

ولعل أغرب الاختلافات التي قام الدارسون بدراستها تلك الاختلافات الموجودة بين هنود النوتكا Notka في جزيرة فانكوفر ( سابير ١٩١٥ Sap ) فلغة النوتكا تتضمن صيغاً معينة للكلمات التي لا تُستخدم إلّا عند توجيه الحديث الى ذوي العاهات والمعوقين ، وخاصة الأطفال ، الذين يتّسمون بالبدانة الشديدة ، أو البالغين الذين يتّسمون بقصر القامة ، والذين يعانون من عيوب في النظر أو الأحادب والعرجان والعسران والمطهرون ) فمثلاً ، في حالة التحدث الى مَنْ يعاني من الحَوَل ، تضاف لاحقة لكل الأفعال وتتحول كل حروف ( الصفير ) sibilant مثل الـ ( [s] والـ [c] ) الى أصوات جانبية مهموسة ( مثل صوت لهجة ويلز الذي يكتبْ (ii) .

٤ ـ ٢ ـ ٢ القوة والتضامن :

ويعكس الكلام غالباً العلاقات الاجتماعية بين المتحدث والمتلقي ، وخاصة علاقات القوة power والتضامن solidarity المتجلية في هذه العلاقة . ( وقد قدَّم عالم النفس الاجتماعي روجر براون هذه المصطلحات والمفاهيم لمجال علم اللغة الاجتماعي ) أنظر براون وفورد Brown & Ford ١٩٦١ وبراون وجيلمان Brown & Gilman ١٩٦٠) وتعد هذه الأبحاث أهم ما كُتِبَ عن الشواهد اللغوية التي تدل على العلاقات الاجتماعية Linguistic markers of social relation ومن السهل تفسير « القوة » ، ولكن من الصعب أن نعرف ماذا نعني « بالتضامن » . ويختص « التضامن » بالمسافة الاجتماعية بين الناس وبتجاربهم الاجتماعية وخصائصهم الاجتماعية المشتركة ( مثل الديانة والجنس والسن ومسقط الرأس والعِرق والمهنة والاهتمامات ، الخ ) ومدى استعدادهم للمشاركة في مسائلهم الشخصية الخ .

فبالنسبة للمتحدث الانكليزي ، مثلاً ، فان أوضح الشواهد اللغوية والدالة على العلاقات الاجتماعية بين الناس استخدام الأسماء الشخصية مثل جون والسيد براون Mr. Brown فلكل فرد عدد من الأسماء المختلفة يمكن

مخاطبته بها ، منها اسمه الأول واسم العائلة واللقب إذا وُجِدَ مثل ( Professor أو Mr. ) . وينبغي علينا أن نفحص صيغتين فحسب من هذه الأسماء هما صيغة الاسم وحده مثل John وصيغة اللقب التي يتبعها اسم الأسرة مثل Mr. Brown ، كيف إذن يقرر الفرد مخاطبة John Brown سواء بصيغة الاسم John أو بصيغة اللقب واسم الأسرة Mr. Brown وترتبط الاجابة عن هذا السؤال بكل من عاملي القوة والتضامن كما قال براون وفورد Brown & Ford في دراستهما الخاصة باستخدام الطبقة المتوسطة للأسماء في أمريكا. ومرة أخرى علينا أن نعود لذكر فوائد استخدام مفهوم « النموذج الأصل » ، ذلك اننا نستطيع تحديد موقفين نموذجيين تُستخدم في كل منهما صيغة الاسم John أو صيغة اللقب واسم الأسرة Mr. Brown على حدة ، ويمكننا بعد ذلك ربط المواقف الأخرى بهذين الموقفين. ويُستخدم اسم جون عندما يكون هناك قدر كبير من التضامن بين المتحدث وجون براون ، وعندما يكون جون أقل من حيث « القوة » من المتحدث ، أو بعبارة أخرى عندما يكون جون براون من **مرؤوسي المتحدث الأقربين** Close subordinate ومن الأمثلة الواضحة على ذلك أن يكون جون براون ابناً للمتحدث. ومن ناحية أخرى بعد استخدام صيغة **السيد براون** مرهوناً بوجود قدر قليل من التضامن أي عندما يكون جون براون أكثر « قوة » من المتحدث ، أي إذا كان رئيساً أبعد كأن يكون مدير الشركة أو الناظر ، أي أن المتحدث لا يعرفه عن كثب. ويبدو انه من المستبعد ان يكون هناك أي خلاف بين المتحدثين الانكليز على الاستخدام المناسب للأسماء في كل من هذين الموقفين.

ولكن يبدو ان هناك قدراً أقل من الاتفاق أو اليقين حول استخدام الأسماء المناسبة في المواقف التي قد تقع بين هذين الموقفين. فبماذا يخاطب الفرد رئيساً **أقرب** مثلاً ؟ فعند انضمام طلاب جدد الى جامعة بريطانية يبدأون بصفة عامة بمخاطبة رئيس القسم بلقب الأستاذ فلان Professer X لأنه رئيس بعيد ، ولكنهم بمرور الوقت وتدريجياً يتعرّفون عليه من خلال محاضراته

ومن خلال الاتصال المباشر غير الرسمي ، ويشعرون انهم يعرفـونه جيـداً . والسؤال الآن هو : متى وكيف يبدأون بمخاطبته باسمه الأول . ويحسم رئيس القسم ، ذاته ، هذه المشكلة في بعض الأحيان ، إذ ينبّه على طلبته في يومهم الأول بان عليهم أن ينادوه ويخاطبوه باسمه الأول ، ولكن يحـدث في معظم الأحيان وفي أماكن كثيرة أخرى ان يُترك الطالب ليقـرر بنفسه المـدى الذي وصلت اليه درجة التضامن بينه وبين الأستاذ الى حدٍ يسمح له بمخاطبته باسمه ول ، ويختلف الطلاب في المدى الزمني الذي يقررون فيه ذلـك فبعضهم يأخذ من الوقت ثلاثة أعوام أو أكثر ، وبعضهم الآخر يفعل ذلك بعد يومين أو ثـلاثـة ، ومن الـواضـح ان تفســير Freidrich ١٩٧٢). ( ومن المـلاحظ ان استخـدام صيغتين مختلفتـين لضمير المفـرد الـمُخاطَب من اجـل اظهـار التضامن هو أحد الملامح الجغرافية areal feature لأوروبا ، مثل الملامح السابقة الذكر في ٢ ــ ٣ ــ ٤ ، ذلك انه ظاهرة غير موجودة في اللغة اللاتينية واللغات الـمُستخدَمة في دول غرب أوروبا منذ ألفي عام ، ولكنهـا ظاهـرة موجـودة في اللغـات غير هنـدو ــ أوروبي ، مثل اللغـة المجـريـة ( هـولـوس ١٩٧٧ Hollos ) ، ويمكن متابعة هـذه الظاهـرة شرقـاً الى الشرق الأدنى حتى اللغـة الفارسية ( جاهانجيري Jahangiri في طور الإِعداد ، وبراون وليفينسون Brown & Levinson ١٩٧٨) وتعد هذه التغيرات تغيرات هامة لأنها قد تلقى ضوءاً

على « النماذج الأصول » ، كاشفة ان عملية التغيير قد تؤثر على هذه « النماذج الأصول » ذاتها ( بحيث يصبح التضامن تدريجياً أحـد خصائصهـا المميزة ) أو قد تتجاوزها ( كما هـو الحال بـالنسبة للتغيـرات التي طرأت عـلى التوازن الدقيق الموجود بين القوة والتضامن ، والذي يحسم الحالات الوسيطة بينهما ) .

لسنا في حاجـة الى القول ، انـه ليس من الصعب الربط بـين درجة التغيرات في الأهمية النسبية لعاملي القوة والتضامن كعاملين محـددين لاختيار الضمائر وبين التغيرات الجارية والموازية لها في الـبُنية الاجتماعية ، وقد قام

بعض الكتّاب الذين سبق ذكرهم بتحديد ذلك. ومن الأمثلة الرائعة على ذلك استخدام الضمائر الايطالية ( وهي tu « أنت » وتُستخدم للمرؤوسين الأقربين اجتماعياً و Lei وتُستخدم لِمَنْ هم أرفع مقاماً أو رؤساء أبعدين ). وقد اتضح من بعض الدراسات استخدام الطبقات الوسطى والدُنيا في روما ( بيتسي وبنيني ١٩٧٥ Bates & Benigin ) لهذه الضمائر بهذه الطريقة ، ومن الغريب ان معظمَ الذين يستخدمون Lei هم من الشباب الذكور الذين ينتمون للطبقة الدُنيا ، وهم أول مَنْ نتوقع أن يكونوا أكثر استعداداً لتوسيع استخدام الضمير ذي السمة الديموقراطية tu ، وقد شملتْ تلك الدراسة أيضاً المتحدثين الأكبر والأصغر سناً من كِلتا الطبقتين ، واضح ان شباب الطبقة الدُنيا يميلون الى استخدام Lei أكثر ممن يكبرونهم سناً ، على عكس شباب الطبقة المتوسطة الذين يستخدمون هذا الضمير بنسبة تقل عمنْ يكبرونهم سناً من نفس الطبقة. ويرى بيتس وبنيني في تأويل نتائج تلك الدراسة ان شباب الطبقة المتوسطة يستخدمون ما يعتقدون انه استخدام أكثر شيوعاً وديموقراطية بين الطبقات الدُنيا بينما يعتقد شباب الطبقات الدُنيا انهم يستخدمون ما يتصورون انه استخدام شائع وراقٍ بين أفراد الطبقة المتوسطة. ولو استمرت تلك العملية فاننا نتوقع أن تستبدل الطبقات الدُنيا والمتوسطة معاييرهما ، وذلك مما يثير تعجّب كثير من أهل روما. وقد دُرِسَتْ الشواهد اللغوية الخاصة بالتضامن والقوة دراسة كافية ومستفيضة مما يحدو الى اقتراح ظاهرتين لغويتين يحتمل أن تكونا شموليتين. وينبغي علينا أن نتوقع ان كل اللغات لها وسائلها « للدلالة » على الاختلافات الاجتماعية التي تدل على أي من التضامن أو القوة أو كليهما. ويمكننا تفسير ذلك بقولنا ان التضامن والقوة من أهم العوامل المؤثرة في عملية الاتصال الاجتماعي المباشر بين الأفراد. ويمكننا أيضاً أن نقول انهما تعبّران عن حاجة الفرد لتحديد رؤيته لطبيعة هذه العلاقات. ويبدو أيضاً ان انعكاس هذين العنصرين الاجتماعيين في نفس المجموعة من الصيغ اللغوية ( كما هو الحال في كل اللغات التي درسناها حتى الآن )

يثبت لنا ان الصيغ التي تعبّر عن درجة كبيرة من التضامن هي التي تعبّر أيضاً عن قدرٍ أكبر من القوة من جانب المتحدث والعكس صحيح أيضاً. وقد تكون « النماذج الأصول » التي قمنا بتحديدها في اللغة الانكليزية نماذج شمولية. ويرى براون وفورد (١٩٦١) ان العلاقة بين القوة والتضامن علاقة شمولية حيث تشير كِلتاهما الى ان ذوي المكانة الاجتماعية الأعلى هم الذين يحددون متى تصبح درجة التضامن كافية لاستخدام الصيغ المعبّرة عنها ( كما رأينا في حالة الطالب وعلاقته برئيس قسمه ) ، ولذلك فَمِنَ المحتمل أن يكون الشخص ذو المكانة الاجتماعية الأعلى هو الذي يستخدم أولاً صيغة المخاطبة الأكثر تضامناً ، ومن هنا تنشأ علاقة أقوى من التضامن وينشأ استخدامها مع مَنْ هم أدنى درجة.

### ٤ ـ ٢ ـ ٣ الشواهد اللغوية على القوة والتضامن

: **Lingustic signals of power & solidarity**

ويمكننا ان نعتبر ان الشواهد اللغوية الرئيسة التي تدل على التضامن والقوة في اللغة الانكليزية نسق جانبي في نظام اللغة الانكليزية ، أي ان أسماء الاعلام المستخدمة للنداء والمخاطبة ( أو بعبارة أخرى لمخاطبة ما ) يمكن التعامل معها في جزء منفصل من النحو ، دون المساس بأيِّ أجزاء أخرى من النظام النحوي للغة ، ( والحقيقة كما سنرى فيما بعد ان الأمر ليس بهذه البساطة حتى في اللغة الانكليزية ). وقد يتصوَّر القراء الانكليز الذين يتحدثون بالانكليزية ان الأمر كذلك بالنسبة لكل اللغات الأخرى ، ولكن ذلك ليس صحيحاً. فَمِنَ المألوف أن يكون التعارض بين القوة والتضامن هاماً للغاية وان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالنحو في اللغات الأخرى في جوانب عديدة. وفيما يلي عرض موجز لأكثر شواهد القوةوالتضامن شيوعاً ( وسنستخدم مصطلح القوة والتضامن للدلالة على هذا التعارض بهدف التبسيط دون أن نعني ضمنياً بذلك ان كلاً منهما يؤدي على حدة نفس الوظيفة وبنفس

الدرجة في جميع الحالات ). وسنجد دراسة وافية لذلك في براون وليفنسون Brown & Levinson (١٩٧٨).

وسنبدأ هذا العرض بالنوع المألوف من الشواهد في اللغتين الانكليزية والفرنسية ، حيث تشير الوحدات اللغوية ذات الأهمية ( أي التي تتباين صيغها نتيجة لعلاقات القوة والتضامن ) الى المُخاطَب. وتشمل هذه الوحدات في اللغة الانكليزية أسماء الاعلام بينما تتضمن الضمير الحاضر « أنت » في اللغة الفرنسية. أما في اللغات الأخرى فتتضمن هذه الوحدات الهامة أشباه الجمل الاسمية العادية noun phrases التي تُصاغ حول الأسماء الشائعة common noun عند استخدامها في حالة المخاطبة. ويذكر ميتشل Mitchell (١٩٧٥ : ١٥٩) على سبيل المثال ، ان هناك استخداماً شائعاً في الجماعات الاسلامية حيث « يدلل الأكبر سناً الأصغر باستخدام نفس الصيغ التي يجب أن يستخدمها الأصغر لمخاطبة الأكبر. ولذلك يمكنُ للأُم في لغة البربر ( المستخدمة في شمال أفريقيا ) أن تستخدم صيغة « يمّه » لمناداة ومخاطبة ابنها وتستخدم نفس الصيغة في سياق آخر لتعني « يا أُمي ». ( نعتقد في هذه الحالة ان التدليل أو المخاطبة العاطفية تعد نوعاً خاصاً من التضامن ). ولكن هناك مواقف أخرى مشابهه في اللغات الأخرى تُستخدم فيها أشباه الجمل الاسمية والتي يمكن ترجمتها حرفياً بـ « خادمك يا سيدي / / انني في خدمتك / طوع بنانك ، الخ ». للدلالة على المتحدث. ومن هذه اللغات اللغة الفارسية ( جاهانجيري ، ما زال في طور الاعداد ) حيث تُستخدم مجموعة من أشباه الجمل الاسمية لتبجيل المتلقي ، ولذلك يمكن تحديد علاقات القوة بين المتحدث والمتلقي عن طريق أشباه الجمل الاسمية المستخدمة بينهما ونستطيع أن نخمّن ان اللغات الأخرى التي لديها وسائل أخرى للدلالة على علاقات القوة والتضامن لابد وأن يكون لديها صيغ بعينها للدلالة على المتلقي وربما على المتحدث أيضاً.

وفي لغات أخرى ، مثل اللغتين اليابانية والكورية ، هناك علاقة مباشرة بين القوة ــ والتضامن وبين الصيغ الفعلية verb — form المستخدمة . وحيث اننا لا نستطيع الكلام دون استخدام الأفعال فَمِنَ الضروري أن يعكس الكلام هذه العلاقات . ويوجد في اللغة الكورية ما لا يقل عن ستة لواحق متباينة تعكس مختلف علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقي ، ولابد للفعل من ان يتضمن احدى هذه اللواحق ( مارتين ١٩٦٤ Martin ). ومن الطريف انه يمكن تقسيم هذه اللواحق الستة الى مجموعتين تعكس ثلاثة منها درجات مختلفة من التضامن الايجابي ( عادي ووثيق ومألوف ) بينما تعكس الثلاثة الأخرى علاقات قوة مختلفة بين الذين يرتبطون بعلاقات تضامن غير قوية ( « مهذَّب » و « متسلّط » و « مهتم » ) . وبعبارة أخرى فان لشواهد علاقات التضامن في اللغة الكورية ، كما هو الحال في الانكليزية والفرنسية ، أسبقية على علاقات القوة وذلك في اطار الشواهد اللغوية الدالة على القوة والتضامن . ( وليس ذلك هو الحال دائماً كما قد نكتشف من الموقف الذي يصفه لنا هيل وهيل ١٩٧٨ Hill & Hill بين الناهوتال Nahuatl في المكسيك حيث تتفوق علاقات القوة على أوثق علاقات التضامن بالنسبة للمخاطب المسن ) . وتعد الأفعال أيضاً من شواهد القوة والتضامن في اللغة الفارسية ، ولكن لابد من تغيير شكل الفعل باضافة الصيغ الصرفية فانه يمكن الاشارة الى ذلك باختيار وحدات معجمية مختلفة ذات دلالة واحدة ( مثل الاختيار بين attempt و try في اللغة الانكليزية ) . ولكن هذه الاختيارات اللغوية تحددها علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والفاعل في التركيب اللغوي ، ولذلك فان الفعل لن يكشف عن علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقي ، إلّا إذا كان المتلقي هو « فاعل » الجملة . ( وعلاوة على ذلك ، فلو كان للفعل مفعول به فان صيغة المفعول هي التي تعكس علاقات القوة والتضامن بين الفاعل والمفعول به لا بين الفاعل والمتحدث ) .

والنوع الثالث من الشواهد اللغوية ، الدالة على علاقات القوة

والتضـامن هـو **مستـوى المفـردات** vocabulary level . ومن الأمثلة المنـاسبـة على ذلك اللغة الجافينيزية Javanese ( جيرتز Geertz ١٩٦٠ ) وتقدم لنا هذه اللغة عدداً من الصيغ البديلة المدرجة في معجم المفردات لكل منها عدد كبير من المعاني ، ولكن هذه البدائل لا تقتصر على الأفعال ( وأشباه الجمل الاسمية التي تدل على المتحدث والمتلقي ) ، كما هو الحال في اللغة الفارسية ، ولكنها تؤثر على كل أجزاء الكلام Parts of Speech . ويعطينـا جيرتـز ، على سبيـل المثال ، كل الصيغ التعبيرية البديلة للجملة الجـافينزيـة « هل ستـأكل ارزاً وكـاسافـا الآن ؟ » ( يمكن ترجمتهـا بالانكليـزية كلمـة بكلمة ) ويتضـح لنا من ذلك ان هناك كلمتين أو ثلاث كلمات في اللغة الجـافينزيـة لكل كلمـة انكليزية ما عدا كلمة **كاسافا**. ويزعم جيرتز ان هناك قواعد محددة للكلمات التي يمكن ان تتواءم معاً في نفس الجملة ، وهو يحدد ستة مستويات أسلوبية ، يتحدد كل منها بمجموعة معيّنة من المفردات حتى أن أية جملة يمكن أن تنتمي لمستوى أسلوبي واحد فقط . ويبدو ان وظيفة « مستويات الأسلوب » هي تحديد عـلاقات القـوة والتضامن بـين المتحدث والمتلقي ، وخـاصة لاقـامة جـدار من الرسمية السلوكية يحمي حياة المتلقي الداخلية الخاصة » ( على حد قول جيرتز ) . وكلما ارتقى مستوى الأسلوب زاد عدد الجدران لحماية المتلقي من أية محاولة للتدخل في خصوصيات حياته .

وهناك نقطة أخيـرة وهامـة عن الشواهـد اللغويـة الدالـة على القـوة والتضامن وخاصة ان هذه الشـواهد لا تقتصـر على تحـديد عـلاقات القـوة والتضامن ، بين المتحدث والمتلقي ولكنها أيضاً تحدد هذه العلاقة بين المتحدث وأي كيـان آخـر غـير المتلقي . ومن الأمثلة الـواضحـة عـلى ذلـك في اللغـة الانكليزية استخدام الأسماء الشخصية والتي سبق أن ذكرنا استخدامها كأسماء مخاطَبة ( كما في **بعد اذنك يا جـون / يا سيـد براون . .** ) . ويمكن استخـدام نفس المجموعة من الكلمات للدلالة على جون بـراون عندمـا لا يكون هـو المتلقي وتتحكّم نفس المجموعة من القواعد في اختيار صيغة المخاطَبة المناسبة .

وعلى ذلك ، لو نظر المتكلّم إليه على انه تابع أقرب close subordinate فسيشير إليه مستخدماً صيغة جون ، ( مثلاً ، **لقد رأيت جون أمس** ) ، بينما سيشير إليه بصيغة السيد براون Mr. Brown إذا كان يعتبره **رئيساً أعلى** ، وسيكون الأمر مربكاً لو كان الـمُشار إليه شخصاً يقع في منطقة وسيطة بين المنطقتين.

ومن الواضح ان مشكلة المفاضلة بين الصيغ المتاحة تكون أقل حدة إذا لم يكن الشخص المقصود حاضراً أثناء الحديث ، ومن الطريف ان الصيغ المستخدمة في لغة الناهوتال Nahuatl للاشارة لشخص غير حاضر تكون أقل احتراماً من الصيغ المستخدمة للاشارة إليه إذا كان حاضراً. ( هيل وهيل ١٩٧٨ Hill & Hill ). ويبدو انه من المستحيل أن يكون العكس صحيحاً بالنسبة لأية لغة من اللغات.

وهذه نقطة هامة تظهر ان علاقات القوة والتضامن بين المتحدث والمتلقي يمكن اعتبارها حالة خاصة لظاهرة أكثر عموماً ، وتختص هذه الظاهرة بعلاقات القوة والتضامن بين المتحدث والعالم بأسره. ويبدو ان اللغة تدفعنا ، بل تجبرنا ، بصفة دائمة على تحديد علاقتنا مع ما نتحدث عنه. فإذا تحدّثنا عن فردٍ بعينه فعلينا ان نحدد أنفسنا بالنسبة إليه من ناحية علاقات القوة والتضامن. وإذا كنّا نتحدث عن شيء بعينه فينبغي علينا أن ننتقي كلماتنا بشكل يعكس علاقاتنا مع صاحب هذا الشيء ( كما يحدث في اللغتين الجافينزية Javanese والناهوتال Nahuatl ). ولذلك يمكننا أن ننظر الى الشواهد اللغوية الدالة على القوة والتضامن على انها نموذج آخر لكيفية تحديد المتحدث لمكانته الاجتماعية في العالم الاجتماعي ( أنظر ٢ ــ ٦ ).

## ٤ ــ ٣ بُنية الكلام The structure of speech :

### ٤ ــ ٣ ــ ١ الدخول والخروج Entries and exits :

عندما يمكننا التعرف على أنماط متكررة بشكل منتظم في أي نوع من أنواع السلوك وتحديدها نستطيع عندئذ القول ان هذا السلوك ذو بُنية

خاصة. وغالباً ما تنعكس هذه البُنية في تلك الأنماط ، وليس من الصعب اثبات ان الكلام ذو بُنية خاصة حيث ان الاجروميات والمعاجم ممتلئة بالأنماط المتكررة من المفردات والجمل ، وما الى ذلك. ويبدو ان هذه الأنماط المتكررة المصغّرة في نطاق التركيب الواحدليست سوى جزء بسيط من البُنية الكاملة، حيث اننا نستطيع التعرف على أنماط أكبر حجماً وأكثر شمولاً مثل النمط المكون من سؤال وجواب. ويمكننا أيضاً التعرف على أنماطٍ أكبر حجماً من السابقة مثل قطعة من الحديث بين فردين تبدأ بتحية متعارَفٌ عليها وتنتهي بوداعٍ محدَد. ولكن المشكلة الحقيقية تكمن في التعرف على البُنية التدريجية التي يمكن تحديدها فيما هو أكبر من الجملة ( أي الخطاب ) .وسنعود لهذا السؤال في الجزء التالي بعد أن نلقي نظرة أولى على صيغ التحية والوداع ، وهي تمثّل أوضح الأمثلة على بُنية الكلام.

ومن الطبيعي أن نفترض ان كل لغة تشمل مجموعة من الصيغ تُستخدَم للتحية ومجموعة أخرى تُستخدَم للوداع ، وذلك لأهمية الدخول entries في الاتصال والخروج exit ( وقد أُستعيرتْ مصطلحات « الدخول » و « الخروج » من مصطلحات المسرح ( وتعكس حقيقة ما يُقال من ان دراسة معايير الكلام العادية يمكن مقارنتها بأدوار الممثلين على المسرح ). ويرى ارفينج جوفمان Erving Goffman رائد أبحاث « عمل الوجه » Face—work ( أنظر ٤ ــ ١ ــ ٤ ) ان التحية ضرورية لتبيّن للطرفين ان العلاقة القائمة وقت انتهاء المقابلة السابقة لم تتغيّر بعد ، بالرغم من فترة الانفصال ، وان الوداع ضروري كذلك لتحديد تأثير المقابلة الحالية على العلاقة ، وللكشف عمّا يمكن أن يتوقعه الطرفان عند لقائهم القادم ( جوفمان Goffman ١٩٥٥). وقد نكتشف من كل ذلك أهمية العلاقة بين المشتركين participants في أية عملية اتصالية ، ومن السهل علينا أن نرى أهمية أن يبدأ كل جزء من عملية الاتصال وينتهي كذلك بالاشارة الى العلاقة التي تربط بينهم. فبعد أن يكون المشتركون

قد حددوا علاقتهم المتبادلة عن طريق التحية ، يمكن لهم أن يبدأوا في المهمة التي ينبغي لهم أن يقوموا بها ، والتي قد لا تتعدى خمس دقائق من الحديث عبر سور الحديقة ، دون ان يلقوا بالاً أكثر مما يريدون للمحافظة على علاقتهم . وغالباً ما يكون الوداع في نهاية العمل أو المهمة نوعاً من اعادة التأكيد بان علاقتهم لم تتغيّر. وعلى ذلك ، يمكننا أن ننظر بطريقة مبسّطة للغاية الى بُنية أية قطعة من الاتصال أو التواصل على انها تتكون من ثلاثة أجزاء هي :

**التحية ــ المهمة أو « العمل » ــ الوداع**

وقد تختلف التحية والوداع اللتين سبق تعريفهما وظيفياً اختلافاً شديداً من حيث تعبيرهما عن الاخلاص والابداع . وإذا نظرنا الى جانب الاخلاص فيجب علينا أن نميّز أولاً بين التحية التي تتضمن قضية propositional greeting ( مثل ما أجمل ان ألقاك ! How nice to see you ) والتحية التي لا تتضمن قضية ( مثل **أهلاً Hello** ) . والتحية التي تتضمن قضية هي التي يمكن أن نصفها بأنها غير مخلصة بالرغم من ان التحية التي لا تتضمن قضية non—propositional greeting قد تصحبها مشاعر ، ( ويعبّر عنها بصفة خاصة من خلال التنغيم والنبرة ) لا يقصدها المتحدث بالفعل . ويمكننا تطبيق مثل هذا التمييز أيضاً على أنواع الوداع . وعلى ذلك ، فان التحية التي لا تتضمن قضية غالباً ما تكون محايدة وموجزة فهي مجرد تسليم بان المقابلة ( أي الاتصال ) قد بدأت . وإذا سلمنا بوجود هذه التحية المحايدة ، فاننا قد نتعجّب ، إذن ، لماذا يستخدم الناس النوع الذي يتضمن قضية دون ان يقصدوا ما يتضمنه . ولكن تفسير ذلك ليس بالأمر العسير. فالناس يحددون سلوكهم الاجتماعي بناء على نوعٍ من التنازل أو التوفيق بين ما يشعرون به بالفعل وما يعرفون انه متوقع منهم حتى يحافظوا على صورتهم لدى الآخرين دون تكلّف . وعلى ذلك ، فلو كان الفرد ( أ ) ، مثلاً ، غير مسرور عند رؤية ( ب ) ،

فليس من المعقول أن يقول له ذلك عند تحيته. ذلك ان من مصلحة ( أ ) أن يجعل ( ب ) يحبه ، وسيكون ( ب ) أكثر استعداداً لأن يحب ( أ ) لو تصور ان ( أ ) يحبه. ولذلك ، فَمِنَ السهل نسبياً أن نكون غير مخلصين عند التحية أو الوداع في أية مقابلة لأن هذه هي المراحل التي يكون المرء فيها أقرب الى الممثل الذي يردد دوره المحفوظ على المسرح.

وتختلف التحيات في درجة الابداع الشخصي التي تعكسها فالتحية لا تتضمن قضية أقل أنواع التحية من حيث درجة الابداع. ومن المهم أن نعرف انه يمكن استخدام عدد كبير من الصيغ والعبارات الجديدة غير عبارات التحية والوداع المعروفة والمحفوظة وذلك مثل **ألستَ صديقي فلان ؟** **Well, if it isn't my friend X !** **يا لها من فرصةٍ سعيدة** أو **ألم نتقابل في مكانٍ ما من قبل ؟** **Haven't we met somewhere before** وتعد مثل هذه العبارات أنواعاً من صيغ التحية بالرغم من انها بعيدة عن صيغ التحية المحددة والمعروفة. والمهم هو ادراك المخاطب للتحية على انها كذلك حتى يدرك ان مقابلة جديدة قد بدأت. وقد يعني ذلك في بعض المجتمعات التمسك بقائمة من صيغ التحية المحددة ومنها التحيات التي تتضمن قضية التي سبق ان ذكرنا منها مثلين ، بينما قد يعني ذلك في مجتمعاتٍ أخرى استخدام عبارات من نوعٍ معيّن ، مثل السؤال عن أين كان المخاطَب ، أو السؤال عن صحة أفراد أسرته واحداً تلو الآخر.

ما الذي يحدد إذن صيغة التحية أو الوداع ؟ بالطبع ، فان الاجابة على مثل هذا السؤال قد تختلف من مجتمعٍ لآخر ، ومن لغةٍ لأخرى ، ولكن هناك أنماط عامة واضحة ( أنظر فرجسون ١٩٧٦ Ferguson ). ومن الأمثلة على تلك الأنماط ان حجم التحية غالباً ما يتناسب مع طول الوقت الذي مضى منذ اللقاء الأخير ( فتحية صديق لقيته لأول مرة منذ عشر سنوات ستكون أطول بالطبع من تحية صديق رأيته بالأمس ) ، وستناسب حجم التحية أيضاً

مع أهمية العلاقة ( أعني انك ستحيي الصديق الحميم بحرارة واخلاص أكثر مما تحيي مجرد شخص تعرفه معرفة عابرة ) . وقد يقودنا تفسير جوفمان لدور التحية الى تصور ان التحية ستكون موجزة للغاية أو حتى منعدمة إذا التقينا بشخصٍ لأول مرة ، ويبدو ان ذلك صحيح : لاحظ انعدام التحية عندما نقترب من شخص غريب بغية الحصول على معلومات معينة . ونستطيع أن نتنبأ ( وغالباً ما سيكون هذا التنبؤ صحيحاً ) ان التحية تكون طويلة عندما تكون العلاقات بين المشتركين غير أكيدة ، ولذلك فهم يحتاجون الى قدر من اعادة تأكيد العلاقات .

ويبدو ان توقعات جوفمان تعتمد أساساً على الأسلوب الأمريكي في السلوك الاجتماعي ، لأن هناك على أقل تقدير مجتمعاً واحداً لا تنطبق عليه ملاحظاته ، وهم هنود الاباشي الذين قام ك . هـ . باسو K.H. Basso بدراستهم (١٩٧٠) . فبدلاً من استخدام صيغ التحية لتأكيد استمرار العلاقة على ما كانت عليه قبل الانفصال الأخير ، ينتظر هنود الاباشي حتى يتأكدوا ان العلاقات لم تتغيّر قبل ان يبدأوا في الكلام وخاصة في الحالات التي قد يكون لديهم فيها ما يدفعهم على الاعتقاد بان العلاقة قد تغيّرت كما يحدث عندما يعود الأطفال بعد أن يمضوا عاماً في مدرسة داخلية . وبينما يبدأ كثير من الأمريكيين والبريطانيين في الثرثرة مع أطفالهم فور مغادرتهم لحافلة المدرسة ، فان هنود الاباشي ينتظرون مدة خمس عشرة دقيقة دون ان ينبسوا بكلمة محاولين تقييم آثار عام مدرسي كامل على سلوك أطفالهم . ومعنى ذلك ان الاباشي لا يستخدمون صيغ التحية بالطريقة التي يتوقعها جوفمان ، ولكن سلوكهم يؤيد وجهة نظره القائلة بان الناس لابد وان يعرفوا كيف يشعرون ازاء الآخرين قبل أن يبدأوا بالكلام .

**٤ ـ ٣ ـ ٢ أنواع أخرى من البُنية في الكلام :**

أُجريتْ في الحقبة الأخيرة أبحاث كثيرة على ما يُطلق عليه بُنية النصّ

أو « الخطاب » Discourse Structure في الكلام ، أعني بُنية الكلام فيما يزيد عن تحليل التركيب الواحد ( أنظر كولتهارد Coulthard ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ الذي قدَّم عرضين وافيين ). ومن الواضح ان هناك أنواعاً من البُنىٰ المختلفة التي تربط بين التراكيب وتحوّلها الى نصوص مترابطة منطقياً coherent ولكن الاطار النظري الخاص بتحليل هذه الأنماط المترابطة ترابطاً منطقياً غير متوفر في الوقت الحالي. ولعل أهم ما يتّضح عن حقيقة بُنية « الخطابية » هو وجود عديد من البُنىٰ المتنوعة في الخطاب وأية محاولة لتحويل هذه الأبنية المتنوعة الى بناء واحد محاولة محكوم عليها بالفشل.

وتعتمد احدى هذه البُنىٰ على حقيقة ان الناس **يتناوبون** take turns عند الكلام ، وذلك في أنواع الاتصال لدرجة ان الخطاب يمكن تقسيمه الى أجزاء مفصّلة من الكلام يتناوبها أو يشترك فيه كل المتحدثين. وفي دراسة هذا الجانب من « الخطاب » discourse علينا أن نطرح أسئلة خاصة بنوعية هذه **الأدوار** turns فهل يتناوب المتحدثون أدوارهم أَم ان هذه الأدوار تتشابك وتتطابق مع بعضها البعض ؟ وكيف يوضّح المتحدث انه على وشك الانتهاء من الكلام ؟ وكيف يوضّح المتلقون انهم على وشك أن يبدأوا في الكلام ؟ ومن يحدد مَنْ الذي سيتكلّم في الدور التالي ؟ ومَنْ يقوم بمعظم الكلام ؟ مَنْ يتحدّث مع مَنْ ؟ , . . الخ . وقد أجرى علماء النفس الاجتماعي المهتمون أساساً « بدينامية الجماعة » group dynamics معظم دراساتهم في مجال الأبحاث الخطابية ( أنظر مجموعة مختارة من الأبحاث في ارجيل Argyle ١٩٧٣) وقد اتضح من هذه الأبحاث والدراسات ان التناوب في الكلام turn—taking نوع من النشاط غاية في المهارة. وكما سنرى فان هذا النشاط يتطلّب دراسة أنواع عديدة من السلوك بالاضافة للكلام ( مثل حركة العينين — eye movements ) وهذه الأنشطة كلها متناسقة ومتزامنة من ناحية التوقيت الدقيق ) كما تكون ردود أفعال المشتركين غاية في الدقة والانتظام.

وهناك نوع بعينه من بُنية « التناوب » في الكلام يمكن أن نطلق عليه اسم **الأزواج المتوازية** Adjaeency pairs ، وهو نوع من العبارات يطلقه أحد المتحدثين ويتطلّب اجابة بعبارة معيّنة من المتحدث الآخر. ومن أهم أنواع **الأزواج المتوازية** البُنية الذي يتكون من سؤال يتلوه جواب ، ولكن هناك أنواع كثيرة أخرى مثل تحية + تحية ، وشكوى + اعتذار ، ونداء + رد ، ودعوة + قبول ، الخ. وليس من الواضح إذا كان هناك أي اختلاف بين الأزواج المتوازية وبين أي نوع آخر من التناوب بين المتحدثين. ولكن هناك بعض العبارات تتطلّب بالضرورة رد فعل من المتلقي ، وعدم القيام بالرد المتوقع في مثل هذه الحالات يعد رد فعل ذو دلالة معينة ، فعلى سبيل المثال ، إذا ألقى ( أ ) التحية على ( ب ) ولكن الأخير لم يردها ، فان ذلك التصرف سيفهمه ( أ ) على ان ( ب ) لديه سبب معينٌ لعدم ردِّ التحية. ولكن الأنواع الأخرى من العبارات ليست بمثل هذا الوضوح. فغالباً ما يعقب **التحذير** warning نوع من الاستجابة من جانب المتلقي ، حتى ولو كانت هذه الاستجابة مجرد رفع لحاجب العين أو ايماءة من الرأس ، ولكن هذا النوع من اظهار الاستجابة ليس ضرورياً إذا وضح ان المخاطب قد سمع التحذير. وهناك في الجانب الآخر أنواع أخرى من الكلام مثل المحاضرة الجامعية حيث يكون ردّ الفعل من المتلقي محدوداً للغاية. وينبغي علينا أن نذكر ان الدراسات الخاصة بالأزواج المتوازية لم تدرس بعد المشكلات النظرية الخاصة بتحديد أنواع الأزواج المتوازية ، وبدلاً من ذلك قامت هذه الدراسات بمناقشة استخدام أنواع من الأزواج ، مثل النداء + الردّ ( شيجلوف Schegloff ١٩٦٨).

وهناك أيضاً نوع آخر من البُنية في بناء « الخطاب » وتعتمد هذه البُنية أولاً وأخيراً على **الموضوع** Topic ، أي موضوع الخطاب ومن الواضح انه لا توجد علاقة بين « التناوب » في الحديث والموضوع لأن المتحدثين كثيراً ما يغيِّرون الموضوع خلال تناوبهم الأدوار. ومن السهل أن تتصور أن البُنية

القائمة على موضوع الخطاب بُنية تدريجية hierarchical structure أي اننا نستطيع تحليل الخطاب الى وحداتٍ أصغر فأصغر ، وذلك اعتماداً على بُنية الموضوع في الخطاب. ويدعم مثل هذا التصور البُنية السائدة في النصوص المكتوبة التي اعتاد عليها معظم المثقفين ( مثل قرّاء هذا الكتاب ). ويمكن ، على سبيل المثال ، التعرف على البُنية التدريجية التي تعتمد على الموضوع topic في هذا الكتاب ، فبُنية بُنية تدريجية واضحة للغاية ، تكون الفصول فيها أكبر الوحدات حجماً ، ثم الأقسام الرئيسة ، ثم الأقسام الثانوية ( أعني القسم الثانوي الحالي وهو القسم ٤ ــ ٣ ــ ٢) ثم الفقرات ، وأخيراً التراكيب. ويحدد كل هذه الوحدات نوع أو آخر من العرف الطباعي والكتابي. وعند فرض هذه البُنية على كتابنا الحالي ، حاولت أن أجعل هذه البُنية تعكس الموضوعات التي يقدمها الكتاب ، ولذلك تعد هذه الجملة مثالاً على نوع البُنية ، وهي جزء من هذه الفقرة ، التي هي بالتالي جزء من هذا القسم الثانوي الذي يتناول أنواع بُنية « الخطاب » هذا بالاضافة الى الدخول والخروج وهما جزءان آخران من هذا القسم الذي يُعالج بُنية الخطاب ، ويعد كل هذا جزءاً من الفصل الخاص بدراسة الكلام باعتباره نوعاً من التعامل الاجتماعي.

وقد ادعى كثير من الباحثين انهم يستطيعون اكتشاف مثل هذه البُنية التدرجية في أنواع أخرى من الخطاب منها المكتوب والمنطوق. فقد قام جون سينكلير John Sinclair ومالكولم كولتهارد Malcolm Coulthard (١٩٧٥) بتحليل عدد من الأشرطة التي سجل عليها عدد من الحصص الدراسية في المدارس الثانوية ، واستطاعوا التعرف على « بُنية تدرجية الخطاب » hierarchical discourse تبدأ بأكبر « وحدة » وهي « الحصة » lesson ثم « التعامل » transaction ثم « التبادل » exchange ثم « الحركة » move ثم تأتي في النهاية « الفعل » act الذي يتطابق بالكاد مع الوحدات التركيبية « الجملة الأساسية »

clause ( أنظر كولتهارد Coulthard **١٩٧٥** الذي يقدم عدداً من الاقتراحات الأخرى لتحليل الخطاب تحليلاً تدرجياً ). وأيٍ كانت درجة اقتناعنا بهذه المقترحات ، فمن الواضح انه لا توجد أي بُنية تدرجية في أنواع معينة من الاتصال الاجتماعي حيث يتغيَّر الموضوع أو يتبدل تدريجياً الى موضوع آخر دون تحديد واضح ، فربما يبدأ الحديث مثلاً عن فيلم عن تربية الأغنام في ويلز ، وقد يقودنا ذلك الى موضوع عن تجربة كلاب رعي الأغنام التي رآها أحدهم في اجازته ، ومن هناك الى تفاصيل أكثر عن الاجازة ومقارنة بين تلك الاجازة في ويلز واجازة أخرى سبق ان أمضاها صاحبها في يوغسلافيا ، الخ . . . وبالاضافة الى ذلك ، لا يبدو ان المشتركين في مثل هذه الأحاديث ، يتبعون خطة واضحة مسبقة لتحديد المسار التي ستتخذه المحادثة في النهاية ، الأمر الذي يبدو موجوداً بشكل ضمني في اطار فكرة البُنية التدرجية للكلام . ومن ناحية أخرى ، يميل المتحدثون الى متابعة الحديث في نفس الموضوع ، وقد يشعرون بأنهم ملتزمون باعطاء اشارة خاصة تبيّن انهم سيغيّرون الموضوع ( ومن هذه الاشارات ، مثلاً ، **وبالمناسبة** ، **أو ذلك الموضوع يذكّرني بموضوع مختلف تماماً** . . . ). ويبدو ان السبب في ميل المتحدث الى الكلام في نفس الموضوع ، أو عدم الابتعاد عن الموضوع الرئيس إلاّ بشكل تدريجي ، هو ان ذلك يزيد من فرص اهتمام المشتركين بما يُقال ، لأنه يزيد من احتمالات فهم المشتركين للخطاب ، لأننا نملك حصيلة ضخمة من المعلومات عن العالم في أي موضوع ، ونستطيع أن نحسن استغلالها كمتحدثين أو متلقين . والمتحدثون الذين يحافظون على موضوع واحد يفترضون ان الجميع يعرفون مهاد موضوع الحديث . وعلى سبيل المثال ، إذا كنّا على علم باننا نتحدث عن الاجازة التي قضاها أحدنا في العام لماضي ، فان المتحدث يستطيع أن يقول ببساطة « **لقد كان الطعام مخيباً للآمال** » ، وسنفهم جميعاً أي طعام يقصد ( أي الطعام الذي تناوله في الفندق الذي أقام

فيه أثناء اجازته ، ونستطيع أيضاً أن نخمّن المعيار الذي يحكم به على هذا الطعام ( أي انه معيار مختلف عن المعيار الذي يستخدمه الفرد للحكم على الطعام الـمُقدَم له في مطعم جامعي ، مثلاً ) . وإذا كان موضوع كل جملة يختلف عن موضوع الجملة السابقة لها ، لما أمكننا أن نسلِّم بمثل هذه المعلومات . وبايجاز ، يمكننا القول بان المحافظة على موضوع واحد يجعل الكلام عملية سهلة بالنسبة للمتحدث والمتلقي . ( ومن أجل مناقشة ذكية لهذا النوع من « المعرفة المشتركة » Shared knowledge أطلب الى القارىء أن يرجع الى الأبحاث المتزايدة في مجال الذكاء الاصطناعي ، وبصفة خاصة شانك وابلسون ١٩٧٧ Schank & Abelson ) .

والخلاصة التي يبدو اننا ننتهي إليها في مسألة البُنية التي تعتمد على الموضوع ان بعض أنواع الخطاب قد تكون ذات بُنية تدرجية ، وخاصة إذا كانت لدى المتحدث فرصة للتخطيط للخطاب بأكمله قبل أن يبدأ حديثه ( كما هو الحال عند كتابة كتاب أو القاء محاضرة ) ولكن غالباً ما تكون معظم أنواع الخطاب ذات بُنية فضفاضة وغير متماسكة الى حدٍ كبير . وهذه النصوص تتميّز بتغيّر الموضوع فيها بين آونةٍ وأخرى ، وتتكون فحسب من الموضع « **الراهن** » المطروح في لحظةٍ بعينها . وعلى ذلك ، يستطيع الدارس أن يتتبع كيفية تغيّر الموضوعات في الخطاب من آنٍ لآخر سواء تم هذا التغيّر فجأة أو بشكلٍ تدريجي .

وهناك نوع ثالث من بُنية الخطاب يعتمد على ما نعرفه عن بُنية العالم من حولنا ، وهذا النوع من البُنية هو ما نطلق عليه البُنية المعرّفة الموسوعية encyclopedic structure . وقد يساعدنا ذلك على تحديد ما سبق ان أطلقنا عليه « الموضوع الراهن » . فلو كان الموضوع الراهن هو الاجازة ، فنحن نعلم مسبقاً ان هناك عدداً من الموضوعات الفرعية الوثيقة الصلة بموضوع الاجازات مثل الاقامة والجو والأنشطة المتاحة . ويمكننا اعادة تقسيم كل من هذه

الموضوعات ، فالأنشطة التي يمكن مزاولتها تتضمن السياحة الداخلية والسباحة وأنواع أخرى من الرياضة والحياة الليلية والتسوق. ويمكن أيضاً أن تتداخل في هذه الموضوعات الفرعية موضوعات فرعية أخرى مفسدة بذلك النظام التدرجي الأنيق لـبُنية النصّ ، فيمكن مثلاً أن يتداخل « الطعام » مع « الاقامة » أو « الأنشطة الأخرى » لأننا نستطيع تناول الطعام سواء في الفندق أو في المطاعم ، خارجه ، وإذا ضربنا مثالاً مختلفاً نجد ان بامكاننا ، عند وصف « شقة » ، استخدام نوعين من « المعرفة الموسوعية ». فيمكننا ان نتخذ وجهة نظر المهندس المعماري وان نصفها من وجهة نظر ثابتة : « **بها أربع حجرات مكونة مربعاً** . . . » ويمكننا أيضاً أن نتخذ وجهة نظر زائر الشقة ونحن نقوده في جولة بها : « **تدخل أولاً الى البهو ثم تدخل في الممر الذي يقع الى يسارك** . . . » ومن الغريب ان غالبية الناس يتخذون وجهة النظر الثانية ، وذلك استناداً الى نتائج ليند ولابوف Linde & Labov (**١٩٧٥**) في الدراسة التي قاما بها.

وليس هناك أدنى شك في امكانية الكشف عن أنواع أخرى من الـبُنية في الخطاب بالاضافة الى أنواع الـبُنية التي سبق ان عرضنا لها ، والتي تعتمد على « تناوب الأدوار » و « الموضوع » و « المعرفة الموسوعية ». ولابد أن يكون قد اتضح لنا من هذا العرض انه لا يمكن أن نحول كل هـذه الـبُنىٰ الى بُنية من نوعٍ واحد لأن بُنية الخطاب خليط معقّد ومركّب من المعايير الكلامية والمعلومات العامة عن العالم من حولنا. ومن الصعب ان نتصوَّر امكانية دراسة بُنية الخطاب دون منهج يعتمد على عدد كبير من العلوم المختلفة.

### ٤ ـ ٤ السلوك الكلامي والسلوك غير الكلامي :

**Verbal and Non — Verbal Behaviour**

#### ٤ ـ ٤ ـ ١ شواهد العلاقات : Relation Markers

سنحاول في هذا القسم ان نعرض للعلاقات الموجودة بين السلوك

الكلامي وبين السلوك غير الكلامي في التعامل الاجتماعي . وقد قال عالم اللغة دافيد ابروكرومبي David Abercrombie باننا نتكلّم بأعضائنا الصوتية ، ولكننا نتحدث بكل أجزاء جسمنا ( ابروكّرومبي ١٩٦٨ Abercrombie ) . وسنحاول ان نوضح في هذا القسم ، الى أي حد ، يعد ذلك الكلام صحيحاً . فالسلوك غير الكلامي يرتبط بجانبين من جوانب الكلام التي نبحثها في هذا الفصل ــ تحديد العلاقة بين المتحدث والمتلقي ، وتحديد شواهدها ( ٤ ــ ٢ ) وتحديد بُنية الخطاب ( ٤ ــ ٣ ) كما يرتبط أيضاً بتوصيل « مضمون » الخطاب أي القضايا والمدلولات .

ومن أوضح جوانب السلوك غير الكلامي التي قد تساعدنا على فهم علاقات القوة والتضامن دراسة المسافة التي تفصل شخصاً ما عن الآخر ، وقد تطورت الدراسات الخاصة بذلك الموضوع حتى صار لها اسم خاص هو « علم التجاورات » Proxemics وليس من الصعب ان نتصور ان المسافة المادية التي تفصل بين شخصين تتناسب مع المسافة الاجتماعية في كل الثقافات ، وبالتالي فان الذين يشعرون بتقاربهم الروحي سيقتربون من بعضهم بعضاً نسبياً عند التعامل ، وبذلك تقع علاقات المحبين في جانب وتقع في جانبٍ آخر المواقف غير الشخصية والرسمية حيث تكون المسافة الفاصلة بين المتحدث والمتلقي مسافة كبيرة كما هو الحال في المسرح ، أو تصل الى عدم القدرة على رؤية المتحدث كما هو الحال في المذياع والتلفزيون . وتتمثّل الاختلافات بين الثقافات المختلفة بتحديد المسافة التي تتلاءم مع درجة معيّنة من التضامن . فالمسافة التي يحددها العرب ــ مثلاً ــ غالباً ما تكون أقصر من المسافة التي يحددها الأمريكيون . وقد أُجريت لتدعيم هذا الادعاء أبحاث للمقارنة بين الطلاب العرب والطلاب الأمريكيون في جامعة أمريكية . ( واتسون وجرايفز ١٩٦٦ Watson & Graves ) . في هذه الدراسة طُلِبَ من الطلاب أن يتحدثوا سوياً في أزواج في غرفة يمكن ملاحظتهم فيها دون

علمهم ، وقد تمَّ تسجيل حركاتهم ودرجة اقترابهم من بعضهم بعضاً عند الجلوس واتجاه أجسامهم ومقدار نظرهم الى بعضهم بعضاً ومقدار ارتفاع أصواتهم ، ومقدار تلامسهم.

وقد تمت دراسة ١٦ طالباً عربياً و١٦ طالباً أمريكياً بهذا الأسلوب حيث خاطب العرب والأمريكيون الأمريكيين. وعند مقارنة النتائج وُجِدَ ان العرب يواجهون بعضهم بطريقة أكثر مباشرة من الأمريكيين... وانهم يقتربون من بعضهم في جلوسهم أكثر من الأمريكيين وانهم أكثر استعداد لملامسة بعضهم بعضاً. والنظر مباشرة في عيون بعضهم بعضاً... وتخاطبوا بصوت أعلى من أمثالهم من الأمريكيين.

وقد تضمنت هذه التجربة عدداً من المتغيّرات غير المسافة كلها متغيّرات تشترك بطريقة أو أخرى في تحديد علاقات القوة والتضامن بين الأفراد. وقد تؤدي مثل هذه الاختلافات الثقافية بين الأمريكيين والعرب الى سوء تفاهم شديد بين الطرفين. ويجب على القارىء المهتم بهذه المسألة أن يرجع الى كتاب أدوار ت. هال Edward T. Hall مؤسس علم التجاوزات Proxemics اللغة الصامتة The Silent Language (هال ١٩٥٩).

**٤ ـ ٤ ـ ٢ شواهد البُنية Structure Markers :**

قد يساعدنا السلوك غير الكلامي على تحديد بُنية الاتصال. والأنواع الرئيسة للبُنية التي سبق أن عرضنا لها (٤ ـ ٣ ـ ١) وهي أنماط السلوك المرتبطة بالدخول والخروج حيث يكون السلوك غير الكلامي منمّطاً بوضوح مثله مثل السلوك الكلامي. وتعد بعض جوانب السلوك غير الكلامي منمّطة بوضوح مثل السلام بالأيدي ، والذي يحل محله في بعض الثقافات حك الأنف أو تكمله في ثقافات أخرى الأحضان والقُبَل حسب العلاقة الموجودة بين المشتركين. ويبدو ان السلام بالأيدي في بريطانيا يعد اشارة على اعطاء العلاقة بداية جديدة بدلاً من الاشارة الى وثاقة العلاقة. ولذلك ، فغالباً

ما يُستخدم السلام بالأيدي للتصالح بين الأصدقاء بعد القطيعة أو العراك. أو عند التعارف على غريب لأول مرة أو عندما يرى الفرد شخصاً لم يره منذ أمدٍ طويل.

وتختلف قواعد السلام باليد بالنسبة للثقافات الأخرى ، ولذلك نجد ان هناك قَدَراً من النسبية في المعايير المتحكمة في أنماط السلوك. وهناك مثال طريف على الاختلافات الموجودة بين عادات البريطانيين وعادات الولووف ( السنجال ) عند تحية جماعة من الناس فيقتصر السلوك غير الكلامي في بريطانيا على ايمائه بين الحين والآخر لبعض أفراد الجماعة ، بينما توجه التحية الكلامية للجماعة ككل ، في حين يوجه الولووف التحية المناسبة ، الكلامي منها وغير الكلامي ، لكل فرد من أفراد الجماعة على حدة ( ارفين Irvine ١٩٧٤ ).

وبالاضافة الى الدخول والخروج تعد الاشارات التلقينية غير الكلامية Non—verbal cues هامة للغاية بالنسبة لبُنية الخطاب ، وذلك من جهة « التناوب » في الحديث turn—taking.

وكما سبق ان رأينا في (٤ ــ ٣ ــ ٢) فان أحد الأسئلة التي يجب ان نطرحها عن التناوب عند الحديث هو كيف يشير المتحدث الى انه على استعداد للتوقف عن الكلام والسماح للآخرين بالبدء في الكلام ومن أهم الاشارات التلقينية في مثل هذه الحالات « حركة العينين » eye—movement وقد اتضح من الدراسات اننا عادة ما ننظر في عيني المتكلّم ، حين نستمع لفترات أطول مما نفعل عندما نتكلّم ، ولذلك فاننا عندما نكون على أهبة الاستعداد للانقطاع عن الكلام ( ونبدأ في الاستماع ) ننظر في عيني المتلقي توقعاً لدورنا التالي كمتلقين. وعلى العكس ، فان المتلقي ينظر الى أسفل عندما يكون على وشك أن يبدأ في كلامه انتظاراً لتغيير دوره من متلقٍ الى مخاطب. ( ارجيل ودين Argyle and Dean ١٩٦٥* وكندون Kendon ١٩٦٧ ) وليست حركة العيون هي الاشارة الوحيدة التي تدل على تغيير وشيك للدور ،

ففي بعض المؤسسات ( مثل المدارس والمؤتمرات والبرلمانات ) توجد اشارات نمطية رسمية لتغيير الدور ، وذلك مثل رفع الأيدي عندما نرغب في الكلام. وهناك أيضاً اشارات أقل درجة من حيث النمطية الرسمية وذلك مثل التحرك للأمام في المقعد ، أو التململ في الجلسة ، أو السعال لتمهيد الحنجرة للكلام. وهناك أيضاً وسائل لمجابهة مثل هذه الاشارات ، وذلك إذا لم يرد المتحدث التوقف عن الكلام ، مثل تعمد النظر بعيداً عمن يطلب الكلمة حتى لا يتمكن الثاني من أن يلفت نظر الأول.

**٤ ــ ٤ ــ ٣ شواهد المضمون Content Markers :**

ونأتي في النهاية الى استخدام السلوك غير الكلامي للدلالة على مضمون الخطاب ، وهناك أمثلة واضحة لهذا النوع من الاشارات في معظم الثقافات ، وذلك مثل استخدام حركة الرأس للدلالة على اجابة « بنعم » أو « لا » ، وهناك اختلافات ثقافية في أنواع ايماءات الرأس المُستخدَمة لكل من هذين المعنيين فبعض الثقافات ( مثل أوروبا الغربية والولايات المتحدة ) تُستخدَم الحركة من أعلى الى أسفل للدلالة على « نعم » أما الثقافات الأخرى ( مثل شرقي البحر الأبيض المتوسط ) فتستخدم الحركة من أسفل الى أعلى ، بينما تستخدم شبه القارة الهندية حركة مائلة أو دائرية ولكن يبدو ان استخدام حركة الرأس للدلالة على « نعم » أو « لا » واسعة الانتشار الى درجة انه يمكننا افتراض انها اشارة « شمولية » بالرغم من صعوبة معرفة السبب في ذلك.

وهناك أيضاً حركات أخرى كثيرة تساعدنا على الاشارة الى المضمون. فبعض الناس قد يستخدمون أصابعهم للعد والاحصاء وتعد بعض المجتمعات العد على الأصابع وسيلة متعارف عليها لاظهار العدد. وتوجد في الواقع اختلافات بين قبائل شرق أفريقيا في قواعد العد على الأصابع وهذه الاختلافات تعتمد على نقطة بداية العد وهل تبدأ العد من الابهام أَم من الخنصر. ( اوموندي ١٩٧٦ Omondi ) ، وهناك أيضاً اختلافات أخرى بين هذه القبائل في الحركات المستخدمة للدلالة على طول الطفل ، وذلك

حسب اتجاه كف اليد ، الى الأعلى أَم الى الأسفل ، على رأس الطفل ( فبعض هذه القبائل يعتقد ان ذلك قد يؤثر تأثيراً ضاراً على نمو الطفل نمواً طبيعياً ) .
ولكل ثقافة مجموعة من الحركات الجسدية خاصة بها ، للتعليق على الناس والأشياء مثل الحركات المختلفة في الثقافة البريطانية والمقصود منها مثلاً الدلالة على ان شخصاً ما قد **فَقَدَ عقله** أو ان **الطعام مناسب**. وينبغي علينا ألاّ ننسى حركات الاشارة المستخدَمة ( والتي تُستخدَم فيها أصابع مختلفة في مجتمعات مختلفة ، والمرتبطة دائماً باستخدام أسماء الاشارة مثل **هذا** أو **ذاك** و **هنا** و **هناك** .
ومن النادر أن نستخدم التعارض القائم بين هذا وذاك في نفس الجملة ( مثل ان **هذا** أكبر من **ذاك** ) دون استخدام واحدة من الحركات الاشارية الايضاحية المصاحبة حتى لو كانت هذه الاشارة مجرد ايماءة باتجاه الشيء المقصود.

وليس من الصعب أن نقارن بين المتحدث وقائد الفرقة الموسيقية الأوركسترالية الضخمة المكونة من عدد متنوع من أعضاء الكلام والأعضاء المرئية الأخرى في جسمه والتي ينبغي عليه التحكّم فيها. فالاداء الجيد يقتضي من القائد القدرة على التنسيق بين كل هذه الأعضاء ، أيّاً كانت سرعة الاداء ، وأيّاً كان عدد الأعضاء المشتركين في الاداء في أية لحظة من اللحظات . ولكن مهمة المتحدث مهمة أكثر صعوبة من مهمة قائد الفرقة الموسيقية لأن عليه أن ينسّق بين ادائه واداء قادة الفرق الأخرى في نفس اللحظة التي يقوم كل منهم فيها بقيادة فرقته الخاصة (أي مع المشتركين الآخرين في الكلام). وليس من الغريب ان نتصوَّر ان الناس يفضلون القيام باداء الأدوار المحفوظة والقطع الجاهزة التي سبق اعدادها ، وذلك بدلاً من الارتجال الفوري الذي يشبه موسيقى الجاز. وليس من الغريب إذن ان دراسة الكلام ما زالت في بدايتها .

# ـ الدراسة الكمية لكلام



## ٥ ـ ١ مقدمـة :

### ٥ ـ ١ ـ ١ ـ مدى ومجال الدراسات الكمية للكلام :

يعتبر بعض العلماء علم اللغة الاجتماعي الدراسات التي سنعرض لها في هذا الفصل من صميم دراسات علم اللغة الاجتماعي ( أنظر ، مثلاً ، تردجيل Trudgill ١٩٧٨ : ١١) بالرغم من ان الدراسات التي سبق ان قدّمناها في الفصول السابقة لا تقل من حيث الأهمية أو القيمة عن الدراسات التي سنعرض لها في الفصل الحالي. وترتبط نشأة الدراسات الكمية للكلام وتطورها بنشأة علم اللغة الاجتماعي ذاته وتطوره ، ويعتقد كثير من علماء اللغة الذين يهتمون أساساً ببُنية اللغة ان هذا الجانب من علم اللغة الاجتماعي ، وأقصد الدراسات الكمية للكلام ، يسهم اسهاماً كبيراً في تحقيق غايات علم اللغة العام ، وتتلخص أهمية هذه الدراسات في تقديم مادة علمية جديدة لابد من وضعها في الاعتبار عند صياغة النظريات اللغوية المعاصرة وتقديمها. ويبدو ان الدراسات الكمية للكلام ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعلم اللغة النظري لأنها تتطلّب اهتماماً خاصاً بجوانب اللغة ذاتها مثل الأصوات وصيغ المفردات وبُنية التعبيرات ــ وهذه الجوانب يعتبرها علماء علم اللغة النظري مادتهم العلمية الأساسية. وقد سبق أن قمنا في الفصل الثاني بمناقشة مفهوم « نوعية الكلام » speech variety والذي يشتمل على مفاهيم اللغة language واللهجة dialect وسجل السياق register ، ولكن هذه الأفكار والمفاهيم لا تمثّل أية مشكلة بالنسبة لعلماء علم اللغة النظري ، ولذلك فهي ليست هامة. وقد سبق ان بحثنا في الفصل الثالث العلاقة بين اللغة والثقافة والفكر ، وهو مجال تعوّد علماء علم اللغة النظري على تركه لعلماء الانثروبولوجيا وعلماء النفس. أما الفصل الرابع فقد تناول بحث بُنية الخطاب والنص discourse ، وقد وضّحنا في هذه الدراسة ان المتحدث يلائم وينسّق بمهارة شديدة بين خطابه ومتطلّبات السياق أو الموقف. ولكن جوانب الكلام التي تناولناها حتى الآن هي تلك الجوانب التي غالباً ما يُطلق عليه هؤلاء العلماء اسم بُنية اللغة language structure وذلك مثل صيغة المنادي vocative والتحيات greeting وصيغ الضمائر البديلة alterantive pronoun forms الخ ، ذلك فضلاً

عن السلوك غير الكلامي ، الذي يعتبر بدوره غير ذي موضوع بالنسبة لعالم اللغة النظري ، ولأسباب تاريخية عارضة ركّز علماء اللغة دراستهم على اللغتين الانكليزية والفرنسية وكِلتاهما لا تعطي أهمية لشواهد بُنية الخطاب Discoures markers بالمقارنة ببقية النظام اللغوي على النقيض من معظم اللغات الأخرى غير المألوفة والتي سبق أن رجعنا إليها. وبالرغم من ذلك ، يعتقد كثير من علماء اللغة ان مهمتهم الأساسية تتلخص في وضع الاجروميات المناسبة للغات مثل الانكليزية والفرنسية وذلك دون الالتفات الى شواهد الخطاب والنصّ Discourse markers التي يعتقدون ان دراستها يجب أن تقتصر على المتخصصين في مجال تحليل الخطاب discourse specialists دون غيرهم.

وسنتناول بالبحث في الفصل الحالي الدراسات التي تعتمد الى حدٍ كبير على المادة العلمية المأخوذة من اللغة الانكليزية ( وخاصة اللغة الانكليزية غير المتواضع عليها ) والتي تختص بدراسة التباين variation القائم في صيغ المفردات والعبارات. ومن الأمثلة على ذلك ان بعض المتحدثين لا ينطقون صوت [ h ] في كلمات مثل **house** و **hit** ، وذلك على عكس متحدثين آخرين ينطقون هذا الصوت في هذه الكلمات ، وبالتالي فهناك مجموعتان من المتحدثين يتحدثان نظامين لغويين مختلفين ، يتضمن أولهما عنصراً ( قد نود ــ أو لا نود ــ لأسباب نظرية أن نطلق عليه لفظة « وحدة صوتية مجردة » phoneme وهو الصوت [ h ] بينما لا يتضمن النظام الثاني مثل هذه الوحدة الصوتية. أما بالنسبة لمعظم المتحدثين فان الصوت [ h ] يختفي أحياناً ، ويظهر أحياناً ، فهو يظهر أحياناً في مثل كلمة **house** بينما لا يظهر في أحيان أخرى. ماذا نستطيع إذن عن هذه الأنظمة اللغوية ؟ وكيف نفسّر ظاهرة ظهور الصوت [ h ] أحياناً في كلمات مثل **apple** في حين ان الذين ينطقون الصوت [ h ] في كلمتي **hit** و **house** دائماً لا ينطقونه في هذه الكلمة ؟ وهناك أيضاً دراسات مماثلة عن القواعد المستخدمة في النفي. فبعض

المتحدثين يستخدمون حرف النفي بعد أشباه الجمل الاسمية النكرة وهي تتضمن any كما في I didn't eat my apples أما بالنسبة للآخرين فهي تتضمن حرف النفي no مثل I didn't eat no apples بينما يستخدم معظم المتحدثين كلاً من هاتين الصيغتين تبادلياً ، ففي بعض الأحيان يستخدمون الصيغة الأولى ، ولكنهم يستخدمون الصيغة الثانية في أحيان أخرى. فما هي العلاقة إذن بين اجروميات هؤلاء الناس ؟ وما هي الاختلافات الدقيقة بينهم ، وهل يختلفون ، مثلاً ، في استخدام الصيغ الصرفية أم في استخدام التراكيب أم الدلالات ؟ وكيف نفسّر إذن ظاهرة تبادل النظامين عند بعض الناس ؟ ومن الواضح ان مثل هذه الأسئلة المطروحة من صميم موضوع علم اللغة النظري .

وتعتمد الدراسات التي سنعرض لها في هذا الفصل اعتماداً كلياً على دراسة اللغة المنطوقة لا اللغة المكتوبة ( بالرغم من انه قد طُلب أحياناً من المتحدثين ان يقرأوا نصوصاً مكتوبة ومنها ، على سبيل المثال ، قوائم الكلمات ). والغرض من ذلك التعرّف على اللغة اليومية للناس العاديين ، وتعد مثل هذه الدراسات ردّة فعل للاتجاه المثالي والتبسيطي idealization الذي تتميّز به الاجرومية التوليدية التحويلية ( من أجل تقييم نقدي للاجروميات التوليدية التحويلية أنظر لابوف ١٩٧٢ ــ أ : الفصل الثامن ). وكما سنرى فيما يلي فان هدف هذه الدراسات من الصعب تحقيقه في الممارسة الفعلية ، وقد تعد هذه الدراسات من بعض وجهات النظر مجرد امتداد للدراسات الدقيقة التي قام بها علماء اللهجات dialectologists ( والتي عرضها سانكوف Sankoff في ١٩٧٣ ــ أ ) وعلماء الصوتيات phoneticians .

ويركّز الباحث اهتمامه ــ كما فعل في دراساته السابقة ــ على قائمة من المتغيرات اللغوية linguistic variables ، وهي مجموعة من العناصر اللغوية التي نعلم سلفاً أن لها أشكالاً وصيغاً متباينة ، مثل المفردات التي تُنْطَق بطرق مختلفة ( مثلاً house بدون [ h ] أو بها و either سواء بدأت بـ [ i : ] أو [ ai ]

وهكذا. ولكل متغيِّر مجموعة من البدائل variants أي الصيغ والأشكال البديلة المستخدَمة. وعلى الباحث أن يفحص كل النصوص التي جمعها محدداً كل البدائل المستخدَمة لكل متغيِّر في قائمته، مسبقة التحديد.

والهدف من دراسة هذا الفرع من علم اللغة الاجتماعي شبيه بالهدف من دراسة جغرافيا اللهجات dialect geography وهي دراسة مقارنة comparative أي انها تقارن النصوص بعضها بعضاً، بدلاً من القيام بتحليل شامل لكل نصّ على حدة دون الرجوع الى النصوص الأخرى. وبهذا يصبح كل متغيِّر مسبق التحديد بُعداً مستقلاً نستطيع من خلاله مقارنة جميع النصوص. وقد يكون لدينا، على سبيل المثال، حوالي مائة تسجيل صوتي لأناس مختلفين يتكلمون في نفس الموضوع أو الموقف، وقد تكون لدينا قائمة مكونة من عشرة متغيّرات لغوية نعلم جيداً انها ستوضّح البدائل المختلفة المستخدمة في هذه النصوص المسجلة. وعند فحص النصوص للتعرف على البدائل المختلفة لكل متغيِّر، يمكننا تصنيف هذه النصوص تبعاً لاستخدام هذه البدائل. ويمكننا عندئذ التمييز بين النصوص التي تتضمن [ h ] في كلمات مثل **house** وبين النصوص التي لا تتضمنها، وكذلك التمييز بين النصوص التي تتضمن كلمة **any** بعد صيغة النفي أو النصوص التي تستبدلها بـ **no**، وهكذا (وسيتضح في القسم **٥ ــ ٣** ان هذه التمييزات ليست واضحة للغاية، ولكن يمكننا أن نتجاهل هذه التعقيدات الآن على الأقل). وتشبه هذه التجمعات في وظيفتها خطوط توزيع اللهجات isoglosses التي يستخدمها دارسو اللهجات الجغرافية dialect geographers (**٢ ــ ٣ ــ ١**)، فهي تشبه خطوط توزيع اللهجات من جهة انها خطوط **لا تلتقي أبداً**. ومعنى ذلك، انه من غير المحتمل ان تقع كل النصوص بدقة في نفس المجموعات التي تنتمي لمتغيرات تحتوي على نفس البدائل، مثلما يكون من الصعب ان يتبع خطان من خطوط توزيع اللهجات نفس المسار.

( ويمكننا بالطبع أن نجعل المجموعات المختلفة تتطابق باختيار نصوص من لغتين مختلفتين ، مثل الانكليزية والفرنسية ، وبانتقاء المتغيِّرات التي تميّز هاتين اللغتين ، ولكن المناهج التي سنعرض لها هنا لا تستخدم مثل هذه الطريقة ، وذلك لأنها لا تحتاج لمثل هذه التقسيمات الشاملة وغير الدقيقة ) .

وينبغي ان يكون قد اتضح لنا ان هذه الطريقة في دراسة المتغيِّرات اللغوية في النصوص هي الطريقة المناسبة النابعة من المنظور الذي عرضنا له في الفصول السابقة من هذا الكتاب ، وهو المنظور الذي ظهر منه ان المتحدثين ينتقون الصيغ اللغوية التي يستخدمونها حتى يحددوا مواقعهم ، وذلك في حيّز اجتماعي مركّب ومتعدد الأبعاد. وقد سبق ان عرضنا كثيراً من الأمثلة لعدد كبير ومتنوع من المتغيرات اللغوية التي تعكس العديد من التعارضات والتناقضات الاجتماعية. ويمكننا القول ، على سبيل المثال ، ان كل المفردات في الجملة التالية **John'll be extremly narked** عدا الفعل المساعد **be** ، ترتبط ببعد مختلف في هذا الحيّز الاجتماعي. فاستخدام الاسم الأول **John** ( بدلاً من استخدام **Mr. Brown** ) يحدد مكانة المتحدث بالنسبة لـ **John** واستخدام **'ll** بدلاً من **will** يحدد الموقف على متواصل الشائع الرسمي casual form بانه غير رسمي ، أما استخدام **extremly** فهي تحدد مكانة المتحدث ( على ما اعتقد ) على متواصل متعلّم ــ غير متعلّم ، أما كلمة **narked** ( وهي صيغة اقليمية لكلمة « غاضب » ) فهي تحدد المتكلّم من ناحية نشأته الاقليمية. ويمكننا في بعض الأحيان استخدام أحكام المتحدث الذاتية للتمييز بين هذه المتغيّرات ، ولكن علينا ، في النهاية ، أن نكون قادرين على اختبار الفرضيات المطروحة ، وذلك من خلال ما نجده في النصوص ، وهذا هو الغرض من دراسة هذه النصوص ، الى اختبار الفرضيات المطروحة عن علاقة المتغيّرات اللغوية بمثيلتها الاجتماعية. ويعد استخدام الباحث لهذه القائمة المعدة سلفاً من المتغيّرات اللغوية وبدائلها المتباينة بمثابة توقع منه لظهور هذه

البدائل المتباينة في النصوص التي جمعها . والباحث غالباً ما يبدأ بحثه بمجموعة من الفرضيات عن المتغيّرات الاجتماعية social variables التي ترتبط بالمتغيّرات اللغوية الواردة في قائمته ، وغالباً ما تتضمن هذه المتغيّرات عناصر مثل الطبقة الاجتماعية ، أو مسقط الرأس ، أو الجنس ، الخ . وتعتمد كل الدراسات التي سنعرض لها هنا على مثل هذه الفرضيات ، ولكن ينبغي علينا أن نكون على حذر ، إذ يشعر بعض الدارسين بخطورة توجيه الدراسة توجيهاً خاطئاً ، وذلك إذا بدأ الباحث بفرضيات خاطئة عن العلاقة بين المتغيّرات اللغوية والمتغيّرات الاجتماعية ( أنظر ، مثلاً ، بيلو وآخرين Pellowe et al ١٩٧٢ ) .

ومن جهة أخرى تعد دراسة النصوص مسألة صعبة ومضيعة للوقت ولهذا ــ ولأسباب عملية تماماً ــ تركّزتْ الدراسات التي أُجريت حتى الآن على دراسة المتغيّرات اللغوية التي تتكرر كثيراً والتي يسهل التعرف عليها نسبياً . وكان من نتيجة هذا الاعتماد على المتغيّرات المتكررة ان مالت الدراسة الى التركيز على الكلمات المقررة دون الضمائر التي تتكرر دائماً ، وبدلاً من دراسة كيفية نطق كلمة **house** ، مثلاً ، علينا أن نسأل كيف تُنطق الكلمات التي تبدأ بحرف **h** ، وعلى ذلك يمكن تصنيف المتغيّرات اللغوية في شكل قوائم مكونة من الكلمات ( بالرغم من اننا سنذكر بعض الدراسات التي قامت على كلمات مفردة وانتهت الى نتائج ذات أهمية ) . ويقتضي الاعتماد على التواتر عدم دراسة التراكيب ، لأن التراكيب التي تتسم بالتباين قد لا تتكرر سوى عدة مرات في اليوم الواحد ( أو حتى في الأسبوع الواحد ) في كلامِ فرد بعينه . والمعيار الثاني ، وهو سهولة التعرف على المتغيّرات ، يؤدي بنا الى تفضيل الحالات التي تكون فيها الصيغتان مجرد طريقتين مختلفتين لقول نفس الشيء ، مثل وجود صيغتين لنطق نفس الكلمة . وقد يتعارض هذان المعياران ، فالمفردات في حد ذاتها ، مثلاً تعد من أفضل المتغيّرات التي تدرس ، وذلك لأنه من السهل التعرف عليها ولكنها ــ من جهة التواتر ــ ليست المتغيّرات المثلى . وتمثل معظم الدراسات التي تعتمد على المفردات نوعاً

من الحلول التوفيقية التي تتضمن مواطن ضعف من نوع أو آخر. ولكن ليس هناك شك ( كما أود أن أوضح في هذا الفصل ) ان ذلك قد قدم نتائج مثيرة ذات أهمية.

ومن الضروري الآن أن نذكر الرموز المتعارف عليها notation في مثل هذه الدراسات ، فغالباً ما تُكتب المتغيّرات اللغوية بين قوسين : مثـل ( h ) التي تمثـل وجود المتغـيِّر [ h ] أو عـدم وجـوده في كلمـات **house** وتستخـدم ( **no/any** ) للدلالة على المتغيّر الموجود في عبارة مثل **I didn't eat any/no apples** وسنتجاوز العرف المعمول به في هذه الدراسات ، وذلك بكتابة البديل variant بعد المتغيَّر المقصود وسنفصل بينهما بنقطتين. وعلى ذلك ، فاننا سنكتب المتغيِّر ( h ) كذلك [ h ] : ( h ) وذلك في الحالات الخاصة بالمتغيَّر ( h ) عندما ينطق البـديـل [ h ] ، وذلـك عـلى عكس الحـالات التي لا تنـطق فيهـا ( h ) والتي سنكتبها كذلك ∅ : ( h ). ويستخدم رمز ∅ في علم اللغة بصفة عامة ليمثّـل « صفر » أو بعبـارة أخرى يستخـدم للدلالة عـلى عدم وجـود عنصر من العناصر.

**٥ ــ ١ ــ ٢ لماذا ندرس الكلام كمياً ؟**

لـو تضمن كل نص أمثلة متعـددة لبديـل واحد فقط لكـل متغيَّر من المتغيَّرات ، لأمكننا تحديد موقعها في الحيِّز اللغوي متعدد الأبعاد الخاص بها ، وذلك دون استخدام المناهج الكمية. فلو اننا عـلى سبيل المثـال درسنا ( h ) و ( **no / any** ) في عـدد من النصوص ، فـاننا قـد نجد ( جـدلاً ) ان بعض النصوص تتضمن أمثلة على [ h ] : ( h ) وليس بها أية أمثلة على ∅ : ( h ) ، بينـما تتضمن النصـوص الأخـرى أمثلة عـلى ∅ : ( h ) دون وجـود أمثلة على [ h ] : ( h ) وكذلك حال البديلين ( **no / any** ). في هذه الحالة يحدد كل متغيَّر مجموعتين منفصلتين من النصوص ويصبح مصدر التعقيد الوحيد هـو التفاعل بين هذين المتغيِّرين. وعلى أساس ما نعـرفه عن معـظم المجتمعات

المتحدثة باللغة الانكليزية ، علينا أن نتوقع وجود [ H ] : ( h ) في نفس النصوص التي تقع فيها any : ( no / any ) بينما يتكرر البديل : ( h ) في نفس النصوص التي يوجد فيها البديل no : ( no / any ) ، وبعبارة أخرى ينبغي علينا أن نتوقع وجود تراكيب مثل We didn't see no 'ouses و We didn't see any houses . ولكننا سنتحيّر كثيراً ازاء تراكيب مثل We didn't see no houses و We didn't see any ' ouses . ان دراسة عدد ضخم من النصوص قد تقودنا الى فهم مدى ــ حساسية هذين المتغيّرين لنفس المتغيّرات الاجتماعية فلو وجدنا ان [ h ] : ( h ) ترد في نفس النصوص التي ترد فيها any : ( no / any ) ، وان ∅ : ( h ) و no : ( no / any ) تردان في نفس النصوص ، فانه من المبرر لنا ، إذن ، أن نخلص الى ان كلا المتغيَّرين اللغويين يتأثران بنفس المتغيَّر الاجتماعي . وبعد ان نصل الى مثل هذه النتيجة ، علينا ان ندرس الخلفية الاجتماعية لكل هذه النصوص على قدر ما نستطيع ، ثم ينبغي علينا أن نحاول تحديد ماهية هذا المتغيَّر الاجتماعي . فلنتصوَّر اننا وجدنا ان كل النصوص التي تشمل على البديلين [ h ] : ( h ) و any : ( no / any ) ، يقولها الأفراد الذين يقبضون مرتباتهم شهرياً ، بينما يقول النصوص ذات البدائل الأخرى الأفراد الذين يقبضون أجورهم أسبوعياً . فمِنَ المعقول في مثل هذه الحالة ان نصل الى ان المتغيَّر الاجتماعي هو نوعية المهنة التي يعمل بها المتحدث ، وخاصة إذا كانت هذه المهنة تدفع مرتّبات شهرية أو أجوراً أسبوعية . ويمكننا أن نصل الى هذه النتيجة دون اللجوء الى المناهج الكمية الحسابية .

وبالطبع ، ليس عالم علم اللغة الاجتماعي كذلك على الاطلاق . فغالباً ما تتكرر البدائل المختلفة لنفس المتغيَّر في نفس النصّ ، ويمكننا تنظيم النصوص في متواصل مستمر تبعاً لعدد مرات تواتر البدائل . وقد وَجَدَ ويليام لابوف في دراسة قام بها لاستخدام صيغة النفي ، وذلك بين مجموعات متباينة

من المــراهقــين الأمــريكيــين ، ان البــديلين any : ( no / any ) و no :
( no / any ) يتكرران جنباً الى جنب في كثير من النصوص التي جمعها ، وَوَجَدَ
ان صيغة no : ( no / any ) تمثّل نسبة تتراوح بين ٨٠٪ و ١٠٠٪ من الحالات
الوَارِدة في النصوص ( لابوف labov ١٩٧٢ : ب : ١٨١ ). وكذلك وَجَدَ بيتر
ترجيل Peter Trudgill الذي دَرَسَ المتغيَّر ( h ) في نورويش Norwich بانكلترا
ان بديل [ h ] : ( h ) يمثّل نسبة تتراوح ما بين ٤٠٪ الى ١٠٠٪ من حالات
تواتر ( h ) وذلك حسب النصوص المستخدَمة ( ترجيل trudgill ١٩٧٤ ــ أ :
١٣١ ). وعلى ذلك **فالعلاقات** بين المتغيَّرات اللغوية المختلفة كذلك مسـألة
درجة فبعضها أكثر ارتباطاً ببعضها الآخر ، وينطبق ذلك أيضاً على العلاقات
بين المتغيِّرات اللغوية والمتغيِّرات الاجتماعية. ومن الصعب أن نجد متغيِّـراً
لغـوياً تتـطابق بدائله تمـاماً في نسبـة وجودهـا مع بـدائـل أي متغـيِّر لغـوي
أو اجتماعي آخر ، بالرغم انه من السهل ان نجد متغيِّرات تماثل بعضها بعضاً
الى درجة تقنعنا بان هناك نوعاً من العلاقات السببية بينهما. وفضلاً عن ذلك ،
فان المتغيِّرات الاجتماعية ذاتها تمثّل متواصلاً دائماً لا نقاطـاً منفردة ومستقلة
بذاتها ، فالناس يتفاوتون في درجـة ثرائهم ورجـولتهم وتعليمهم وحدتهم ،
ولا يمكن وضعهم في تصنيفــات اجتمـاعيــة جـامــدة ومحـددة بــوضــوح
( أو في مجموعات اجتماعية متجانسة داخلياً ).

وتطلب كل هذه الحقائق دراسة المادة العلمية ومعالجتها كمياً ، وذلك
عن طريق استخدام المناهج الاحصائية المناسبة. ويعد عالم اللغة ويليام لابوف
أول من استخدم المناهج الكمية في دراسة النصوص ، ولذلك فـان أبحاثـه
ستكون هي المسيطرة على المناقشة المطروحة في هذا الفصـل. ( فقد سـاهم
لابوف ــ كما سنرى ــ مساهمة هامة في ارساء منهج جمع المادة العلمية metholo-
gy of data collection ، وكذلك في التأويل النظري لهذه النتائج ). وعـلى أية
حال ، فقد حفّزت دراسات لابوف باحثين آخرين أكفاء الى دراسة النصوص

دراسة كمية ، ولذلك توجد الآن مادة علمية واسعة يمكننا أن نستخرج منها أمثلة كثيرة ( أنظر بصفة خاصة القائمة في لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ٢٠٥ والمجموعات التي صدرت حديثاً بيلي وشوي Bailey & Shuy ١٩٧٣ وفاسولد وشوي Fesold & Shuy ١٩٧٥ ، ١٩٧٧ ، وسانكوف Sankoff ١٩٧٨ ، وتردجيل Trudgill ١٩٧٨ ) . وسأقدم أولاً تخطيطاً أولياً للخطوط الرئيسة لما نستطيع أن نطلق عليه « منهج لابوف الكلاسيكي » في مثل هذه الدراسات ، وبعد ذلك سأقدم بعض الوسائل التي يمكننا بها تحسين هذا المنهج .

**٥ ــ ٢ المناهج Methodology :**

**٥ ــ ٢ ــ ١ المشكلات المنهجية :**

أبدى بعض علماء علم اللغة الاجتماعي الذين يدرسون النصوص كمياً على عكس علماء علم اللغة النظري اهتماماً كبيراً بالمناهج ، أعني بكيفية جمع المادة العلمية بطريقة صحيحة ، وكذلك اهتموا بكيفية تحليل هذه المادة وبكيفية تأويل نتائجها تأويلاً صحيحاً ( وتعد دراسة لابوف ١٩٧٢ ــ أ : خاصة الفصل الثامن ٢٠٧ ــ ٢١٦ المصدر الأساس المعروف في هذا المجال ) . وتختلف المناهج المستخدَمة في مثل هذه الدراسات عن المناهج المستخدَمة في علم اللغة التحويلي والتوليدي حيث تكون المادة هي احكام علم اللغة الذاتية عن جمل افتراضية منعزلة منفصلة ، وحيث تصبح المشكلة الرئيسية هي كيفية وضع مثل هذه المادة في نظام نحوي بأقل قدر من فقدان عنصري العمومية أو الاقتصاد generality or economy . وعادة لا يكون لمثل هذه الأسئلة إلاّ حيّز ضيّق في الدراسات الكمية للنصوص .

وتعد مسألة المنهج في كل مراحل الدراسات اللغوية الاجتماعية للنصوص مسألة هامة من جانب وأشكالية من جانبٍ آخر . ومراحل هذا النوع من الدراسات تكون على النحو التالي :

( أ ) انتقاء المتحدثين والظروف والمتغيّرات اللغوية .

( ب ) جمع النصوص .

( جـ ) التعرف على المتغيِّرات اللغوية وبدائلها في النصوص .

( د ) الدراسة الاحصائية .

( هـ ) تأويل النتائج .

وغالباً ما تتابع هذه المراحل طبقاً للنظام السابق الذكر ، ولكن أحياناً ما يكون هناك نوع من الدائرية cyclicity يتضمن القيام بدراسة استشكافية مصغّرة ، او دراستين pilot study وذلك قبل البدء بالدراسة الرئيسية . وفضلاً عن ذلك ، فليس من الضروري جمع كل النصوص قبل البدء في التحليل والتصنيف ، وليس من المتغيَّرات أيضاً تحديد كل المتغيَّرات قبل القيام بالحصر الاحصائي لبعضها . ولا يستوي اتباع النظام المرحلي ، الذي تجري هذه العمليات على أساسه ، مع أهمية المنهج الذي يجب تطبيقه في كل مرحلة من مراحل الدراسة .

( أ) تتطلّب مرحلة **انتقاء selection** المتحدثين والظروف والمتغيَّرات اللغوية اتخاذ بعض القرارات الهامة للغاية والتي تمليها علينا الى حدٍ ما الفرضيات الخاصة بالنتائج المتوقعة ، فقد نبدأ دراستنا ، مثلاً ، مفترضين ان الرجال والنساء في جماعة بعينها يختلفان من ناحية استخدامهما لمتغيَّرات لغوية بعينها ، مفترضين ان الكبار والشباب في نفس الجماعة يختلفان بالنسبة لاستخدام مجموعة أخرى من المتغيَّرات . وحتى نستطيع ان نختبر صحة هذه لمجموعة من الفرضيات ، ينبغي علينا اختيار متحدثين يمثّلون النماذج الأربعة المكونة من متغيَّرات السن والجنس ، وينبغي علينا أيضاً أن نتأكد من ان المتغيَّرات الاجتماعية الأخرى لن تتدخل لتفسد النتائج التي سنحصل عليها . فلو كان كل الرجال المنتقين للدراسة من العمال اليدويين ، مثلاً ، وكانت النساء من المهنيات ، فان الاختلافات اللغوية الموجودة بينهم قد تكون نتيجة لاختلاف مهنهم أو نتيجة لاختلافاتهم الجنسية ، ولن نتمكن في مثل

هذه الحالة من الوصول الى نتائج مؤكدة. وكذلك لابد من جمع المادة العلمية المتمثّلة في الكلام وذلك تحت نفس الظروف على قدر الامكان.

وتنشأ هنا مشكلة هامة عند تعريف المتغيّرات الاجتماعية المرتبطة بالمتحدثين والظروف والمتغيّرات اللغوية في حد ذاتها. فكيف يمكننا أن نعرف ماهية « العامل اليدوي » ؟ وكيف نفرّق بين كبير السن والشاب ؟ وكيف نعرف الظروف بدقة تسمح لنا بالمحافظة عليها دون تغيير ؟ وكيف نعرف المتغيّر (h)؟ (فإذا عرفنا هذا المتغيّر بالرجوع الى قواعد التهجئة أو الكتابة فعلينا توقع وجود [ h ] : ( h ) في كلمات مثل **hour** ، ولو عرفنا هذا المتغيّر بالرجوع الى الكلام « المتواضع عليه » standard speech فان ذلك يفترض سلفاً اننا يمكن أن نعرف الكلام المتواضع عليه ، وانا نستطيع أن نقرر مثلاً ما إذا كانت كل من الكلمتين **horizon** و **hotel** تتضمنان [ h ] في الكلام المتواضع عليه ، وهكذا . . . ) وكيف يمكننا في هذه الحالة أن نعرف [ h ] أو ∅ أعني بدائل ( h ) ؟ وما هو مقدار الدفقة الهوائية المطلوبة لتعريف [ h ] ؟ وهناك ما هو أصعب من ذلك ، مثل مشكلة تعريف الجماعة التي نزمع دراستها ، ذلك لأن « الجماعات الكلامية » لا تعرف نفسها كما سبق أن رأينا في ٢ ــ ١ ــ ٤ . وليس ثمة اجابات سهلة على أي من هذه الأسئلة ، ولكن على الباحث أن يقدم حلولاً معقولة لكل هذه المشكلات حتى يجنّب الخطر الحقيقي الكامن في أن تصبح نتائجه عديمة القيمة نتيجة لفشله في تعريف المتغيّرات بالوضوح اللازم.

( ب ) بعد اتخاذ القرارات الخاصة بماهية المتحدثين والظروف المناسبة فان جمع النصوص يتطلّب وجود متحدثين مناسبين يرغبون في المشاركة في البحث. ويعني ذلك بصفة عامة ايجاد الأفراد الذين يرحبون باللقاء بهم في منازلهم لمدة ساعة ، ويرحبون بتسجيل ذلك اللقاء ، غير ان هنالك بدائل كثيرة أخرى سبق ايضاحها في أدبيات البحث. ويعني ذلك قدرة الباحث

على اكتساب ثقة مجموعة من الناس والحصول على موافقتهم على تسجيل كلامهم تحت ظروف طبيعية ( وهناك وسائل للقيام بذلك غاية في الذكاء ، وهذا ما سنعرض له فيما بعد ) . ومن أهم المشكلات العملية الحصول على تسجيلات واضحة جداً بدرجة تسمح باستخدامها للتعرف على البدائل الصوتية ، ولا يصح لِمَنْ يقوم بالتسجيل ان يهيمن على اللقاء ، ويحوله الى لقاء اذاعي ، وبذلك يفقد الفرصة لتسجيل كلام المتحدث العادي وهو على سجيته . وليس ثمة حلول سهلة لهذه المشكلات ، ولكن سعة الحيلة والقدرة على التصرف الذكي المبتكر ( وهي من خصائص لابوف الملفتة للنظر ) تمكنا من ايجاد حلول توفيقية ذكية وابتكار وسائل للتغّلب على هذه المشكلات .

( جـ ) وبعد التعرف على بدائل variants المتغيِّرات المنتقاة المرحلة الأقل صعوبة لأننا نعرف مسبقاً البدائل المطلوب تمييزها . وكل ما ينبغي ان نفعله هو ان نميزها سمعياً في النصوص المسجلة . وهناك على أية حال قدر لا يستهان به من الذاتية في عملية التعرف على البدائل الصوتية ( وذلك على عكس التعرف على « بدائل من مستوى أعلى » higher level variants ( **no / any** ) . ومن الممكن أن يقدم مختلف الباحثين تحليلات مختلفة للنصّ ذاته ولو كانوا جميعاً من علماء الصوتيات المدربين ( نولز Knowles ١٩٧٨ ولي باج وآخرين Le Page **et al** ) . وقد نحتاج أيضاً لتسجيل معلومات خاصة بالبيئة اللغوية Linguistic enviroment التي يستخدم فيها كل مثال من أمثلة المتغيِّر ، لأن ذلك غالباً ما يؤثر على اختيار بديل بدلاً من آخر ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ١ ) ، ولكننا لا نستطيع أن نفعل ذلك إلّا في حالة وجود فرضية واضحة حول أي من جوانب البيئة يرتبط بذلك المتغيِّر .

وغالباً ما تكون هناك مشكلات في التعرف على البيئات اللغوية ، فلو أردنا مثلاً التمييز بين الحالات التي تقع فيها ( h ) بعد حدود الكلمة word boundary ( مثلاً **house** ) والحالات التي تقع فيها داخل الكلمة ( مثل **behind** )

فقد يترتب على ذلك مشكلة في تحديد ما إذا كانت هناك حدود كلمة word boundary قبل الـ ( h ) في كلمات مثل **green house** و **summer house** ، وهنا تنشأ مشكلة أخرى وهي صعوبة تحديد الكلمات أو العبارات التي قد تعد أمثلة على هذا المتغيِّر وقد سبق ان ذكرنا هذه المشكلة بايجاز بالنسبة لـ ( h ) ( هل نتعامل مع **hour** على انها مثال على المتغيِّر ؟ ) ولكن هذه المشكلة مشكلة قائمة مع كل المتغيِّرات ، وقد تؤدي الى مشكلات في تأويل النتائج كما سنرى في ٥ ـ ٥ ـ ١ .

( د ) وتتطلّب **الدراسة الاحصائية** حساب عدد مرات تواتر كل بديل في كل النصوص ومقارنة الأرقام بالنسبة لكل النصوص. والخطوة الأولى هي ان نحوّل جميع الأرقام الى نسب مئوية لأن ذلك يجعل المقارنة أسهل. فَمِنَ الأيسر مثلاً المقارنة بين ٨٠٪ [ h ] : ( h ) و ٦٥٪ [ h ] : ( h ) بدلاً من المقارنة بين ٧٣ من ٩١ [ h ] : و ٧٩ من ١٥٠ [ h ] : ( h ). والخطوة الثانية هي اكتشاف الاختلافات ذات الدلالة الاحصائية بين النصوص significant أعني اكتشاف أي من هذه الاختلافات تعطينا أساساً صحيحاً صالحاً للتعميم على النصوص الأخرى التي تنتمي الى نفس النوع. فلنفرض مثلاً اننا قد قمنا بتحليل النصين « أ » و « ب » و وجدنا ان هناك من أمثلة ( h ) حوالي ٢٠٪ من [ h ] : ( h )في النص أو ٤٠٪ من [ h ] : ( h ) في النص فهل لدينا أساس صالح لاطلاق تعميمات على نصوص مماثلة للنص ( أ ) بالنسبة لـ ( ب ). والقول بان النصوص أ تتضمن نسبة من البديل [ h ] : ( h ) أقل من النصوص ب ؟ وتعتمد الاجابة على عدد من العناصر ، مثل عدد أمثلة ( h ) في النصوص ( أ ) و ( ب ) ، وذلك من خلال النسب المئوية في كل من ( أ ) ، ( ب ) والنسب المئوية لهذه الأمثلة في النصوص المشابهة لكل منهما. وأحياناً تكون الاجابة واضحة. فلو كان هناك ، على سبيل المثال ، ١٠٠٠ مثال على ( h ) في كل من ( أ ) و ( ب ) فلن يتردد أحد في القول بأن الاختلاف بين ٢٠٪ و ٤٠٪ اختلاف ذو دلالة احصائية. أما إذا كانت

هناك خمسة أمثلة فقط على كل من هـذه الحالات فـان الاختلاف لن يكـون ذا دلالة احصائية ( لأن الأمر لا يحتاج إلاّ الى مثال زائد واحد من [ h ] : ( h ) في النصوص ( أ ) حتى تتساوى مع عدد الأمثلة في النصوص ( ب ) ، غير ان الاجابة غالباً ما لا تكون واضحة ، ولذلك ينبغي على البـاحث أن يستخدم الاختبارات الاحصائية حتى يحدد الدلالة الاحصائية لنتائجه . وقد يؤدي ذلك في حـد ذاتـه ، الى اثـارة مجمـوعـة من المشكـلات ، فهنـاك أنـواع كثيـرة من الاختبارات الاحصائية يناسب كل نوع منها نوعاً معيناً من المادة العلمية ، وعلى الباحث أن يتأكد من استخدام الاختبار المناسب للغرض الـذي ينبغي تحقيقـه . ومنذ بـداية استخـدام الدراسـات الكمية في النصـوص في أوائـل الستينات زادت درجة تعقيد الوسائل الاحصائية المستخدَمة ( أنظر سانكوف Sankoff ١٩٧٨ الذي يقدم عرضاً حديثاً لهذا المجال ) ، ولكن معظم دارسي علم اللغـة الاجتماعي المبتـدئين ليست لـديهم أدنى فكرة عن أوليـات علم الاحصاء ، ولذلك تبدو الدراسات الاحصائية دراسات مجهدة الى حـدٍ ما. ومن المؤكد ان الطالب سيستفيد كثيراً لو حاول ان يتعلّم بعض مبادىء علم الاحصاء ومصطلحاته ومقاييسه ، مثل مقياس الانحراف المعياري standard deviation ومقياس الكاي تربيعي chi--squared ( وهناك كتاب تمهيدي جيد ورخيص هو كتاب ميلر Miller١٩٧٥ ) .

ومن الضروري أيضاً أن نفهم ان التقنيات الاحصائية تسمح لنا بتحديد احتمـالات تكرار بعض أنمـاط النتـائـج التي قـد تحـدث اعتبـاطيـاً ، أعني التي قد تحدث دون وجود علاقة سببية بين الأرقام المعنية ، ولكن تلك التقنيات لا تقدم أي اثبات لقبول العلاقة السببية أو لرفضها . فقد تخبرنا هذه الوسائل الاحصائية ، على سبيل المثال ، بان نمطاً معيناً من النتائج يمكن حدوثه عشوائياً مرة واحدة في كل ألف عينة أو أكثر ، ولكن حتى هذا الاحتمال البعيد للغاية لا يمكن ان نستبعـده تمـامـاً . إلاّ ان عـالم اللغـة الاجتمـاعي سيكـون محقـاً حين يطرح علاقة سببية من نوع ما تفسر نمط هذه النتائج . وحتى عندما تعكس

النتائج الاحصائية علاقة سببية بين عنصرين ، فان ذلك لا يدل أو يعني بصورة قاطعة ان احدهما سبب للآخر. فقد يكون كلاهما ناتجاً عن عامل آخر . فيمكننا ، على سبيل المثال ، أن نجد علاقة دالة من الناحية االاحصائية statistically significant بين طول القامة والقدرة على حل العمليات الحسابية ، ولكن ذلك لا يعني ان احدهما يسبب الآخر ، ولكنه قد يعني ان كلاً من العنصرين المعنيين جزء من عملية النمو الطبيعي بصفة عامة.

( هـ ) وتعد مرحلة تأويل النتائج من أصعب المراحل لأنها تحتم علينا أن نضع النتائج في اطار نظري عام يتعامل مع بُنية اللغة وعلاقتها بالمجتمع والأفراد. ولا يعتمد النجاح في هذه الحالة على استخدام المناهج الصحيحة في كل المراحل السابقة فحسب بل يعتمد أيضاً على ايجاد اطار نظري عام مناسب لتأويل تلك النتائج . وكل ما نستطيع قوله الآن هو ان مثل هذه النظرية ما زالت في بدايتها. وسنحاول أن نقدم الخطوط العريضة للتقدم الذي حدث بالفعل في دراسات علم اللغة الاجتماعي في ٥ ــ ٥ ، ولن نحتاج في هذه المرحلة لاضافة شيء جديدة عن تأويل النتائج .

ليس من الغريب انه نتيجة لكل هذه المشكلات أن يهتم علماء علم اللغة الاجتماعي بالمنهج كل هذه الاهتمام.

**٥ ــ ٢ ــ ٢ مثال من نيويورك :**

ولكي يمكننا تقديم فكرة كاملة عن المناهج المستخدَمة في مثل هذه الدراسات سنناقش بايجاز ثلاث دراسات منفصلة تعتمد على مناهج مختلفة. ولا تمثّل هذه الدراسات كل أنواع الأبحاث التي أُجريتْ ، فكلها دراسات تتناول الجماعات الحضرية urban communities وهناك دراساتأخرى عديدة ( خاصة عن الكريولية ) في المناطق الريفية ( أنظر على سبيل المثال لا الحصر بيكرتون Bicerton ١٩٧٥ ولي باج Le Page ١٩٧٢ ولي باج وآخرين Le Page **et al ١٩٧٤**) وهي دراسات تختلف من حيث المناهج الى حدٍ ما. وليس المثال

الأول مثالاً على منهج شائع الاستخدام ، ولكنه يعكس عبقرية ويليام لابوف الشخصية ( ويليام لابوف ١٩٧٢ ــ أ ، الفصل الثاني ) .

وقد أجرى لابوف دراسته الاختبارية الأولى على جزيرة صغيرة تقع بجانب ساحل نيوانجلاند New England ( ويُطلق على هذه الجزيرة اسم مارثاز فاينارد (Martha's Vineyard) . وقد حللت هذه الدراسة ظاهرة التباين بين المتحدثين ، وذلك عند استخدامهم بعض المتغيّرات اللغوية ( ١٩٧٢ ــ أ : الفصلين ١ و ٧) ، وبعد ذلك أجرى لابوف دراسة عن جماعة مختلفة تماماً في نيويورك . ويتضمن البحث الأخير مجموعة من المقابلات الشخصية مع مجموعة مختارة من المتحدثين من النوع الذي سبق وصفه في ٥ ــ ٢ ــ ٣ ، كانت قد سبقتها دراسة أولية جُمِعَتْ فيها المادة العلمية في عدة ساعات وهو ما يعد مثالاً نموذجياً على منهج الملاحظة الغفل السريعة **rapid anonymous observation** .

وكان لابوف قد أراد أن يختبر بعض الفرضيات التي سبق ان صاغها عن استخدام متغيَّر لغوي بعينه ، وهو حرف ( r ) في نيويورك . ويمثّل هذا المتغيَّر وجود ( الـ r : ( r ) أو عدم وجودها ∅ : ( r ) وصوت صامت قبضي consonantal constricition يوازي الحرف r في كلمات مثل **farm** و **fair** حيث لا يكون الصوت الذي يليه في نفس الكلمة صوتاً غير صائتاً ( كما هو الحال في كلمة **very** ) . وكان لابوف قد أدرك ان سكان نيويورك يستخدمون أحياناً بديلاً معيّناً ، وفي أحيان أخرى يستخدمون بديلاً آخر ، وكان ذلك أمراً ذا أهمية خاصة لأنه يعكس تغيّراً معيّناً كان يجري في ذلك الوقت ، حيث كان أهل نيويورك ينتقلون في الاستخدام اللغوي من المعيار الثابت سابقاً وهو ∅ : ( r ) ( كما هو الحال في اللغة الانكليزية البريطانية المتواضع عليها British RP نحو معيار جديد ثابت نسبياً هو [ r ] : ( r ) ( كما هو الحال في كثير من لكنات الولايات المتحدة ) . ( وتعتمد دراسة التغيّرات اللغوية Linguistic changes ،

الجارية في الولايات المتحدة احدى اهتمامات لابوف منذ ان أجـرى دراسته على مارثاز فينيارد أنظر بينون Bynon الفصل الخامس : ١٩٧٧). وقد توقع لابوف أن تكون نسبة حدوث ∅ : ( r ) أعلى بين كبار السن ما دامت [ r ] ؛ ( r ) هي الصيغة الجديدة ) ، وكذلـك بين الـطبقات الـدنيا ( لأن الصيغـة المتواضع عليها الجديدة [ r ] : ( r ) هي من تأثير الطبقات العليا من خارج نيويورك ). وقد توقع أيضاً ان تكون نسبة ∅ : ( r ) أعلى بكثير عندما لا يتنبه المتحـدثون الى كـلامهم ، لأنهم لا يهتمون في مثـل هـذه العـواطف بقـدرة مستمعيهم على تقييم مكانتهم الاجتماعية ، وتوقع أخيـراً بان يؤثـر السياق اللغوي ( r ) على اختيار البديل المستخدَم ، فيستخدَم البديل ∅ : ( r ) غالباً عندما يكون الصوت ( r ) متبوعاً بصامت ، وذلك بنسبة أكبر مما إذا كان هو الصوت الأخير من الكلمة ، استناداً الى المبادىء والأسس الصوتية المعروفـة والتي تميل الى تبسيط متتابعات الصوامت (simplify consonant clusters) .

وقد كان المنهج المستخدَم في جمع المادة العلمية منهجاً بسيطاً للغاية ، ولكنه مناسب للفرضية التي وضعها لابوف. وقد قام لابوف بالمرور على ثلاثة من أضخم محـلات نيويـورك ، وبدا يسـأل بائعـات المحل عن نـوع معيّن من البضاعة ، يعرف جيداً انه في الدور الرابع. وقد أجابت كل من البائعات بالاجابة المتوقعة « الدور الرابع » أو « في الدور الرابع » "Fourth floor" "On the fourth floor" وتظاهر لابوف بانه لم يسمع وانحنى للأمام حتى يجبر البائعة عـلى تكرار اجـابتها. وبـاختياره للكلمتـين **fourth** و **floor** استطاع ان يختبـر الفرضية الخاصة بالسياق اللغوي لأن الـ ( r ) يتبعها حرف صامت في **fourth** ، وذلك على عكس الوضع في **floor**. وعن طريق التظاهر بعدم السمع في المرة الأولى واجباره للبائعة على تكرار الاجابة ، استطاع ان يختبر الفرضية الخاصة بأهمية درجة الالتفات الى الكـلام ، لأن البائعـة تكون بـالطبـع أكثر حـذراً ووضوحاً في المرة الثانية. واستطاع لابوف أيضاً ان يختبر الفرضية الخاصة بسن

المتحدث ، بتخمين عمر البائعة بشكل عام ، وأخيراً تمكّن لابوف من اختبار الفرضية الخاصة بمكانة المتحدث الاجتماعية social status بمقارنة نوعيات المحال بعضها بعضاً وذلك ان كلاً من هذه المحال يقوم بخدمة قطاعات مختلفة من الزبائن ، ويمكن تنظيم هذه المحال تدرجياً من أعلاها مكانة اجتماعية ( ساكس Saks الشارع الخامس ) الى المكانة المتوسطة مثل ماسيز Macy's الى محال الطبقات الدُنيا مثل س. كلاين S.Klein ) . ويمكن القيام بتحديد مثل هذا التنظيم التدرجي على أساس عدد من المعايير مثل أسعار البضائع التي تبيعها ، الصحف التي تعلن فيها هذه المحال عن نفسها . وفي داخل كل من هذه المحال يمكن التمييز الدقيق بين العاملين تبعاً لوظائفهم ، فيمكننا التمييز بين ملاحظي الأدوار والبائعين والمسؤولين عن المخازن ، ويمكننا التمييز أيضاً بين العاملين في نفس المتجر لأن البضائع ذات المكانة الاجتماعية العالية غالباً ما تُباع في الأدوار العليا .

وكان منهج تدوين الملاحظات هو تسجيل البيانات الخاصة بكل عاملة على حدة سراً ، وذلك حتى لا تلاحظ احداهن انها تشارك في بحث لغوي مما قد يؤثر على أسلوبها في الكلام . ومن مصاعب استخدام هذا المنهج انه يتطلّب باحثاً ليس عالِم صوتيات ممتاز فحسب بل ممثلاً قديراً أيضاً ، ويسمح لنا مثل هذا المنهج كما سنرى فيما يلي ان ندمج المرحلتين ( ب ) و ( جـ ) ، وهما جمع النصوص وتحديد المتغيّرات اللغوية وبدائلها .

وعند رصد نتائج هذا البحث تبينت صحة الفرضيات التي انطلق منها لابوف . ويبيّن الشكل ٥ ــ ١ ، مثلاً ، النسبة المئوية لتكرار الحرف ( r ) في صيغة [ r ] : ( r ) وذلك لكل كلمة على حدة مع فصل لفظها في المرة الأولى عن المرة الثانية في كل محل على حدة . وقد انخفضت نسبة استخدام الصيغة [ r ] : ( r ) ــ كما كان متوقعاً ، في المتاجر الفاخرة عنها في المتاجر التي ترتادها الطبقات الاجتماعية الدُنيا وقد نتبيّن ذلك من ملاحظة انخفاض طول الأعمدة من اليسار الى اليمين . وتظهر آثار الانتباه الى الكلام في ميل العامود

رقم (II) الى أن يكون أطول من العامود رقم (I) بالنسبة لكل المتاجر ، وذلك باستثناء متجر ساكس Saks حيث لم يتضح فرق بين النطق الأول والثاني لكلمة **Floor** ، وانخفضتْ نسبة [ r ] : ( r ) بين النطق الأول والثاني لكلمة **Fourth** في متجر ماسيز Macy's. وقبل أن نحاول ايجاد تفسير لمثل هذه الانحرافات علينا أن نعرف ما إذا كانت هذه النتائج ذات دلالة احصائية. وبما اننا لم نطبق أية اختبارات احصائية على هذه الأرقام ، فلا يمكننا الجزم بان هذه الانحرافات ناشئة عن تغيّرات اعتباطية أو عشوائية ، أو الجزم بان هناك سبباً فعلياً لحدوثها. ويبدو ان هناك تأييداً واضحاً لفرضيات لابوف في هذه النتائج التي توضّح ان **Fourth** و **floor** مختلفان لأن الأعمدة البيضاء تبدو بصفة دائمة أقصر من الأعمدة المخططة. وان نسبة [ r ] : ( r ) في **floor** أعلى بصفة دائمة عنها في **fourth** كما توقع لابوف.

والفرضية التي لم تتأكد بطريقة مباشرة أو بسيطة هي الفرضية الخاصة بالاختلافات الناتجة عن السن. وقد نتذكّر هنا ان الفرضية الأصلية تذهب الى ان الأكبر سناً سيفضلون استخدام البديل الأقدم ∅ : ( r ) بنسبة أكبر من الشباب الذين سيفضلون استخدام الصيغة الجديدة [ r ] : ( r ). ويظهر من الأرقام الخاصة بتلك الفرضية ( أنظر الشكل ٥ ــ ٢ ) ان المقولة الأساسية قد تأكدتْ بالنسبة للمتجر ذي المكانة الاجتماعية العالية ، مثل ساكس Saks ، وليس من الصعب التوفيق بين تلك الفرضية وتلك الأرقام الخاصة بمتجر كلين Klein ، لأن الاختلافات البسيطة بين متوسطي العمر وكبار السن قد تكون غير ذات دلالة احصائية. ( علينا أن نذكر انه ليس من السهل مقارنة النسب المئوية المذكورة في الشكلين ٥ ــ ١ و ٥ ــ ٢ لأن النسب المذكورة في الشكل ٥ ــ ٢ تبيّن نسبة استخدام **العاملات في المتجر** في كل من المجموعات المشتركة في البحث للبديل [ r ] : ( r ) في كل من حالتي استعمال الكلمتين ، بينما تختص النسب المذكورة في الشكل ٥ ــ ١ بالنسب المئوية لنطق **utterances** كل كلمة تتضمن البديل [ r ] : ( r ) ولكن هذا

الاختلاف لا يهمنا في الوقت الحالي ). وتبدو المشكلة الحقيقية في جنوح كبار السن في ماسيز Macy's لاستخدام [ r ] : ( r ) بنسبة أعلى من الشباب ، وذلك مما يتعارض مع الفرضية الأساسية التي انطلق منها لابوف ، الأمر الذي جعله يراجع فرضيته ويعد لها بطريقة مثيرة ومبتكرة. وذلك عن طريق جعل فرضيته الأساسية تقتصر على مَنْ ينتمون الى الجماعات ذات المكانة الاجتماعية العالية ومَنْ ينتمون الى الجماعات ذات المكانة الاجتماعية الدُنيا. وحسب هذه الفرضية المعدّلة تكون هاتان الجماعتان أقل الجماعات عرضة لتغيير لكنتها بعد فترة المراهقة ، وذلك على عكس الجماعات ذات المكانة الاجتماعية المتوسطة التي قد تدفعها تطلعاتها الاجتماعية الى تغيير لكنتها في منتصف العمر حتى تصبح أكثر شبهاً باللكنات المعاصرة ذات المكانة الاجتماعية العالية Latest prestige accent . ويعد ذلك مثلاً واضحاً على مرحلة التأويل في البحث العلمي حيث يتجاوز الباحث أرقامه واحصائياته ويربط نتائجه وفرضيته بنظرية عامة ، وقد اختبر لابوف هذه الفرضية المعدّلة بعد ذلك في دراسته الرئيسية عن مدينة نيويورك وانتهى الى تأكيدها ( لابوف Labov ١٩٧٢ ــ أ : الفصل الخامس ).

**٥ ــ ٢ ــ ٣ مثال من نورويش :**

وسنقدم الآن دراسة أخرى أجراها بيتر تردجيل Peter Trudgill من جامعة ريدينج في انكلترا. ويقدم لنا هذا البحث مثالاً على « منهج لابوف الكلاسيكي Classical Labovian Method وذلك باستخدام طريقة « المقابلة المخطَط لها سلفاً » Structured interview ( تردجيل Turdgill ١٩٧٤ ــ أ ). وقد اختار الباحث مدينة نورويش Norwich ، وهي مسقط رأسه وهذه مسألة وثيقة الصلة بالبحث الى حدٍ كبير ، فقد توفرت لتردجيل معلومات واسعة لم تكن معروفة إلاّ لمواطني نورويش عن البُنية الاجتماعية لنورويش وعن لكنات قاطنيها ، واستطاع أيضاً أن يتحدث لكنة نورويش عند اجراء

مقابلته ، وبذلك استطاع أن يشجع المتحدثين على التكلم بطريقة طبيعية لم تكن لتتوفر لهم لو انه استخدم اللكنة الانكليزية المتواضع عليها RP . ومن المهم أن تؤكد على مثل هذه الحقائق ، وذلك لأن تأثير كلام مَنْ يجري « المقابلة المعدة سلفاً » على مَنْ يقابلهم يعد احدى العقبات الرئيسية ، وذلك عند استخدام أسلوب المقابلات الرسمية Formal interview لجمع المادة العلمية .

وقد تمَّ اختيار المتحدثين وفقاً للخطة المعدة باحكام ، وذلك وفقاً لما كان معروفاً من قبل عن البُنية الاجتماعية لنورويش . وقد اختيرت أربع مناطق في المرحلة الأولية تمثّل أنواعاً مختلفة من السكان ومجموعة من ذوي المكانات الاجتماعية ، ثم تمَّ اختيار الأفراد عشوائياً من السجلات الانتخابية في هذه المناطق الأربع ، ومن ثم تمَّ الاتصال بهم في منازلهم لمعرفة ما إذا كانوا يوافقون على الاشتراك في المقابلة . وقد قبل معظمهم الاشتراك ( إلّا ان حوالي ١٥ من مجموع من اتصل بهم وهم حوالي ٩٥ رفضوا الاشتراك ) ولكن الباحث اضطر لتنحية بعض من وافقوا جانباً لأسباب عديدة منها انهم كانوا حديثي عهد بنورويش ، أي انهم انتقلوا إليها في السنوات العشر السابقة على اجراء البحث . واستبدل الباحث عشوائياً بالأفراد الذين رفضوا المشاركة أو الذين نحوا جانباً أفراداً آخرين حتى بلغ مجموع المشتركين في الدراسة حوالي ٥٠ بالغاً مناسباً راغباً في الاشتراك طواعية . وأضاف ترودجيل الى هؤلاء حوالي ١٠ من تلاميذ المدارس حتى يوسّع المدى الزمني لأعمار المشتركين وبذلك أصبح مجموع المقابلات التي يجب اجراؤها حوالي ٦٠ مقابلة . وقد يبدو ذلك لأول وهلة عدداً صغيراً لا يمكننا من تعميم نتائج الدراسة على الأنماط اللغوية العامة التي يستخدمها مواطنو نورويش ، الذين يبلغ تعدادهم حوالي ١٦٠٫٠٠٠ نسمة . ولكن مثل هذه العينة كافية تماماً من الناحية الاحصائية لتعطينا صورة عريضة لأنماط التباين Patterns of variation وذلك ، شريطة

ألا نأخذ في الاعتبار عدداً كبيراً من العناصر الاجتماعية المسببة للتباين أو أن نحاول التمييز بين الاختلافات الدقيقة. (وكقاعدة عامة ينبغي ألّا يقل عدد الأفراد الذين ندرسهم في كل تصنيف اجتماعي Social category عن خمسة أفراد، ولذلك يعد عشرون فرداً عدداً كافياً تماماً للقيام بمقارنة طبقتين اجتماعيتين أو جنسين، ولكننا سنحتاج الى ٤٠ فرداً، وذلك إذا أردنا اضافة عامل تفاوت السن بطريقة مزدوجة مركّبة Two—way age contrast.

وينبغي أيضاً اختيار الظروف أو المواقف التي سيؤدي فيها المشتركون مقابلتهم ولكن عملية الاختيار سابقة الاعداد ذاتها قد تساعد على تحديد ظروف المقابلات، وقد كانت المقابلة الرسمية هي الطريقة الوحيدة المناسبة للحصول على المادة العلمية الشاملة التي يرغب الباحث في الحصول عليها. ولكن ترجيل اتبع خطوات لابوف في تحديد بُنية المقابلة واعدادها، فتضمنت المقابلة الواحدة عدداً من الظروف أو المواقف المختلفة. وقد جرت معظم أجزاء المقابلة وفقاً للأنماط المعهودة للمقابلة الرسمية، ولذلك كان من المتوقع أن تخرج بأسلوب كلام رسمي نسبياً. فقد طلب ترجيل من المشتركين في الدراسة ان يقرأوا قطعة من النثر وقائمة من الكلمات على افتراض ان القراءة ستؤدي الى أسلوب ذي طابع رسمي، يقوم القارىء فيه بالاهتمام اهتماماً كبيراً بكلامه. ولكن كلام المتحدث في أوقات أخرى من المقابلة تحرَّك نحو الكلام العادي، ومال الى أسلوب أقل درجة من الرسمية ــ وذلك ــ مثلاً عندما يقاطعه أحد أفراد أسرته الآخرين أو حين يطلب منه أن يروي قصة أو حادثة أضحكته كثيراً. وقد زعم ترجيل متبعاً بذلك لابوف ان هناك عدداً من «شواهد تغيير القناة» Channel cues في الكلام، وذلك مثل تغيير السرعة Tempo أو مدى طبقة الصوت Pitch range، يمكننا من خلالها التعرف على الأسلوب الأقل قدراً من الرسمية في الكلام حتى انه يمكننا أن نقسِّم كل مقابلة (دون تسوية بين هذه الأقسام الى أربعة أنواع من أساليب الكلام هي :

الأسلوب « العادي » casual الذي يمكننا التعرف عليه بواسطة شواهد تغيير القناة ، والأسلوب « الرسمي » formal ( الذي يكون معظم أجزاء المقابلة ) وأسلوب « قراءة النصّ » reading passages وأسلوب قراءة « قائمة المفردات » word—list ويمكننا ان نعتبر هذه التصنيفات وصفاً يمثّل بعض نوعيات اللكنات التي يملكها المتحدث ويستطيع استخدامها في مواقف مختلفة وتحت ظروف متنوعة.

وقد تمَّ اختيار المتغيّرات اللغوية مسبقاً على أساس ما نعرفه فعلاً عن التباين القائم في نورويش. وقد تمَّ اختيار ١٦ متغيِّراً لغوياً للدراسة ( تنكون من ثلاثة صوامت وثلاثة عشر صائتاً ) ، ولذلك فَمِنَ الصعب أن نقدم صورة كاملة لنتائج هذا البحث في الحيّز المتاح هنا ، وبالتالي فاننا سنقتصر على دراسة متغيّر واحد فقط هو ( ng ) لنوضّح مدى ارتباط هذا المتغيَّر اللغوي بالمتغيّرات الاجتماعية المدروسة. ويتضمن هذا المتغيَّر الصيغ البديلة لنطق اللاحقة **ing**ـ والتي تنطق أحياناً متضمنة n ( التي نرمز لها بالحرف n' كحرف صامت وذلك كما في **huntin', shootin', fishin'** وتنطق أحياناً أخرى [ n ] ( كما في **sing** وعلى ذلك فهناك بديلان لهذا المتغيّر هما [ n ] : ( ng ) و [ n ] : ( ng ). من بين هاتين الصيغتين يعد البديل [ n ] : ( ng ) الصيغة التي تمثّل اللغة الانكليزية المتواضع عليها RP ،ولذلك نتوقع أن نستخدم صيغة [ N ] : ( ng ) بنسبة أكبر بين المتحدثين ذوي المكانة العليا في الغالبية العظمى من الحالات تزيد عنها بين المتحدثين ذوي المكانة الدُنيا وان تُستخدم كذلك بنسبة أكبر في الغالبية العظمى من الحالات التي ينتبه فيها المتحدثون الى أسلوبهم في الكلام.

وقد أكدت نتائج دراسة تردجيل ( أنظر الشكل **٥ ــ ٣**) هاتين الفرضيتين بوضوح حيث تمثّل كل مجموعة من الأعمدة ( مخططاً لتوزيع التواتر ) histogram متوسط نتائج كل مجموعة من المتحدثين التي تعكس بدورها مجموعة من العناصر وهي : المهنة ، والدخل ، والتعليم ، ونوعية السكن ،

ومحل الاقامة ومهنة الأب ( ترودجيل ١٩٧٤ ـ أ : ٣٦). وتُستخدم كل هذه العناصر مجتمعة لتحديد نظام هرمي من الطبقات الاقتصادية الاجتماعية Socio—economic classes . وسنوضح كل ذلك فيما بعد ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٢) عند حديثنا عن تصنيف المتحدثين ، أما الآن فيمكننا قبول ذلك على انه تقسيم دَرَجي يعتمد أساساً على المكانة الاجتماعية. وتؤكد نتائج الدراسة صحة الفرضية القائلة بان غالبية المتحدثين من ذوي المكانة الاجتماعية العالية يستخدمون البديل [ n ] : ( ng ) بنسبة أكبر من استخدام ذوي المكانة الاجتماعية الدُنيا. ويمكننا بالطبع أن نتجاوز ذلك بصياغة الفرضية بطريقة أكثر دقة فنقول : ان نسبة استخدام البديل [ n ] : ( ng ) في الكلام العادي منخفضة للغاية ( من صفر الى ٢٠٪) بين مجموعة أفراد « الطبقات العاملة » ، وهي عالية نسبياً ( من ٦٠٪ الى ٨٠٪) بين أفراد مجموعات « الطبقات المتوسطة ».

وقد تأكدت أيضاً الفرضية الخاصة باثر مدى اهتمام المتحدث بالكلام وذلك بالارتفاع العام في نسبة [ n ] : ( ng ) في أسلوب قراءة « قوائم المفردات » عنها في أسلوب « الكلام العادي ». غير ان الاختلاف الأساسي عند متحدثي الطبقة المتوسطة يقع بين الأسلوب العادي والأسلوب الرسمي ، بينما يقع هذا الاختلاف عند متحدثي الطبقة العاملة بين الأسلوب الرسمي وأسلوب قراءة النصّ النثري. وتثير مثل هذه النتائج مشكلات هامة بالنسبة لتأويلها ، لأن معنى ذلك ( على الأقل بالنسبة لهذا المتغيِّر ) ان متحدثي الطبقات المتوسطة شديدو الحساسية لمدى الاختلاف في درجة الرسمية في الحديث formality أو ما يمكن أن تُطلق عليه المحادثة الارتجالية ( غير المدوَّنة ) unscripted conversation ، ونحن نستخدم هذا المصطلح للدلالة على كل من الأسلوبين العادي والرسمي ) بينما نجد ان متحدثي الطبقة العاملة ليسوا مرهفي الحس لذلك ولكنهم شديدو الحساسية لمدى الاختلاف بين المحادثة الارتجالية والقراءة. وإذا ثبتت صحة هذه الفرضية ،

ألا يمكن تعميمها لتشمل كل المتغيِّرات ولا تقتصر على المتغيِّر( ng ) فقط ؟ وتؤكد بعض المتغيِّرات اللغوية الأخرى خضوعها لنفس النمط ، وبالتالي تبدو هذه الفرضية معقولة للغاية ، فهل يمكننا اعادة صياغتها بطريقة أكثر دقة ؟ ليس من المعقول أن يكون متحدثو الطبقات المتوسطة قد رفعوا من نسبة استخدامهم لـ [ n ] : ( ng ) في القراءة عنها في المحادثة الارتجالية وذلك لأنهم يستخدمون هذه الصيغة بالفعل طوال الوقت وبالتالي فَمِنَ المحتَمل أن يكونوا ، من حيث المبدأ ، على نفس درجة حساسية متحدثي الطبقات العاملة بالنسبة للاختلافات القائمة بين المحادثة الارتجالية والقراءة وان يكون استخدامهم للبدائل المتواضع عليها مرتفعاً نسبياً في القراءة عنه في المحادثة الارتجالية ، وذلك في البدائل التي يمكن زيادة نسبتها. وقد وُجِدَ مثل هذا النمط في أحد المتغيِّرات الأخرى وهو نطق الحرف / t / ( الذي يتباين بين [ t ] أو [ $t^h$ ] المتواضع عليها و [ ?t ] أو [ ? ] غير المتواضع عليهما ). فقد زادت نسبة استخدام متحدثي الطبقة الوسطى لصيغة [ t ] : ( t ) المتواضع عليها في القراءة بنفس نسبة الزيادة الحادة التي طرأت على استخدام متحدثي الطبقة العاملة ( تردجيل Trudgill ١٩٧٤ ــ أ : ٩٦ ). ومن ناحية أخرى ، لم تطرأ أية تغيرات على المتغيِّر ( t ) بين الأسلوبين العادي والرسمي حتى بين متحدثي الطبقة المتوسطة ، ويعد ذلك بمثابة تقويض للشطر الأول من هذه الفرضية. وفضلاً عن ذلك فهناك متغيّرات لا يطرأ عليها أي تغيير في الأساليب التي تستخدمها أية مجموعة من مجموعات المتحدثين ، بالرغم من ان مجموعات مختلفة من المتحدثين تختلف اختلافاً بيّناً في استخدامها لتلك المتغيّرات.

ولذلك فانه بالنسبة لنورويش ، علينا أن نستنتج ( مع تردجيل ) ان تأثير الأسلوب يختلف حسب (١) المتغيِّر اللغوي ، ذاته ، (٢) الطبقة الاقتصادية والاجتماعية التي ينتمي إليها المتحدث (٣) اختلاف الأساليب المعنية التي نكون بصدد دراستها بخاصة خلافها مع أسلوب المحادثة الارتجالية ، والذي لا يتطابق بالضرورة مع الخلاف بين المحادثة الارتجالية

والقراءة. وتظل المشكلة هي كيفية وضع هذه النتائج في اطار نظرية تأويلية شاملة. ولكن ليس هناك شك في اننا لم نكن نستطيع ادراك أبعاد هذه المشكلة دون هذه الدراسة الكمية التي جمعت المادة العلمية بالدقة المطلوبة.

**٥ ـ ٢ ـ ٤ مثال بلفاست:**

والدراسة الأخيرة التي سنقدمها هنا هي التي قام بها كل من جيمس وليزلي ميلروي James and Lesley Milroy في بلفاست في ايرلندة الشمالية، وقد قدَّما هذه الدراسات في عدد من الأبحاث المنشورة. (ج. ميلروي J. Milroy ١٩٧٨، ل. ميلروي ١٩٧٦، ميلروي ومارجرين Milroy and Margrain ١٩٧٨، ج. ول. ميلروي ١٩٧٨، ل. وج. ميلروي ١٩٧٧). ويختلف منهجهما في الدراسة عن منهج لابوف الكلاسيكي المستخدَم في دراسة ترديجيل لنورويش، ولكنه مشابه للمنهج الذي استخدمه لابوف نفسه في دراسة كلام المراهقين الزنوج الأمريكيين التي أجراها في نهاية الستينات (أنظر بصورة خاصة لابوف ١٩٧٢ ـ ب: الفصل ٧). إذا كنا سنتحدث عن أبحاث الزوجين ميلروي في صيغة الماضي فيجب التنبيه الى انهما ما زالا يعيشان في بلفاست وما زالا يطوران مناهجهما في ١٩٧٨.

إن الاختلاف الرئيس بين دراسة الزوجين ميلروي ودراسة ترديجيل سابقة الذكر، هو ان ليزلي ميلروي التي قامت بمعظم الأبحاث الميدانية، قد قبلت كصديقة من قبل معظم المجموعات التي قامت بدراستها، مما جعل من غير الضروري استخدام وسيلة المقابلة الرسمية. وكان من مميّزات ذلك الوصول الى دراسة الكلام العادي الحقيقي كما يُستخدَم بالفعل بين الأصدقاء، وذلك لأن وجود الباحثة لم يؤثر على درجة رسمية الموقف. وأيّاً كان درجة «العادية» التي يتقمّصها الغريب، تظل المقابلة الرسمية هي المقابلة الرسمية، وليس هناك ضمان لعادية الكلام الذي زعم كل من لابوف وترديجيل انه كلام «عادي». وهناك ميزة أخرى لمثل هذه الطريقة تلك انها

تفتح آفاقاً جديدة ومثيرة في التأويل النظري للمادة العلمية اللغوية الاجتماعية. فعندما نصبح أصدقاء للناس الذين نجري عليهم أبحاثنا ، فاننا نصبح بالتالي جزءاً من شبكة network العلاقات القائمة بينهم ، ويمكننا عندئذ استخدام بُنية هذه الشبكة مادة علمية اجتماعية يرتبط بها الكلام. وسنعود الى مناقشة هذا الرأي فيما يلي ( أنظر ٥ ــ ٤ ــ ٣).

وقد قرر الزوجان ميلروي قبل أن يبدءا دراستهما ألا يغطيا كل الطبقات الاقتصادية الاجتماعية واقتصرا على دراسة الطبقة العاملة في بلفاست. وقد تمَّ اختيار ثلاث مناطق محددة من المناطق العمالية تعد جميعاً نموذجاً للمناطق العمالية ذات المستوى المعيشي الهابط ، والتي تعاني من نسبةٍ عاليةٍ من البطالة وتعاني أنواعاً أخرى من الأمراض الاجتماعية » ( ج. ول. ميلروي J. & L. Milroy ١٩٧٨). ورغم التشابه القائم بينها فقد كانت هناك اختلافات هامة بين هذه المناطق الثلاثة ، حيث غَلَبَ على منطقتين من هذه المناطق المذهب البروتستانتي بينما غلب المذهب الكاثوليكي على المنطقة الثالثة. وفي المنطقة الأولى من هاتين المنطقتين البروتستانتيتين وهي منطقة باليماكاريت Ballymacarrett كانت الصناعة التقليدية ، وهي صناعة السفن ، ما تزال هي الصناعة السائدة بين السكان المحليين ، بينما كانت الصناعة التقليدية في المنطقتين الأخريين ، وهما المنطقة البروتستانتية الأخرى الهامر the Hammer والمنطقة الكاثوليكية هي صناعة النسيج التي تدهوَّرَ بها الحال حتى أصبح السكان دون عمل ، وبذلك لم يجد رجال هاتين المنطقتين مفراً من السفر الى خارج الحي السكني بحثاً عن العمل والرزق. وسنرى فيما بعد أهمية هذا الاختلاف في أنماط العمالة وارتباطه الوثيق باختلافات الكلام.

استطاعت ليزلي ميلروي في كل من هذه المناطق على حدة ان تقيم مجموعة من العلاقات مع مجموعة بعينها من السكان المحليين ، وذلك عن طريق تقديم نفسها دائماً للأفراد على انها « صديقة صديق فلان » ــ وهي

صفة اجتماعية شائعة ومتداولة في مثل هـذه الجماعـة ، وهيَ صفة تعـطي الباحثة صفة فرد من أفراد الأسرة. وبالطبع ، تتطلّب اقامة مجمـوعة كبيـرة من الصداقات والعلاقات والمحافظة عليها الكثير من البذل والعطاء والجهد من جـانب الباحثـة ( هذا عـلاوة على اللبـاقـة والشجـاعـة والـدبلومـاسيـة التي تحتاجها البـاحثة في مـدينة يمـزّقها الصـراع الطائفي ، مثـل بلفاست ) ولا يناسب مثل هذا النوع من الدراسة دارسي علم اللغة الاجتماعي الذين يفضلون الدرس والتأمل وهم في مقاعدهم الوثيرة. ونتيجة لجهودها أصبحت ليزلي ميلروي صديقة عزيزة يُسمح لها بزيارة أي منزل في أي وقت ، ويُسمح لها بالجلوس في المطبخ للاستماع للحديث والاشتراك فيه ، كلما أرادت ذلك ، كما سُمح لها أيضاً بـاصطحـاب مسجّل لتسجيـل الحديث بعـد ان شرحت لأصدقائها بانها مهتمة بكلام بلفاست. ويبدو انه من غير المحتَمل ان يكون وجودها أو وجود المسجّل قد أثر على الطريقة التي يتحدث بها الناس في مثل هذه الظروف.

وقد قام الزوجان ميلروي بتفريغ هذه الشرائط المسجلَة بنفس طريقة تـردجيل محـددين من البدايـة البدائـل من خـلال قـائمـة مسبقـة الاعـداد من المتغيَّرات ، وذلك بمقارنة تواترها في النصوص. ويبدو ان من أهم النتائج التي وصلا إليها هي أثر بُنية الشبكات الاجتماعيـة social network structure على الكلام. وسنعرض لذلك فيما بعد بالنسبة لعدد من العناصر الاجتماعية المختلفة المرتبطة بالتباين في الكلام ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٣).

**٥ ـ ٣ المتغيّرات اللغوية Linguistic variables :**

**٥ ـ ٣ ـ ١ أنواع من المتغيَّرات Types of variables :**

المتغيَّرات اللغوية التي قام علماء علم اللغة الاجتماعي بدراستها هي المتغيَّرات التي يثبت فيها المعنى بينما تتباين الصيغ ، هذا بالرغم من انه يمكننا من الناحية النظرية دراسة الجوانب التي تُستخدم فيها صيغ الماضي المختلفة

بطرقٍ مختلفة كمتغيَّر لغوي. ولكن مثل هذا التعريف لماهية « المتغيَّر اللغوي » قد تؤدي الى مشكلات حقيقية حيث انه من الصعب أن نحدد بوضوح ماذا نعني بلفظة « المعنى » أو ماذا نعني بثباته ، إذ يمكننا ، مثلاً ، القول بان كلمتي **cat** ( قط ) و **pussy** ( بوسي ) تدلان على نفس المعنى ، وبالتالي يمكن اعتبارهما متغيَّراً لغوياً بنفس الطريقة التي تسمح لنا باعتبار صيغتي نطق **house** دون [ h ] أو بها متغيَّراً لغوياً. ولكن مفهوم « المتغيَّر اللغـوي » ، لحسن الحظ ، ليس جزءاً من نظرية عامة في اللغة ، بل هو أداة من أدوات التحليل التي يستخدمها عـالِم اللغة الاجتمـاعي ، ولذلـك لا ينبغي ألاّ ينتابنـا القلق ازاء مثل هـذه المشكلات الخاصة بالتعريف. فعلماء علم اللغة الاجتماعي الذين يستخدمون « المتغيَّرات اللغوية » لم يحاولوا تعريفها تعريفاً دقيقاً ، ولا يبدو ان هناك أيـة جدوى من محاولة ذلك هنا.

وباستثناء قولنا بان « المتغيَّر اللغوي » ينبغي ألاّ يتطلّب أي تغيير في المعنى ليس لدينا ما نقوله عن الجوانب اللغوية التي يمكن ان تتضمن متغيِّرات. فهي قد تكون موجودة في نطق كلمات بعينهـا ، أو في نوع بـأكمله من الكلمات ( مثل كل الكلمات التي يبدأ في لكنة بعينها بـ [ h ] أو تنتهي بصيغة (ing-) أو في أنمـاط التراكيب. وقـد اقتصرت كـل الدراسـات التي قمنا بـإيجـازهـا على دراسة المتغيَّرات الخاصة بالنطق ، ولكن هناك عدداً كبيراً من الدراسات الخاصة بدراسة المتغيَّرات التركيبية نوضحها في القائمة التالية :

- ( no / any ) في اللغـة الانكليزيـة الأمريكيـة للمراهقـين من البيض والزنوج ( لابوف **١٩٧٢** ــ ب : الفصل الرابع ).

مثال : e.g. I didn't eat no / any apples.

- وجود أو عدم وجـود **is / are** في اللغة الانكليـزية الأمـريكية للزنـوج ( لابــوف **١٩٧٢** ــ ب : الفصـل الثـالث ، وهــو مجــرد واحــد من بين دراسات عديدة ).

مثال : e.g. John ( is ) tired.

- وجـود أو عدم وجـود **that** كحرف وصـل subordinating conjunction في اللغة الأمريكية المتواضـع عليها ( كـروش وسمال Kroch & Small ١٩٧٨).

مثال : E.g They think (that) it's difficult.

- وجود أو عدم وجود حرف النفي **ne** في فرنسية مونتريال ( سانكـوف وفينسنت ١٩٧٧ Sankoff & Vincent ).

مثال : e.g Pierre (ne) dort pas. 'Peter is not sleeping'.

- **avoir / etre** كفعل مساعـد مع بعض الأفعـال الفرنسيـة في مونتـريال ( سانكوف وتيبولت Sankoff and Thibault ).

مثال : e.g Pierre a/est parti. 'Peter has left'.

- **fu / tu** كحرف يسبق الفعل ( to ) في كريولية جيانا ( بيكرتون Bickerton ١٩٧١).

مثال : e.g You want fu/tu go.

المثال الأخير واحد من العديد من المتغيَّرات التراكيبية syntactic variables التي دُرِسَتْ في اللغات الكريولية ، والتي يبدو انها شائعة للغايـة . وعلى أيـة حال ، فان عدداً قليلاً جداً من هذه الدراسات يعد من الدراسات باستثناء ( لي بـاج ١٩٧٧ ــ أ Le Page ، لي بـاج وآخـرين ١٩٧٤ Le Page **et al** ). وهناك عرضـان شامـلان للمتغيَّرات التـراكيبية التي دُرِسَتْ ، أو التي ينبغي دراستها في سانكوف Sankoff (١٩٧٣ ب ) وتردجيل (١٩٧٨ : ١٣) .

وهناك عدد من المشكلات الهامة التي تجعل دراسة متغيَّرات النطق pro-nunciation variables أكثر صعوبة مما قد نعتقد لأول وهلة . ومن هذه المشكلات حالة الفوضى أو عدم الاستقرار التي تسود نظرية علم الأصوات phonological theory في الوقت الراهن ، حيث هناك مشكلات خـاصة بتعـريف الوحـدة الصـوتيـة المجـردة phoneme وبـطبيعـة الصيـغ التحتيـة underlying forms للكلمات ، الخ . فهل من الصواب مثلاً معاملة الصوت [ r ] في **cart** مثالاً

على نفس الوحدة الصوتية المجردة الموجودة في **car** ؟ وهل نستطيع اتخاذ الاختلافات التي وَجَدَها لابوف في دراسته لنيويورك دليلاً على انها وحدات صوتية مجردة مختلفة ( هذا إذا افترضنا ان مصطلح « الوحدة الصوتية المجردة » مصطلح ذو معنى ) ؟ وهل نكون على صواب عندما نتصوَّر ان الوحدات الصوتية المجردة مثل /h/ موجودة في الصيغة التحتية لكلمات مثل **house** ، بالرغم من ان المتحدثين لا ينطقونها في معظم كلامهم العادي ؟ وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فبأي حق نفترض ان أولئك المتحدثين يختارون بالفعل بين صيغتي نطق **house** دون [ h ] أو بها ، كما يفعل المتحدثون الآخرون الذين ينطقونها أحياناً ، ولكنهم في بعض الأحيان لا ينطقونها ؟ وستبدو هذه المشكلات أقل أهمية لو اننا تعاملنا مع المتغيَّرات اللغوية باعتبارها أدوات تحليلية فقط ، ولكن يظل السؤال مطروحاً عن كيفية تأويل عناصر المتغيَّرات اللغوية التي طُبِقَتْ دون تمييز على كل الكلام الوارد في العينّة المدروسة ، وذلك دون التفات للنظام اللغوي الخاص بكل متحدث ( أنظر سانكوف وتيبولت ١٩٧٨ Sankoff & Thibault اللذين يقدمان اقتراحات هامة بشأن ايجاد حلول لهذه المشكلات مع تجنب المشكلات اللغوية تماماً ) .

وبالاضافة الى المشكلات الخاصة بتعريف هذه المتغيَّرات في حد ذاتها ، هناك مشكلات أخرى خاصة بتحديد البدائل الخاصة بكل متغيَّر على حدة ، ومنها مسألة استقلال هذه البدائل discreteness وليست هناك أية متغيَّرات لا تطرح مثل هذه المشكلة بشكل أو بآخر ، ولكنها تبدو مشكلة هامة في حالة الصوائت. فقد كان الحرف الصائت ( a : ) أحد المتغيِّرات اللغوية التي درسها ترودجيل في نورويش وذلك في كلمات مثل **after, cart, path** ( ترودجيل ١٩٧٤ ــ أ : ٨٧). ويتباين هذا الحرف الصائت في نورويش من [ a : ] الخلفية الى صائت متقدم جداً ومنخفض [ a : ] وقد حدد ترودجيل لهذا الحرف قيمة وسطى بين هاتين النهايتين ، وقد رمز لهذا الصوت لغوياً بالرمز

[ : ä ~ : ä ] ولكن يبـدو ان هذا التقسيم مجـرد تقسيم مناسب ولا يعكس حقـائق النطق في نـورويش. وينبغي علينا ان نفتـرض ان هناك متـواصـلاً بـين [ : ä ] و[ : a ] ، وان أي تقسيم لا يعدو أن يكـون اعتباطيـاً ، وقد يؤدي مثـل هذا التقسيم في أحسن الأحـوال الى خـطأ في اطـلاق الأحكـام وقد يؤدي في أسوأها الى تحريف في النتـائج. ولـو اكتفينا مثـلاً ، بالتحـديد الثنـائي فقط دون افتراض نقـطة وسيطة فـان ذلك من شـأنـه أن يؤدي بنـا الى اعتقاد ان المتحدثين في نورويش لا ينطقون إلاّ هاتين الصيغتـين دون أية صيغة وسيطة ، ولا تكـون هناك وسيلة لبحث امكـانية استخـدامهم لتلك الصيغة الوسيطة. وقد نواجه نفس المشكلة حتى مع متغيِّر ، مثل (h) ، الذي قد يبدو ، لأول وهلة ، موجوداً كمقطع صوتي أو يبدو غير موجود ، بينما هو في حقيقة الأمر موجود بدرجات متباينة تماثل ما يحدث للحرف الصائت (: a ) الذي يمكن نطقه بدرجات خلفية backness متباينة.

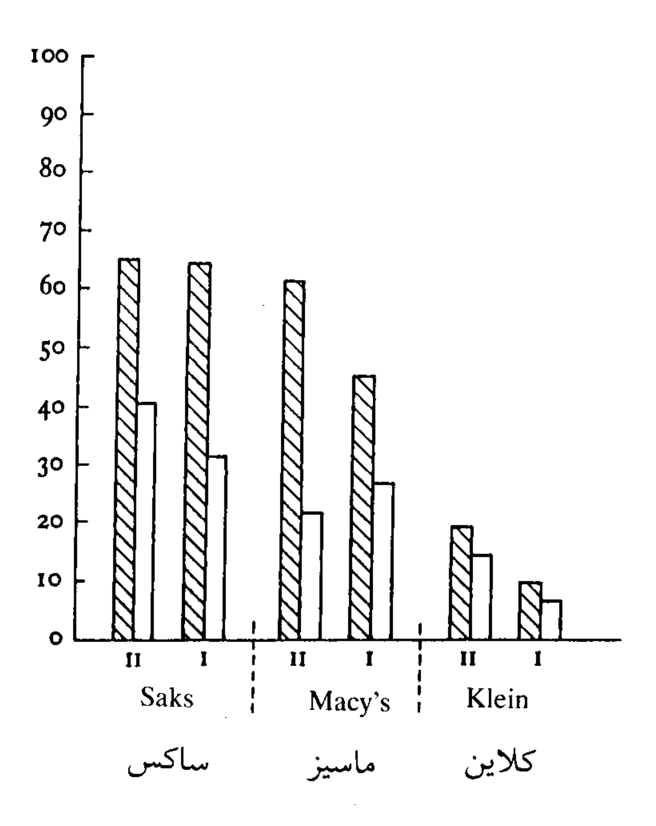
وهناك مشكلة أخرى خاصة بالأبعاد dimensions ( أنظر بصفة خاصة نولز Knowles ١٩٧٨ ). وربما تكون الفقرة الأخيرة قد أعطتنا انطباعاً بان المتغيِّر (: a) لا يحدده سوى بعد صوتي واحد فحسب ، هو على وجه التحديد درجة الأمـامية / الخلفيـة ( في وضع اللسـان frontness/backness ، ولكن الرمـوز الصوتية transcription ، التي استخدمها تردجيل ، تعتمد أيضاً على بعدٍ ثانٍ يعتمـد على المخـرج وعلى مـا إذا كان الصـوت فمويـاً أَم أنفيـاً nasal/oral ، فقـد يكـون البـديـل الأمــامي ( دون الخلفي أو الـوسيط ) أنفيــاً [: a]. وقد قام تردجيل بالجمع بين صيغتي [: a] و[: ã] كأمثلة على نفس البديـل. ومن ثم لم تعد هناك وسيلة للتعرف ، من خلال تحليله ، عـلى ما إذا كـانت هاتان الصيغتان قد استخدمهما أشخاص مختلفون أَم انهما استخدمتا في ظروف مختلفة ، ولا مفر أمامنا إلاّ ان نفترض ان تردجيل كان متـأكداً منـذ البدايـة ان الأمر ليس كذلك. وقد نعترض على ذلك بقولنا ان تردجيل لم يكن ليعرف

ذلك دون قيامه بتحليل كامل ، ولكن نظام لابوف التحليلي يجبرنا على تحويل كل الأبعاد الصوتية التي تختلف البدائل وفقاً لها الى بعدٍ واحد فحسب يتمثّل في قائمة واحدة منظّمة من البدائل . ( وسنعرف السبب في ذلك في ٥ ـ ٣ ـ ٢ ) .

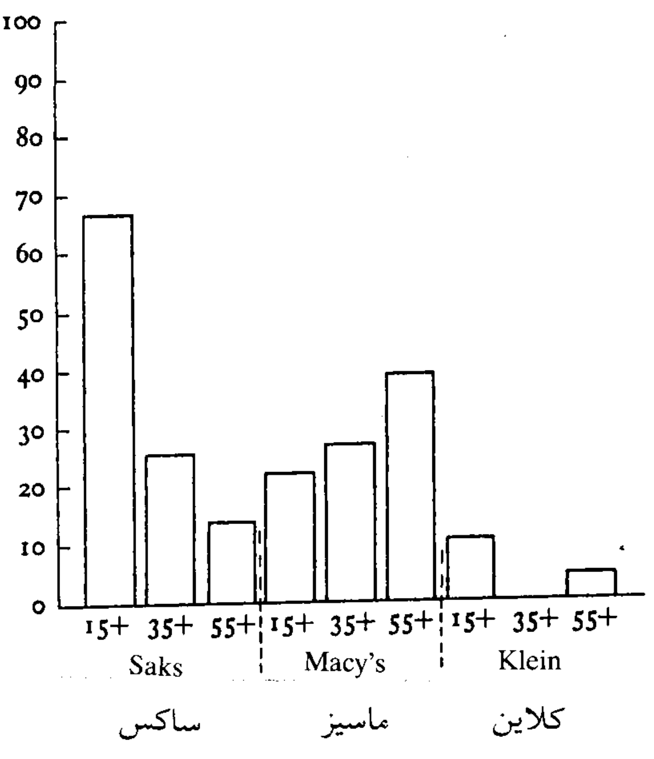
وقد تصبح المشكلات أكثر حدة ، عندما يكون هناك عدد أكبر من المتغيِّرات الصوتية ، كما هو الحال بالنسبة للمتغيّر (a) في بلفاست ( أنظر ج . وول ميلروي ١٩٧٨ ) وهو الحرف الصائت في كلمات مثل fast, man, bag, back, cat . ولهذا الصائت بدائل تتراوح بين الصيغ التالية : [a] وهي صيغة المكانة المحلية المرتبطة بالمتحدثين الذين ينتمون الى الطبقة المتوسطة ، ويستخدم المتحدثون من الطبقة العاملة الصيغة [ ɛ ] وهي مرفوعة وأمامية نسبياً ) وذلك قبل الصوامت الحلقية velar consonants مثل bag, back ويظهر الحرف [a] في سياقات أخرى أكثر خلفية وأحياناً يكون أكثر علواً raised وذلك دون صوت انزلاقي centring off—glide في الوسط أو به ، ويُنطق على هذا النحو [ ɔ . ɔ̃ ] . ولا تتوقف أهمية هذا المثال على تحديد عدد من التعارضات الصوتية المتداخلة ( مثل أمامية / خلفية منخفضة / مرتفعة / بدون صوت انزلاقي أو به ) بل انه يكشف أيضاً عن صعوبة تحديد هذه البدائل في قائمة واحدة منتظمة تبعاً لأسس صوتية ، فليس ثمة نهايات صوتية واضحة تمثّل قطبي هذه القوائم . فهناك متطرفات بالطبع ، ولكنها كثيرة جداً بحيث لا يمكننا التعامل مع كل من [a] و [ ɛ ] و [ ɔ . ə ] كنهايات متطرفة . والمشكلة هي ان منهج لابوف يتطلَّب وجود **قائمة** واحدة منظمة من البدائل بينها لا يمكن تحوّل نمط ثلاثي كالذي عرضناه في حالة بلفاست [a] الى قائمة لابوف . ( ويصف بردان ١٩٧٨ Berdan منهجاً احصائياً يمكن من خلاله تحديد النتائج الخاصة بعدد من المتغيِّرات المختلفة في صورة متغيِّر واحد أكثر تجديداً ، ولكن حتى باستخدام مثل هذا المنهج ينبغي أن يكون لدينا أكثر من متغيِّر مجرد واحد ) .

### ٥ ـ ٣ ـ ٢ حساب المعدلات للنصوص :

يقدم لنا منهج لابوف الكلاسيكي وسيلة سهلة لتحديد معدلات للنصوص وذلك حتى يمكننا أن نبيِّن أوجه الاختلاف وأوجه الشبه بين استخدامات المتحدثين للمتغيَّرات اللغوية. ولكننا سنرى ان هناك عيوباً خطيرة في مثل هذا المنهج. إذ يحسب المعدل في كل نصٍّ على حدة، وذلك لكل متغيَّر على حدة، الأمر الذي يسمح لنا بمقارنة النصوص من ناحية كل متغيَّر على حدة، ويعد ذلك الهدف الأولي للدراسات الكمية للنصوص. وحتى نتمكن من حساب معدلات النصوص الخاصة بكل متغيَّر على حدة، يجب تحديد معدل لكل بديل من بدائل هذا المتغيَّر على حدة فيصبح معدل النصّ هو متوسط كل المعدلات الفردية للبدائل في هذا النصّ. ولو اننا أخذنا مثالاً بسيطاً على ذلك، فلنقل ان لدينا متغيَّراً واحداً ذا بدائل ثلاثة هي أ، و ب، و ج، واننا قد قمنا بحساب المعدلات الخاصة بهذه البدائل على النحو التالي : ١ لكل مثال من أ، و ٢ لكل مثال من ب، و ٣ لكل مثال من ج. ولنفرض أيضاً ان لدينا نصّاً يتضمن ١٢ أ و٢٣ ب و٧٥ ج. وعلى ذلك سنقوم بحساب معدل النصّ على أساس معدل كل أ (١٢×١=١٢)، وكل ب (٢٣×٢=٤٦) وكل ج (٧٥×٣=٢٢٥)، ثم نقوم بجمع كل هذه المعدلات (١٢+٤٦+ ٢٢٥=٢٨٣)، ونقسّم الحاصل على مجموع عدد البدائل الموجودة (١٢+ ٢٣+ ٧٥= ١١٠) فيكون المعدل هو ٢٨٣÷ ١١٠= ٢,٥٧. وهذا هو معدل هذا النصّ الخاص بهذا المتغيَّر، ويصبح من السهل علينا بالتالي أن نقارن بين هذا المعدل ومعدل هذا المتغيَّر ذاته في كل النصوص الأخرى.




الشكل ٥ ـ ١ نطق (r) في نيويورك. النسبة المئوية لنطق [r] : (r) في المرة الأولى I ، وفي المرة الثانية II لكلمتي fourth ( الأعمدة البيضاء ) floor ( الأعمدة المخطَّطة ) للبائعات في ثلاثة متاجر في نيويورك ، نقلاً عن لابوف ١٩٧٢ ـ أ : ٥٢.




**الشكل ٥ ـ ٢ نطق (r) في نيويورك. نسبة توزع البائعات في ثلاث مجموعات أعمار في ثلاثة متاجر حسب استخدام [r] : (r) بانتظام. نقلاً عن لابوف ١٩٧٢ ـ أ : ٥٩.**

وهناك عيبان هامان في هذا المنهج ، يتعلّق أولهما بمسألة التنظيم الترتيبي ranking للبدائل والذي سبق ان أشرنا إليه في ٥ ـ ٣ ـ ٢ . حيث ان تحديد معدلات مستقلة لكل من البدائل المنفردة (١ لكل أ ، و ٢ لكل ب ، الخ ) يجب أن يتم وفقاً لأسس معينة ، وإلّا كانت هذه المعدلات لا معنى لها ، ذلك لأن تحديد المعدلات ليس مسألة جزافية حيث يمكن تغيير العلاقات الظاهرية بين النصوص تغييراً تاماً ، وذلك إذا استخدمنا نظاماً حسابياً مختلفاً على هذه المعدلات. ولا يبدو ان هناك مشكلة إذا وُجِدَ بديلان فقط لكل متغيِّر ، لأنه لا يهم في هذه الحالة أيها يعطي المعدل « الأعلى » وأيهما يعطي المعدل « الأصغر » ( بشرط أن نتمسك بنفس هذه المعايير في التحليل كله ). وتبدو المشكلة واضحة إذا كانت هناك ثلاثة بدائل أو أكثر ، لأن نظام حساب

المعدلات يعكس ترتيباً معيناً ordering للبدائل ، فيتم اختيار بديلين معينين متعارضين ، ثم يتم ترتيب البدائل الأخرى بينهما كقيم وسيطة . ومعنى ذلك ، انه إذا أمكن للقائم بالتحليل التعرف على ثلاثة بدائل أو أكثر من بدائل المتغيَّر الواحد ، فعليه اختبار اثنين من هذه البدائل كنهايات عظمى ، ويقوم بترتيب البدائل الأخرى على متواصل بين هاتين النهايتين . ويمكننا القيام بذلك في معظم الحالات استناداً الى العلاقات الصوتية القائمة بين هذه البدائل ، وذلك في حالة المتغيِّر الصوتي phonological variable فيمكننا ترتيب البدائل على أساس بُعدٍ واحد من الأبعاد الصوتية phonetic dimensions مثل درجة ارتفاع الصائت vowel height . وقد سبق أن رأينا ان المسألة لا تكون دائماً هكذا ، فقد يكون هناك أكثر من بُعدٍ واحد ، ولذلك فالحقائق الصوتية وحدها لا تهدي الباحث عند محاولة ترتيب البدائل . وهناك وسيلة أخرى لترتيب هذه البدائل تعتمد على المكانة الاجتماعية ، التي تتمتع بها هذه البدائل ، ويسمح لنا مثل هذا التنظيم باختيار أكثر البدائل المتواضع عليها وكذلك أقلها شيوعاً على أساس انهما قطبان متباعدان ثم ترتب البدائل الأخرى فيما بينهما حسب درجة « المواضعة عليها » . ومشكلة هذا التنظيم انه يفترض مقدماً ان المجتمع مرتَّب في نظام دَرَجي واحد تعكسه المتغيِّرات اللغوية . بينما لا يثبت الواقع صحة هذا الزعم دائماً ولذلك قد يؤدي مثل هذا المنهج الى نتائج غير صحيحة .

أما المشكلة الثانية في نظام لابوف لحساب المعدلات فهي خاصة بتوزيع البدائل distribution of variables ، لأن الحاصل النهائي الخاص بأي نصٍّ لا يوضح لنا الأرقام الخاصة بكل بديل على حدة . فالمعدل (٢) للنصّ الافتراضي الذي أسلفنا ذكره لا ينبئنا إلاّ باحتمال استخدام البديل (ب) بمعدل ٢ ، كلما تكرر هذا البديل ، أو باستخدام ( أ ) و ( ج ) بطريقة متساوية دون أي وجود للبديل ( ب ) . ولنضرب مثالاً واقعياً مستخدمين

في ذلـك المادة العلميـة التي استخدمتهـا سـوزان رومـين suzanne Romaine في دراستها لمتغيّر الحرف (r) في ادنبرة (١٩٧٨). وتتميز هذه الدراسة بانها تقدم معدلات منفصلة لكل بديل على حدة ، ولا تقتصر على اجمالي المعدلات لكل متغيّر من المتغيّرات. والمتغيّر (r) في هذه الدراسة كالمتغيّر الذي درسه لابوف في نيـويورك خـاص بالكلمـات التي تتضمن r في اللغة المكتـوبـة ، ولا يتلوه في نفس الكلمة صائت. ومع ذلك ، فان الأرقام المـذكورة هنـا تنطبق فقط على الحرف (r) الذي يظهر في نهاية الكلمة. وتبين هـذه الأرقام اثـر السياق اللغوي على البديل سواء كانت الكلمة التي تتضمن الصوت (r) متبوعة بوقفة pause أو متبوعة بكلمة أخرى تبدأ بصامت أو بصائت. وهذه البدائل ليست مطابقة تمـاماً للبـدائل التي حـددها لابـوف طالمـا ان هناك نـوعين من قبض الصوامت consonantal constriction للـ (r) في ادنبرة وهما : الصـوت المستمـر غير الاحتكاكي frictionless continuant كما في اللهجة البريطانية المتواضع عليها RP ومعظم اللهجات الأمريكية ويـرمز لـه بـ [ɹ] والصوت المستلَب [ r ] flapped ويظهر من الجدول ٥ ــ ١ توزيعـات هذين البـديلين في السياقـات الثلاثة التي سَبق ان ذكرناها ، وذلك بالاضافة الى البديل صفر ∅ ، ويتضح أيضاً من هذا الجدول اثر السياق في خلق كثير من الأنماط المعقّدة عند اختيار البديل المناسب . فقذ اتضح مثلاً ان وجود صائت في أول الكلمة التالية يؤدي الى تفضيل للبديل r المستلَب على البديلين الآخرين ، بينما تفضل السياقات الأخرى البديلين الصامتين الآخرين بنفس النسبة. وان البديل ∅ يكون أكثر استخداماً قبل وقفة منه قبل حـرف صامت. ولـو حاولنـا تحـويـل النتـائـج الـواردة في الجـدول الى معدلات نصـوص بالـطريقة المعتـادة فسيضيع معـظم هـذه المعلومـات فلو قلنا اننـا سنحدد ١ [r] و ٢ [ɹ] و ٣ ∅ فـان نتيجة النصّ النموذجي ستصبح ١,٣٤ (r) قبل الصائت.

الجدول ٥ ـ ١ (r) في ادنبرة ـ استخدام البدائل الثلاثة في صورة نسب مئوية لاستخدام (r) في ثلاثة سياقات لغوية ( نقلاً عن رومين Romaine ١٩٧٨ : ١٤٩ ).

| | قبل الصائت | قبل الصامت | قبل وقفه |
|---|---|---|---|
| [ r ] | ٧٠ | ٤٠ | ٣٤ |
| [ ɹ ] | ٢٦ | ٤٨ | ٣٨ |
| ∅ | ٤ | ١٢ | ٢٨ |

و١,٧٢ قبل الصامت و١,٩٤ قبل الوقفة ، وعلى ذلك يمكننا ان نخمّن ان الـ [r] أكثر شيوعا قبل الصوائت عنها قبل الوقفات ، وان ∅ أكثر شيوعاً قبل الوقفات عنه قبل الصوائت ، ولكن ذلك كله يعد تخميناً لا غير ، وهناك طرق أخرى كثيرة لتأويل مثل هذه النتائج تشمل بالطبع التأويلات المعقّدة التي تتطلبها هذه الأرقام بالفعل.

وعلى ذلك فَمِنَ الأفضل عدم تحويل هذه الأرقام المنفصلة الخاصة بكل من هذه البدائل على حدة الى معدل واحد لكل متغيِّر ، ولكن ينبغي علينا أن نترك الأرقام الخاصة بكل بديل على حدة كنسب مئوية من مجموع حالات وقوع المتغيِّر ، وبذلك يصبح من غير الضروري أن نضع معدلات مستقلة لكل بديل على حدة ، وقد يسهل ذلك حلّ مشلكة التنظيم الترتيبي.

**٥ ـ ٢ ـ ٣ حساب المعدلات الخاصة بالأفراد والمجموعات :**

يحصل دارس النصوص في علم اللغة الاجتماعي على مادته العلمية من عدد مختلف من الأفراد ، وغالباً ما يحصل على عدد من النصوص من كل فرد ، في ظروف مختلفة ( كما هو الحال في تسجيلات تردجيل حيث حصل في كل مقابلة على أربعة نصوص مختلفة ، كل منها خاص بأسلوب معيَّن ).

وقد تتطلّب أية دراسة عادية دراسة عشر متغيّرات في حديث ٦٠ فرداً ، في ظل أربعة أنماط من الظروف ، وهذا يؤدي الى (١٠×٦٠×٤=٢,٤٠٠) ٢,٤٠٠ معدلاً مختلفاً للنصوص ، وذلك إذا استخدمنا منهج لابوف الكلاسيكي. وقد يزيد عدد المعدلات عن ذلك كثيراً إذا استخدمنا المنهج البديل الخاص برصد نتائج كل بديل على حدة. والمشكلة الآن هي كيف يعالج الباحث هذا القدر الهائل من المادة العلمية دون أن يضيع في غياهبها. ويبدو ان أحسن الحلول في هذه الحالة هو استخدام حاسبة آلية مبرمَجَة ببرنامج احصائي معقّد ، ويحدث ذلك الآن بالفعل عندما يتوفر القدر اللازم من التمويل والعدد المناسب من العاملين.

وهناك حلّ آخر هو تخفيض عدد المعدلات عن طريق تحويلها الى متوسطات لأفراد أو مجموعات من الأفراد ، ويعد هذا المنهج منهجاً شائع الاستخدام بين دارسي علم اللغة الاجتماعي. فإذا استطعنا ، على سبيل المثال ، أن نحوّل ٦٠ متحدثاً الى ٨ مجموعات محددة على أساس انتمائهم لجنس معينّ أو طبقة اقتصادية اجتماعية ، لاستطعنا تخفيض مجموع عدد المعدلات من ٢,٤٠٠ الى ٣٢٠ ، أي حوالي ٣٢ نتيجة لكل متغيّر على حدة. وفضلاً عن ذلك ستزداد الحالات الممثلة في كل من هذه الأرقام ، لأن كل نتيجة خاصة بمتغيّر ستمثّل مجموعة من المتحدثين ولا تقتصر على متحدث واحد. ويتميّز ذلك المنهج بزيادة الدلالة الاحصائية statistical significance للاختلافات القائمة بين المعدلات ، حيث ان الدلالة الاحصائية للأرقام ، لا تعتمد فقط على حجم الاختلاف ، بل تعتمد أيضاً على عدد الحالات الممثلة في المعدل ، وبالتالي هناك ميزات هامة تجنى من تجميع هذه النتائج المنفصلة في صورة متوسطات.

ولقد كانت كل الأرقام المذكورة هنا حتى الآن ( في الأشكال ٥ ــ ١ الى ٥ ــ ٣ والجدول ٥ ــ ١) هي في الواقع متوسطات جماعية وليست نتائج.

فردية. وهذا هو الأمر الشائع في معظم الأبحاث الراهنة ، ومن النادر أن نجد نتائج منفصلة لكل من المتحدثين على حده. ( هناك بعض الاستثناءات لهذه القاعدة العامة في دوجلاس كوى Douglas — Cowine ١٩٧٨، ماكولي Macaulay ١٩٧٨ ، وريد Reid ١٩٧٨ ودراسات أخرى مثل لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ١٠٠ ــ ١٠٦ ، و١٦٨ و٢٨٨ و٣٠٦ ولي باج وآخرين Le Page et al ١٩٧٤ الذين قدموا ارقاماً لأفراد منتقين ، وإن كانوا لم يذكروا الأرقام الخاصة بكل أفراد العينة ). ومع ذلك فللاتجاه الخاص بتحويل المعدلات الفردية الى معدلات جماعية نتيجتان غير مرضيتين تتشابهان مع نتائج تحول معدلات البدائل الى معدلات المتغيرات.

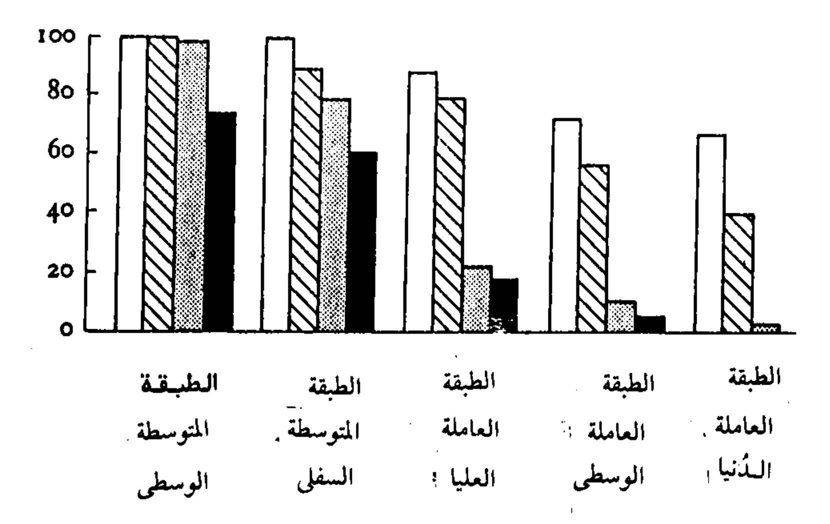
إن الاعتماد على المعدلات الجماعية يخفي حجم التباين الموجود داخل كل مجموعة. فالمعدل الجماعي (٢) ، مثلاً لمتغير بعينه يتراوح ما بين (١) و(٣) ، قد يكون نتاجاً لجميع أفراد الجماعة إذا حصلوا على معدلات يقارب (٢) ، أو قد يكون ناتجاً عن أن بعضهم قد حصل على معدل (١) وحصل بعضهم الآخر على معدل (٣) ، وفي الحالة الأولى يمثّل متوسط المعدل الجماعي (٢) معياراً يتجمع حوله كلام أفراد الجماعة بينما تعد هذه النتيجة غير ذات معنى ومضللة في الحالة الثانية. وليس لدينا طريقة لمعرفة ما إذا كان أي متوسط جماعي ذي معنى ، أو غير ذي معنى ، دون الاشارة لحجم التباين بين أفراد الجماعة ، وهذا ما يمكننا الحصول عليه بواسطة الاختبار الاحصائي المعروف باسم « الانحراف المعياري » standard deviation حيث تكون محصلته منخفضة جداً حين لا يكون هناك قدر كبير من التباين ، وتزداد محصلته بازدياد حجم التباين بين نتائج أفراد الجماعة . ويتضح نمط اللا تباين بين أفراد المجموعة من الجدول رقم ٥ ــ ٢ ، وقد نتبين من ذلك الجدول ان مجموعات المتحدثين المحددة سلفاً قد تكون على درجة كبيرة من التجانس من ناحية أنماطها الكلامية ، وذلك على عكس الحالة التي سنتعرض لها في الجدول رقم ٥ ــ ٣ حيث ان المجموعة غير متجانسة نسبياً من الناحية اللغوية .

الجدول ٥ ــ ٢ ادغام الصوائت في الفارسية الطهرانية : نسبة الصوائت المُدْغَمَة في الكلام العادي لأربعين متحدثاً مقسّمين على شكل ثماني* مجموعات حُدِدَتْ على أساس التعليم والجنس.

| الجنس | ذكر | | | | أنثى | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| درجة التعليم : | جامعي | ثانوي | ابتدائي | أمي | جامعي | ثانوي | ابتدائي | أمي |
| المعدلات | ٧ | ٢٤ | ٤٦ | ٧١ | ٥ | ٢١ | *٣٣ | *٥٥ |
| | ١٢ | ٢٨ | ٤٨ | ٧٧ | ٥ | ٢٢ | *٣٨ | ٦٠ |
| | ١٣ | ٣٢ | ٥٣ | ٨١ | ٦ | ٢٣ | *٣٩ | ٦٧ |
| | ١٤ | *٣٦ | *٥٦ | ٨١ | ٦ | ٢٨ | ٤٣ | ٦٨ |
| | ١٨ | *٤١ | *٥٧ | ٨٢ | ٦ | ٢٩ | ٤٨ | ٧٣ |
| المتوسط | ١٣ | ٣٢ | ٥٢ | ٧٨ | ٦ | ٢٤ | ٤٠ | ٦٥ |
| الانحراف المعياري | ٣ | ٦ | ٤ | ٤ | ٥ | ٣ | ٥ | ٦ |

وقد قدَّم نادر جاهانجيري Nader Jahangiri الأرقام الواردة في الجدول رقم ٥ ــ ٢ من المادة العلمية التي جمعها بطريقة لابوف من المقابلات التي أجراها مع ٤٠ متحدثاً فارسياً من طهران ( أنظر جاهنجيري Jahangiri ، في طور الإعداد ). وهذا المتغيِّر خاص بادغام صائت آخر في المقطع التالي من كلمات مثل /bekon/ ( يفعل ! ) والتي يتباين الصائت الأول فيها بين [e] و [o]. وتمثّل كل نتيجة نسبة الحروف الصائتة المُدْغَمَة في كلام متحدث واحد ، وقد رتبَّ المتحدثون في ثمانية أعمدة ، يمثّل كل منها مجموعة منفصلة . وقد تحددت المجموعات وفقاً لأسس غير لغوية حسب درجة التعليم ( التعليم الجامعي والثانوي والابتدائي أو الأمية الكاملة ) ، وتبعاً للجنس.

وهناك ظاهرتان تلفتان النظر في أرقام الجدول ٥ ــ ٢ وهما ظاهـرة التجانس الموجودة بين المجموعات وكذلك ظاهرة عدم التداخل بين مجموعة وغيرها. وتبيِّن العلامة النجمية ، على الأرقام المتداخلة ، ظاهرة التداخل بين معدلات المجموعة التعليمية والمجموعات المجاورة لها. ويتمثّل ذلك ، على سبيل المثال في المعدليين ٣٦ و ٤١ عند نهاية العامود الخاص ( بالذكور من ذوي التعليم الثانوي ) واللذين يتطابقان جزئياً مع الأرقام ٣٣ و ٣٨ و ٣٩ في قمة العامود ( أُناث من ذوي التعليم الابتدائي ). ويمكننـا أن نرى انـه لا يوجـد تطابق جزئي بين المجموعات التعليمية من نفس الجنس ، وكل الأرقـام التي تحمل علامة نجمية.




الشكل ٥ ــ ٣ نطق (ng) في نورويش. نسبة [g : (ng) في كلام خمس طبقات اقتصادية اجتماعية موزّعة الى أربعة أساليب : قـراءة قوائم المفـردات ( الأعمدة البيضـاء ) ، قراءة النصوص النثرية ( الأعمدة المظللة ) ، الأسلوب الرسمي ( الأعمـدة المنقطة ) ، الأسلوب غير الرسمي ( الأعمدة السوداء ). نقلاً عن ترديجيل ١٩٧٤ ــ أ ٩٢.

تمثّل حالات يظهر فيها تطابق جزئي بين الذكور في أحـد الجماعـات مع الأناث في الجمـاعة التـالية لهم. أمـا بالنسبـة لدرجـة التجانس العـالية بـين المجمـوعـات ، فتتضـح من نتـائـج اختبـار « الانحـراف المعيـاري »

التي تعكس بدورها درجة انحراف النتائج الفردية عن متوسطات نتائج المجموعة ككل. ويتبينّ لنا من الجدول ان نتائج اختبار « الانحراف المعياري » منخفضة الى درجة مدهشة ، فلا يزيد رقم من هذه الأرقام عن ٦ ، بينما يمثّل أحدهما ، وهو صفر ، درجة التطابق القصوى بين خريجات الجامعة. وقد تبدو هذه النتائج مدهشة للغاية خاصة إذا عرفنا انها تمثّل النسبة المئوية لكلمات مثل /bekon/ حيث يُدْغَم الصائت الأول فيها بالصائت الثاني في سياق الكلام العادي. وتقدم لنا مثل هذه النتائج تحدياً حقيقياً لكل دارس يبحث عن نموذج نفسي أو اجتماعي لتفسير ظاهرة التباين اللغوي Linguistic variation.

أما المادة العلمية المذكورة في الجدول ٥ ــ ٣ فهي مأخوذة من دراسة لنطق ١٦ صبياً في الحادية عشرة من عمرهم من ثلاث مدارس مختلفة في ادنبرة. وقد علّق الأطفال ميكروفنات لاسلكية حول أعناقهم أثناء فترات اللعب في فناء المدرسة ، ولذلك فقد تصوَّر الباحث ان المادة العلمية التي تمَّ جمعها قريبة الى حدٍ كبير من نوع الكلام الذي يستخدمه الأطفال وهم على سجيتهم. وقد تمَّ اختيار المدارس لتمثّل كل منها مجموعة مختلفة من الخلفيات الاجتماعية. ويمكننا أن نتبينَّ ان تقسيم الأولاد وفقاً للمدارس التي ينتمون إليها قد أدتْ الى نتائج متنافرة تماماً بالنسبة للمتغيِّر (t) بالاضافة الى وجود قَدَر هائل من التطابق الجزئي بين المجموعات. وقد قدَّم ريد Reid الكثير من المعلومات عن مهن آباء هؤلاء الأطفال ، ولكن حتى ذلك المقياس الذي يفترض فيه الدقة لم ينتهِ الى جماعات أكثر تجانساً. وقد صُنِفَتْ مهن آباء أطفال المدرسة الأولى على النحو التالي : ملاحظي عمال وعمال وحرفيين مَهَرة وعمال يعملون لحسابهم الخاص وليسوا مهنيين وذلك باستثناء الطفلين المميزين في الجدول بعلامة النجمة ، والذين كانت مهن آبائهم عامل نصف ماهر أو غير ماهر وعامل خدمات شخصية ، أما الطفلان المميزان بعلامة نجمية في عامود المدرسة الثانية ، فقد كان أبواهما ملاحظي العمال ، أو ما شاكل ذلك ، بينما كان آباء بقية الأطفال من طبقة « المهنيين والمديرين

وأصحاب الأعمال ». وسواء أقسمنا المجموعات وفقاً للمدرسة أم وفقاً لمهنة الأب ، أم وفقاً لكليهما ، فَمِنَ الواضح ان متوسط مجموعات استخدام المتغيَّر [ ? ] : (t) ليس ذا أهمية اطلاقاً.

الجدول ٥ ــ ٣ متغيِّر الـ (t) في ادنبرة : النسب المئوية لمتغيِّر الـ (t) حين ينطق [?] أو [t ?] بين ١٦ طفلاً عندما يستخدمون أسلوب كلام « اللعب في فناء المدرسة » ( نقلاً عن ريد Reid ١٩٧٨ : ١٦٠).

| المدرسة ١ | المدرسة ٢ | المدرسة ٣ |
|---|---|---|
| ٣٠ | ٦٠ | ٦٥ |
| ٦٩* | ٨٠* | ٧١ |
| ٦٩* | ٨٥ | ٨٠ |
| ١٠٠ | ٨٥ | ٨٨ |
| ١٠٠ | ٨٩ | |
| ١٠٠ | ٩٠* | |

وترتبط بهذه المشكلة ارتباطاً وثيقاً مشكلة ثانية متعلقة بمعدلات هذه المجموعة ، بل هي نابعة منها . وإذا كان تقسيم المتحدثين أو النصوص الى مجموعات مسألة تسهل للباحث مهمته ، عندما يواجه قَدَراً هائلاً من المادة العلمية التي لا يسهل التعامل معها ، لا تصبح هناك مشكلة. وليس هناك أدنى شك في ان مسألة تجميع المادة العلمية في صورة جماعات يساعدنا على رؤية اتجاهات واضحة ومتنوعة بشكل عام في المادة العلمية ، وقد لا نتنبه الى هذه الاتجاهات العريضة إذا لم نفعل ذلك. ولكن هناك خطورة حقيقية في التحرك من هذا الموقف الى موقف مختلف تماماً يتصور فيه الباحث ان هذه التصنيفات

تصنيفات اجتماعية « حقيقية » ، أعني انها جزء فعلي من البُنية الموضوعية للمجتمع ، وهي بالتالي جزء من الاطار النظري العام الذي تؤل من خلال النتائج . وقد يكون ذلك التصور مبرراً في حالات بعينها ، ولكن من المهم ان نضع في اعتبارنا وسائل بديلة لتأويل المادة العلمية دون ان نفترض وجود مجموعات مستقلة في المجتمع . وقد سبق ان ذكرنا واحداً من هذه البدائل وهو البديل الخاص بتصور ان المجتمع مبني جزئياً على أساس شبكات من الناس ، وثيقة الاتصال ، وقد يتأثر هؤلاء الناس بدرجات متفاوتة بالمعايير norms التي سبق ان تواضعتْ عليها هذه الشبكات المختلفة . ومن العيوب الرئيسية للتحليل الجماعي group analysis انه لا يسمح لنا بالتعامل مع الأفراد الذين ينتمون الى هذه المجموعات بدرجات متفاوتة ومتباينة . فلو اننا جمعنا النتائج الفردية في صورة متوسطات جماعية لا يبقى من الفردية أو تفاوت درجات الانتماء ما يمكن أن نضعه في اعتبارنا . وسنعود الى استخدام هذه الشبكات فيما بعد (٥ ـ ٤ ـ ٣) .

وفي النهاية ، نوجز أهم ما قدّمناه في هذا الجزء ، فقد نقدنا منهج لابوف الخاص بتحديد البدائل ، وبحساب المعدلات لأنه يؤدي الى فقدان كثير من المعلومات التي قد تكون هامة للغاية . فقد نفقد المعلومات الخاصة بهذه البدائل عندما نجمع هذه النتائج المستقلة في صورة نتائج جامعة للمتغيِّرات ، وسنفقد المعلومات الخاصة بكلام المتحدثين من الأفراد لو حاولنا تجميعها في صورة متوسطات للمجموعات .

ويفرض مثل هذا المنهج ، في كل مرحلة من مراحله ، نسقاً خاصاً على المادة العلمية ، وقد تكون هذه الانساق أضيّق مما تسمح به طبيعة هذه المادة ، الأمر الذي يؤدي الى تحريف في النتائج ، فقد يفرض على سبيل المثال ، حدوداً صارمة على معايير صوتية غير محدودة بذاتها non—discrete phonetic parameters ، وقد يستخدم أنظمة ترتيبية مفتعلة لترتيب بدائل

مترابطة، بروابط عديدة ،وقد يقوم الباحث بتصنيف المتحدثين في مجموعات منفصلة ، بينما هم في الواقع مترابطون في شكل شبكات ، ولا ينتمون الى مجموعات . وليس من السهل دائماً التخفيف من حدة أو جمود هذا المنهج التحليلي ، ولكن علينا أن نأمل أن تقدم لنا المناهج الحديثة نتائج أكثر استنارة من تلك النتائج التي قدمها لنا المنهج الكلاسيكي للابوف .

**٥ ــ ٤ مؤثرات على المتغيِّرات اللغوية :**

**٥ ــ ٤ ــ ١ السياق اللغوي :**

يعرض هذا القسم لأنواع العناصر التي وُجِدَ انها تؤثر في اختيار البدائل في المتغيِّرات اللغوية . وسنبدأ هذا العرض بدراسة آثار السياق على اختيار البدائل . والحقيقة ان مثل هذه الدراسة ليست من صميم اختصاص عالم اللغة الاجتماعي ، ولكنها تقع في مجال اختصاص الدراسات اللغوية النظرية الخالصة الخاصة بالـبُنية الداخلية للغة دون الرجوع الى المجتمع . ولكن علماء علم اللغة النظريين المهتمين بالـبُنية الداخلية للغة لم يهتموا بدراسة النصوص بل اهتموا بدلاً من ذلك بالمناهج الاستبطانية لدراسة اللغة introspective ، وبالتالي فانهم قد تركوا لعلماء علم اللغة الاجتماعي أمر الدراسات الكمية للكلام الخاصة بأثر وحدة بعينها على الوحدات الأخرى المجاورة . وللمرة الثانية ، كان ويليام لابوف أول مَنْ دَرَس هذه الأنماط دراسة تفصيلية في دراسته « لحذف » deleion كلمة ( is ) أو لاختصارها contraction في كلام المراهقين من الزنوج الأمريكيين ( لابوف ١٩٧٢ ــ ب : الفصل الثالث ) .

وقد كشفت هذه الدراسة بشكل عام ان تأثير السياق اللغوي على اختيار بعض البدائل تأثير احتمالي probablistic وليس تأثيراً يقينياً بشكل مطلق categorical كما افترضت بعض الدراسات السابقة بالفعل . وقد سبق ان ظهر من الجدول ٥ ــ ١ ، ان أثر الصوت التالي للكلمة المنتهية بالصوت /r/ يزيد من احتمال استخدام بديل بعينه في بعض السياقات دون استخدامه

في سياقات أخرى ، ولا يؤدي الى حذف البديل تماماً من بعض السياقات ، أو الى جعله اجبارياً في سياقات أخرى. ومن المؤكد ان معظم علماء علم اللغة الوصفي descriptive وعلماء الصوتيات كانوا قد أدركوا ان بعض جوانب اللغة احتمالية ، لا يقينية ، ولكنهم لم يفسحوا مجالاً في اطار نظرياتهم لمثل هذا التباين الاحتمالي.

وتنتمي السياقات التي سبق ان ذكرناها للأنواع المألوفة للغاية. وتعود متغيِّرات pronunciation variables الى نوعية الصوت الذي يتبع المتغيِّر أو مع موقع الصوت في الكلمة ، وما الى ذلك. وهناك عدد من المتغيِّرات خاص بوجود كلمة معينة أو عدم وجودها ، وغالباً ما يكون الجانبان الصوتي والتراكيبي من السياق اللغوي مسؤولين عن ذلك. ومن الأمثلة على هذا المتغيِّر ( is ) الذي قام لابوف بدراسته ( لابوف ١٩٧٢ ــ ب : الفصل الثالث ) ، ولهذا المتغيِّر ثلاثة بدائل أو صيغ وهي is و s' و $\varnothing$. وقد تبيَّن ان العوامل التي تؤثر على اختيار الصيغة المناسبة هي النوعية النحوية للفاعل ( أعني ما إذا كان اسماً أم ضميراً ) ونوعية المكمّل complement ( ما إذا كان صفة / شبه جملة اسمية ) NP أم ظرف مكان locative أو فعل ، وطبيعة الصوت التالي له ( ما إذا كان صائتاً أو صامتاً ). وهناك على أقل تقدير ، مثال واحد على متغيِّر تراكيبي خالص ، لا يتأثر إلاّ بالسياق التراكيبي فحسب ، وذلك هو المتغيِّر (bbi) في التوك بيزين Tok Pisin ( سانكوف Sankoff ١٩٧٣ ــ ب ) ( وهو مشتق من صيغة 'by and by' باللغة الانكليزية ) وهو يُستخدم للدلالة على زمن المستقبل ، وغالباً ما يُستخدم قبل الفاعل أو بعده ، ويعتمد ذلك على ما إذ كان الفاعل شبه جملة اسمية أو ضميراً ، فإذا كان الفاعل ضميراً سيصبح الأكثر احتمالاً أن تسبق ( باي ) الفاعل بدلاً من ان تتبعه ، ولكننا لا نستطيع ان نستبعد الاحتمالين تماماً في كِلتا الحالتين.

ولعل أهم جوانب دراسة السياق اللغوي هي مسألة اختلاف

الـوحدات المعجميـة lexical differences في السياقـات المختلفة . فقـد أصبح من الواضح ان احتمال استخدام بديل في كلمة بعينها قد يتغيَّر وفقاً لطبيعـة الكلمة ذاتها ، وليس بسبب خصائصها الصوتية أو التراكيبية . وأحد المتغيَّرات في بلفاست ، على سبيل المثال ، هو الصائت في كلمات مثل pull, put, took, could ونستطيع أن نطلق على هذا المتغيَّر الرمز (ʌ) ١ ويتبـاين هذا المتغـيَّر بين الصيغة (ʌ) ( كما تنطق في كلمة cut باللغة الانكليزية المتواضع عليها RP والصيغة [ʉ] ( كما في نطق كلمة put في اللغة الانكليزية المتواضع عليها ) . وقد كان من الجهود المبذولة في تحليل المادة العلمية التي جمعها الزوجان ميلروي Milroys أن تمَّ جمـع قائمـة من الكلمات التي تتضمن هـذا المتغيَّر ، كـما تمَّ حساب معدل لكل كلمة ( ماكليرين ١٩٦٧ Maclaren وج . ميلروي ١٩٧٨ J. Milory ) . ان استخـدام الكلمـات التي تتضمن [ʌ1] : (ʌ) (أنظر الجدول ٥ ــ ٤) توضح الحقيقة الخاصة بتباين احتمالات استعمال بديل معيَّن من كلمة الى أخرى ، دون أن نستطيع تفسير ذلك وفقاً للاختلافات الصوتية بين هذه الكلمات .

ولعل أهمية هذه النتائج ترجع الى انها تقدم لنا أدلة تدعم نظرية « انتشار المفردات » Lexical diffusion وهي النظرية القائلة بان التغيير الصوتي الزماني diachronic sound change قد ينتشر تدريجياً من خلال معجم اللغة لا من خلال التأثير في كل الكلمات في اللغـة بنفس الدرجـة في آنٍ واحد . ( أنـظر شين وهسييه ١٩٧١ Chen & Hsieh وشين و وانج ١٩٧٥ Chen & Wang وهسييه Hsieh ١٩٧٢ ، ١٩٧٥ ، و وانـج Wang ١٩٦٩ ، وانـج وشينـج Wang & Cheng ١٩٧٠) . وهناك دلائل واضحـة على ان استخـدام البديـل [ ] في كلمات مثل pull في بلفـاست يعد استحـداثاً ، ويـظهر الجـدول ٥ ــ ٤ ان هـذا الاستحداث قـد أثّرَ عـلى الوحـدات المعجمية المختلفـة بـدرجـات متفاوتة .

الجدول ٥ ـ ٤ (ʌ) بلفاست : النسب المئوية [ʌ] في ثماني كلمات ( نقلاً عن ماكليرين Maclaren ١٩٧٦).

| مجموع عدد الاستخدامات | النسب المئوية [ʌ] |
|---|---|
| ٦٩ | ٧٤ |
| ٣٢ | ٤٧ |
| ٣٠٩ | ٣٩ |
| ١٤٨ | ٣٣ |
| ٢٦٦ | ٣١ |
| ١٩١ | ٢٧ |
| ٥٤١ | ١٦ |
| ٥٩ | ٨ |

ويقول ج . ميلروي J. Milroy (١٩٧٨) ان مجموع الاختلافات الواردة في الجدول ٥ ـ ٤ تبين ان بعض الكلمات تنطق [ʌ] ( وتقريباً بصفة مستمرة ) وبنسب متفاوتة بين السكان ، فحوالي ثلاثة أرباع العينة من المتحدثين ينطقون pull [ pʌl ] بينما ينطق أقل من العشر should [ sʌd ] وبعبارة أخرى تقع كل من هذه الكلمات في أحد تصنيفين معجمين بالنسبة لكل متحدث ، والتصنيف الأول هو تصنيف الـ [ u ] والتصنيف الثاني هو تصنيف [ʌ] والانتقال من صيغة [u] الى صيغة [ʌ] يتطلب تغيراً تدريجياً .

هل هناك علاقة إذن بين نظرية انتشار الوحدات المعجمية ونظرية الموجات التي سبق ان عرضنا لها في ٢ ـ ٣ ـ ٢ ؟ وما ماهية هذه العلاقة ؟ تدعي نظرية الموجات ان التغيرات تنتشر تدريجياً بين السكان ، ويماثل ذلك تماماً ما يحدث في نظرية انتشار الوحدات المعجمية . فالمتغيِّرات تنتشر تدريجياً

من خلال المعجم وبالتالي ينبغي ان نتوقع وجود علاقة وثيقة بين النظريتين. ونستطيع أن نقول فرضاً ( وتلك فرضية منطقية ) ان مثل هذه التغيرات تنتشر بطريق التراكم في المعجم في نفس الوقت الذي تنتشر فيه بين السكان ، وعلى ذلك فان الكلمات التي تتأثر أولاً بالتغير ستكون بدورها من أول الكلمات التي تتخذ الصيغة الجديدة عند استخدامها. ولا نستطيع ان نبرهن على ذلك بالفعل من خلال الجدول ٥ ــ ٤ ، فَمِنَ المحتمل ، مثلاً ، ان الأعداد القليلة من الناس الذين يستخدمون الصيغة الجديدة لنطق **should** ما زالوا ينطقون **pull** بصيغتها القديمة والعكس أيضاً صحيح. والفرضية المطروحة هنا تنبىء بان كل من يستخدم الصيغة الجديدة **should** سيستخدم الصيغة الجديدة لكل الكلمات الأخرى المدرجة في القائمة. وهناك دلائل قليلة لاثبات هذه الفرضية ، وهي دلائل يمكن استخلاصها من الجدول ٥ ــ ٥ ، وهو جدول خاص بظاهرة ادغام الصوائت في الفارسية في طهران ( أنظر الجدول ٥ ــ ٢ ). ويقدم لنا هذا الجدول مجموعتين منفصلتين من المادة العلمية لستة كلمات قابلة للادغام. ويظهر من الأرقام ، الى اليمين ، الى أي مدى يمكن أن تدغم الكلمة في الكلام العادي لاستعمال المتحدثين المشتركين في الدراسة ، ويتضح من ذلك خلال كامل بين كلمات مثل /bekon/ ( بيكون ) التي تدغم دائماً وبين كلمة مثل /bebor/ ( بيبور ) التي لا تدغم إلّا قليلاً. وتبين علامات الزائد الواقعة على اليسار الكلمات التى ادغمها سبعة من المتحدثين ــ موضوع الدراسة ــ والتي طلب منهم أن يقرأوا قائمة من الكلمات التي يمكن ادغامها. ويمكننا أن نرى ان المتحدث ( أ ) ادغم كل الكلمات الواردة في القائمة ، وذلك على عكس المتحدث ( د ) الذي لم يدغم أيّاً منها ، ويتضح أيضاً ان كل الكلمات التي ادغمها أحد المتحدثين قام بادغامها أيضاً كل المتحدثين الواقعين على يساره في التسلسل الهرمى ( ويمكننا ان نطلق على هذا النوع نمط « التدرج الضمني » implicational hierarchy وسنعرض له في ٥ ــ ٥ ــ ٢ ). أما بالنسبة للكلمات المنتقاة والمتحدثين فيتضح من الجدول ٥ ــ ٥ ان الظاهرة الحديثة الظهور والخاصة بادغام

الكلمات تنتشر بشكل تراكمي في المعجم وبين السكان ، كما سبق ان توقعنا حسب الفرضية المطروحة . لكن ينبغي علينا أن نقول ان الكلمات والمتحدثين قد أُختيروا خصيصاً حتى يمكننا أن نقدم مثالاً واضحاً على هذه النقطة لأن النمط الذي اتخذته هذه الدراسة في مجموعها والتي استخدم فيه عشرة من المتحدثين ، طُلِبَ منهم أن يقرأوا ٦٠ كلمة يشير الى ان هناك كثيراً من الفوضى والخلط ، ويشير أيضاً الى السلطة المتناهية للفرضية الأصلية . ومن الصعب ، مثلاً ، أن نعرف مسبقاً الأسباب التي تمنع استخدام الصيغ المستحدثة بواسطة متحدثين مغايرين لأولئك الذين استحدثوها ( أو أبنائهم ) ولكن الفرضية تستبعد مثل هذا الاحتمال .

**الجدول ٥ ـ ٥ ادغام الصوائت في الفارسية الطهرانية . استخدام ٧ من المتحدثين المتقين للصيغ المُدْغَمَة في ٦ كلمات عند القراءة من قائمة المفردات ، واستخدام جميع المتحدثين لهذه الصيغ في الكلام العادي ( نقلاً عن دراسة جاهانجيري ، في طور الإعداد ) .**

| الادغام في الكلام العادي لجميع المتحدثين | | الادغام في قراءة سبعة من المتحدثين من قائمة المفردات | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| المجموع | النسبة المئوية للادغام | أ | ب | ت | ج | ح | خ | د | |
| ٣٣١ | ٩١ | + | + | + | + | + | + | | /bekon/ أفعل |
| ٢٣ | ٧٨ | + | + | + | + | + | | | /bedo/ أجرى |
| ١٣٩ | ٤٠ | + | + | + | + | | | | /bexan/ |
| ١٣٢ | ٢٢ | | | | | | | | اقرأ |
| | | + | + | + | | | | | /begu/ |
| ١٢٢ | ٤ | | | | | | | | قل |
| ١٢٤ | ٣ | + | + | | | | | | /bekub/ اضرب |
| | | | | | | | | | اقطع |

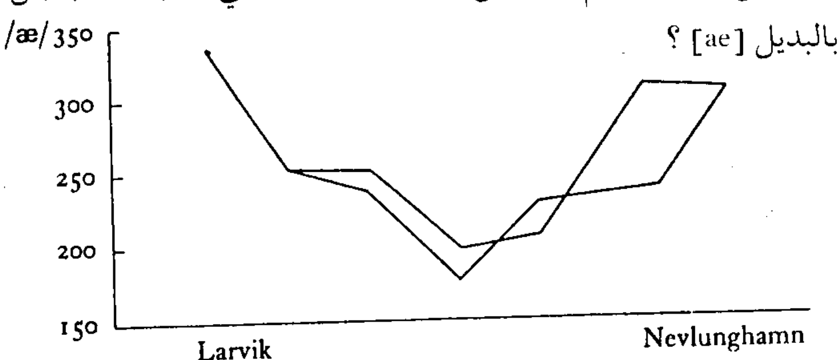
### ٥ ــ ٤ ــ ٢ انتماء المتحدث الى مجموعة : The speaker's group membership

ولعل أهم المؤثرات التي تؤثر في المتغيِّرات هو المتحدث نفسه ، أعني نوعية المتحدث وماهية التجارب التي مرَّ بها. ( وهناك مصدر آخر واضح للتأثير ، سبق أن ذكرناه ، وهو درجة رسمية الموقف ). وقد قام علماء علم اللغة الاجتماعي بدراسة شاملة لنوعيات التباين بين المتحدثين. وتتضمن هذه الدراسات دراسة مسقط رأس المتحدث ونشأته وحالته الاجتماعية والاقتصادية والجنس والعنصر والعمر. وتؤكد نظرية أفعال توكيد الهوية acts of identity ان كل هذه العوامل تؤثر في كلام المتحدثين بقدر تمثيلها لمجموعات اجتماعية يمكن للمتحدث التعرف عليها. أي بعبارة أخرى ، ان المهم ليس هو مدى خبرة الفرد بنوعية معينة من الكلام ، بل مدى رغبته في الانتماء الى نوعية الناس الذين يتحدثون بهذه النوعية. ولكن من الجدير بالذكر ان هناك دلائل قليلة على صحة ان مجرد التعرض للنوعية المتواضع عليها من خلال التلفزيون يمكن ان يؤثر في كلام الناس الذين يرغبون في الانتماء الى الطبقات الاجتماعية العليا ( نارو Naro ١٩٧٨ ). وان تأثير وسائط الاعلام على كلام الناس يستحق دراسة دقيقة وشاملة ، لكن هذا الأمر لم يلق اهتماماً فعلياً.

لقد سبق أن ذكرنا أمثلة على الاختلافات الناشئة عن تفاوت المكانة الاقتصادية والاجتماعية والعمر والجنس ولا داعي للاطالة في تقديم مثل هذه الأمثلة ، ولكن هناك عاملان لم نوضحهما بالأمثلة وينبغي أن نعرض لهما لأنهما مرتبطان بالجزء ٥ ــ ٤ ــ ٣. هذان العاملان هما تأثير المكان والعِرق.

وقد قام بيتر ترجيل بدراسة تأثير **المكان** الذي يعيش فيه الانسان (١٩٧٥ ــ ب ) وذلك عندما اتخذ مادة دراسته متغيِّراً لغوياً من جنوب النرويج وهو الصائت الذي يتباين بين البديل [ɛ̈] والبديل الخلفي [a] المرفوع نسبياً. والبديل الأخير صيغة مستحدثة نشأتْ في مدينة محلية وهي مدينة لارفيك Larvik وانتشرتْ في المناطق المحيطة بها. والمكان الوحيد المأهول بالسكان في المنطقة هو نيفلنجهامن Nevlunghamn ويربطها بلارفيك طريق ،

وتقع كِلتا المدينتين في طرفي شبه الجزيرة المتباعدين ( وهي في الواقع الطرف الجنوبي للنرويج ). وقد قام تردجيل وزميله النرويجي بمقابلة الناس الذين يقطنون في منازل سبق ان وقع اختيار الباحثين عليها والواقعة على مسافات منتظمة التباعد على خطين بين لارفيك ونيفلنجهامن كما قاموا بمقابلة أناس آخرين يقطنون في المدينتين ذاتها. وتظهر الأرقام الخاصة بحرف [ ae ] في كلام الناس الذين تمت مقابلتهم في الشكل رقم ٥ ــ ٤ ويظهر في هذا الشكل المحور الأفقي وهو يمثّل المسافة بين المدينتين والمحور الرأسي وهو يمثّل نسب استخدام [a] : (ae) ويمثّل الخطان الطريقين اللذين يصلان في المدينتين ويتضح ان المنحنيات الموجودة في الشكل ٥ ــ ٤ في الأماكن المتوقعة جاءت طبقاً لنظرية الموجات (٢ ــ ٣ ــ ٢). وقد تمَّ رصد أعلى النتائج في مدينة لارفيك وهي مصدر الصيغة المستحدثة ، ويتلوها في الارتفاع نيفلنجهامن ذات الطريق السهل والارتباطات التجارية المنتظمة ، بينما رصدت النتائج المنخفضة في المناطق المأهولة البعيدة عن هذين المركزين المؤثرين. ومرة أخرى تواجهنا صعوبة في كيفية تأويل هذه النتائج من الناحية اللغوية ــ فهل الاختلافات ناتجة عن عدد المفردات التي تأثرتْ بالصيغة المستحدثة أَم انها ناتجة عن المعدل العام الخاص بتطبيق القاعدة التي تستبدل البديل [ E ] بالبديل [ae] ؟




الشكل ٥ ــ ٤ (ae) في جنوب النرويج : المعدلات الخاصة بالمنازل المنتقاة بين مركزي التأثير. النتائج المرتفعة : نسبة استخدام مرتفعة لبديل (ae) : [a]

( نقلاً عن تردجيل ١٩٧٥ ــ ب )

ومع ذلك يمكننا أن نرى ــ في كِلتا الحالتين ــ تناسب حجم التأثير اللغوي لمدينة لارفيك مع حجم الاتصال الاجتماعي مع أهلها.

وقد ظهر أيضاً من أبحاث ودراسات لابوف ومعاونيه في نيويورك ان العامل الخاص **بالعِرق race** ذو علاقة وثيقة بالمتغيِّرات اللغوية خلال دراسة لابوف للملامح المميزة لكلام المراهقين من الزنوجين. وهناك عدد من الأنماط الكلامية التي تميّز المتحدثين الزنوج عن البيض وعن غيرهم من المتحدثين في الولايات الشمالية من الولايات المتحدة الأمريكية. من هذه الأنماط المميزة عدم استخدام الفعل الرابط أو zero copula أي عدم استخدام الفعل **is** الذي يستخدمه البيض عادة ، كما نرى في التركيبين الأول خاص بالزنوج وهو **John tired** والثاني خاص بالبيض وهو John is tired. ( وإذا شئنا الدقة فقد أوضح لابوف ان الزنوج يستخدمون البديل صفر zero variant عندما يستخدم البيض الصيغة المختصرة لفعل الربط contracted's ( أنظر لابوف **١٩٧٢** ــ ب : الفصل الثالث ) ويبدو ان البيض في الولايات الشمالية أيّاً كانت مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية لا يستخدمون البديل صفر zero copula مطلقاً. ويعتمد استخدام الزنوج لهذا البديل ومدى استخدامهم له على مدى انتمائهم للثقافة الزنجية الفرعية back sub—culture. ويقدم لابوف أدلة على ذلك من خلال دراسته لعصبة زنجية معينة ( أو جماعة من الأقران peer group ) في هارليم معروفة باسم الجيتس the Jets. وقد استطاع لابوف باقامة علاقة اتصالية منتظمة مع هذه العصبة ان يتمكن من دراسة بُنية هذه المجموعة الداخلية وعلاقاتها مع بقية المراهقين الزنوج في هذا الحي. وعن طريق توجيه أسئلة عن علاقات الترابط استطاع لابوف أن يتعرّف على أربع مجموعات منفصلة وهي :

الأعضاء الأساسيون في عصبة الجيتس ، والأعضاء الثانويون ، والأعضاء الهامشيون وغير الأعضاء ( ويطلق المراهقون الزنوج اسم

« الكسحاء » the lames على غير الأعضاء ، وهم أقل الناس اتصالاً بالثقافة الزنجية بالرغم من كونهم زنوجاً أو لهم بشرة سوداء مثل الأعضاء الأساسيين في عصبة الجيتس ). وعندما قام لابوف بحساب النتائج الخاصة بكل من المجموعات الأربع والخاصة باستخدامهم للبديل صفر بدلاً من is ورصد النسب المئوية الخاصة بهذه النتائج ، وَجَدَ ان هناك انخفاضاً تدريجياً في نسبة استخدام البديل الصفر يبدأ من الأعضاء الأساسيين وينتهي بغير الأعضاء. وقد حصل الأعضاء الأساسيون من الجيتس على نسبة **٤٥**٪ من البديل صفر ، وحصل الأعضاء الثانويون على **٤٢**٪ وحصل الأعضاء الهامشيون على **٢٦**٪ بينما حصل « الكسحاء » على **٢١**٪. ( وقد كانت المجاميع الخاصة باستخدام is مُرَتَبَة على النحو التالي :

**٣٤٠** ، و**٢٢٣** ، و**٨٢** ، و**١٢٧** على التوالي. مما يعني ان العينات كانت من الضخامة بحيث ينبغي أن نأخذ هذه الاختلافات مأخذ الجد ). ويعد ذلك مثالاً جيداً على مقدرة المتحدثين على استخدام المتغيِّرات اللغوية رمزاً لتحديد درجة انتمائهم الى جماعةٍ ما ، وهي في هذه الحالة جماعة عِرقية. فحتى « الكسحاء » حددوا انتماءهم الى جماعة الزنوج باستخدام البديل صفر بدلاً من ∅ : (is) بين الحين والآخر في حين ان البيض لا يستخدمون هذا البديل على وجه الاطلاق ، ولكن « الكسحاء » ميّزوا بين أنفسهم وبين الأعضاء الأساسيين في جماعة الزنوج وذلك بانخفاض نسبة استخدامهم لهذا البديل عن الأعضاء الأساسيين ( ومصدر هذه المعلومات دراسة لابوف ) ( لابوف ــ ب : الفصل السابع ) والأرقام مأخوذة من الأرقام الواردة في تلك الدراسة صفحة **٢٧٩**).

سبق أن تعرضنا لبعض الأمثلة التي تبيّن تأثير **المكانة الاجتماعية والاقتصادية** socio—economic status على معدلات المتحدثين ، وينبغي علينا الآن ان نطرح بعض الأسئلة الأساسية عن مفهوم المكانة الاجتماعية والاقتصادية في حد ذاته ؟ أولاً : هل هو مفهوم أحادي ؟ وأعني بذلك هل

هناك نسق تدرجي واحد في كل مجتمع يتسم ببناء دَرَجي ؟ وهل نستطيع أن نحدد ملامحه المميزة ، مثل الثروة والتعليم والمهنة . أَم انه مصطلح فضفاض ، غير محدد ، يدل على سلسلة من الأنساق المتدرجة المختلفة والمستقلة عن بعضها بعضاً ، يكون احدها خاص بالثروة والآخر بالتعليم الخ ؟ وقد جنح معظم علماء علم اللغة الاجتماعي الى تبني الموقف الأول واستخدموا نظاماً حسابياً لرصد معدلات المتحدثين يضع في اعتباره مجموعة متباينة من العناصر. فقد أخذ تردجيل بعين الاعتبار مثلاً المهنة والدخل والتعليم والاسكان ومحل الاقامة ومهنة الأب ثم حوَّل كل هذه العناصر الى متواصل واحد. وينبغي علينا أن نطرح من الناحية التجريبية سؤالاً خاصاً بمدى صحة هذا الاجراء ، ويشعر معظم علماء علم اللغة الاجتماعي ان لديهم من المادة العلمية ما يكفي للاجابة على هذا السؤال ، حيث انه لا يتطلّب أكثر من اجابة احصائية. وإذا كانت هناك مجموعة من المعدلات الخاصة بالمتحدثين وتعتمد على عدد من النصوص ، بالاضافة الى معلومات خاصة بالخلفيات الاجتماعية لأولئك المتحدثين ، مثل دخلهم ومهنهم الخ ، فأي هذه العوامل الاجتماعية ــ وحده أو بالاضافة لغيره ــ يقدم لنا الأساس الأفضل الذي يمكننا من التنبؤ بالمعدلات ؟

وقد قدَّم لابوف مؤشراً للاجابة على هذا السؤال حيث قال ان مختلف العوامل ترتبط بمتغيِّرات متباينة وربما تكون هذه هي الاجابة المتوقعة إذا نظرنا الى المجتمع على انه نسغ معقّد ومتعدد الأبعاد ، يحدد الفرد فيه موقعه بالنسبة لهذه الأبعاد. ومن خلال دراسة لابوف لنيويورك ، التي يعتمد فيها على المقابلات ، وَجَدَ ان الأساس الأفضل للتنبؤ بالمعدلات الخاصة ببعض المتغيِّرات ، ومنها المتغيِّر (r) ، مثلاً ، يتكون من مجموعة من العوامل الاجتماعية ، وهي المهنة والدخل والتعليم ، في حين كان الأساس الأفضل للتنبؤ ببعض المتغيِّرات الأخرى عاملان فقط من هذه العَوامل هما المهنة

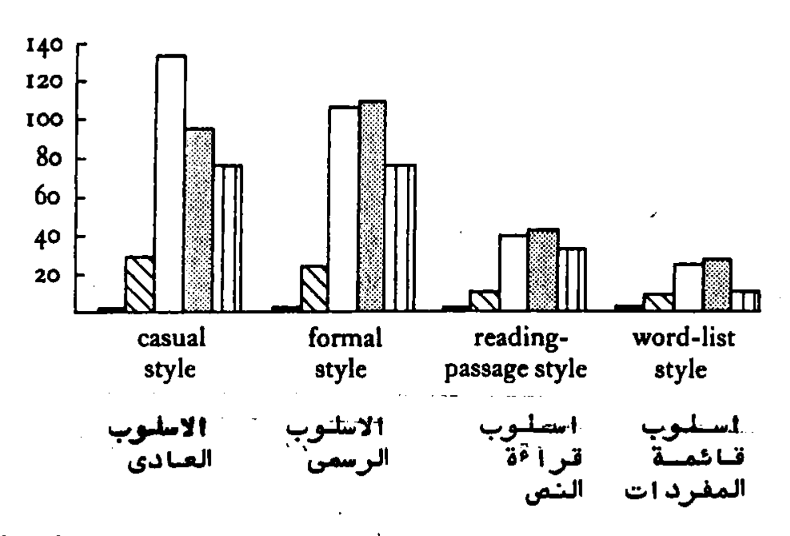
والتعليم ( لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ١١٥ ). ومن الأمثلة على هذا النوع من المتغيِّرات ، المتغيِّر (th) والذي ينطق [ $t^h$ ] أو [e] في كلمات مثل **thing**. وقد قام بعض علماء علم اللغة الاجتماعي الآخرون بتحديد **مستويات اجتماعية متدرجة** social hierarchies ترتبط ارتباطاً وثيقاً correlate من الناحية الاحصائية بمعدلات المتغيِّرات اللغوية ، وذلك وفقاً لعامل اجتماعي واحد فقط ، مثل التعليم ( أنظر الجدول ٥ ــ٢ ). ويبدو من ذلك ان المادة العلمية لعلم اللغة الاجتماعي لا تتطلّب رصداً منفصلاً للعوامل الاجتماعية الأخرى ، مثل المهنة والتعليم ، فحسب بل يجب النظر لهذه العوامل في تفاعلها مع بعضها بعضاً ، والنظر إليها كذلك في تفاعلها مع العوامل الأخرى ، مثل ، العمر والجنس. وبعبارة أخرى ان المادة العلمية لا تؤيد النظرة الاحادية المنفصلة لمفهوم المكانة الاجتماعية.

أما السؤال الثاني ، الذي سنطرحه هنا ، فهو خاص بامكانية تصنيف المجتمع تصنيفاً دقيقاً في مجموعات منفصلة وفقاً للمكانة الاجتماعية ، يمكن أن نطلق عليها « طبقات اجتماعية اقتصادية » socio—economic classes. وإذا وضعنا في اعتبارنا الاجابة على السؤال الأول وَجَدنا انه ليس من الممكن أن تكون تلك الطريقة هي طريقة تنظيم المجتمعات ، ذلك انه من المحتمل ان تتعارض الأسس المختلفة التي نصنّف الطبقات وفقاً لها ، ونعني بذلك ان كلاً من هذه المعايير يعرّف مجموعة متباينة من الطبقات. وفضلاً عن ذلك ، فهناك أدلة كثيرة تتعارض مع مفهوم الجماعات المستقلة في المجتمع ، وتحبذ الرأي القائل بان المجتمع ينظم أفراده حول مجموعة من مراكز الثقل الرئيسة distinct focal points التي تُحدد لهم معايير سلوكية مختلفة ، وتجذب ولاءهم وانتماءهم بطرق متفاوتة ودرجات مختلفة ، وليس هناك ما يبرر استثناء مفهوم الطبقات الاجتماعية والاقتصادية من الخضوع لهذا المبدأ. ولذلك ينبغي علينا أن نعيد تعريف مفهوم هذه الطبقات من منظور مراكز الثقل الرئيسة ، ونتخلى

عن منظور الكيانات المستقلة. ( سنفعل ذلك بنفس الطريقة التي تحدد بها معنى أحمر على أساس انه نقطة على متواصل طيفي لا على أساس انه مجرد مساحة أو حيز منفصل _ أنظر ٣ _ ٢ _ ٢ ).

ويمكننا ان نطرح مجموعة من الأسئلة الهامة النابعة من المادة العلمية لعلم اللغة الاجتماعي ، خاصة ذلك التساؤل المتعلّق بتأثر المتغيَّر اللغوي بالعوامل التي تمثّل « المكانة الاجتماعية » مثل التعليم والمهنة حيث تدل المعدلات على ان واضعي المعايير norm setters يقعون دائماً في قطبي المتواصل ، أي التركيز على متحدثي اللغة من ذوي المكانة العليا والسفلى فقط ، وذلك هو الحال ، مثلاً ، بالنسبة لمسألة ادغام الصوائت في اللغة الفارسية في طهران ، حيث تحدث أعلى نسب الادغام وأقلها بين متحدثي اللغة من ذوي المكانة العليا والسفلى ( أنظر الجدول ٥ _ ٢ ). وكذلك الأمر في المتغيَّر (ng) في نورويش ، حيث ينقسم المتحدثون الى من ينطقها بالصيغة المعيارية للطبقة المتوسطة [h] : (ng) والى مَنْ ينطقها بالصيغة المعيارية للطبقات العاملة [n] : (ng) ( أنظر الشكل ٥ _ ٣ ). ويبدو من الشكلين ٥ _ ١ و ٥ _ ٢ ان هناك تفسيراً مماثلاً لاستخدام المتغيَّر في نيويورك.

وهناك من ناحية أخرى في الدراسات التي بين أيدينا أمثلة لا يمكن فيها تحديد المعيار norm إلاّ من خلال الجماعة التي تقع في وسط النسق الهَرَمي. ويؤيد ذلك الرأي القائل ان الكلام في المجتمع لا ينقسم بالضرورة بين « القمة » و « القاع » ومن الأمثلة على ذلك المتغيَّر (e) الذي دَرَسَهُ ترد جيل (١٩٧٤ _ أ : ١٠٤) ، وهو يتكرر في مجموعة ضئيلة من الكلمات مثل **tell** و **better** حيث يكون المتغيَّر /E/ متبوعاً بالصوت /i/ أو مسبوقاً بصامت شفوي bilabial consonant ومتبوعاً بالصوت /t/ الذي يتسم بصفة اضافية هي اللهوية glottalised في المقطع المنبور قبل الأخير ، ويعد ذلك مثالاً نموذجياً على درجة تعقيد بعض هذه المتغيَّرات اللغوية. ويتباين المتغيَّر (e) بين [e] المضيقة close و [ɘ] المفتوحة.

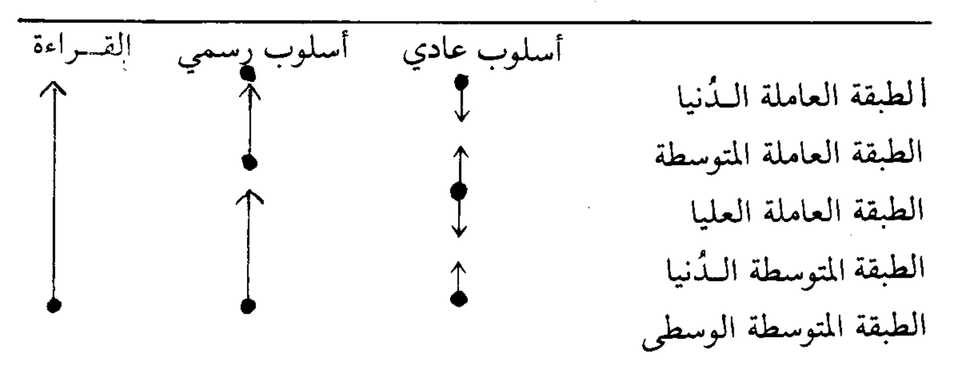



الشكل ٥ ــ ٥ (e) في نورويش : أعلى المعدلات لخمس طبقات اقتصادية واجتماعية وأربعة أساليب.
المعدلات العليا = نسبة تواتر عليا [ ɵ̀ ] : (e) الطبقات : المتوسطة الوسطى ( أسود ) المتوسطة السفلى ( مظللة ) الطبقات العاملة العليا ( أبيض ) الطبقة العاملة الوسطى ( منقطة ) الطبقة العاملة الدُنيا ( خطوط طولية ) ( نقلاً عن تردجيل ١٩٤٧ ــ أ : ١٠٥).

وتحدث أعلى نسبة لوقوع البديل المفتوح ( وهي صيغة مستحدَثة في نورويش ) بين المتحدثين من الطبقة العاملة العليا ( أنظر الشكل ٥ ــ ٥). ويبدو ان المتحدثين من الطبقة المتوسطة لم يتأثروا نسبياً بهذا البديل ، ولكن الطبقتين العاملتين الوسطى والدُنيا تتطلعان لاستخدامه. ومن الغريب ان متحدثي الطبقة العاملة الوسطى قد أكثروا البديل المفتوح في أسلوب المقابلة الرسمي ، مقارناً بالأسلوب العادي ، بالرغم من ان ذلك يعني ابتعاداً عن المعيار الذي وضعته الطبقة المتوسطة ، بينما ابتعد متحدثو الطبقة العاملة العليا في الأسلوب الرسمي عن المعايير الخاصة بهم ، وتحركوا باتجاه معايير الطبقة المتوسطة. وما زاد في تعقيد الموقف هو ان كل المتحدثين من جميع الطبقات قد تحرَّكوا باتجاه معيار الطبقة المتوسطة في قراءة النصوص النثرية ، متخلين عن كل المعايير الأخرى.

وحتى نتمكّن من فهم هذه الأنماط ينبغي علينا أن نحدد ثلاثة معايير

على الأقل وهي : معيار الطبقة المتوسطة وهو [e] : (e) ومعيار الطبقة العاملة الـدُنيا وهو مماثل من الناحية الصوتية لمعيار الطبقة المتوسطة ، ومعيار الطبقة العاملة العليا وهو [ ] : (e). وهي معايير متباينة تُستخدَم في ظروف مختلفة (الشكل ٥ ــ ٦). ويظهـر في هذا الشكـل استخدام هـذه المعايـير الثلاثـة في الأسلوب العادي ويتضح أثرها من اتجاهات الأسهم. وقد تغيَّر مدى تأثير المعايير في الأسلوب الرسمي حيث أثرتْ معايير الطبقة المتوسطة في متحدثي الـطبقـة العـاملة العليـا. بينـما لم يؤثـر معيـار الـطبقـة العـاملة الـدُنيـا على أي من الطبقات الأخرى . أما في أسلوب القراءة فيبدو ان معايير الطبقة المتوسطة هي وحدها التي سادت.




**الشكل ٥ ــ ٦ (e) في نورويش : مدى وتأثير المعايير الثلاثة في ثلاثة أساليب**

وختاماً ، ينبغي أن نقول اننا قد عرضنا لعدد من العـوامل الاجتمـاعية التي تربط ما بين الناس وهي مسقط الرأس أو محل الاقـامة الأصـلي والعمر والجنس والعِرق والعوامـل الأخرى المتعـددة التي تحدد المكـانة الاجتمـاعية والاقتصادية للفرد مثل التعليم والمهنة. وقد تؤثر كل هذه العوامل سواء بطريقة مباشرة أو بالتعاون مع العوامل الأخرى عـلى استخدام المتغيِّـرات اللغويـة. ولا يعني ذلك ان أيّاً من هذه العوامل ينبغي أن يرتبط بالكلام في كل مجتمع ، فلا يبدو مثلاً ان هناك تبايناً لغوياً في جميع أنحاء استـراليا نـاشئاً عن عـاملي مسقط الـرأس أو محل الاقـامـة ( أنـظر مثـلاً ميتشـل و دلبـريـدج Mitchell

Delbridge & ١٩٦٥). ولا تمثّل هذه العوامل جميع العوامل المؤثرة على الكلام بل هي مجموع العوامل التي قام بدراستها معظم علماء علم اللغة الاجتماعي ، فهناك عوامل أخرى كثيرة مثل السياسة والدين يمكن أن تكون من مصادر التأثير. وبالفعل فقد يكون من الغباء أن نستبعد أيّاً من هذه العوامل الاجتماعية كمصدر من مصادر التأثير المحتَملة. فمِنَ المحتَمل أن تكون مجموعة معينة من العوامل ذات أهمية خاصة في مجتمع بعينه ، بينما تكون مجموعة مختلفة هي المجموعة المؤثرة في مجتمعٍ آخر. ونستطيع أن نقول ان العوامل المؤثرة بالنسبة لكل مجتمع هي العوامل الهامة من الناحية الاجتماعية في هذا المجتمع بعينه ، ولكن من الصعب أن نجد دعماً كافياً لهذا الرأي في الأدلة القائمة فعلاً. ويمكننا أن نتوقع ، مثلاً ، ان الدين من العوامل المؤثرة في ايرلندة الشمالية ، وذلك لو سلّمنا بأهمية الانقسامات الطائفية في هذا المجتمع. ولكن المادة العلمية التي جمعها الزوجان ميلروي لا توضّح أيّة اختلافات هامة بين المناطق الكاثوليكية والمناطق البروتستانتية ، أعني أيّة اختلافات لا تفسّرها العوامل الأخرى. ومن المهم أن نحاول ايجاد تفسير لتلك الحقائق ولكثير من الحقائق الأخرى التي قدّمتها لنا الدراسات الكمية للنصوص.

**٥ ــ ٤ ــ ٣ درجة انتماء المتحدث الى المجموعة :**

سنعرض في هذا الجزء للرأي القائل بان استخدام المتحدث لمتغيّر لغوي بعينه يعتمد على درجة تأثره بالمعايير السائدة في مجتمعه. ولقد سبق أن عرضنا لبعض الدراسات التي تؤيد هذا الرأي مثل المادة العلمية التي جمعها تردجيل والخاصة بالانتشار التدريجي للبديل [a] : (ae) في النرويج ، والمادة العلمية التي جمعها لابوف والخاصة باستخدام المراهقين من الزنوج الأمريكيين في هارلم للبديل صفر بالاضافة للأمثلة الكثيرة التي قدّمناها ، والخاصة بتأثير الاختلافات في المكانة الاجتماعية على الكلام. وقد دَرَسَ الزوجان ميلروي

هذا الجانب من ظاهرة التباين ، وسنقدّم ملخصاً للتأويل النظري الخاص بنتائج دراستهما ، ويتناسب هذا التأويل مع النموذج العام للغة الذي حاولنا تقديمه في الفصول السابقة ( أنظر أيضاً جال Gal ١٩٧٨ ، الذي يقدِّم مادة علمية مماثلة من الجماعات الريفية في النمسا ) .

وقد اختار الزوجان ميلروي متحدثيهما من خلال التعارف الشخصي عن طريق شبكة من المعارف ، ولذلك استطاعا أن يمضيا وقتاً طويلاً في منازل لمتحدثين الذين تمَّ اختيارهم ، وبالتالي تمكّنا من معرفة بُنية العلاقات الاجتماعية ( أنظر ٥ ـ ٢ ـ ٤ ) . أما الجماعات الثلاثة التي قاما بدراستها فقد كانت جماعات من الطبقة العمالية الفقيرة ، وكانت معظم العائلات المشتركة من العائلات العمالية العادية التي غالباً ما تشكّل « شبكة مغلقة » closed network ، وأعني بذلك انهم شبكة من الناس لهم عدداً كبيراً من الاتصالات مع أفراد من نفس الشبكة لا مع أفراد من خارجها . وقد يؤثر ذلك على نوعية علاقاتهم إذ غالباً ما يرتبط السكان في المناطق العمالية التقليدية بعلاقات الصداقة والعمل وحُسْنِ الجوار والقرابة ! ، وتؤثر كل منها على العلاقات الأخرى فتقويها . وواحد من أهم آثار الانتماء الى مثل هذه الشبكات المغلَقة هو ان الأفراد يتقيدون الى درجةٍ كبيرة بمعايير سلوكية جامدة لا تسمح بوجود قَدَر من التباين في سلوكهم ( أو حتى في طبيعة المعايير التي يقبلونها ) . وإذا كان الأمر كذلك ، فعلينا أن نتوقع درجة عالية نسبياً من الالتزام بالمعايير الكلامية والسلوكية السائدة . وعلى عكس ذلك ، لا نتوقع من المتحدثين الذين لا ينتمون الى شبكة مغلَقة ، أو الذين ينتمون الى شبكات لا تربطها إلّا علاقات واهية سوى قَدَر ضئيل من الاتفاق بينهم على المعايير الكلامية الخاصة بالشبكات المغلَقة . وقد اختبر الزوجان ميلروي هذه الفرضية في مادتهم العلمية ، وقد جرى عرض النتائج في ميلروي ومارجارين ١٩٧٨ Milroy & Margrain .

ونستطيع أن نقرر بايجاز بانه قد ثبتت صحة فرضيتهما. فقد كان بعض المتحدثين الذين دَرَسَهم الزوجان ميلروي ينتمون الى شبكات مغلَقة جداً، بينما كان البعض الآخر من ذوي العلاقات غير المتماسكة بالجماعات التي ينتمون إليها. ولذلك، فقد رصدا لكل متحدث معدلاً يعبّر عن مدى « قوة » العلاقة التي تربط بينه وبين الشبكة التي ينتمي إليها وأطلقا على هذا الرقم المصطلح التالي: « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » 'Net-work strength score' (NSS) وقد قاما بحساب هذا المعدل وفقاً لخمسة عوامل أساسية منها، على سبيل المثال، ما إذا كان للفرد علاقات قرابة وثيقة في الحيّ، وما إذا كان يعمل في نفس المكان الذي يعمل فيه على الأقل فردان آخران من نفس المنطقة. وساعدهما ذلك على القيام بعمل اختبارات احصائية على المعدلات الخاصة بالمتغيَّرات اللغوية حتى يتعرفا على مدى ارتباط معدل المتغيّرات اللغوية مع « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » بالنسبة لكل من المتحدثين. وقد أيدتْ النتائج الخاصة بالمتغيَّرات كل توقعاتهم مثلاً، بالنتائج الخاصة بطهران في الجدول ٥ ـ ٢)، وهناك أيضاً اختلافات في المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة « حيث يحصل الرجال على نتائج أعلى من النتائج التي تحصل عليها النساء. وحيث ان الاختلافات الجنسية في المتغيَّرات اللغوية تبينّ ان الرجال يستخدمون عدداً من بدائل العضوية الأساسية يزيد عمّا تستخدمه النساء، (باستثناء واحد منها سنعود إليه فيما بعد) يمكننا أن نفسّر الاختلافات الجنسية في المتغيَّرات اللغوية على أساس انها نتيجة تلقائية للاختلافات القائمة بين الرجال والنساء بالنسبة « لمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة » (NSS)، وبالتالي فليس مجدياً أن نحدد الجنس باعتباره عاملاً اجتماعياً مستقلاً ومؤثراً على المتغيَّرات اللغوية. والسؤال، إذن، هو لماذا يحصل الرجال على نتائج أعلى من النساء بالنسبة لمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة؟ وتقدِّم لنا نظرية الشبكات Network Theory اجابة سهلة على هذا السؤال فحواها ان الرجال يخرجون للعمل بنسبة أعلى من النساء، وانهم

يعملون مع رجال آخرين من نفس أحيائهم وعلى ذلك يقيم الرجال عدداً أكبر من روابط العمل ولديهم نفس العدد من الروابط الأخرى ، وبالتالي فان « معدل قوة العلاقة داخل الشبكة » لديهم سيكون أعلى من النساء . وبناء على ذلك ، يمكننا تفسير الاختلافات الكلامية بين النساء والرجال بطريقة مباشرة وذلك على أساس الاختلافات القائمة بينهم في أنماط العمالة .

ولكن لو تغيَّرت أنماط العمالة ، وتوقف الرجال مثل النساء عن الخروج للعمل مع زملائهم من نفس الأحياء السكنية ، فستختفي الاختلافات القائمة بين الرجال والنساء ، ونستطيع أن نؤيد هذا الرأي بالنظر الى المادة العلمية الخاصة ببلفاست . فَمِنْ بين المناطق الثلاث التي تمت دراستها في بلفاست نجد ان حيّ كلونارد Clonard فَقَدَ مصدره التقليدي لتوظيف الذكور ، وهو صناعة المنسوجات ، ولكنه استمر دون تغيير نسبي بالنسبة لحركات انتقال السكان واسعة المدى التي أثرتْ على المنطقة الأخرى مثل منطقة الهامر the Hammer ، والتي تأثرتْ هي الأخرى بانهيار صناعة النسيج . أما المنطقة الثالثة وهي باليمكاريت Ballymacarrett ، فما زالت تحتفظ بمصنع بناء السفن الذي ما زال يشغل الذكور . وبالتالي ، فنحن نتوقع أن نجد الاختلافات التقليدية بين الرجال والنساء في منطقة باليمكاريت دون غيرها . بينما نتوقع ، من ناحية أخرى ، أن تكون هذه الاختلافات قد اختفت تماماً بفقد الرجال لأعمالهم التقليدية المحلية في المناطق الأخرى . ولذلك فقد أكد « المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة » (NSS) هذا التوقع بالنسبة لمنطقة كلونارد . وقد حصلت النساء بصورة عامة على نتيجة أعلى من الرجال بالنسبة « لمعدل قوة العلاقة داخل الشبكة » في هذه المنطقة ، وبذلك انعكس النمط التقليدي ( وليس من الواضح لماذا عكستْ النساء هذا النمط التقليدي بدلاً من أن يكتفينَ بازالة الفوارق بينهم وبين الرجال ) . وقد أظهرتْ بعض المعدلات الخاصة بالمتغيَّرات اللغوية في منطقة كلونارد ان النساء يستخدمنَ بدائل العضوية الأساسية بنسبة تعادل نسبة استخدام الرجال لها . ( قارن بذلك مثلاً الأرقام الخاصة بالمتغيَّر

(٨) في ج. ل. ميلروي J.L. Milroy ١٩٧٨ : ٢٦). وما زالت هناك كثير من الحقائق المتعلقة بالأنماط الخاصة ببلفاست تنتظر تفسيراً، ولكن يبدو ان استخدام معدل قوة العلاقة داخل الشبكة كمتغيِّر اجتماعي قد ساعدنا على الاقتراب من فهم هذه الأنماط.

أما الجماعات الثلاثة التي دَرَسَها الزوجان ميلروي في بلفاست، فقد كانت كلها ذات « مكانة اجتماعية » دُنيا low prestige ، وتتميّز بارتباطها بعلاقات داخلية وثيقة ولكن كل فرد بالطبع لا ينتمي الى مثل هذه الجماعات، وخاصة في المجتمعات الحضرية الحديثة. فما هي إذن المعايير التي تتحكّم في كلام هؤلاء الآخرين؟ من المحتمل أن يكون هؤلاء الأفراد على دراية بلهجة متواضع عليها يستخدمونها كمعيار وهم، على أي حال، يستخدمونها بسبب المكانة التي تتمتع بها. والشيء الوحيد الذي قد يمنعهم من استخدام هذا المعيار هو معرفتهم بوجود لهجات أخرى محلية ذات مكانة اجتماعية أقل، ومعرفتهم ان استخدامهم اللهجة المتواضع عليها يعني رفضهم لغيرها، والتي قد تكون ذات أهمية، وذلك لأسباب عديدة. وكل من تأثروا تأثراً تاماً باللهجة المتواضع عليها (وهم في بريطانيا مَنْ يتحدثون باللهجة الانكليزيّة المتواضع عليها RP) قد يكون كلامهم متشابهاً مثل كلام الجماعات وثيقة الارتباط في بلفاست، ولكن أسباب هذا التشابه مختلف تماماً، فهم لا يتحدثون بطريقة متماثلة نتيجة لوجود شبكات من الاتصال الاجتماعي المكثَّف، بل نتيجة لتمسكهم بمعيار متواضع عليه بكل ما يعنيه ذلك من تقنين في كتب النحو والمعاجم والتعليم المدرسي والاستخدام في وسائل الاعلام وما الى ذلك من أسباب (أنظر ٢ ــ ٢ ــ ٢).

والفرد الذي لم يتخذ معاييره من الجماعة ذات الروابط الوثيقة، ولم يتخذها أيضاً من اللهجة المتواضع عليها، يختار لكلامه نمطاً من بين مجموعة كبيرة ومتنوعة من النماذج اللغوية، وسيقوم ذاتياً باضافة

نموذج جديد فريد من نوعه للعالم من حوله ، وبالتالي فان المجتمع الذي يعيش فيه ستكون به نسبة عالية نسبياً من التباين والتنوع هو ما نطلق عليه الانتشار diffusion في الأنماط اللغوية ، وذلك على عكس النوعين الأخيرين من المجتمعات اللذين تكون معاييرهما اللغوية محددة ، ونطلق على مثل هذه المجتمعات مجتمعات التضام focussed ( أنظر لي باج ١٩٦٨ ـ أ ). وقد جنح علماء علم اللغة لدراسة المجتمعات المتضامة نسبياً relatively focussed وبالتالي فانهم أرسوا نظريات لغوية وقواعد نحوية تعطي اهتماماً كافياً لظاهرة التباين اللغوي variability ، وحتى المجتمعات الصغيرة شديدة الترابط التي دَرَسَها الزوجان ميلروي كان بها قَدَرٌ لا يستهان به من التباين في التفاصيل ، وبالتالي فعلينا أن نتوقع قدراً أكبر من التباين في المجتمعات التي تتميّز بالانتشار diffuse. وقد تأكد مثل هذا التوقع في دراسة الرطانات ، وتزيد أهمية هذه اللغات بقدر درجة انتشارها diffuseness ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٣) ، ولكن ما زال هناك نقص شديد في المادة العليمة الخاصة باللغات العادية التي تتسم بالانتشار. وقد يكون من المهم أن نعرف ، مثلاً ، مقدار التباين في دراسة تردجيل للطبقة العمالية العليا في نورويش ، والتي استطاعت أن تستحدث معياراً جديداً للنطق ( أنظر الشكلين ٥ ـ ٥ و٥ ـ ٦ ). ما هي القوة الاجتماعية التي تحافظ على مثل هذا المعيار وتساعد على نشره بين الطبقة العاملة المتوسطة والدُنيا ؟ ينبغي أن نتوقع فهماً أفضل لكل هذه العمليات بعد مرور عدة أحقاب من الدراسات والأبحاث في مجال علم اللغة الاجتماعي.

### ٥ ـ ٥ تأويل النتائج

#### ٥ ـ ٥ ـ ١ القواعد المتغيِّرة Variable rules :

كنا قد سلّمنا حتى الآن الى حدٍ ما تسليماً تاماً بالتفسير اللغوي للتباين اعتماداً في ذلك على فكرة « المتغيِّر اللغوي » ، ومتجاهلين المشكلات الخاصة بربط ظاهرة التباين بعناصر اللغة الأخرى بطريقة يمكن تبريرها على أساس

نظري ( أنظر المناقشة الواردة في ٥ ــ ٣ ــ ١ من أجل التعرف على بعض هذه المشكلات ) . فكيف نستطيع تأويل نتائج الدراسات الكمية للنصوص في اطار نظرية علم اللغة ؟ حاوَلَ كل من ويليام لابوف وديريك بيكرتون الاجابة على هذا السؤال ، وسنحاول دراسة اجابات كل منهما واحدة تلو الأخرى ، وسنحاول أيضاً تحديد مواطن الضعف في كل من هاتين الاجابتين . يتفق كلاهما ( ومن الصعب ألّا نتفق معهما ) على انه من غير الممكن تفسير ظاهرة التباين في الكلام بردها لبعض « عوامل الاداء » performance factors مثل عامل الكسل أو عامل ضعف الذاكرة أو حتى عامل « الخلط بين اللهجات di- dialect mixture ، حين تختلط لهجتان متجانستان بنسب متفاوتة في كلام الفرد . ولكن هذه الفرضيات ، كلها ، تفشل في تفسير كيف يمكن أن تتأثر المتغيَّرات اللغوية المختلفة بطرق مختلفة بعناصر الاداء ذاتها ، أو بالخلط بين اللهجات كما يحدث بالفعل .

إن اجابة لابوف على هذا السؤال ( أنظر لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ٢١٦) واضحة وصريحة ( كما عُرِضَتْ في الستينات ) ، ويعتقد أيضاً ان كل متغيَّر لغوي يرتبط بقاعدة نحوية . وكل متغيَّراته اللغوية ترتبط إما باحدى القواعد الصوتية phonological rules أو باحدى التحويلات التراكيبية syntactic transformations وهما نوعان من القواعد تشير الى السياق اللغوي . ولو سلّمنا جدلاً بكل هذه الفرضيات المطروحة فليس أمامنا لكي نوفق بين القواعد النحوية وظاهرة التباين إلّا أن نطرح مفهوم « القاعدة المتغيَّرة » variable rule ، جنباً الى جنب القواعد المعمول بها فعلاً ، وهي « القواعد الجبرية » obligatory rule ، و « القواعد الاختيارية » optional rule ، وأذا كان من المحتّم تطبيق « القاعدة الجبرية » عند توافر الشروط المطلوبة فـ « القاعدة الاختيارية » يجوز تطبيقها أو عدم تطبيقها مع توافر الشروط المطلوبة ، أما « القاعدة المتغيَّرة » فلها درجة محددة من احتمال التطبيق عندما تتوافر الشروط المطلوبة ، وتتفاوت هذه الشروط بين حتمية التطبيق ( حينما تكون شروط تطبيق هذه القاعدة

مطابقة تماماً لشروط تطبيق القاعدة الاجبارية ) وبين حتمية عـدم التطبيق. وحتى يمكنه « تدوين » notation هذه القاعدة حدَدَ لابوف العِرف التالي ، وهو العِرف الخاص بكتابة هذه القاعـدة بين عـلامتين همـا العلامـة > ومعناهـا « أكثر من » والعلامة < ومعناها « أقل من » وذلك على يمين القاعدة المتغيَّرة حتى يبينّ ان هذه القواعد يمكن تطبيقها أو عدم تطبيقها. ولذلك يمكننا كتابة القـاعدة الخـاصة بـالمتغيَّر (h) عـلى سبيل المثـال عند حـذفـه deletion ـ [h] كالتـــالي :

$$h \rightarrow < \varnothing >$$

ويجب أن يصاحب كل قاعدة متغيَّرة بيان عن احتمالات استخدامها والشروط التي تؤثر على هذه الاحتمالات ، وعلينا أن نقدم المعلومات الخاصة بهذه القواعد باحدى طريقتين هما : إذا كانت العوامل الهامـة هي العوامـل اللغوية فحسب ، ينبغي أن نحدد السياقات اللغوية التي تسمح بـاستخدام المتغيَّر ونرصدها ، ويمكننا عندئذ توصيفها في صورة قواعد سيـاقية محـددين بذلك درجات تأثير هذه العـوامل المتبـاينة عـلى احتمالات تـطبيق القاعـدة من خلال نظام رصدها التدَرجي باشارات خاصة. أما الطريقة الثانية ، فهي تُستخدَم عندما تكون المؤثرات اجتماعية لا لغوية وذلك بتحديد صيغة تحدد بـدورها احتمـالات تطبيق القـاعدة عنـد ذكر المعـطيات المعيـارية الخـاصة بالمتغيَّرات الاجتماعية الواردة. ( ولن نطيل في وصف تفاصيل هذين المنهجين فعـلى القارىء المهتم بهـذه التفـاصيـل أن يـرجـع الى سيـدرجيـرين **١٩٧٢** Cedergren ( وكتابه يعد مقدمـة طيبة ) وسيـدرجيرين وسـانكوف Cedegren & Sankoff **١٩٧٤** ولابوف **١٩٧٢** ــ ب : الفصل الثالث ، ود. سانكـوف D. Sankoff **١٩٧٨**).

وهنـاك عدد من مـواطن الضعف الخطيـرة في اجابـة لابوف. ولابـد من رفض فرضيته الأسـاسية الخـاصة بـان كل متغـيَّر لغوي يـرتبط **بقاعـدة**

من قواعد النحو التحويلي. فلو اننا أخذنا المتغيّر (h) ، على سبيل المثال ، ممثلاً لوجود أو عدم وجود الـ [h] في كلمة مثل **house** في العديد من اللهجات الانكليزية ، ولو اننا حوّلنا المتغيّرات اللغوية مباشرة الى قواعد متغيّرة ، فاننا سنصل حتماً الى قاعدة مثل القاعدة المذكورة فيما سبق ، والتي تفترض ان كلمات مثل **house** يجب أن تتضمن [h] كامنة في وصفها المعجمي التحتي lexical representation بالنسبة لكل من أفراد الجماعة التي تستخدم هذا النحو ، بمعنى ان جميع أفراد الجماعة يعرفون ان كلمة **house** تتضمن [h] كامنة ، بينما لا تتضمن كلمة **owl** ، مثلاً ، مثل هذا الصوت. ولكن المشكلة تتمثّل في ان معظم الجماعات وخاصة غير المتعلّقة فيها لا تستخدم الصوت [h] عادة في كلمة مثل **house** ولذلك يجد الطفل صعوبة في تعلّم أية كلمة تتضمن الحرف [h] ، ولن يعرف كثير من المتحدثين أي الكلمات تتضمن الحرف [h] ، ولذلك سينطقون الحرف [h] عند نطق كلمات مثل **owl** أو **office** ، بينما لا يفعل معظم المتحدثين باللغة المتواضع عليها ذلك. وبعبارة أخرى ينبغي أن يكون لدى هؤلاء المتحدثين قاعدة خاصة باضافة الصوت [h] ,insertion ـ[h] ، لاستخدامها في المناسبات الرسمية ، وتُستخدم هذه القاعدة بالنسبة لكل كلمة تبدأ بصامت على أمل أن يكون استخدام الصوت [h] صحيحاً ومناسباً في بعض الأحيان ، وبالتالي فسيترك ذلك لدى المخاطب انطباعاً بارتفاع درجة تعليم المتحدث. أما بالنسبة للمتحدثين الآخرين فانه من الواضح ان الصوت [h] جزء من الوصف المعجمي بكلمة **house** ، وليس الأمر كذلك بالنسبة لكلمتي **owl** و **office** ، وبالتالي فانهم إذا نطقوا كلمة مثل **house** بدون [h] فقد يكون ذلك نتيجة لقاعدة خاصة بحذف الصوت [h] ,deletion ـ[h] ونتبيّن من ذلك ان المتغيّر [h] يرتبط بقاعدتين مختلفتين بدلاً من قاعدة واحدة ، وكل من هاتين القاعدتين خاص ومناسب لقطاع مختلف من قطاعات الجماعة. ( ومن الممكن أن نتصوّر ان بعض أفراد الجماعة يعرفون القاعدتين ، إذا كانت لديهم بعض الكلمات التي تتضمن الصوت [h]

في معجمهم ويعرفون أيضاً ان هناك كلمات كثيرة أخرى مماثلة في اللغة المتواضع عليها دون ان يعرفوا هذه الكلمات ). ويمكننا أن نقول نفس الشيء عن المتغيِّر (r) في نيويورك وبعض أجزاء بريطانيا ، حيث يعد استخدام الحرف /r/ متغيِّراً كما يستخدم في إدنبرة ( الجدول ٥ ــ ١ ).

وقد يعترض البعض على ذلك قائلاً انه ليست هناك مشكلة من ناحية المبدأ في ان تكون للمتغيِّر قاعدتان مختلفتان. وعلينا في هذه الحالة أن نعيد حساب الاحتمالات ( وذلك حتى نتجنّب أو نستبعد الاحتمال الخاص باستخدام أفراد الطبقة المتوسطة لقاعدة اضافة الصوت [h] ، وفيما عدا ذلك لا يتطلَّب الأمر أكثر من اضافة القواعد المتغيِّرة اللازمة الى النحو. ولكن الأمر ليس كذلك لأننا سنحتاج بالضرورة الى معجمَين Lexicon مختلفَين ومستقلين ، يتضمن أحدهما مواصفات معجمية خاصة بالكلمات التي تتضمن الحرف [h] ، سواء أكان واضحاً أو ضمنياً ، بينما لا يتضمن المعجم الآخر مثل هذا الوصف. وبالتالي ستكون هناك حاجة للمفاضلة بين معجمَين منفصلين قائمة على درجة من الترجيح مرتبطة بعملية الاختيار ، وذلك ما لا يستطيع ميكانيزم mechanism القواعد المتغيِّرة أن تقوم به.

ومن العيوب الخطيرة لهذه القواعد المتغيِّرة ان المقصود بها ان تُستخدَم في نظام نحوي يصلح لمجتمعات بأكملها لا لأفراد بعينهم ( وغالباً ما توضع النظم النحوية التوليدية التحويلية للأفراد ) ، وذلك لأن المقصود من الاحتمالات ان تعكس الاختلافات بين المتحدثين بأن تعنى بالعوامل الكثيرة الأخرى مثل المكانة الاجتماعية والاقتصادية وذلك من شأنه أن يسبب صعوبات جسيمة ، ذلك لأن مختلف الأفراد يتطلّبون ، كما رأينا سابقاً ، اجروميات مختلفة وبخاصة عندما تكون هناك اختلافات في المعجم ( من أجل الحصول على دراسة أكثر تفصيلاً وتمثيلاً لهذه المشكلة أنظر كاي Kay ١٩٧٨ وميلروي ومارجرين Milroy & Margrain ١٩٧٨ ، وماتيوز Matthews ١٩٧٩ : ٤٥ ). وفضلاً عن ذلك فانه من الصعب تحديد الجماعات الكلامية

بـطريقة مُـرضية ( أنـظر ٢ ـ ١ ـ ٤ ) ، ودون مثل هـذا التعريف الـدقيق للمتحدثين ، الذين تنطبق عليهم مثل هذه الاجرومية ، يصعب بل يستحيل اختبار هذه الاجرومية اختباراً مُرضياً.

ومن المهم أن نعرف ان نظرية لابوف الخاصة بالقواعد المتغيِّرة لم يكن لها تأثير يُذكر في ارسـاء قواعـد النحو ، وذلـك منذ نُشِـرَتْ لأول مرة في نهايـة الستينات ، وذلك بالرغم من دراسة المتغيِّرات اللغوية على مستوى واسـع. أما لابوف نفسه فقد توقفَ عن المضي في هذا الاتجاه بعد محاولاته الأولى لكتابة اجروميات تتضمن مثل هذه القواعد (١٩٧٢ أ و ب ).

**٥ ـ ٥ ـ ٢ العلاقات الضمنية بين الاجروميات**

**Implicational relations among grammars :**

واعتمـاداً عـلى دراسـة تشـارلـز جيمس بيـلي Charles—James Bailey (١٩٧٢ ، ١٩٧٣) وديفيد ديكامب (١٩٧١ ـ ب : ١٩٧٢ ) David DeCamp حاول ديريك بيكرتون Derek Bickerton أن يضع التباين في اطار نظرية علم اللغـة ( بيكرتـون ١٩٧١ ، ١٩٧٢ أوب ، ١٩٧٣ ، ١٩٧٥) وترجـع هذه المحاولة بوضوح الى نظرية الموجات التي تطورتْ كجزء من علم اللغة المقارن Comparative linguistics وعلم الجغرافيا اللغوية Linguistic geography ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢ ). وتمتاز هذه النظرية بالبساطة ، ولعل ذلك من أهم خصائصها. ويزعم بيكرتون ان التباين اللغوي إما أن يكون عشوائيـاً ، أو يكون نـاشئاً عن استخدام عدد مختلف من الاجروميات في مواقف مختلفة ( وغالباً ما يكون ذلك بواسطة عدد من المتحدثين المختلفين ). وحيث يكون التباين عشوائيـاً يمكننا التعامل معه بواسطة القواعد الاختيارية القائمة ، ولا حاجة بنا لادخال الاختلافات النـاشئة عن الاحتمـالات في الاجروميـة ، كما يفعـل لابوف ، وعندما يكون التباين منتظماً ، يمكننا التعامل معه عن طريق ارسـاء مجموعـة من الاجروميات المختلفة ذات الطابـع التقليدي ( ويعتقـد بيكرتـون ، مثل لابوف ، ان هذه الاجروميات نوع من النحو التحويلي ).

وباستطاعتنا أن نقول نفس الشيء عن أية نوعية من الاجروميات التحويلية العادية التي لا تضع في اعتبارها الجانب الاجتماعي ، ولكن بيكرتون يتجاوز ذلك الموقف فهو يضع في اعتباره كمية هائلة من المادة العلمية الاجتماعية ، التي جمعها أثناء عمله في جيانا Guyana ( في أمريكا الجنوبية ) ، وهي المادة الخاصة بدراسته « لمتواصل الكريولية » Creole continuum ( وأعني بذلك متواصل النوعيات المستخدمة في مجتمعات مثل جيانا ، بين الكريولية المعروفة بـ « اللهجة الأساسية » Basilect و « اللهجة العليا » Acrolect المتواضع عليها ( أنظر ٢ ــ ٥ ــ ٤). ومن أجل القيام بدراسة قدر أكبر من التباين القائم في أي متواصل كريولي ، قدَّم بيكرتون اقتراحين أساسيين :

أولهما ، القيام بالتمييز بين « لهجة الفرد » Idiolect ، ويعني بها مجموع صيغ الكلام التي يستخدمها فرد بعينه وبين « اللهجة » lect أو « اللهجة التوفيقية » isolect ، وهي نظام نحوي يتكون من مجموعة من القواعد التي تتوافق مع بعضها بعضاً ، ولكنها تستبعد البدائل ( فيما عدا ما يؤدي منها الى التباين العشوائي ). ان التمييز بين « النظام النحوي » و « قدرة المتحدث الفردية » individual speaker's competence يعني انه يمكن السماح للفرد بأن تكون لديه أكثر من « لهجة » lect في قدرته الكلامية competence وبالتالي فان اداءه performance ذاته ، قد يكون متبايناً بالمثل. وبذلك يمكننا التعامل مع كم التباين القائم في مجتمع بعينه في ثلاث خطوات ، وهي :

(١) التمييز بين التباين العشوائي والتباين الحقيقي ،

(٢) ارساء قواعد لكتابة نظام نحوي لكل لهجة lect فردية تغطي كل الصيغ الكامنة ،

(٣) تحديد المتحدثين الذين يستخدمون لهجة أو لهجات معيّنة ، لو اننا سلّمنا بانهم جميعاً يستخدمون أكثر من لهجة واحدة. ان مثل هذا المنهج يجعل مهمة الدارس أكثر صعوبة ، مما لو اتبع منهج لابوف ، لأننا لا نستطيع التسليم بنظام نحوي موحّد للمجتمع ككل أو بنظام

نحوي واحد للمتحدث الفرد. وعلى أية حال ، فان وجود مثل هذا النظام النحوي الأساسي المشترك للمجتمع ككل ، أمر مشكوك فيه ، وقد سبق أن أكدنا أهمية السماح بمعاملة كل فرد على حدة في التحليل ، ولذلك يبدو ان مدخل بيكرتون أكثر واقعية من مدخل لابوف من هذا الجانب على الأقل.

أما اقتراح بيكرتون الثاني فهو خاص بانتظام العلاقات بين اللهجات المختلفة lect في المجتمع الذي قام بدراسته ، حيث كانت منتظمة ومقيدة تقييداً يسمح بكتابة مجموعة منتظمة من القواعد التحويلية لتحويل لهجة lect الى أخرى ( ويماثل ذلك قواعد النحو التحويلي ، وإن كان تدوين هذه المعادلات الرمزية لا يعنينا بشيء ). وحيث ان هذه القواعد كانت مرتَّبة بشكل تدريجي فقد أمكن ترتيب هذه اللهجات في شكل « **تدرجي تضميني** » implicational hierarchy بنفس الطريقة التي سبق أن ranked رتّبنا بها المتحدثين بالنسبة لانتشار المفردات المعجمية lexical diffusion ( الجدول ٥ ــ ٥ ).

ويمثّل « **التدرج التضميني** » علاقات بين الخصائص والأفراد ، ويعني ان امتلاك احدى خصائص التدرج يعني ضمنياً امتلاك كل الخصائص الأخرى الواقعة أسفله. وقد تكون هذه الخصائص قواعد نحوية مختلفة ، أو قاعدة واحدة مطبّقة على مختلف البيئات أو السياقات ، كما نرى في المثال التالي ( نقلاً عن بيكرتون ١٩٧١ ) ، حيث توجد في جيانا صيغتان تُسْتَخْدَمان للدلالة على المصدر ( وهو حرف to في اللغة الانكليزية المتواضع عليها ) الصيغة الأولى هي صيغة اللهجة الأساسية ( fi أو fu ) Basilectal أما الصيغة الثانية فهي صيغة اللهجة العليا Acrolectal tu والقاعدة الخاصة بالاختيار بين هاتين الصيغتين تفضّل استخدام tu في سياقات بعينها ، وهي مرتّبة التدرج التضميني كالتــالي :

**السياق الأول** : بعد أفعال البداية ( أو الشروع أو الاستهلال ) inceptive

varbs مثل يبدأ **staat** .

**السياق الثاني** : **بعد أفعال التمنّي** desiderative verbs والأفعال النفسية الأخرى psychological verbs مثل يريد **want** ويقرر **disaid** ويحاول **trai** ويسمح **alau** وينسى **fuget** .

**السياق الثالث** : بعد أفعال أخرى مثل يجري **run** وجاء **com** ويستعير **bara** ، أي عندما يعبّر المصدر عن الغرض.

وهناك بعض اللهجات lects تُستخدم فيها **tu** في السياق الأول ولا تُستخدَم في السياقات الأخرى ، وهناك لهجات أخرى تُستخدَم فيها **tu** في السياقين الأول والثاني ولا تُستخدَم في الثالث ، بينما توجد لهجات تُستخدَم فيها **tu** في السياقات الثلاثة ، ولكن لا توجد هناك حالات تُستخدَم فيها **tu** في السياق الثاني دون أن تُستخدَم في الأول ، أو في الثالث دون الثاني ، أو الأول ، وذلك مما يبرر استخدام كل شكل دَرَجي يكون استخدام المتغيَّر في السياق الأول شرطاً لاستخدامه في السياق الثاني ، ويصبح استخدامه في الثاني شرطاً لاستخدامه في الثالث.

وبنقل مركز التباين من اجرومية الفرد الى العلاقات بين الاجروميات ينتقل مجال الدراسة في علم اللغة الوصفي Descriptive linguistics الى علم اللغة المقارن Comparative linguistics ، وبخاصة علم اللغة المقارن التاريخي ، إذ نكون بذلك قد طرحنا سؤالاً هو « كيف تعكس العلاقات بين هذه النوعيات المعاصرة ( أي اللهجات lects ) التغيّرات والمراحل التاريخية التي مرت بها هذه النوعيات حتى أصبحتْ كما هي الآن ؟ ويزعم بيكرتون ان العلاقات الآنية Synchronic القائمة داخل متواصل الكربولية تعكس التغيّرات الزمانية diachronic بدقة متناهية ، وذلك انه يعتقد ان « التدرج التضميني » الخاص بالقواعد والسياقات يصبح السُلَّم الوحيد الذي يستطيع المتحدثون تسلّقه في انتقالهم من اللهجة الأساسية Basilect الى اللهجة العليا

Acrolect ، وبالتالي تصبح القواعد التي تحوّل لهجة الى أخرى مجرد بقايا آنية لتغيّرات تاريخية وقعَتْ في الماضي ، عندما حوّل المتحدثون ذوو المكانة الـدُنيا حديثهم نحو النوعية العليا ، وبذلك ارسوا مثالاً أو قواعد يمكن أن يحتذيها متحدثون آخرون. وإذا كان لنا أن نعتبر ان هـذا التحوّل الـذي استحدث صيغة من النوعية العليا Acrolectal ( أو من الصيـغ التي ليست من النوعيـة الأساسية ) في النوعية الأساسية تجديداً في هذه النوعية فهذه النظرة تعد محاولة لادخال نظرية الموجات ( ٢ ــ ٣ ــ ٢ ) في اطار علم اللغة الآني Synchronic . linguistics

ويمكننا أن نحدد موازاة أخرى واضحة بين نـظرية بيكـرتون ونـظرية الانتشـار المعجمي Lexical diffusion ( وقد سبق ان عـرضنا لـذلـك في ٥ ــ ٤ ــ ١) ، فعلى عكس ما فعل لابوف ، اهتم بيكرتون بالتراكيب والدلالة أكثر من اهتمامه بالنطق ، ولكنه يماثل لابوف في مناقشته واهتمـامه بـالعلاقـات القائمة بين القواعد ، بدلاً من العـلاقات بـين الوحـدات المعجمية Lexical items. وعلى أية حال ، فَمِنَ السهل أن نستخدم نظرية بيكرتـون في التباين لتوصيف التباين القائم في الوحدات المعجمية حيث ان اللهجات lects يمكن ان تتباين في المفردات كما تتباين في القواعد. وكل ما يلزمنا في كِلتا الحالتين هو وجود قاعدة لتحويل conversion ruls الوحدة القائمة في نوعية بعينها الى وحدة أخرى قائمة في نوعية أخرى. وبالتالي ، يمكننا أن نتعامل مع نظرية انتشـار المفـردات باعتبـارهـا وجهـاً خـاصـاً من نـظريـة بيكـرتـون عن العـلاقـات بين اللهجات.

ولعل من المهم أن نميّز في هذه النظرية بين أهم ملامحها العامة وامكانياتها وبين تطبيقاتها الخاصة على المادة العلمية المأخوذة من جيانا Guyana ، لأن هذه التطبيقات قد تمثّل في بعض جوانبها وقفة فريدة في نوعها من وجهة نظر علم اللغة الاجتماعي ، حيث يوجد تدرج واضح بين اللهجة الأساسية واللهجة العليا . وينفي بيكرتـون نفسه فكـرة وجود « تـدرج تضميني » واحد لكـل

جـوانب النظام النحـوي ، ( وقد طـرح ديكامب هـذا الرأي بـطريقة أكـثر وضوحاً ، أنظر ديكامب ١٩٧٢) فيمكن ان تتباين ، مثلاً ، بعض الجوانب الصـوتيـة phonology بصفـة مستقلة عن التبـاين بـين الصيغتـين tu/fu ، وعن الجوانب التراكيبيـة الأخرى ، ومن المؤكـد ان الأمر كـذلك. وبـالتالي لا ينبغي أن نصنّف العـلاقات القـائمة بـين عدد من اللهجـات من خـلال « تدريج تضميني واحد » ، بل بواسطة عدد أكبر من المتدرجات التضمينيـة الصغيرة ، يتضمن كل منها عدداً ضئيلاً من القواعد والسياقات. ومما يـزيد من مرونة النموذج الحالي ان نقارنه بالموقف في النموذج الساذج حيث يكون هناك تدريج واحد ، ويسمح بذلك لنا باستخدام هذا النموذج في المـواقف ذات الأبعاد المتعددة multi—dimensional ، وهـو الوضـع السائـد في معظم المجتمعات. ونستطيع بذلك أن نرى في كل « تدريج تضميني » بُعداً مستقلاً من العالم الاجتماعي ، ويمكننا أيضاً تصوّر تلك التدريجات التضمينية ، وهي تعمل في اتجاهات متضادة على نفس الـبُعد الاجتماعي ، حيث يمكن أن يمتد التغيّر من المدينة الى الريف ومن الريف الى المدينة.

وبالرغم من كل ايجابيات نظرية بيكرتون فان بها عيبين أساسيين ، أولهما انه لم يسمح فيها بالاختلافات الاحتمالية probabilistic بين النوعيات ، وهي الاختلافات التي تبيّنا انها حقيقية وذلك من خلال المادة العلمية التي عرضنا لها في هـذا الفصل. فكيف نصف العـلاقات بـين عـددٍ مختلف من اللهجـات في الفـارسية الـطهرانيـة ( أنظر الجـدول ٥ ــ ٢) ؟ ( ومن الجذيـر بالـذكـر ان الاختـلافات في المـادة العلمية الفـارسية ليست خـاصة بمسـألة الانتشـار المعجمي لأن الاختلافات المعجميـة قد سُمِـحَ بوجـودها بصـراحة في المـادة العلمية ، فاستبعدت الوحدات المعجمية المتكررة. ويسمح بيكرتون بالنسبة لأية قاعدة بثلاث عـلاقات احتمـالية للنـوعية س ، وهي كـالتالي : ينبغي أن تكـون اجباريـة او اختياريـة أو غير مـوجودة في س ، وقـد رأينا ان كـل اللهجـات في ٥ ــ ٢ تتميّز بـادغام الصـائت كقاعـدة اختياريـة ومعنى ذلك

ان نظرية بيكرتون تفشل في التمييز بين هذه العلاقات.

أما العيب الثاني فهو خاص هو الآخر بالاحتمالات ، وخاصة ان القواعد التي قدَّمها بيكرتون للربط بين اللهجات ليست سوى أوصاف احتمالية عن العلاقات الأكثر احتمالاً بين هذه النوعيات. ويقدِّم لنا بيكرتون من مادته العلمية كثيراً من الأمثلة الدالة على اللهجات الفردية التي تتعارض مع « تدريجه التضميني » ، ولكن هذه اللهجات المخالفة أو الخارقة للنمط ضئيلة للغاية ، إذا قارناها باللهجات المنتظمة ، وبالتالي يمكننا أن نتخذ قواعد بيكرتون التي تربط بين اللهجات ، على انها بيانات احتمالية تدل على أكثر الطرق المحتمَلة التي يتخذها الفرد في التحول من اللهجة الأساسية Basilect الى اللهجة العليا Acrolect ، ولكن هذه القواعد لا تشمل جميع أنماط التباين القائمة في مجتمع بعينه وذلك بسبب استبعاد اللهجات الخارقة أو المخالفة. ولذلك من الواضح اننا يجب ألّا نكتفي عند وصف كلام مجتمع بعينه بوصف النظام النحوي أو عدد من الأنظمة النحوية الأساسية و وصف مجموعة من القواعد التي تربط بين عددٍ من اللهجات lect في صورة ( تدريجات تضمينية ). بل نحتاج بدلاً من ذلك الى وصفٍ كامل لكل اللهجات القائمة في المجتمع ، ومن بينها اللهجات الخارقة للعادة ، كما نحتاج أيضاً الى وصفٍ مقارن للعلاقة بين هذه اللهجات ، أو بعبارة أخرى نعود للتمييز بين علم اللغة الوصفي وعلم اللغة المقارن مرة أخرى ، وتعود مشكلات عالم اللغة الوصفي كما كانت من قبل ، وهي كيفية التعرف على الشيء الذي نريد وصفه ( وهو ما يطلق بيكرتون عليه اللهجة lect وسيكون تعريف ذلك في صعوبة تعريف ما أطلقنا عليه اللهجة الفردية idiolect ، مع التسليم بانها ترتبط بأكثر من تدريج تضميني : وكيفية التعرف على أنماط الكلام وعلاقاتها.

**٥ ــ ٥ ــ ٣ نظرية نموذجية :**

ولعله من الأيسر الآن التعرف على الخصائص التي ينبغي أن تتوافر في نظرية علم اللغة حتى يكون في هذه النظرية مميزات النظريتين السابقتين

مع تجنّب مواطن ضعفهما. وليست هناك أية نظرية في الوقت الحالي تتوفر فيها كل هذه الخصائص ، ولكن ليس من العسير أن نتخيَّل انه يمكن تطوير هذه النظرية في الحقبة التالية ، أو بعد ذلك.

أولاً ، يجب أن تتضمن هذه النظرية كلاً من علم اللغة الوصفي وعلم اللغة المقارن. وينبغي أن يعتمد أي وصف للنظام النحوي عند المتحدث الفرد على المبادىء النظرية لعلم اللغة الوصفي ، بينما ينبغي وصف لهجات الكلام القائمة في مجتمعٍ بعينه في اطار نظرية علم اللغة المقارن. وبذلك نستطيع التحرك بين الموقف الأول الذي يفترض ان جميع أفراد المجتمع لديهم نفس النظام النحوي وبين الموقف الثاني الذي يسمح بوجود تباين بين نُظُم النحو الفردية غير المقيدة عند المتحدثين الأفراد ، وسيتضمن الجزء الوصفي من علم اللغة المقارن محاولة للاجابة على مجموعة من الأسئلة خاصة ببُنية نظام نحوي بعينه أو النُظُم النحوية بصفة عامة ، أما الجزء المقارن فسيحاول الاجابة على عددٍ من الأسئلة الهامة ، ومنها الأسئلة التي طرحناها في هذا الفصل. ويمكن تلخيص هذه الأسئلة بايجاز شديد ، في السؤال التالي : كيف ولماذا تختلف نُظُم النحو الفردية ؟ أو السؤال البديل وهو « كيف ولماذا تتفق نُظُم النحو الفردية بعضها بعضاً » ؟

ثانياً ، يجب أن تتوافق تلك النظرية مع نظرية تتصل بعلم اللغة ، حتى تتكون أوجه الشبه المُفْتَرَضَة بين نُظُم النحو الفردية ناتجة إما عن الصدفة أو ناتجة عمّا تعلّمه الفرد مما يسمعه. ( ونحن نسلِّم هنا جدلاً ان هناك كثيراً من أوجه الشبه تتماثل مع الشموليات اللغوية. ومعنى ذلك ان النظرية يجب أن تكون قادرة على احتواء نُظُم النحو الفردية المتباينة في اطار مجتمع واحد سواء فيما يرتبط بالمفردات الخاصة بهم أو القواعد التراكيبية الأساسية ، وبالتالي فليس من الضروري أن نفترض ان كل أفراد المجتمع لديهم نفس « الصيغ الصوتية الكامنة لكلمة مثل **house** ، حتى يمكننا أن نحدد

التباين في النطق في القوعد الصوتية . ولكن هذا الشرط يثير مشكلات خطيرة بالنسبة لعالِم اللغة الوصفي ، حيث ان المادة العلمية ، التي جمعها لن تمكّنه تقوم بالتحليل المناسب أو الكافي بالنسبة لأي فرد بحد ذاته ، ولذلك ينبغي أن يلجأ في هذه الحالة للاختبارات اللغوية النفسية psycholinguistic explanation حتى يمكنه أن يحدد ما إذا كان ذلك الفرد لديه [h] في « صيغة النطق التحتية الكامنة » لكلمة **house** أم لا . ( وقد قام ج . ماكولي James McCawley ١٩٧٧ بوصف هذه المشكلة في سياق مختلف ) .

ثالثاً ، ينبغي ان تعتمد تلك النظرية على نموذج لـبُنية اللغة يحتوي قَدَراً أقل من الاختلاف بين الوحدات المعجمية lexical items والـبُنيات التراكيبية syntactic structures مما هو قائم في معظم النظريات الحالية . ولو اننا تابعنا استخدام المصطلح المذكور في ٢ ـ ١ ـ ٢ لأمكننا أن نستخدم مصطلح « الوحدات اللغوية » للدلالة ليس فقطَ على الوحدات المعجمية ، بل للدلالة أيضاً على جميع أنواع التراكيب والصيغ الصرفية والصوتية . وبعبارة أخرى ، تصبح الوحدة اللغوية مجرد نمط يمكن التعرف عليه في أي مستوى من المستويات المجردة في بُنية التركيب . أما السبب الذي يدفعنا الى تقليل الاختلافات عند التعامل مع الأنواع المختلفة من الوحدات اللغوية فهو الحقائق الخاصة بالتوزيع الاجتماعي social distribution حيث ان هذه الحقائق ثابتة سواء أكانت الوحدة المعينة وحدة معجمية مثل **pussy** التي تقابل **cat** ) أو وحدة تراكيبية بأكملها ( مثل **.Let Teddy fall down** التي تقابل **Teddy fall down** أو وحدة صوتية ( مثلاً [t] بدلاً من [st] أو وحدة صَرفية morphological ( مثل **goed** بدلاً من **went** ) . وكلما زادت الاختلافات الخاصة بالتعامل مع هذه الأنماط في النحو ، زادت صعوبة ابتكار منهج موحَّد لربطها بالمضمون الاجتماعي وزادت أيضاً صعوبة تفسير ارتباطها جميعاً بالسياق الاجتماعي بنفس الطرق . ومن هذا المنظور لا يبشّر النحو التوليدي التحويلي بكثير

من الأمل في حلِّ هذه المشكلة وذلك لأنه يميّز تمييزاً أساسياً بين الأنماط المختزنة في النظام النحوي ، مثل الوحدات المعجمية ، وبين الأنماط التي تُعرف بطريقة غير مباشرة عن طريق القواعد التحويلية وقواعد البُنىٰ التحتية الأساسية phrase—structure rules ( وهناك أسباب أخرى كثيرة لرفض نُظُم النحو التوليدية التحويلية كنظرية لبُنية اللغة ، أنظر على سبيل المثال هدسون Hudson ١٩٧٦ ) .

وأخيراً ، يينبغي أن تتوافق تلك النظرية مع البيانات الاحتمالية من نوع أو آخر . ولا ينبغي أن تدل هذه البيانات الاحتمالية على الوحدات في سياقها الاجتماعي فحسب ( الوحدة س محتَمَلة بنسبة كذا ٪ في السياق الاجتماعي ص ) بل ينبغي أن تدل أيضاً على هذه الوحدات في سياق لغوي معينٍّ ، وبخاصة إذا سلّمنا بأهمية السياق اللغوي وتأثيره على المتغيَّرات اللغوية ( أنظر ٥ ــ ٤ ــ ١ ) . وفضلاً عن ذلك ، فَمِنَ الأفضل أن تتوافق هذه النظرية مع مفهوم النماذج الأصول . والعلاقة واضحة بين الاحتمالات والنماذج الأصول فكلاهما يستخدم التصنيفات غير المستقلة non—discrete categories كما في حالة ان الوحدة « س » أكثر احتمالاً من الوحدة « ز » في السياق « ي » ، وبالتالي تكون الوحدة « س » أكثر أوأ قل تشابهاً مع الوحدة « ز » أو نموذج أصل معينّ . ومن الطبيعي أن يسمح الميكانيزم الذي يتسع لتوصيف النماذج الأصول بوجود الإختلافات الاحتمالية بين الوحدات ، ولكننا بذلك نكون قد تجاوزنا في توقعاتنا حدود المستقبل القريب .

ولعل أهم النقاط التي تضمنها هذا الفصل هو العلاقة الوثيقة بين المادة العلمية والنظرية . فلم يكن ضرورياً أن نعير الوصف الكمي في اطار علم اللغة نظرة جدية ، حتى قدّم لنا لابوف من خلال دراسته المادة العلمية الخاصة بالتباين الكمي في المتغيَّرات اللغوية ، وعلى العكس فان عدم وجود مكان لمثل هذا الوصف الكمي في اطار نظرية علم اللغة منع معظم علماء اللغة من السعي بحثاً وراء المادة العلمية اللازمة .

# اللامساواة اللغوية و الاجتماعية

## Linguistic and Social Inequality

### ٦ ـ ١ اللامساواة اللغوية Linguistic inequality :

#### ٦ ـ ١ ـ ١ مقدمـــة :

لعل أهم منجزات علم اللغة في القرن العشرين تجاوز الرأي القائل ( على الأقل بين المشتغلين في علم اللغة ) ان بعض اللغات أو اللهجات « أفضل » من بعضها. ويعترف معظم علماء اللغة ان رجل الشارع يعتقد ان بعض نوعيات اللغة أفضل من غيرها ، ولكنهم في الوقت نفسه يؤكدون ان كل نوعية تتضمن في حدِ ذاتها خصائص تشترك فيها كل اللغات البشرية ، ومن هذه الخصائص ان كل اللغات « محكومة بمجموعة من القواعد » rule—governed ، وانه حتى أقل النوعيات مكانة من الناحية الاجتماعية تتضمن أنماطاً بُنيوية غاية في التعقيد. ويزعم علماء اللغة انهم لو دَرَسوا نُظُم النحو الخاصة بنوعيتين مختلفتين ، إحداهما ذات مكانة اجتماعية عُليا والأخرى ذات مكانة اجتماعية دُنيا ، فانهم لن يستطيعوا التمييز بينهما من ناحية المكانة ولن يستطيعوا أيضاً التنبؤ بلون بشرة المتحدثين باحدى هاتين النوعيتين.

وفضلاً عن ذلك ، فقد يقول معظم علماء اللغة نفس الشيء عن الاختلافات اللغوية بين المتحدثين **الأفراد** ، فإذا كانت هناك اختلافات بين اجروميتي فردين فليست هناك وسيلة لمعرفة أي النوعيتين تحظىٰ بمكانة عُليا في مجتمع من مجرد دراسة الاجرومية. وعلينا أن نعترف بان هناك أفراداً لديهم اجروميات غير كاملة ، مثل الأطفال والأجانب والمتخلفين عقلياً ، ولكن هذه الاستثناءات من السهل تفسيرها والتنبؤ بها ، ولا تنفي ان كل الناس العاديين يتساوون من ناحية اجرومياتهم. ولا توجد بالطبع نهاية للاختلافات بين الاجروميات سواء أكانت هذه الاجروميات لأفراد أو لجماعات بأسرها ، وليست هناك أُسس لغوية بتفضيل اجرومية على أخرى في متدرج الاجروميات.

ويمكننا أن نلخّص هذا الموقف ببساطة في الشعار المرفوع دائماً « وهو ان علم اللغة يجب أن يكون وصفياً وليس توجيهياً ». ولا يعرف كثيرون ان هذا الشعار يُثير بعض المشكلات ، فَمِنَ الصعب أن نتجنّب النزعة التوجيهية لعلم اللغة ، حيث ان التطور التاريخي لنظرية علم اللغة كان

قد ارتبط بتوصيف النوعيات ذات المكانة الاجتماعية العُليا ، مثل اللغات المتواضع عليها. ولقد سبق ان أشار لابوف الى ان الطريقة الطبيعية للحصول على معلومات عن لغة فردٍ ما ، هو ان نطلب منه أن يطلق أحكاماً على عدد من التراكيب ، ويعد هذا المنهج عديم الجدوى إذا كان المتحدث يتحدث نوعية غير متواضع عليها ، ولكنه يألف نوعية متواضعاً عليها ، ذلك ان أحكامه سترتبط حتماً بالأخيرة لا بنوعيته الأصلية ( لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ٢١٤). وفضلاً عن ذلك ، فالقول بأن اللغة مجموعة من التراكيب المحددة تحديداً دقيقاً ، والذي يعد أساساً لنظرية النحو التوليدي ، يعد من آثار الجذور التوجيهية لعلم اللغة ، وتلك الآثار التي تتجلى في النحو والمعاجم التي تهدف أصلاً الى التمييز بين « الصواب » و « الخطأ » ، ومن المستحيل ــ كما هو معروف ــ عملياً تحديد الحدود اللغوية لأية لغة من اللغات. ويبدو ان النزعة التوجيهية مسألة مبدأ بالنسبة لبعض علماء اللغة ، كما يتضح في الفقرة التالية التي طالما ألحَ عليها تشومسكي (١٩٦٥ : ٣) « تهتم نظرية علم اللغة أولاً وأخيراً بالمتحدث والمخاطب المثاليين في جماعة كلامية متجانسة تماماً ، **تعرف لغتها تماماً** ». ومن الصعب ألاّ نفسّر هذا القول بانه تسليم بان بعض المتحدثين ــ وربما كل غير المثاليين منهم ــ لا يعرفون لغتهم بنفس درجة الكمال المفتَرَضة في هذه الفقرة ، مما يعني ضمنياً ان هناك معياراً مطلقاً نستطيع ان نحكم به على معرفة الفرد للغته. وينبغي أن نؤكد ان هذا المعيار لا وجود له إلاّ إذا اختلقنا معياراً بغرض توجيهي أو تعليمي. فَمِنَ السهل على علماء اللغة كتابة اجروميات يعتقدون انها وصفية ، ولكنها في حقيقة الأمر توجيهية وارشادية ، والحقيقة هي ان العامة لا يرون سوى نزعتها التوجيهية.

واحدى المشكلات الأخرى الناشئة عن مبدأ المساواة اللغوية هو انه يحول اهتمامنا عن اللغة كمصدر من مصادر اللا مساواة الاجتماعية social inequality ولو كانت اللغة شيئاً يتطوّر تلقائياً بنفس السرعة والدرجة لدى جميع الناس العاديين فلابد أن يصل الذين بلغوا سناً معيّناً ودرجة من النضج

الى نفس المستوى اللغوي ، ولن يكون هناك ما يدعو الى القلق ، حيث يتقدَّم بعض الناس بسرعة أكبر من غيرهم ، طالما ان ذلك لا يحدث للمتحدثين العاديين . ويثير هذا الرأي غير المسؤول مشكلتين : احداهما خاصة بالمتحدثين غير الطبيعيين ( مثل الأجانب والمتخلفين عقلياً ) ، والأخرى خاصة بآثار التحيّز اللغوي . وبالطبع ، فان التحيّز اللغوي Linguistic prejudice موجود ( أنظر ٦ ــ ٢ ) . ولكن مبدأ المساواة اللغوية يؤدي الى نتيجة فحواها ان استبعاد التحيّز اللغوي ( لو أمكن ذلك ) يترك لنا المتحدثين العاديين باعتبارهم القطاع الوحيد من المتحدثين الذين يعانون من مشكلات لغوية . ولكن الأدلة المقدَّمة في ٥ ــ ٣ و ٥ ــ ٤ تثبت ان الأمر ليس كذلك ، فهناك اختلافات معروفة ومحدَدَة بين الأفراد من نفس العمر في بعض جوانب اللغة كالمفردات ، وبعض جوانب التراكيب والمهارات الخاصة باستخدام الكلام للقيام بمهام معيَّنة ، وفي فنون القراءة والكتابة . ويمكننا أن نتخذ هذه الاختلافات دليلاً على اللا مساواة أو التفاوت بين الأفراد ، وهذه هي نفس المهارات اللغوية التي تدرس في المدارس . فلو أخذنا مبدأ المساواة اللغوية حَرْفياً ، لمَا كان هناك داعٍ لتدريس أي من جوانب اللغة الأم في المناهج المدرسية ، ولَتَركنا اللغة الأم وشأنها .

وسبب الخلاف القائم بين ما يزعمه علماء اللغة عن اللغة وبين ما يعرفه العامة عن الحاجة الملحة لتدريس اللغة الأم mother tongue هو ان لكل مجموعة من هاتين المجموعتين مفهوماً مختلفاً عن « اللغة » . وعندما يطلق علماء اللغة مزاعمهم عن المساواة اللغوية ، فانهم يقصدون بذلك النواة الأساسية في بُنية اللغة basic core of language structure ، وهو المجال الذي تهتم به نظرية علم اللغة . ولا يهتم العوام غالباً بهذه النواة الأساسية ، وإن كانوا يعتبرونها أمراً مُسَلَّماً به ، وحين يقولون ان الأفراد غير متساوين من الناحية اللغوية ، فيقصدون بذلك انهم غير متساوين لغوياً فيما يختص بالجوانب « الاضافية »

للغة peripheral أي حصيلة المفردات والتعبيرات الخاصة بسجل سياقي معيَّن. وغالباً ما يبدي العوام رأياً متطرفاً ، مثل قولهم بان بعض الأطفال ليست لديهم لغة على وجه الاطلاق ، وفي هذه الحالة من واجب عالم اللغة أن يشير الى خطأ هذا المفهوم ، ولكن ينبغي على عالم اللغة بدوره أن يحذّر التطرف في صياغة مزاعمه ، عندما يقول ضمنياً بان المساواة اللغوية « خاصة باللغة بأكملها وباستخداماتها ».

**٦ ــ ١ ــ ٢ ثلاثة أنواع من اللامساواة اللغوية :**

وينقسم بقية هذا الفصل الى ثلاثة أقسام رئيسية يتناول كل منها نوعاً مختلفاً من اللامساواة اللغوية وعلاقتها باللامساواة الاجتماعية. وفي كل من هذه الحالات يمكننا أن ننظر الى اللامساواة اللغوية على انها أحد أسباب اللامساواة الاجتماعية ( بالاضافة طبعاً الى أسباب أخرى كثيرة ) ، بل يمكننا أن نرى اللامساواة اللغوية باعتبارها نتيجة للامساواة الاجتماعية ، ذلك ان اللغة من أهم العوامل التي تساعد على استمرار التفاوت من جيلٍ الى آخر.

ويعرض الجزء الحالي بالدرس لهذه الأنواع الثلاثة من اللامساواة اللغوية. يمكننا أن نطلق على النوع الأول اسم اللامساواة الذاتية subjective inequality لأنه يختص بدراسة رأي الناس في كلام الآخرين ( أعني مجال « التحيّز اللغوي » الذي سبق أن ذكرناه ). يُصَنّف الناس في بعض المجتمعات ( وليس بأي حال من الأحوال في كل المجتمعات ) من حيث درجة ذكائهم وفطنتهم وطرافتهم ومن حيث صفات كثيرة أخرى وفقاً للطريقة التي يتحدثون بها ، بالرغم من ان مثل هذه الأحكام التي تعتمد على طريقتهم في الكلام قد تكون خاطئة للغاية. ونتيجة لذلك يعتقد ان بعض المتحدثين يتمتعون بقدر من الصفات الحميدة تفوق ما لديهم فعلاً ، وذلك لأنهم يتكلمون بالطريقة « الصحيحة » ، أما الآخرون فَيُعْتَقَد انهم يفتقدون هذه الصفات حيث ان كلامهم يعطي انطباعاً خاطئاً . وعلى ذلك تضيف اللغة

في تنوع اختلافاتها الى معايير التفاوت الاجتماعي لأنها تستخدم معيارا لتقييم الناس رغم انها معيار لا يعتد به.

ويمكننا أن نطلق على النوع الثاني من اللامساواة اسم « اللامساواة اللغوية البحتة » strictly linguistic inequality وذلك تمييزاً له عن المفهوم العام للامساواة اللغوية الذي نقوم بدراسته في هذا الفصل. وترتبط « اللامساواة اللغوية البحتة » بالوحدات اللغوية التي يعرفها الفرد ( ونحن نستخدم مصطلح « الوحدات اللغوية » بالشكل العام الذي أُستخدم به في ٢ ـ ١ ـ ٢). ومن المعروف ان الوحدات اللغوية التي يعرفها الفرد تعكس نوعية التجارب التي مرَّ بها ، وان الأفراد ذوي التجارب أو الخبرات المختلفة يعرفون نوعيات مختلفة من الوحدات. ويتضح ذلك في معرفة حصيلة معينة من المفردات حيث يكون لدى البعض حصيلة ضخمة من المصطلحات أو الصيغ العلمية في مجال بعينه ، مثال مجال صيد السمك أو الثقافة « الشعبية » أو علم اللغة ، في حين لا يعرف البعض الآخر مثل هذه المصطلحات. وهناك على أية حال أنواع أخرى من الاختلافات في مجالات أخرى من اللغة ، كأن تتحدد المفردات اللغوية بنوعية المتخاطبين كما في حالة حديث الأبوين لأطفالهم ، أو ان تتحدد التراكيب المُستخدَمة لتقتصر على تراكيب بعينها كما نرى في المزادات أو التعليق الرياضي الاذاعي الخاص بسباق الخيل. وفي كل من هذه الحالات يعرف بعض الناس الوحدات اللغوية المُستخدَمة بينما لا يعرفها آخرون ، ويكون اداء الذين يعرفون هذه الوحدات اداء أفضل ، خاصة في تلك المواقف الاجتماعية التي تستلزم دراية باستخدام هذه المفردات. ويعني ذلك ظهور التفاوت الاجتماعي في مثل هذه المواقف ، غير ان بعض هذه المواقف يعد أكثر أهمية من بعضها الآخر ، وذلك من حيث أثره في مستقبل حياة الفرد المهنية ، كحُسْنِ الاداء في الامتحانات الشفاهية والمقابلات الاختبارية الخاصة بالحصول على عمل أو وظيفة معيّنة ،

فحُسْن الاداء في مثل هذه المواقف أهم بكثير من اظهار مهارة معرفية وكلامية في مناقشة خاصة بصيد الأسماك. وعلى ذلك تركَّز اهتمام علماء علم اللغة الاجتماعي على الاختلافات المرتبطة بالمواقف الهامة في الحياة، وبخاصة المواقف المتعلقة باداء الأطفال في المدارس.

وقد بولغ بشدة في الماضي في أهمية اللامساواة اللغوية البحتة ( أنظر ٥ ــ ٣). ولكن هناك نوعاً ثالثاً من اللامساواة اللغوية لا نستطيع ان نبالغ في أهميته الاجتماعية. وسنطلق على هذا النوع من التفاوت اللغوي اسم « اللامساواة الاتصالية » communcative inequolity لأنه خاص بمعرفة كيفية استخدام الوحدات اللغوية لإتمام عملية الاتصال بنجاح، وذلك دون الاقتصار على معرفتها. وتدل اللامساواة الاتصالية « على نوعية المعرفة أو المهارة التي نحتاجها عند استخدام الكلام للتعامل interact مع الآخرين ( أنظر الفصل الرابع ). ويشمل هذا النوع من اللامساواة تباين المتحدثين في اختيار بدائل المتغيِّرات اللغوية، وذلك بهدف ترك انطباع حَسَن لدى المتلقى ( أنظر الفصل الخامس ). ويعني ذلك ان اللامساواة الاتصالية تشتمل على اللامساواة الذاتية. وتشمل اللامساواة الاتصالية الموضوعات التي ناقشناها في الفصل الثالث عن العلاقة بين اللغة وبين الثقافة والفكر، حيث عرضنا للاختلافات القائمة في مستوى تكوين المفاهيم conceptualisation والثقافة. وبتعبير آخر تجمع اللامساواة الاتصالية شمل كل الموضوعات الرئيسة في هذا الكتاب، وتربطها بالقضايا الاجتماعية الهامة، مثل تكافؤ الفرص والسياسة التعليمية.

## ٦ ــ ٢ التحيّز اللغوي **Linguistic prejudice** :

### ٦ ــ ٢ ــ ١ طبيعة التحيّز اللغوي :

هناك أدلة كثيرة على ان الناس يستخدمون اللغة كي يحددوا موقعهم في حيّز اجتماعي متعدد الأبعاد multi—dimensional social space.

وتعد هذه الطريقة من وجهة نظر المتحدث هي الطريقة الملائمة

للحديث عن نفسه وعن نوعية شخصيته ( أو الشخصية التي يود أن يكونها ) وعن موقعه في المجتمع. وينبغي على المتلقي بالمثل ان يستنتج من المتحدث خصائصه وصفاته وموقعه في المجتمع من حوله. ولو لم يلتفت أحد الى الاشارات الاجتماعية social signals التي يرسلها المتحدثون ، لكان إرسالها عبثاً ، ولكننا نعلم ويعلم الجميع ان الناس يعيرون مثل هذه الاشارات كثيراً من انتباههم واهتمامهم. وسنطلق على هذا العِرف الخاص باستخدام الاشارات الاجتماعية مصدراً للمعلومات مصطلح « التحيّز اللغوي » ling- uistic prejudice وقد يبدو مصطلح « التحيّز » غريباً حين تكون المسألة حيادية خاصة بنشأة المتحدث ، ولكن مثل هذه الأحكام المبنية على الكلام غالباً ما تكون أحكاماً تقييميةَ ، وبالتالي فَمِنَ المبرر أن نعد هذه الأحكام أمثلة على التحيّز اللغوي ، وهي في ذلك تماثل الأحكام التقييمية الأخرى الـمُرضي منها وغير الـمُرضي ، والتي يقوم الناس باطلاقها على العناصر المرئية مثل الهيئة والملابس الخ. وسنعود فيما بعد الى مسألة اطلاق الأحكام التقييمية على أساس الكلام ، ولكننا سنفترض الآن ان هذه الأحكام أحكام مبنية على حقائق.

وليس من الصعب أن نفهم لماذا يستخدم الناس الكلام كمصدر للمعلومات عن خصائص المتحدث الاجتماعية. فالحاجة الى مثل هذه المعلومات تظهر عند مقابلة فرد غريب ، وعندما ينبغي أن نتعامل معه أو نتأكد من صدق ما يقول ( كما يحدث في مواقف الـخُطَب التي يلقيها الساسة على العامة ). ومن المهم في كُل هذه الحالات أن نعرف شيئاً عن الشخص الآخر ، حتى نستطيع أن نحدد سلوكنا الشخصي تجاهه ونخطط له. فما هي المعلومات التي نستطيع أن نسلّم بها عند محادثته ؟ ما هي قيمه ؟ وكيف تؤثر هذه القيَم على أقواله وردود أفعاله لِما يقوله الآخرون ؟ وغير ذلك من الأسئلة . وهذه الحاجة الى معلومات عن الفرد الآخر ، يمكن أن نطلق عليها مصطلح « الحيرة المعرفية » cognitive uncertainty ، وقد قامت مجموعة

من علماء النفس الاجتماعيين social psychology بتطوير نظرية خاصة بهذا الموضوع ( بيرجير وكالابريز Berger & Calabrese ١٩٧٥ ، بيرجير ١٩٧٩ Berger ، أنظر أيضاً التفسيرات البسيطة في جيلز وسميث و ويليامز Giles, Smith & Williams ١٩٧٧ ، وسميث وجيلز ١٩٧٨ ).

ونستطيع أن نضع هذه النظرية في إطار نظرية أكثر شمولية وهي النظرية الخاصة بالنماذج الأصول ( أنظر ٣ ــ ٢ ــ ٢ ). ومن أهم الأسباب التي تدفع الأفراد الى استخدام النماذج الأصول هو انهم يحتاجون الى معلومات سريعة لا يستطيعون الحصول عليها بأية وسيلة أخرى ، وذلك حتى يتمكنوا من استخدام هذه المعلومات في تخطيط سلوكهم تجاه الآخرين وتحديده. فلو قُدِمَ الى أحد الناس مثلاً طبق من الطعام ، فَمِنَ السهل أن يصل الى عدد كبير من الاستنتاجات عن خصائص الأشياء المتنوعة المقدَمة له في هذا الطبق ، وذلك دون حاجة الى أدلة غير التي اكتسبها من تجاربه ، واستناداً الى ان الأشياء ذات الخصائص الملحوظة والعلاقات الخاصة بالبيئة يمكن أن تكون لها خصائص أخرى مختلفة. فالأشياء التي تبدو على انها حبات بطاطس عادة ما يكون مذاقها مشابهاً لِما نتوقعه من مذاق حبة بطاطس ، الخ. وعلى ذلك إذا كان ما مُقَدَم لنا على الطبق يشبه حبة البطاطس ، وساعدتْ الظروف الأخرى على تأكيد كونه بطاطس ( أن يكون جزءاً من الوجبة لا من الحلوى ) ، فيمكننا عندئذ ان نخمن ما يمكن أن نفعله بها ( أعني ان نقطعها الى شرائح بالسكين أو نهرسها بالشوكة ، الخ ) ، وان نخمّن مذاقها. وقد يكون ذلك التخمين تخميناً خاطئاً ، فقد يكون الطاهي قد قام بتغيّر شكل البيضة لتبدو على انها حبة بطاطس ، وقد يكون من غير المناسب أن نثق في مثل هذه المعلومات ، ولكننا غالباً ما نخاطر بذلك في لحظة من لحظات حياتنا اليومية. والبديل هو ان نختبر كل الفرضيات المطروحة قبل ان نقتنع بصحتها ، هذا على الرغم من انه من الصعب أن نعرف كيف يساعدنا ذلك

حيث ان اختبار ما يُطرح علينا في حد ذاته يعد نوعاً من المخاطرة ( كيف نستطيع على سبيل المثال أن نكتشف ان لمثل هذه الحبة المذاق المتوقع لحبة البطاطس ؟ ) ويمكن تفسير الحاجة الملحة للتقليل من كم « الحيرة المعرفية » في التعامل الاجتماعي على نفس الأساس ، فهناك تماثل بين أسلوب جمع المعلومات عن البطاطس النموذجية المقدَمة للأكل ، وبين أسلوبهم في تجميع صورة للخصائص التي يستخدمها المتحدث النموذجي لصيغة لغوية بعينها.

وقد تؤدي مثل هذه المناقشة الى نتائج عملية هامة ، فقد يتبيَّن للقارىء انه لا ينبغي للناس أن يتسرعوا في الوصول الى أحكام عن الخصائص غير اللغوية للآخرين استناداً الى أسلوبهم في الكلام ، وانه ينبغي على علماء علم اللغة الاجتماعي التعاون مع المسؤولين عن النظام المدرسي في تدريب الأفراد على عدم القيام بذلك ، ولكن ذلك غير ممكن. فَمِنَ المهم أن يستخدم الناس الكلام بهذه الطريقة ( كمصدر متاح للمعلومات ) ، لأنه من غير الممكن ، أن يتم التعامل الاجتماعي بين الناس دون أن يعرفوا بعضهم معرفة جيدة. وينبغي علينا بالتأكيد أن نقوم بعمل شيء ضد التحيّز اللغوي خاصة حين يؤدي الى مشكلات خطيرة ، وإن كنا لا نستطيع أن نزيله تماماً لأنه عنصر هام من عناصر التعامل الاجتماعي.

وينبغي الآن ان نناقش قضية القيّم values. ولماذا يقيم الناس بعضهم بعضاً سواء كان هذا التقييم مُرضياً أَم غير مُرض استناداً الى الكلام ؟ وربما يكون جانب من الاجابة على هذا السؤال ان القيم مرتبطة بالخصائص غير اللغوية موضع الاهتمام ، وعلى ذلك يكون الفرد الذي تنعكس في كلامه خصائص ذات قيمة عالية ذا قيمة عالية بالطبع ، والعكس صحيح بالنسبة للقيّم التي لا تتمتع بهذه المكانة. وقد تختلف القيّم التي تتمتع بهذه المكانة من مجتمعٍ الى آخر فقد تكون صفة ( الجدعنة ) قيمة تتمتع بمكانة ايجابية عليا في أحد المجتمعات ، ولكنها تعد قيمة سلبية في مجتمعٍ آخر. ومن ثم ، فإذا

كـانت صفة ( الجـدعنة ) مـرتبطة بـأسلوب بعينه من الكـلام ( مثـل لهجـة بعينها ) ، فان مَن يستخدم هذا الأسلوب سيتمتع بمكانة عالية حيث تحترم هذه الصفة ، ويكون على عكس ذلك مجتمع يعد هذه الصفة من صفاته السلبية. و ( الجدعنة ) احدى الصفات الشـائعة التي تـرتبط بأسلوب الـطبقة العاملة في الكلام ، وذلك في بلاد مثل بريطانيا والولايـات المتحدة ولـذلك فمثـال ( الجدعنة ) مثال واقعي.

وعلى أية حال ، لابد أن نأخذ في اعتبارنا ، حين نناقش مسألة ارتباط القيم بالكلام ، ان اللغة تُستخدم **رمزاً للانتـماء الى جماعـة بعينها symbol of group—membership** فـالناس يستخـدمـون الكـلام حتى يحـددوا الجـمـاعـة الاجتماعية التي ينتمون إليها ( أو التي يرغبون في الانتـماء إليها ) ، وبـالتالي يقوم الآخرون بتقييم المتحدثين حسب تقييمهم لهذه الجماعات. وقد تعد تلك الطريقة طـريقة مختلفـة الى حدٍ مـا لوصف العـلاقة التي سبق ان نـاقشناهـا في الفقرة السابقة. لأن الصفات التي نخلعها على شخصٍ ما هي مجرد جوانب من صفات العضو النموذج prototype—member في الجماعة ، التي نعتقد انه ينتمي إليها. وتعتمد طريقتنا في تقييم خصائص هذه الجماعة في المقام الأول على قيَم الجماعة التي ننتمي إليها أيضاً. ويرى علماء علم النفس الاجتماعي ان الناس يميلون الى الاعتقاد بان الجماعة التي ينتمون إليها أفضل من مثيلاتها من الجماعات ، على الأقل ، في بعض الجوانب ( تاجفيل ١٩٧٤ Tajfel أنظر التفسيـرات المقدَمـة في جيلز ، وبورهيس وتـايلور ١٩٧٧ ، Giles, Bourhis & Taylor ). وبعبارة أخرى ، فالجزء الأساس من نظرة الفرد الى ذاته مشتقة من نظرته الى الجماعة أو الجماعات الاجتماعية التي ينتمي إليها ، واحترامه لذاته يعتمد أساساً عن احترامه للجماعة ككل. وبالرغم ممـا يبدو ان هـذه النظرية تقرر ما هو واضح ولا يحتاج الى تفسير فـان لها نتـائج هـامة جـديرة بالـــذكـــر.

وقد يساعدنا ذلك على فهم ظاهرة اعتبار الأنماط الكلامية الفردية جانباً

ثابتاً من سلوك الأفراد ، ولماذا تقدم لنا ، مثل هذه الأنماط اشارة صحيحة وواقعية الى هوية الأفراد الاجتماعية . وحين يقوم الفرد « بفعل توكيد هويته أو انتسابه act of identity الى جماعةٍ ما ، ويتبنّى أنماطها الكلامية تتحول نظرة العضو الى هذه الجماعة لتشكل نظرته لذاته ، ويصبح من الصعب عليه ان يحول ولاءه الى جماعات أخرى . ولحسن الحظ ، تسمح الطبيعة متعددة الأبعاد لظاهرة التباين اللغوي للفرد ان ينتمي الى عدد مختلف من الجماعات في آنٍ واحد ، فيمكن للفرد ، مثلاً ، ان يحتفظ بلكنة الطبقات العاملة في نفس الوقت الذي يتبنّى فيه تراكيب ومفردات الطبقة المتوسطة . غير ان هناك حدوداً لدرجة المرونة المسموح بها ، فغالباً ما تكون الروابط النفسية التي تربط الفرد بالجماعة التي ينتمي إليها في فترة معيّنة من القوة بحيث تضمن ولاء الفرد لأنماطها الكلامية حتى يحين الوقت لانتقاله الى جماعة أخرى ( ويتضمن جيلزوبورهيس وتايلور ١٩٧٧ Giles, Bourhis & Taylor مناقشة جيدة للعناصر التي تدفع الأفراد لتحويل ولائهم من جماعة الى أخرى ) .

والقول بان الأفراد يودون ان يعتقدوا انهم ينتمون الى جماعة ذات مكانة عالية أو قيمة عليا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بقضية التحيّز اللغوي . ومن الوسائل التي يلجأ إليها الناس لاقناع أنفسهم بان جماعتهم أفضل من الجماعات الأخرى هي البحث عن خصائص تميّز جماعتهم فتبدو أفضل من الجماعات الأخرى عند المقارنة . وقد تكون احدى الجماعات مثلاً أفضل من الجماعات الأخرى في رياضةٍ ما ، وفي هذه الحالة يؤكد أعضاء هذه الجماعة هذه الحقيقة على انها من الخصائص الهامة لجماعتهم ، وبذلك يضيفون جديداً الى رصيدهم من احترام الذات . وأحياناً يصعب ايجاد مثل هذه الخصيصة الايجابية ، ولذلك تلجأ الجماعة الى البحث عن خصائص موروثة ومحايدة دليلاً على تفوقها على الجماعات الأخرى . ولنضرب مثلاً على ذلك ، فإذا كانت الجماعة « أ » تشرب الجعة بصفة دائمة ، وهي تعرف جيداً

ان الجماعة « ب » تعتاد شرب النبيذ ، فستقوم الجماعة « أ » باقناع نفسها بان عادة شرب الجعة أفضل من عادة شرب النبيذ ، ثم تقوم باستخدام هذه الحجة دليلاً على تفوقها على الجماعة « ب » ( وبالطبع تستطيع الجماعة « ب » ان تستخدم نفس التكنيك لتثبت نقائص الجماعة « أ » ) . وليس من الصعب أن نتصور أمثلة على هذا النمط من السلوك خارج إطار اللغة ، غير ان هذا النمط من السلوك واضح للغاية في اللغة حيث توجد أمثلة كثيرة على الخلاف بين الجماعات . فإذا أخبر الأبوان أبناءهم ان طريقتهم في الكلام هي الطريقة « الصحيحة » أو المُثلىٰ ، تكون النتيجة المباشرة ان يتصور الأبناء ان الجماعات الأخرى تتحدث بطريقةٍ أقل في « الصحة » أو « الجودة » أو « المكانة » . ويبدو ان ذلك عِرف واسع الانتشار . فقد قررت جيليان سانكوف Gillian Sankoff (١٩٧٦) ان كل القرى المتحدثة بالبوانج Buang في غينيا الجديدة تعتقد ان لهجتها أفضل لهجات البوانج على وجه الاطلاق . ولا تعتقد كل الجماعات في العالم ــ يقيناً ــ ان طريقتها في الكلام هي الأفضل ، غير ان هذه هي احدى الطرق المستخدَمة لرفع احترام الجماعة لذاتها ، وهذا من شأنه ، أن يفسّر لنا بعض الجوانب الأخرى للتحيّز اللغوي .

ويتحتم علينا أن ندرس إمكانية تعميم هذا التفسير على ظاهرة التحيّز . وإذا أمكن لنا أن نفهم السبب وراء استنتاج خصائص الآخرين غير اللغوية استناداً الى طريقتهم في الكلام ، يمكننا أيضاً أن نتبيَّن ان الأحكام المترتبَة على استنتاج هذه الخصائص غير اللغوية تكون أحكاماً تقييمية طالما ان هذه الخصائص نفسها خصائص تقييمية ، ويمكن اعتبارها ، من ثم ، تحيّزاً لغوياً . فبعض الجماعات قد تقوم بتحديد أساليب كلامها بطريقة جزافية على انها أفضل من أساليب الجماعات الأخرى ، وبخاصة تلك الجماعات التي يتصلون بها اتصالاً وثيقاً ، وبالتالي تصبح اللغة في حدِ ذاتها قابلة للأحكام التقييمية ، لا مجرد مصدر لتلك الأحكام . وقد نفهم من ذلك لماذا تتكون المجتمعات من جماعات تعتقد كل منها ان طريقتها في الكلام هي الطريقة

الأفضـــــل .

وهناك بالتأكيد وسائل عديدة لترشيد هذا التقييم الجزافي أو الاعتباطي لصيغة لغوية بعينها ، فنستـطيع مثـلاً أن نكشف عن ان الذين يستخـدمون صيغة لغوية بعينها يتمتعون بصفة ذات مكانة عالية مثل ( الجدعنة ) ، وهم يستخدمون تلك الصفة حجة لاثبات تفوق صيغهم اللغوية . والذي يحدث في مثل هذا النوع من الجدول ليس إلاّ محاولة لـرفع روح الجمـاعة المعنـوية وتثبيتها وذلك حتى لا تتنبّه الى حقيقة التناقضات المنطقية الكامنة في ان هذه الصفات قد اختيرتْ أصلاً لـرفع مكـانة الجمـاعة بـين الجماعـات الأخرى المحيطة بها .

ولا يزال تفسير هذه الظاهرة تفسيراً غير كامل إذ ينبغي علينا أن نواجه التحدي الذي فرضته علينا جيليان سانكوف (١٩٧٦) حيث تقول « لعل أهم المهام التي يجب أن يتصدى لها علم اللغة الاجتماعي هي التوفيق بين الطبيعة المحـايدة أو الاعتبـاطية للتبـاين اللغـوي والتغـيّر اللغـوي linguistic change من جهـة ، وبين التـدرج الاجتماعي للغـة social stratification ومستويـات الكلام المتباينة القائمـة في أية جمـاعة كـلامية مـركّبة ، من جهـة أخرى » . والمشكلة الحقيقيـة تكمن في اننا لا نستـطيع تفسـير واحدة من أهم وأوسـع الظواهر اللغوية انتشاراً في الدراسات اللغوية الاجتماعية ، وخاصة في دول مثل بريطانيا والولايات المتحدة ، تلك هي ظاهرة اعتقاد بعض الجماعات انها لا تتحدث بطريقـة أفضل من الجمـاعات الأخـرى ، بل عـلى العكس فهم يتصورون انهم يتكلمون بطريقة سيئة أو أسوأ من الآخـرين . وتُعرف هـذه الظاهرة باسم « اللا أمان اللغوي » linguistic insecurity ، وهو الاسم الذي قدَّمه لابوف (١٩٧٢ ــ أ : ١٣٣) . وقد يؤخذ وجود مثل هذه الجماعات دليلاً مناقضاً للزعم القائل بان بعض الجماعات تميل نحو استخدام اللغـة وسيلة لرفع مكانتها الاجتماعية ولتدعيم احترامها لذاتهـا ، رغم انه من الـواضح ان مثل هذه الجماعات لا تتمتع بهذه المكانة ، غير انه يمكن الدفاع عن هذا

الرأي بالطريقة التالية :

ينتمي الأفـراد ، أعضاء المجتمعـات المركَّبـة ، الى مجمـوعـات ذات مستويات مختلفة نكتفي منها بالأسرة ومجموعة الأقران peer group والمجموعة الاقليمية أو المحلية أو الحضرية والطبقة الاجتماعية الاقتصادية والأمة ، الخ . ( وقد تتداخل هذه المجموعات وتتشابك كما انها قد تكون منظمة في علاقات الجزء ــ الكل ) . وإذا كان هناك تعارض بين قيم مجموعتين ( لو تعارضت ، مثلاً ، قيَم الأمة مع قيم المجموعات الاقليمية أو الاجتماعية ) فقد تنتصر قيَم الأمة على حساب قيَم الجماعة الأقل قوة . وعلى ذلـك ، قال ويليـام لابوف ان سكان مدينة نيويورك يقبلون بصفة عامة قيَم المجتمع الأمريكي الـواسع مما يؤدي بهم الى التقليل من قيمة كثير من الصيغ اللغوية المميزة لنيـويورك . وهو يبالغ كثيراً حين يصف الجماعة الكلامية في نيويورك بانها « وعاء للمكانة الاجتمـاعيــة السـلبيــة » sink of negative prestige (١٩٧٢ ــ أ : ١٣٦) وقد صرح كثيرون آخرون بمثل هذ الفقدان للثقة في الذات بالنسبة لمجتمعات أخرى كثيرة مثل مدينة جلاسجو ( ماكـولي ١٩٧٥ Macaulay ) . ففي ههذ المجتمعـات يعتقد معـظم النـاس انهم يجب أن يستخـدمـوا صيغـاً لغـويـة غير التي يستخدمونها بالفعل ، لأن الصيغ اللغوية الأخرى ذات مكانة أعلى من تلك التي يستخدمونها فعلاً والتي يرفضها بقية المجتمع الواسع .

قد نكون بذلك قد فسّرنا ظاهرة « اللا أمن اللغوي » ، ولكننا نكون قد طرحنا بذلك سؤالاً آخر هو : لماذا كل الناس بالطريقة التي يعتقدون انهم ينبغي ان يتكلموا بها ؟ ( لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ٢٤٩) . فلو استطاع كل سكان نيويورك أو كلاسكو أن يمتنعوا عن الكلام بطريقتهم ويتحدثوا مثل بقية سكان أمـريكا أو بـريطانيـا ككل ، فـانهم يستطيعـون عنـدئـذ ان يهنئـوا أنفسهم على « التحدث » بطريقة « صحيحـة » . ويمكننا أن نجيب عـلى هذا السؤال رغم ان الاجابة قد تكون ناقصة ، وقد تترك كثيراً من المعضلات دون حلّ . وحتى يمكننا الاجابة على مثل هذا السؤال ينبغي أولاً أن نتأمل الميكانيزم الذي

يُؤسس هذه القيّم ويثبتها ، وينبغي علينا أيضاً ان نعترف بان القيَم التي يقبلها المجتمع ككل هي القيَم الخاصة بأقوى المجموعات فيه ، لأن هذه المجموعة تكون هي التي تتحكم في قنوات التأثير داخل المجتمع مثل المدارس وأجهزة الاعلام . فلو قام عدد كافٍ من مدرسي المدارس باعلام عدد كافٍ من تلاميذ « نيويورك » أو كلاسكو بان طريقتهم في الكلام « بطيئة » و « شاذة » و « قبيحة » أو حتى « خاطئة » ثم أخبروهم بما يجب أن يقولوه ، فسيصدق الأطفال ما يقوله المدرسون وخاصة إذا لم يسمعوا ما يناقض ذلك من أهلهم .

ثانياً ، علينا أن نفكر في المشكلات الخاصة بالتنفيذ الفعلي لِما يوصي به المدرسون . لأن أكثر الصيغ الكلامية مكانة في المجتمع هي الصيغ التي تستخدمها مجموعة بعينها ( أكثر هذه المجموعات قوة ) ، وعلى الرغم من ان هذه الصيغ هي أكثر الصيغ شيوعاً الى جانب انها تلقى أكبر قَدَر من القبول في المجتمع ككل ، نتيجة لتأثير المدارس الخ ، فان الطفل الذي يستغني عن الصيغ اللغوية الخاصة بمجموعته المحلية ، ويتبنّىٰ الصيغ اللغوية الشائعة في الأمة بأسرها . يكون بالفعل قد تبنّىٰ الصيغ التي ترمز الى مجموعة أخرى ، وهي « الطبقة العليا » ، ( إذا افترضنا انه يمكن استخدام هذا المصطلح للدلالة على المجموعة التي نبعث منها هذا القيَم ومن أجل مصلحتها أُستحدثت ) ولا يعد ذلك خياراً حقيقياً . وقد يلاحظ الطفل ــ من جهة ــ انه سيفقد أكثر مما يكسب في هذه العملية ، ومن المؤكد انه سيفقد احترام اصدقائه وحبهم ، وربما فقدَ احترام أسرته أيضاً ، وقد لا ينجح في تبنّي الصيغ الكلامية ذات المكانة العالية بشكل ناجح يكفي لاقناع الطبقات العليا بانه واحد منها ، هذا إذا تغاضينا عن كل المشكلات الأخرى الخاصة بتوافق كل الجوانب الأخرى لسلوكه وخلفيته مع عضويته في هذه الطبقة الجديدة . وقد تكون لديه ــ من ناحية أخرى ــ صورة سلبية لبعض جوانب شخصية العضو النموذجي في الطبقة العليا ، وتكون لديه بالمِثْل صورة ايجابية للمجموعة التي ينتمي إليها بالفعل . فغالباً ما ينظر مثلاً الى المنتمين الى الطبقة العليا على انهم مترفّعون

وغير مخلصين ومن غير أهل الثقة ( جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ Giles & Powesland الفصلين الرابع والخامس ) ، وقد يـود من ينتمي الى طبقة أخـرى أن يبقى على حالـه مؤكداً بـذلك ايجـابيات المجمـوعة التي ينتمي إليهـا بينما يعتـرف في الوقت نفسه بان الصيغ اللغوية الخاصة بالطبقة العليا « صحيحة » بصورة مطلقة. وغـالباً مـا يُطلق عـلى هذا النـوع من التناقض مصـطلحا « المكـانة المكشـوفة » overt prestige ( ونعني بـه مكانـة المجموعـة ذات المكانـة العليا التي تمثّل بشكل رمـزي المجتمع كله ) و « المكـانة المغـطاة » covert prestige ( ونعني بها المكانة المحلية الخاصة بالمجموعة التي لا تتمتع بـالمكانـة العليا ) ( تردجيل ١٩٧٤ ــ ب : ٩٦).

وقد يكون من المفيد أن نلخّص النقاش السابق بالمقارنة بين طرق ثلاثة يمكن أن يُستخدَم فيها الكلام مصدراً لجمع معلومات عن المتحدث ، وذلك بمنأى عن مضمون الخطاب الذي يصدر عنه. أولاً ، يمكن أن يُستخدم الكلام مصـــدراً للمعلومـات غـــير اللغـويـــة عن المتحـدث إذا أمكن الاستفـــادة من العـلاقات القـائمة بـين المتغيِّرات اللغـويـة والمتغيِّـرات غـير اللغـويـة. ( فلو استخدم المتحدث الصّيغـة اللغويـة س فَمِنَ المحتمل أن تكـون لديـه الخصيصة الاجتماعيـة ص ). ذلك ان السمـات غير اللغـوية في حـد ذاتها قد تكون عرضة للأحكام التقييمية ، وفي هذه الحالة يعد الكلام مصدراً لِمثل هذه الأحكام عن المتحدث.

ثانياً ، قد تعتقد مجموعة بعينها ان طريقتها في الكلام أفضل من طرق المجموعات الأخرى ، وفي هذه الحالة قد يعد كلام الفرد مصدراً للأحكـام اللغوية التقييمية ( لو استخدم المتحدث الصيغة س ، فلابد أن يكون متحدثاً جيداً أو رديئاً ). ولا تشترك المجموعات الأخرى في الاقتناع بهذا الاعتقاد ، ولذلك يشعر كل فرد منها بتفوق مجموعته لأنها تتحدث بطريقة أفضل. وهذا هو بعينه الموقف الذي سبق أن وصفناه في حالة البوانج ، حيث تحدد القرى الصيـغ التي يستخـدمهـا النـاس والقيَم المـرتبـطة بهـا. أمـا النـوع الثـالث

من استخدام الكلام مصدراً للمعلومات عن المتحدث فهو موجود في بريطانيا والولايات المتحدة حيث تكون الجماعات ( باستثناء الطبقة العليا ) المحددة لاختيار الناس للصيغ اللغوية مختلفة عن الجماعات التي تحدد القيَم المرتبطة بهذه الصيغ. ومن الملحوظ في هذه الحالة ان الكلام يُستخدم مرة أخرى مصدراً لكل من الأحكام اللغوية وغير اللغوية ، ولكن المجموعات التي لا تنتمي الى الطبقات العليا في المجتمع قد تحكم على كلامها بانه أقل مكانة. وبذلك يكون من الصعب تكوين صورة مُرضية عن المجموعة التي ينتمون إليها.

٦ ـ ٢ ـ ٢ « النماذج المقولبة » **Stereotypes** وكيفية دراستها :

يستخدم الناس إذن كلام الآخرين مصدراً للمعلومات غير اللغوية عنهم ، وتشمل هذه المعلومات خلفياتهم الاجتماعية وخصائصهم وطباعهم الشخصية مثل ( الجدعنة ) والذكاء. وسنورد فيما يلي نموذجاً للطريقة التي يستخدم بها الناس المعلومات المختزنة على صورة نماذج أصول prototypes : فلو كانت الخاصيتان « أ » و « ب » مرتبطتين بصفة دائمة بعضها بعضاً في صورة نموذج أصل فاننا نفترض وجود « ب » كلما لاحظنا وجود « أ » والعكس صحيح ، فلو كانت « أ » احدى خصائص الكلام ، و « ب » احدى خصائص الشخصية ، فاننا سنستخدم الكلام مفتاحاً للشخصية ، وتلك غالباً أصعب في ملاحظتها ملاحظة مباشرة عن خصائص الكلام. وأيضاً ، لو كانت احدى خصائص الكلام ترتبط بنموذج أصل ما باحدى الخصائص الاجتماعية ، مثل نوع من التعليم ، فان الخصيصة السابقة قد تُستخدم كمفتاح للأخيرة. وغالباً ما يُطلق على هذا النوع من النماذج مصطلح « النموذج المقولب » stereotype « في دراسات علم اللغة الاجتماعي ، ولذلك قد يكون من المفيد أن نغيِّر استخدامنا للمصطلحات تبعاً لذلك. ولكن علينا أن نحذّر القارىء ان لابوف ( ١٩٧٢ ـ أ : ٢٤٨ ) قد استخدم مصطلح « نموذج مقولب » بمعنى أكثر تقييداً ، وذلك للدلالة

على العلاقة الواعية فحسب بين الخصائص اللغوية والخصائص غير اللغوية ، وذلك على خلاف ما عليه معظم هذه العلاقات.

كيف نستطيع إذن أن ندرس مثل هذه العلاقات الذاتية بشكل موضوعي وكيف نقوم بتحليل « النماذج المقولبة » التي يستخدمها الناس ؟ ويرى الاتجاه السائد في الدراسة ان الموضوعية الحقيقية تتطلب منا أن نتفادى ما هو موجود في رؤوس الناس ، وان ندرس العلاقات بين المتغيِّرات اللغوية والمتغيِّرات غير اللغوية بطريقة مباشرة ، كما سبق أن قلنا في الفصل الخامس وذلك حتى نكتشف مدى وثاقة العلاقة بين هذه المتغيِّرات. ولكن مثل هذه الدراسة لا أهمية لها أيّاً كانت دقة مثل هذه المعلومات موضوعيتها ، طالما اننا نركّز اهتمامنا بالدرجة الأولى على دراسة « النماذج المقولبة » لدى العوام ، كما هو الحال في هذا الجزء لأننا سنظل جاهلين بمدى قربها من الحقيقة الموضوعية. والطريقة الوحيدة لدراسة النماذج المقولبة لدى العوام هي دراسة العوام ذاتهم وايجاد وسيلة تجعل من الممكن دراسة نماذجهم المقولبة. وكما سبق ان لاحظنا في استخدام لابوف لمصطلح « نموذج مقولب » ان معظم الناس لا يدركون بطريقة واعية العلاقات بين متغيِّرات لغوية بعينها وبين المتغيِّرات غير اللغوية ، وبالتالي فليس هناك فائدة تجنى من سؤال الناس مباشرة عن هذه العلاقات. ولكن هناك وسائل لتفادي هذه العقبة ، وذلك بسؤال الناس عن معرفتهم بطريقة غير مباشرة.

ويُعرف أكثر المناهج المباشرة انتشاراً باسم « اختبار الاستجابة الذاتية » subjective reaction test ، وقد ابتكر هذا الاختبار بعض علماء علم النفس الاجتماعي خاصة ولاس لامبرت Wallace Lambert من جامعة ماكجيل McGill في مونتريال وقد استخدمتْ هذا الاختبار وطبّقتهُ مجموعة أخرى من علماء علم النفس الاجتماعي ومن بينهم مجموعة نشطة من العلماء البريطانيين يرأسهم هوارد جيلز Howard Giles من جامعة بريستول. وقد استخدم لابوف هذا الاختبار أيضاً وهو أحد مناهجه لدراسة التباين

اللغوي . ( ويوجد أفضل عرض لهذا المنهج ومناهج أخرى في دراسة جيلز وباوز لاند ١٩٧٥ Giles & Powesland ) . ولاجراء مثل هذا الاختبار يقوم الباحث باعداد عدد من التسجيلات الصوتية لعدد من الناس وهم يتكلمون ، وغالباً ما يحاول الباحث المحافظة على تثبيت مضمون ما يقولون عن طريق جعلهم يقرأون فقرة من النثر أو العد من واحد الى عشرين ، مثلاً ، وغالباً ما يتضمن الشريط المسجل اثني عشر صوتاً يتكلم كل منهم لمدة دقيقة أو نحو ذلك . ويُطلب من المشتركين في التجربة ، أي الأفراد المطلوب دراسة نماذجهم المقولبة ، ان يستمعوا الى هذه الأصوات كل منها على حدة ويُطلب منهم ، أيضاً ، الاجابة على مجموعة من الأسئلة على كل منها . وقد يُطلب من كل مشترك ان يقوم باطلاق عشرة أحكام أو عشرين حكماً على صاحب كل صوت ، ويمكن مقارنة الأحكام الخاصة بأصحاب الأصوات بعضها بعضاً وقد تكون بعض هذه الأسئلة أسئلة موضوعية ( مثل من أين تعتقد ان هذا المتحدث قد جاء ؟ أو من أي المناطق التالية ، . . . تعتقد ان المتحدث قد جاء . . . ؟) . غير ان كثيراً من هذه الأسئلة يمكن أن يكون تقييماً ، ويُطلب من المشتركين أن يحددوا موقع المتحدث على متواصل من نوع خاص مثل متواصلات « الجدعنة » و « الذكاء » و « الصداقة » . أما الطريقة المتواضع عليها للحصول على مثل هذه الأحكام التقييمية فتتمثل في تحديد كل نهايتي متواصل بصفتين متعارضتين مثل « ذكي » و « غبي » ، « ودود » و « فظ » « جدع » و « رقيع » ، ثم تحديد سبع نقاط على المتواصل تتراوح بين « جدع جداً » ، و « جدع الى حدٍ ما » و « محايد » و « رقيع » و « رقيع الى حدٍ ما » و « رقيع جداً » . وعلى المشترك ان يختار احدى هذه النقاط لكل صوت يسمعه ، ويسمح هذا العدد الكبير من التصنيفات للمشترك بالقيام بالتمييز الدقيق ( وغالباً ما يفعل المشتركون ذلك ) . ويمكن من ناحية أخرى استخدام المناهج الكمية في مقارنة الأحكام سواء من جهة الأصوات أَم من جهة المشتركين ، طالما ان اختيار المشترك محكوم بتصنيفات يمكن ترقيمها

من ١ ــ ٧. ولا حاجة بنا لذكر الأنواع المختلفة من الأسئلة التي ابتكرها الباحثون واستخدموها. ويكفي أن نضرب مثلاً واحداً ابتكره لابوف حين قام بتوجيه السؤال التالي للمشتركين في الاستبيان « أي من الأعمال تظن ان المتحدث يقوم بمزاولتها . . . ؟ » ( لابوف ١٩٧٢ ــ أ : ١٢٨ ).

ويظهر من نتائج اختبارات الاستجابة الذاتية اختلافات واضحة بين المتكلمين وبين المشتركين في التجربة. أعني ان أصوات المتكلمين المختلفة تثير مختلف « النماذج المقولبة » لدى المشتركين في الاستبيان ، بينما يثير نفس الصوت عدداً متبايناً من النماذج المقولبة لدى مختلف الناس. ففي دراسة لاتجاهات attiude طلاب مدرسة ثانوية في نيوهام لندن وجد جريج سميث (١٩٧٩) Greg Smith اختلافات واضحة ومنتظمة بين تقييمهم للأصوات ذات اللكنة اللندنية cockney وتقييمهم للأصوات ذات اللكنة المتواضع عليها. فبينما قيَّم الطلاب المتكلمين من ذوي اللكنة اللندنية تقييمات سلبية على كل المتواصلات ، قيموا المتكلمين من ذوي اللكنة المتواضع عليها تقييماً ايجابياً على كل المتواصلات وقد تشير هذه النتائج دهشة القارىء الذي يعرف ان معظم الناس في أحياء لندن مثل نيوهام يتكلمون لكنة تقترب من اللهجة اللندنية cockney بشكل أو آخر ( باستثناء المهاجرين الجدد ) ، وبذلك يكون المشتركون في الاستبيان قد قاموا بتقييم النموذج المقولب » الذي تثيره لهجتهم تقييماً سلبياً. ومن الغريب ان نكتشف ان هذه القائمة من التقييمات السلبية تتضمن صفات مثل المودة والذكاء والطيبة والقدرة على العمل الشاق وحُسْنِ المظهر والنظافة والأمانة. ويتضح من هذه النتائج ان قيَم القطاع الأقوى من المجتمع قد امتدت الى المجتمع بأكمله ، حتى ان القطاعات الأخرى من المجتمع لم تكتفِ بالتقليل من شأن أسلوبها في الكلام ( كما فعل المشتركون في استبيان نيوهام بالنسبة لمتواصل « حُسْن الحديث » ) ، بل امتد تقليلهم أيضاً الى معظم الجوانب الأخرى لصورتهم الذاتية. وتدعم هذه النتائج الزعم القائل بان القطاعات الثانوية في المجتمع قد تنظر الى أسلوبها في الكلام هذه

النظرة السلبية نتيجة لتأثرها بأقوى قطاعات المجتمع ( ٦ ـ ٢ ـ ١ ) ، وقد ظهر من هذا البحث كثير من الاختلافات الأخرى بين الأصوات المستخدمة والمشتركين ، منها على سبيل المثال ان الأصوات التي عرفت على انها أصوات ذكور من المهاجرين من جزر الهند الغربية تلقت تقييماً من جانب البنات البيض أكثر ايجابية من ذلك الذي تلقته من الذكور البيض ، وذلك على معظم المتواصلات ، ومعنى ذلك ان البنات البيض في نيوهام ينجذبن الى ذكور جزر الهند الغربية ، ويدرك الذكور البيض هذه الحقيقة ويرفضونها. ونستطيع أن نجعل اختبار الاستجابة الذاتية هذا أكثر رهافة بطريقتين.

وقد حاول رائد هذا النوع من الدراسات والاس لامبرت أن يستخدم « أسلوب المظهر المتجانس » MATCHED GUISE TECHNIQUE حتى يقلل من آثار الاختلافات القائمة في نوعية الأصوات voice quality بين المتحدثين. والمشكلة واضحة : فلو حاولنا مقارنة اتجاهات بعض الناس ازاء بعض المتحدثين مزدوجي اللغة الذين يتحدثون باللغتين الانكليزية والولشية مثلاً وكذلك مقارنة اتجاهاتهم ازاء اللغتين ، لكان من البلاهة ان نختار متحدث الولشية من ذوي الصوت الجهوري العميق ونختار متحدث الانكليزية من ذوي الصوت الرقيق الحاد squeaky لأن هذه الاختلافات في « نوعية الصوتين » قد تؤثر بل قد تكون العامل الرئيس المؤثر بدلاً من الاختلافات بين اللغتين في حد ذاتها. ويهدف « أسلوب المظهر المتجانس » الى تجنّب هذه المشكلة عن طريق تسجيل المتحدث نفسه مستخدماً أكثر من صوت. وفي هذا النوع من التجارب قد يكون هناك ثلاثة متحدثين يتحدث كل منهم لغتين أو لهجتين ، ثم ترتب الأصوات الستة اعتباطياً حتى لا يلاحظ المستمعون التشابه في نوعية الأصوات وكذلك فان المستمعين لا يدركون ، أيضاً ، ان هذه الأصوات المختلفة صادرة من نفس المتحدث ، ومن ثم يقدمون اجابات مختلفة عن الأسئلة الموجهة إليهم عن مكانة المتحدث الاجتماعية

وشخصيته ، هذا بالرغم من ان الصوتين صادران عن نفس الشخص ( لامبرت ١٩٦٧ Lambert ) . وفي بعض الأحيان يستطيع المتحدث القدير أن يصدر أكثر من ثلاثة عشر صوتاً مختلفاً ( جيلز وباوزلاند Giles & Powesland ١٩٧٥ : ٢٨) ولكن الاحتمال قائم دائماً في ان يبالغ المتحدث في نوعية اللكنات أو اللهجات التي يحاول محاكاتها . ولكن لا يبدو ان هناك خلافاً يذكر بين نتائج « أسلوب المظهر المتجانس » ونتائج المناهج الأخرى ، حيث سجّلت أصوات متحدثين مختلفين .

وهناك وسيلة أخرى يمكننا أن نجعل بها « اختبار الاستجابة الذاتية » أكثر حساسية ، وذلك بالتحكم في الكلام الـمُسْتَخدَم بطريقة تجعل من الممكن التعرف على الخصائص اللغوية التي يستجيب لها المشتركون . وقد ابتكر لابوف هذا المنهج وطوره (١٩٧٢ ـ أ : ١٢٨ ، ١٤٦) ، فقام بجمع قائمة مكونة من ٢٢ جملة مسجّلة على شريط بأصوات خمس أُناث مختلفات لأغراض مختلفة ، وقد اختار لابوف هذه الـجُمَل بحيث تظهر كل جملة متغيِّراً صوتياً sensitive phonological variable واحداً . وطلب من المستمعين أن يخمنوا مهنة المتحدث في كل جملة في القائمة . وبذلك أصبح من الممكن مقارنة أحكام المهن job rating بالنسبة لكل متحدث على حدة في التراكيب المختلفة ، وبذلك أمكن ان نفترض ان أية اختلافات نلاحظها في هذه الأحكام تنشأ عن الاختلافات بين هذه المتغيِّرات ، فقد حكم على احدى المتحدثات ، مثلاً ، بان مهنتها موظفة استقبال في عبارة ، بينما حكم عليها بان مهنتها عاملة « بدالة هاتف » في عبارة أخرى ، بالرغم من ان العبارتين كانتا مجرد نطقين مختلفين للعبارة التالية :

He darted out four feet before a car

and he got hit hard.

وذلك مع اختلاف واحد في النطق : ففي العبارة المنطوقة الثانية لم تُنطق احدى الخمسة الواقعة بعد صوائت post—vocalic على انها صامتة ،

بينما نُطِقَتْ «r's» كلها في العبارة الأولى حروفاً صامتة. وقد سبق ان ذكرنا في الجزء ٥ ــ ٢ ــ ٢ ان متغيَّر الصوت «r» متغيَّر لغوي اجتماعي هام في مدينة نيويورك ( حيث أُجريت هذه التجربة ) ، وتظهر من هذه النتائج درجة حساسية المستمعين لاستخدام ملامح لغوية بعينها غير متواضع عليها في كلام الآخرين.

ولكن مثل هذا الاختبار ، اختبار الاستجابة الذاتية ، عيوباً كثيرة عند استخدامه كوسيلة للكشف عن اتجاهات الناس attitude ازاء الصيغ الكلامية speech forms ، ولعل أهم هذه العيوب انه يتطلَّب من الناس ان يلجأوا الى « نماذجهم المقولبة » ، لأنه ليست لديهم طريقة للاجابة على الأسئلة المطلوبة غير ذلك. ومن المحتمل ان ينخفض استخدام هذه النماذج المقولبة في مواقف الحياة الواقعية عنه في المواقف التجريبية. وحتى يمكننا اختبار هذه الفرضية ، من الضروري ايجاد بديل للاتجاهات test of attitudes يتحول فيه الاهتمام من المهمة التجريبية بحد ذاتها الى مواقف أكثر قرباً من الواقعية. وقد ابتكرت بعض هذه البدائل ، وبعضها غاية في الذكاء. وسنقوم بوصف مثل هذه التجربة هنا ( نقلاً عن جيلزو وبوزلاند ١٩٧٥ : ١٠٢) وسنقوم بوصف تجربة أخرى في ٦ ــ ٢ ــ ٤.

قام أحد الباحثين ــ وكان يستطيع استخدام اللكنتين ، الانكليزية المتواضع عليها RP ، ولكنة بيرمنجهام بكفاءة ــ بإعداد حديث موجه الى مجموعتين من الطلاب في السابعة عشرة في مدرسة معيَّنة ، وذلك بعد أن تأكد ان الأولاد في هذه المدرسة يعطون اللكنة المتواضع عليها مكانة أعلى من المكانة التي يعطونها للكنة برمنجهام. وقام بإلقاء محاضرة قصيرة عن علم النفس ، شرح فيها انه محاضر جامعي في علم النفس ، وان قسمه الجامعي يود أن يعرف ماذا يعرف طلاب المدارس عن هذا الموضوع قبل أن يدخلوا الجامعة. وطُلِبَ منهم أن يكتبوا كل ما يعرفونه عن علم النفس ، ثم خرج

من الفصل تاركاً مساعدته وراءه مع المجموعة. وقد قامت المساعـدة بجمع كتـابات الـطلاب ثم شَرحتْ لهم ان هنـاك جزءاً ثـانيـاً من البحث فحـواه ان مجموعة البحث تود ان تعرف ما إذا كان المحاضر الذي حاضر عليهم منذ قليل يصلح لالقاء محاضرات في علم النفس في المدارس. وطَلَبتْ المساعـدة من الـطلاب أن يكتبـوا رأيهم في المحـاضـر وأن يقيمـوا ذكـاء المحـاضـر على متواصل. وقد تمَّ استخدام نفس النمط الاختباري لكل من المجموعتين من الطلاب المشتركين في التجربة باستثنـاء اختلاف واحـد هو ان المحـاضر قد استخدم اللكنة المتواضع عليها RP في إحدى المحاضرات واستخدم لكنة بيرمنجهام المحلية في محاضرته الثانية مع المجموعة الأخرى. وكان الاختلاف في استجابات كـل من المجموعتـين ذا دلالة احصـائية وقـد تبينَّ من السؤال المباشر عن ذكاء المحاضر ،ان المحاضرقد حصل عند استخدامه للكنة المحاكية للهجة المتواضع عليها RP على تقييم لنسبة ذكائه أعلى من التقييم الذي حصل عليه عندما استخدم لكنة بيرمنجهام ، هذا بالرغم من انه قد أعـطى نفس المحاضرة بحذافيرها وسلك نفس السلوك مع كل من المجموعتـين. وفضلاً عن ذلك فقد كتب الـطلاب إليه وعنـه عندمـا استخدم اللكنـة الانكليزيـة المتواضع عليها أكثر ممـا كتبوا عنـدما استخـدم لكنة بيـرمنجهام ( وقـد تبينَّ ان نسبة الزيادة حوالي ٢٤٪ إليه و٨٢٪ عنه عندما استخدم اللكنة المتواضع عليهـا ). وإذا افترضنـا ان كِلتا المجمـوعتين المشتـركتين كـانتـا متمـاثلتـين في تكوينهما ( وليس هناك ما يدفع الى الاعتقاد بغير ذلك ) ، فلابد أن يكون تفسير هذه النتائج المختلفـة في سلوك المجموعتـين مرتبـطاً باتجـاهاتهـما نحو اللكنتين المستخدمتين. ومن التفسيرات المحتملة لتلك النتـائج ان الـطلاب قد أعجبوا أكثر بالمحاضر عندما استخدم اللكنة المتواضع عليهـا حيث ثبت بشكل قاطع ، وبكثير من الأدلة ان الناس يكتبـون الى الذين يعجبـون بهم وعنهم أكثر مما يكتبون عن والى مَنْ لا يحبونهم. ويمكننا أن نستنتج من ذلـك ان سلوك الناس الفعلي يمكن أن يتأثر فعلاً بتحيزاتهم اللغوية ، وليست هذه

التحيّزات مقصورة على ما يقوله الناس عن بعضهم بعضاً.

وقبل أن نترك القضية الخاصة بالدراسة التجريبية لدور الكلام كمفتاح «للنماذج المقولبة» من الجدير أن نذكر تجربة أخرى تبيّن ان الكلام ليس هو المفتاح الوحيد «للنماذج المقولبة» فيمكننا أن نعكس النظام المنطقي الاستنباطي في الاتجاه المضاد ونبدأ من ظواهر سلوكية ملحوظة أخرى الى «النماذج المقولبة» المرتبطة بها، ومنها الى نوع الكلام، وذلك حتى في الحالات التي يكون من السهل فيها ملاحظة الكلام نفسه. وقد قام فردريك ويليامز (١٩٧٣) Frederck Williams بابتكار تجربة عبقرية التصميم قام فيها بإعداد شرائط فيديو لثلاثة من الأطفال ظهروا فيها من الخلف بحيث يتبيّن المشاهد ان الأطفال الثلاثة مختلفون عنصرياً وعِرقياً (طفل أبيض وطفل زنجي وطفل مكسيكي أميركي، وقد ظهروا بهذا الترتيب)، ويتبيّن المشاهد انهم يتكلمون بالرغم من أن أفواهم ووجوههم لم تظهر للمشاهد. وأمكنه ذلك من دبلجة الكلام فنياً على الأفلام دون أن يدرك المشاهد ان الكلام لا يتطابق مع حركة الشفتين لكل من الأطفال الثلاثة. وقد قام الطلاب من المعلمين بدور الحكّام، حيث طُلِبَ من ثلاث مجموعات متشابهة three matched groups ان تقيِّم كلام أحد الأطفال على متواصلين خاصين بدرجة «المواضعة» standardness ودرجة الطلاقة fluency وعند مقارنة التقييمات المختلطة وُجِدَ ان هناك اختلافات واضحة بين الأطفال الثلاثة بالرغم من ان المشاهد سمع نفس الصوت والكلام بالضبط في كل الحالات. فقد حصل الطفلان الزنجي الأمريكي والمكسيكي الأميركي على نتيجة تقل عن الطفل الأبيض على متواصل «المواضعة»، بينما قيّم كلام الطفل المكسيكي الأميركي من حيث الثقة بدرجة تقل عن كلام الطفلين الآخرين. وتتفق هذه الاختلافات تماماً مع «النماذج المقولبة» التي ظهرت وثبتت وفقاً للتجارب الأخرى عن هذه النوعيات العنصرية الثلاثة ويمكننا تأويل هذه النتائج على أساس انها تبيِّن كيفية استخدام الطلاب من المعلمين «الاشارات

المرئية » visual clues للتعرف على « نموذج مقولب » ثم افتراضهم ان الكلام الـذي سمعوه متـطابق تماماً مع مـا تنبؤا به وتـوقعـوه من ذلـك « النمـوذج المقولب ». ولسنا بحاجة الى القول ان هذه الاستراتيجية في سلوك الـطلاب المعلمـين ، لو كـانت هي الاستراتيجيـة الـمُثلىٰ التي يستخـدمهـا المعلمـون في تقييم كلام طلابهم ، لأصبحت محاولة تحسين طريقة الطلاب في الكـلام عديمة الجدوى ومضيعة للوقت حتى لو أراد الطلاب ذلك.

### ٦ ـ ٢ ـ ٣ تحيّز المعلمين :

يعالج الجزآن الحالي والتالي المشكلات الاجتمـاعية العمليـة المرتبـطة بـالتعليم ، وقد انـطلق كثـير من أبحـاث علم اللغـة الاجتمـاعي من هـذا المنطلق ، وهو منطلق هام للغاية ، لا لأن نـظام التعليم هو المسؤول الأول عن نشر تحيّزات الطبقات العليا في المجتمع بأكمله فحسب ، ( أنظر ٦ ـ ٢ ـ ١) ، بل لِما يجب أن يـدركه رجـال التعليم إدراكاً واضحـاً جداً عن الـدور الذي يمكن ان تلعبه تلك التحيّزات ، ذلك ان هناك « نماذج مقولبة » ثابتة عند المعلمين وعند طلابهم بطريقتهم في الكلام. وتعد هذه « النماذج المقولبة » عند الفريقين مصدراً لمشكلات جسيمة. ومن الجدير بالذكر ، من ناحية أخرى ، ان كثيراً من المعلمين ، وليس جميعهم ، يتأثرون بطريقة تلاميذهم في الكلام بقدرٍ معينّ ، كما سيتّضح بعد ذلك ( أنظر تايلور ١٩٧٣ ). وفضلاً عن ذلك فان الأبحاث المذكورة في هذا الجزء تركّز بصفة خاصـة على العـالم المتحدث باللغة الانكليزية ولا ينبغي أن نفترض انه يمكن تعميم نتائج هذه الأبحاث على جميع المجتمعات وجميع الأنظمة التعليمية. (قارن بذلك ، مثلاً ، مناقشة نزعة « النقـاء اللغوي » purism في سيـلان في دي سيلفا De Silva ١٩٧٦ ، ما زال في طور الإعداد ). إذا وضعنا في اعتبارنا كل هذه المحاذير ، لأمكننا بعد ذلك ان نتعرَّف على عدد من الطرق التي قد تؤدي فيها تحيّزات المعلمين اللغوية الى مشكلات بالنسبة لطلابهم.

هنـاك دلائل عـلى ان المعلمين يستنـدون في تكوين انـطبـاعـاتهم الأولى عن الـطلاب عـلى صيغهم الكـلامية ، وهم يفضّلون ذلـك عـلى مصـادر المعلومات الأخرى عن طلابهم ، والتي قد تبدو أكثر ارتباطاً بتلك الأحكام. ولكن ينبغي أن نذكِّر أنفسنـا ان معظم هـذه الأدلة مـأخوذة من استجـابات الطلاب المعلمين لا من المعلمين من ذوي الخبرة الذين قد يقيِّمـون الطلاب بطريقة مختلفـة تمامـاً. فقد طلبَ من بعض الـطلاب المعلمين ، عـلى سبيل المثال ، ان يقيَّموا ثمانية تلاميذ فـرضيين عـلى المتواصـلات التاليـة : درجة الذكاء ، كونه تلميذاً مجتهداً ، الميزات التي يتمتع بها ، درجة حماسه للتعلّم ، والثقـة بالنفس والـرقة ( جيلز وبـوزلانـد ١٩٧٥ : ٣ Giles & Powesland ) وقد تمَّ التعرف على الطلاب الثمانية الفرضيين عن طريق ثلاثة مصادر مختلفة وهي على النحو التـالي :

صورة فوتوغرافية ، وعيّنة من الكلام المسجل على شريط تسجيـل ، وعيّنة من أعمال التلميذ المدرسية ( مكوَّنة من مقال واحد وصورة مـرسومـة واحدة ). وقد أُخِذَتْ العيّنة الأخيرة من أعمال طلاب فعليين ، ولكن أُعيد توزيعها حتى يكون هناك عدد مساوٍ من الأمثلة لكل نوع من المعلومات يمكن عندئذ الحكم عليه بالسلب أو الايجـاب. وكان السؤال الـذي حاولت تلك التجربة الاجابة عليه هو : ماذا يحدث لو كوَّنت المعلومات المأخوذة من مصدرٍ واحـد انطبـاعاً مُـرضياً ، بينـما كوَّنتْ معلومـات المصـدر الآخـر انـطبـاعـاً غير مُرضٍ ؟ وكانت الاجابة الواضحة ان المعلومات المأخوذة من عيّنة الكلام قد تفوقت على معلومات الصورة الفوتغرافية ، وحتى على معلومات الأعمال المدرسية. وإذا كان الانطباع الناتج عن عيّنة الكلام انطباعاً مُرضياً ، لتفوَّق عـلى الانطبـاعات غـير الـمُرضيـة المأخـوذة من المصادر الأخـرى مجتمعـة ، والعكس صحيح.

ومن المعروف أيضاً ان معظم اختبارات الذكاء التي يستخدمها رجال التعليم تعتمد اعتماداً كبيراً على المهارة اللغوية ، وانه غالباً ما تكون نتيجـة

التلاميذ من الطبقات الدُنيا من حيث الاداء في مثل هذه الاختبارات أسوأ من أدائهم في اختبارات الذكاء غير الكلامية التي لا تعتمد على المهارة اللغوية ( برنستاين ١٩٧١ : ٥٢ Bernstein وديتمار ١٩٧٦ : ٣٢ ، Dittmar ). وقد لا يكون السبب الحقيقي وراء النتائج السيئة التي يحصل عليها أطفال الطبقات الدُنيا في اختبارات الذكاء الكلامية وهو الاختلافات العامة التي نبحثها في ٦ ــ ٢ ( وهي قضايا خاصة بصفة عامة باللهجات الاجتماعية وأساليب النطق على وجه الخصوص ) ، ولكن ينبغي أن نضع في اعتبارنا انه حتى اختبارات القدرات الرسمية التي يستخدمها رجال التعليم تعتمد اعتماداً أساسياً على اللغة.

وقد يكون من الخطأ أن نعطي أنطباعاً بان جميع المعلمين يقيِّمون التلاميذ على أساس مدى قرب كلامهم من اللغة المتواضع عليها ، دون أن نشير الى احتمال تجنّب بعض المعلمين اطلاق أحكام على تلاميذهم أو تقييمهم استناداً الى أسلوبهم في الكلام. وقد اتضح من دراسة ( جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ : ٤٢) ان المدرسين ينقسمون الى نوعين على الأقل : المعلمين الذين يقيِّمون طلابهم استناداً الى درجة القرب من اللغة المتواضع عليها وأولئك الذين يهتمون أكثر بالطلاقة اللغوية التي تؤدي الى الحكم على الطالب بالثقة في النفس والشغف بالتعليم. وقد يبدو ان المعلمين الذين يميلون الى تقييم الطلاب على أساس طلاقتهم في اللغة أكثر استعداداً لتقييم طلابهم على أساس الاحتياجات المدرسية من الذين يقيِّمون طلابهم على أساس مدى قربهم من اللغة المتواضع عليها ، ولكن من السهل أن نرى كيف يمكن للمعلّم أن يكوّن انطباعاً خاطئاً عن طفل بعينه وان يستمر في مقاومة كل الأدلة المعاكسة لهذا الانطباع الخاطىء كما سبق ان وصفنا بخصوص النماذج المقولبة بصفة عامة.

وإذا فرضنا ان المعلمين يكوّنون انطباعات أولية عن طلابهم استناداً الى أسلوبهم في الكلام ( وعناصر أخرى ) فَمِنَ المنطقي أن يؤدي ذلك

الى وجود مشكلات للطفل الذي يعطي كلامه انطباعاً أولياً سيئاً. وإذا كانت الانطباعات الأولى من الصعب تغييرها كما يُقال ، فان على مثل هذا الطفل الذي يخلق انطباعاً أولياً سيئاً أن يعمل أضعاف الطفل الذي يستطيع ان يعطي انطباعاً مُرضياً منذ البداية. وهناك أيضاً مشكلة التنبؤ أو التوقع الذي يحقق ذاته : فلو تنبأتْ معلمة بان الطفل لن يؤدي واجبه الدراسي على خير وجه فان سلوكها نحوه قد يشجعه على ألاّ يقوم بعمله على الوجه الأكمل. وهناك أدلة مأخوذة من عديد من الدراسات والأبحاث بان العكس أيضاً صحيح ( روزنثال وياكوبسين ١٩٦٨ Rosenthal & Jacobson ) ، ( فلو كانت توقعات المعلمة عالية بالنسبة لطفل معينّ فانها ستسلك نحوه سلوكاً قد يشجعه على القيام بعمله على أفضل وجه ممكن حتى يحقق توقعاتها ) ، ويبدو انه من المنطقي أيضاً أن تؤدي التوقعات السلبية الى اداء سلبي من جانب الطلاب.

وهناك طريقة اضافية يمكن لتحيّزات المعلمين من خلالها أن تؤثر على مصالح طلابهم ، وذلك بتأكيد التحيّزات السلبية التي قد تكون لدى الطلاب فعلاً نحو طريقتهم في الكلام ، وهذا النوع من التحيّزات هو نفس نوع من التحيّزات الذي سبق أن ناقشناه في البحث الخاص بشرقي لندن. ومن الخطأ أن نتصوَّر ان كل المعلمين يقعون في هذا النوع من الخطأ ، ولكن من الخطأ أيضاً أن نتجاهل تلك الأعداد الكبيرة من المعلمين الذين يعتقدون ان دورهم الرئيس هو لفت نظر الطلاب الى انهم يتكلمون بلهجات أو لكنات غير متواضع عليها وان طريقتهم في الكلام غير سليمة آملين بذلك في اصلاح شأن طلابهم لغوياً. والواقع ان التأثير الوحيد لهذا النوع من النقد هو تأكيد رؤية الطلاب السلبية لذاتهم ، الأمر الذي يؤدي الى زيادة تصميمهم على ألاّ يلتزموا بالصيغ الكلامية المتعارَف عليها . وحقيقة ، قد يكون من العسير للغاية في بعض الأحيان ، على الطفل أن يتعلّم الحديث بالنوعية المتواضع عليها ، وتلك التي تؤخذ منطلقاً لأحكام الآخرين على أسلوبه

في الكلام ، خاصة إذا كان المعلمون أنفسهم لا يتحدثون بها ، ومن ثم لا يجد الطالب نموذجاً يصلح لمحاكاته . وقد تبينّ ان هذا هو الموقف بالفعل في العديد من المدارس الابتدائية في جزر الهند الغربية ، حيث يكون النموذج المستخدَم للحكم على كلام الأطفال هو اللكنة الانكليزية البريطانية المتواضع عليها ، ولكن النوعية التي يستخدمها المعلمون ذاتهم متأثرة تأثراً شديداً باللغة الكريولية المحلية ( لي باج ١٩٦٨ ــ ب Le Page ) وعلى أية حال ترتبط لغة الطفل ارتباطاً عميقاً بادراكه لهويته ( أنظر ٦ ــ ٢ ــ ١ ) ، ولذلك فليس متوقعاً ان يغيّر طريقته في الكلام بسبب رأي معلمه .

### ٦ ــ ٢ ــ ٤ تحيّزات الطلاب :

أود أولاً ان أؤكد على وجود التحيّز اللغوي لدى أطفال المدارس . وقد نتصوَّر ان مثل هذا التحيّز غير موجود عند الأطفال صغار السن ، وأعني أطفال المدارس الابتدائية . وقد نتصوَّر ان الأطفال في هذه السن لا يتجاوزون الاستنتاجات الواقعية غير التقييمية عن الكلام ، وذلك على أساس انهم لا يدركون البُنية الدَرَجية للمجتمع إلّا بعد ان يصلوا الى مرحلة المراهقة . وهناك كثير من الأبحاث والدراسات التي تؤكد وجهة النظر المطمئنة هذه . فعلى سبيل المثال ، وَجَدَ والاس لامبرت ١٩٦٧ Wallace Lambert ان مجموعة من الأطفال المتحدثين باللغة الفرنسية في سن العاشرة في مدينة مونتريال لم يكونوا مدركين للنظرة السلبية ازاء الفرنسية بين البالغين في كندا الفرنسية ، بينما كانت مجموعة مماثلة من الأطفال في سن الثانية عشرة تدرك ذلك . وفضلاً عن ذلك ، اتضح من الدراسة التي أجراها هوارد جيلز على الأطفال البريطانيين ( جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ : ٣١) في الثانية عشرة من عمرهم ان لديهم تقييماً واقعياً للمكانة الاجتماعية النسبية لمختلف اللكنات ولم يكن لديهم غالباً تصور أو رؤية واقعية لطبيعة لكنتهم الثانية ( فقد تصوَّر كثير منهم انهم يتكلمون باللغة الانكليزية المتواضع عليها بينما كانوا يتحدثون في الحقيقة لكنة اقليمية واضحة ) . وعلى العكس اتضح ان مَنْ بلغوا السابعة عشرة

من عمرهم لديهم تقييم واقعي للمكانات الاجتماعية المختلفة ، وكذلك تقييم واقعي للكنتهم الذاتية. وإذا عممنا نتائج هاتين الدراستين يمكننا أن نتوقع أن يكون الأطفال الأقل من سن المدرسة الثانوية غير مدركين أو واعين للمكانة الاجتماعية لَلَهجَتهَم أو لكنَتهم المحلية أو للهجة التي يستخدمها معلمهم ، وانهم لن يدركوا ذلك قبل أن يقطعوا شوطاً في دراستهم الثانوية أعني قبل أن يدركوا الاختلافات في المكانة الاجتماعية للهجة معلمهم ومكانة لهجتهم الاجتماعية.

ولكن يبدو ان هناك براهين على ان هذه النتائج مغرقة في التفاؤل دون مبرر ، وان الأطفال بالفعل يدركون الاختلافات القائمة بين اللهجات من حيث المكانة الاجتماعية في الثالثة من عمرهم. وهذه الأدلة مأخوذة من تجربة أجرتها مارلين روزينثال ١٩٧٤ Marilyn Rosenthal ، وهي تجربة ابتكرت منهجاً للتحقق من مواقف أو اتجاهات الأطفال attitudes تجاه أنواع الكلام speech types ( قارن بذلك لوكال Local ١٩٧٨ الذي وَصَلَ الى نتائج مماثلة عن الأطفال في منطقة تاينسايد في انكلترا Tyneside ). وقد كان الغرض من اجراء تجربة روزينثال هو مقارنة استجابات ١٣٦ طفلاً أمريكياً ما بين الثالثة والسادسة من عمرهم لنوعين من الأصوات ، احدهما يستخدم اللغة المتواضغ عليها ، بينما يستخدم الآخر صيغ النطق والمفردات والتراكيب الخاصة بلهجة الزنوج غير المتواضع عليها. وكان حوالي ٩٠ من المشتركين من الأطفال البيض من أبناء الطبقات العليا و٤٦ من أطفال الزنوج من الطبقات الدُنيا ، وبالتالي أصبح من الممكن مقارنة استجابات كل من هاتين المجموعتين للصوتين. وقد تركَّزتْ التجربة على علبتين من الورق المقوىٰ رُسِمَ عليهما وجهان ملونان بالأزرق والأحمر ، واحتوت كل من العلبتين على مسجل كاسيت وهدية لا يتمكن الطفل من رؤيتها. واستمع الأطفال الى الصوتين المسجلين اللذين يفترض انهما ينتميان الى كل من الوجهين المرسومين على العلبة. وقام كل صوت على حدة بوصف الهدية الموجودة داخل

العلبة وبترديد نفس العدد من المزاعم عن ميزات الهدية ، ولكن الصوتين استخدما صيغتين مختلفتين من الكلام ( الصيغة المتواضع عليها والصيغة الزنجية غير المتواضع عليها ) . وطُلِبَ من الأطفال ان يختاروا احدى العلب ، وان يستخرج كل منهم هديته ( وكانت الهدايا متماثلة في العلبتين ) ، ثم قام الباحث بتوجيه عدد من الأسئلة عن استجابات الأطفال للوجهين المرسومين على العلبة .

وإذا وضعنا في اعتبارنا صغر سن الأطفال المشتركين في هذه التجربة ، لـوَجَدْنا ان النتائج تعكس تحيّزات البالغين بدقة متناهية ، فقد قال ٧٩٪ من الأطفال ان الوجه الناطق باللغة المتواضع عليها تحدث بطريقة أفضل ، وقال حوالي ٧٣٪ انهم توقعوا هدية أفضل في هذه العلبة . وقد قال ٩٢٪ من الأطفال البيض ان الصوت الصادر من العلبة الناطقة باللغة غير المتواضع عليها صوت زنجي ، بينما قال ٧٢٪ منهم ان الصوت الناطق بالنوعية المتواضع عليها صوت رجل أبيض . أما النتائج المقابلة والخاصة بالأطفال الزنوج فقد كانت ٧٣٪ و٥٩٪ وبذلك أكدوا اتجاهاً ( سبق ان تعرف عليه وأشار إليه آخرون مثل شوي Shuy ١٩٧٠) بان المتحدثين بالنوعيات ذات المكانة العليا أكثر دقة في أحكامهم من المتحدثين بالنوعيات من المكانة الدُنيا . وعلى العكس ، فان الأطفال الزنوج أعجبوا بالرأس الناطقة باللغة غير المتواضع عليها أكثر وأخذ نصفهم تقريباً (٤٦٪) الهدية من تلك العلبة ، بالرغم من ان معظمهم قد تصور ان العلبة الأخرى كانت بها هدية أفضل . ويبدو ان الموقف الذي اتخذه الأطفال يتبع النمط الشائع بين البالغين المتحدثين باللغة غير المتواضع عليها ، والذين ينظرون الى المتحدثين باللغة المتواضع عليها نظرتهم الى الأغنياء والناجحين الذين لا يستحقون الصداقة أو الثقة ( أنظر مثلاً جيلز وباوزلاند ١٩٧٥ : ٦٧) . وأخيراً فان الأطفال البيض مثلهم مثل أهلهم بدوا وكأنهم قد كوّنوا اتجاهاً ازدرائياً نحو الزنوج المتحدثين باللغة غير المتواضع عليها وهو الرأي الذي تحمسوا في ابدائه للباحث .

( أما التجربة الثانية فقد أُجريت في كندا على أطفال يتحدثون بالفرنسية واتضح منها ان الأطفال في الخامسة من عمرهم كان لديهم بالفعل اتجاهات محددة ازاء اللغة الفرنسية على عكس اللغة الانكليزية ــ أنظر شنيدرمان ١٩٧٦ Schneiderman ) .

من الواضح ، إذن ، ان علينا ان نفترض ان بعض الأطفال لديهم تحيّزات لغوية ثابتة وكاملة النمو في الوقت الذي يبدأون فيه الذهاب الى المدرسة الابتدائية ، وهذه المواقف والتحيّزات تكاد تقارب بل تماثل تحيّزات البالغين عندما يصلون الى المدرسة الثانوية. هل تؤدي مثل هذه التحيّزات الى خلق مشكلات للطلاب أثناء حياتهم المدرسية ؟ ليس من الثابت ان هذه التحيّزات تؤدي الى ذلك، ولا ينبغي ان نفترض ان ما قد يكون ثابتاً عند بعض الأطفال يمكن تعميمه بالضرورة على كل الأطفال. فهناك دراستان تدلان على ان لكنة المعلم ( لو اننا تجاهلنا كل الجوانب الأخرى لأسلوب المعلم في الكلام ) قد تؤثر على قابلية الأطفال للتأثر بمضمون قوله وقد تؤثر أيضاً على قدرتهم على استرجاع ما يقوله.

وقد قام كل من أدوارد كيرنز وباربارة ديوريز Edward Cairns & Barbara Duriez (١٩٧٦) في كوليرين ، في مقاطعة ايرلندة الشمالية بالمقارنة بين ٣٠ طفلاً كاثوليكياً من أطفال المدارس و٣٠ طفلاً بروتستنتياً من نفس العمر ( من حوالي ١٠ الى ١١ سنة ) من ناحية قدرتهم على استرجاع مضمون قصة ( يقرأها نفس المتحدث ) مستخدماً احدى ثلاث لكنات وهي كالتالي :

اللكنة المتواضع عليها (RP) ولكنة الطبقة المتوسطة في بلفاست ( ايرلندة الشمالية ) ولكنَة الطبقة المتوسطة في دبلين ( الجمهورية الايرلندية ). وقد تمَّ اختيار هذه اللكنات الثلاثة على أساس العلاقة بين الكاثوليكية وجمهورية ايرلندة والعلاقة بين البروتستانتية وبريطانيا ( متمثّلة في اللغة البريطانية المتواضع عليها RP ) ، بينما تعد لَكنَة بلفاست محايدة الى حدٍ كبير بالنسبة

للديانة. وقد استمع كل طفل الى القصة وهي تُقرأ بلكنة واحدة فقط ، ولكن الأطفال قُسِموا الى مجموعات استمعت كل منها الى كل التركيبات الستة التي تمثّل الديانتين بالأصوات الثلاثة. واتضح من النتائج ان الأطفال الكاثوليك الذين استمعوا الى القصة باللهجة البريطانية المتواضع عليها كانت درجة استرجاعهم للقصة أقل من الأطفال البروتستانت الذين استمعوا إليها ، وذلك لأن الأطفال البروتستانت كانوا أكثر تعلقاً وقرباً « للنموذج المقولب » الذي تثيره اللهجة البريطانية المتواضع عليها واسترجع الأطفال الكاثوليك الذين استمعوا الى النسخة المتواضع عليها RP من القصة قدراً أكبر بكثير من ذلك الذي استرجعوه عندما استمعوا اليهافي لكنة بلفاست(المحايدة نسبياً). وأيضا استرجع الأطفال الكاثوليك من القصة قدراً أكبر من الأطفال البروتستانت الذين استمعوا الى لكنة دبلين باتجاهاتها الكاثوليكية. وحتى يؤكد الدارسون ان لكل من الأطفال الكاثوليك والبروتستانت اتجاهات مختلفة نحو بريطانيا والجمهورية الايرلندية ، فقد سألوا عدداً من الأسئلة مثل ما هي عاصمة بلدك ؟ وقد أجاب ٣٪ من البروتستانت و٧٠٪ من الكاثوليك بانها دبلين. أو بعبارة أخرى اتفق كل الأطفال على ان اللكنة المتواضع عليها RP جزء من النموذجُ البريطاني المقولب ، أما اللهجة الدبلنية فهي تعكس « النموذج المقولب » « الايرلندي الجمهوري » ، ولكنهم اختلفوا بحدة في تقييمهم لهذه النماذج المقولبة حسب ولائهم الشخصي لاحداهما. والاستنتاج العام الذي قد نصل إليه بناء على نتائج هذه الدراسة هو ان الأطفال يعيرون الأشياء التي تقال باللكنة التي تثير ولاءهم لمجموعة بعينها اهتماماً اكبر من الأشياء التي تُقال باللكنة التي لا تثير ذلك ، ولهذا فهم سيسترجعون الأولى أكثر من الثانية. ومغزى هذا البحث واضح بالنسبة للمدارس.

وقد قام هوارد جيلز Howard Giles باجراء البحث الثاني في جنوب ويلز وسومرسيت South Wales and Somerset (أنظر جيلز وبوزلاند ١٩٧٥ : ٩٣ -

٩٨ من أجل هذا البحث وأبحاث أخرى متعلقة به ) بغرض دراسة اثر اللكنات المختلفة على مدى تباين آراء الأطفال حول مضمون رسالة بعينها. وقد اختير لهذه الدراسة طلاب في السابعة عشرة من عمرهم ، وقد انتقاهم الباحث من عيّنة أولية من ٥٠٠ طالباً حتى حصل على خمس مجموعات متماثلة five matched groups . وتمَّ سؤالهم جميعاً عن رأيهم في عقوبة الاعدام ، وذلك من خلال استبيان . وبعد ذلك بأسبوع زار الباحث كل مجموعة على حدة متنكراً في شخصية عالم/من علماء الجريمة يهتم بآراء طلاب المدارس في عقوبة الاعدام. وطلب من المجموعات المشتركة تأمل الرأي المعارض لفكرة عقوبة الاعدام وادعى انه رأي لأحد أصدقائه. وقد تمَّ عرض هذا الرأي على كل المجموعات بنفس الكلمات ولكن في صورٍ مختلفة. فقد تلقت المجموعة الأولى نسخة مطبوعة من هذا الرأي بينما استمعت إليه المجموعات الأخرى مقروءاً بلهجات مختلفة هي : اللكنة البريطانية المتواضع عليها RP ، ولكنة جنوب ويلز ، ولكنة سومريست ، ولكنة بيرمنجهام على التوالي. وبعد قراءة الرأي والاستماع اليه طلب من الطلاب ان يقيموا هذا الرأي ، وبعد ذلك طلب منهم أن يقرروا آراءهم الشخصية المؤيدة أو المعارضة لعقوبة الاعدام . وحيث انهم يدركون قد قرروا آراءهم الخاصة بهذا الموضوع في الأسبوع السابق أصبح من الممكن أن نقارن اجابتهم في كل من الموقفين وان نقيِّم التغيُّر في آرائهم والذي يمكن أن يكون نتيجة للرأي الذي قُدِّمَ لهم. وقد تطابقت rating تقويمات الطلاب للرأي للمكانة الاجتماعية للكنة المستخدَمة ، فقد حصلت اللكنة المتواضع عليها RP على أفضل تقييم. بينما كان للكنات الاقليمية بالرغم من افتقادها للمكانة الاجتماعية أكبر الأثر على الطلاب. ويمكننا أن نؤول هذه النتائج بعدد من التأويلات. فربما التفت الطلاب أكثر الى الرسالة عندما قُرِأَتْ بلكنتهم المحلية ( كما حدث في تجربة ايرلندة الشمالية التي سبق عرضها ) ، أو ربما كانوا أكثر استعداداً للثقة في رأي شخص يتكلم بنفس الطريقة أو اللكنة التي يتكلمون بها. وقد يكون عدد من العوامل

المختلفة قد أثر على هذه النتائج في آنٍ واحد ، ولكن أيّاً إن كان تفسير هذه النتائج فهناك الكثير من الدلالات بالنسبة للمعلمين ، إذا افترضنا ان واحداً من أهم أهدافهم هو التأثير على آراء طلابهم . ( أنظر كووبر وآخرين ١٩٧٧ Cooper et al الذي يقدّم نتائج مماثلة خاصة بالبالغين من ذوي الازدواج اللغوي الذين استمعوا الى رسائل بعدد من اللغات المختلفة ) .

ويبدو ان التحيّزات اللغوية لدى المعلمين والطلاب مصدر من أهم مصادر المشكلات الجسيمة التي تؤثر على العملية التعليمية . وليس من الواضح ما ينبغي علينا أن نفعله حتى نقلل من أثر هذه المشكلات ولكن من الصعب أن نحقق أي شيء دون أن يدرك المعلمون ادراكاً واضحاً تحيّزاتهم اللغوية ودون ان يفهموها فهماً عميقاً سواء من جانبهم أو من جانب طلابهم .

### ٦ ــ ٣ نقص « القدرة اللغوية » Linguistic incompetence

#### ٦ ــ ٣ ــ ١ نظرية النقص : Defeciat theory

يشير عنوان هذا الجزء عن قصد الى مفهوم تشومسكي عن « القدرة » اللغوية أو الطاقة الكامنة linguistic competence ويعني تشومسكي به معرفة الفرد اللغوية spceifically linguistic knowledge . وقد سبق ان حاولنا في عدد من النقاط التي طرحناها للبحث خلال هذا الكتاب أن نشكك في مشروعية الفصل بين المعرفة بصفة عامة وبين المعرفة اللغوية ، ولكننا سنفترض هنا جدلاً من أجل مزيد من الفهم ان مثل هذا الفصل ممكن . ويرتبط مفهوم نقص القدرة اللغوية بفقدان أو نقص هذا النوع من المعرفة أ و «القدرة » كما سمّاها تشومسكي . والحقيقة ان مثل هذا النقص يعد حقيقة واقعة بالنسبة للأطفال الرُضّع وبالنسبة للآخرين الذين لسببٍ أو لآخر لا يتحدثون بلغة بعينها : أعني انهم ناقصوا القدرة اللغوية بالنسبة للغة بعينها . وفضلاً عن ذلك ، فان أي فرد قد قطع شوطاً في تعلّم لغة ثانية غير لغته الأصلية ( أو في نسيان

لغته الأولى ) يعد ناقص القدرة بالنسبة للغة بعينها .

وهناك قدر كبير من الخلاف حول الزعم بـان بعض تلاميـذ المدارس ( أو حتى البالغين ) . ناقصو القدرة من ناحية لغتهم الأم إذا قورنوا بآخرين من نفس السن . وقد كثر تداول هذا الزعم بصفة خاصة عن أطفال الطبقات الـدُنيا وهو ما يُعرف بنظرية النقص DEFICIT THEORY . ويعتقـد البعض ان مثل هذه النظرية تفسّر تفسيراً جزئياً ظاهرة سوء الاداء عند هؤلاء التلاميذ في المدارس ، فالطفل يحتـاج بالضـرورة الى بعض الأدوات من أهمها اللغـة حتى يستفيد استفادة كاملة من التعليم ، ولكن الأدوات اللغوية لبعض اطفال الطبقات الـدُنيا ليست على مستوى متطلبات المدرسة . ويدّعي بعض الكتّاب ادعاء يتسم بالمبالغة ، ان بعض الأطفال يأتون الى المدارس دون لغة على وجه الاطلاق ، ودون أن تكون لديهم القدرة على طرح أسئلة أو تكوين أي نوع من الـجُمَـل ( بيـرايـتر وآخـرين ١٩٦٦ Bereiter et al اقتبسـه لابـوف ١٩٧٢ ـ ب : ٢٠٥ ) . وقد رفض كثير من علماء علم اللغة وعلماء علم اللغة الاجتماعي الذين درسوا هذه القضايا بجدية مثل هذه الآراء ووصفوها بانها عبث خطير ، لأنها ليست حقيقة ، ولأنـه لا يوجـد أي طفل طبيعي قـاصر في قدرته اللغـوية الى هـذا الحد ، وهي آراء خـطيرة لأنها تؤدي الى تحـويل الاهتمـام عن النقائص الحقيقيـة في الـنُظُم التعليميـة وذلـك بـوضـع اللوم في العملية التعليمية على نقص قدرة الأطفال اللغويـة . ويجد المهتمون بهذا الموضوع ما يحتاجونه من الدراسات لهذه القضايا في ديتمار ، مثلاً ، ( ١٩٧٦ الفصل الأول والثاني والثالث ) وادواردز (١٩٧٦ ، الفصل الرابع ) ولابوف (١٩٧٢ ـ ب : الـفـصـل الخـامس ) وتـردجـيـل ( ١٩٧٥ ـ أ : الفصل الخامس ) .

ويمكننا أن نفسّر هـذه النظرة المتـطرفة « لنـظرية النقص » بـان كثيراً من الأطفال لا يستخدمون سوى قدر ضئيل من الكلام في فصولهم المدرسية

( على عكس الموقف عندما يلعبون أ ويلهون أو يعبثون ) ، وان ذلك ينطبق بصفة خاصة على أطفال الطبقات الـدُنيا. فبعض الأطفال نادراً ما يستخدمون أكثر من كلمة واحدة عند الاجابة على أسئلة المعلم ، ويستنتج بعض المعلمين ان السبب في ذلـك يرجـع الى ان الأطفال لا يعـرفون القـواعـد التي تمكّنهم من ان يُرَكِّبوا الكلمات لتصبح جُمَلاً أطول وان حصيلتهم من المفردات محدودة عـلى أية حـال. والنتيجة المنـطقية الـوحيدة التي نصـل إليها هي ان العيب أو النقص ينتج عن الموقف التعليمي نفسه وليس عن قصور معـرفة الـطفل اللغوية ونقص قدرته. فقد لا يكون الطفل على استعداد للتعاون مع معلمه أو غير متأكد مما يتوقعه منه المعلم ، ولذلك فهو يصمت عندما يطالبه معلمه بالكلام بينما هو في الواقع يستخدم قدراً كبيراً من اللغة في المـواقف الأخرى المألوفة له ، مثلاً ، عندما يتعامل مع أصدقائه أو أفراد أسرته. وهناك عامل آخر قد يؤدي بالمعلم الى المبالغة في تجاهل قدرة الأطفال اللغوية وذلك بسبب ميله لتجاهل الأجزاء اللغوية غير المتواضع عليها ، والتي يستخدمها الأطفال. وعلى ذلك يكون نقص قدرة الطفل اللغوية نقصاً ظاهرياً لا حقيقياً ، وليس معنى ذلك ان الأطفال الذين يقلل المعلم من شأن مقدرتهم اللغوية في الفصل لا يعانون من مشكلة. فإذا كان الطفل يود أو لا يستطيع التعامـل الكلامي مـع المعلم ، فانـه لن يستفيـد من المـدرسـة ، وإذا كـانت لكنتـه أو لهجتـه غير متواضع عليها ، فان المعلم قد ينتقص من مقدرته الأكاديمية. وعـلى أية حـال ، ينبغي أن نشخّص مثـل هـذه المشكـلات التشخيص السليم بعمق ودراسة كافيين قبل أن نشرع في محاولة حلِّها.

**٦ ـــ ٣ ـــ ٢ الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة :[1] Restricted and elaborated codes**

تعتمد المناقشات الخاصة بنظريـة النقص غالبـاً على دراسـات بازيـل برنستاين Bernstein من جامعة لنـدن ، وهذا أمـر مبرر تمـاماً رغم ان هـذه الدراسات يمكن أن تقـدم لنا فـرضيات أكـثر منطقيـة سنناقشهـا في ٦ ـــ ٤

باختصار ، قام بازيل برنستاين في أوائل الستينات بدراسة زعم فيها ان بامكاننا أن نميّز أسلوبين في استخدام اللغة يُطلق على احدهما الشفرة المسهبة وعلى الآخر الشفرة المحدودة.

( واللذين أطلق عليهما قبل ذلك بطريقة مبهمة غامضة « اللغة الرسمية » و « لغة العوام » ، أنظر على سبيل المثال برنستاين ١٩٧١ : ٦٣).

و « الشفرة المسهبة » نوع من الكلام يتميّز بالوضوح والصراحة التامة ، ولا يفترض أية معرفة مسبقة لدى المتلقي ، وغالباً ما يُقال انه نوعية الكلام المطلوبة في المدرسة. وعلى عكس ذلك ، فان الشفرة المحدودة غير واضحة أو صريحة تماماً ، فهي تفترض قدراً هائلاً من المعرفة المشتركة بين المتحدث والمتلقي ، ويُقال ان مثل هذه الشفرة تستخدم بين الذين يعرفون بعضهم معرفة جيدة ، ويزعم البعض ان معظم أفراد الطبقات الدُنيا ( وهذه الطبقات تكوّن ٣٠٪ من السكان على حد قول بزنستاين ) يستخدمون هذا النوع من الشفرة دون غيرها ، بينما يستخدم معظم أفراد الطبقات العليا شفرتهم المسهبة أو المحدودة حسب الظروف والموقف. ( أنظر مجموعة الدراسات الموجودة في برنستاين ١٩٧٣).

الى هذا الحد تبدو نظرية برنستاين متفقة مع المدخل الذي سنقدّمه في ٦ ــ ٤ فيما بعد ، حيث سنرى انه من المنطقي أن نميِّز بين طرق مختلفة لاستخدام اللغة ، ولكن ليس من الضروري أن يكون مثل هذا التقسيم ثنائياً على هذا النحو الساذج. فقد يختلف أطفال الطبقات الدُنيا عن الآخرين في تنوع قدراتهم على استخدام أشكال اللغة المختلفة بنجاح. وفضلاً عن ذلك ، فقد أكد برنستاين ان نظريته لا تعني باللهجات المختلفة بنجاح.
وفضلاً عن ذلك ، فقد أكد برنتستاين ان نظريته لا تعني باللهجات الاجتماعية ، طالما ان المتحدث باللغة غير المتواضع عليها قد يستخدم شفرة مسهبة ، بينما يستخدم المتحدث باللغة المتواضع عليها شفرة محدودة ، وهذا التأكيد من جانبه هام لأنه يزعم ان استخدام الشفرة المسهبة في المدارس أمر

لازم وضروري لأنه من المهم للغاية بالنسبة للمعلم والطالب أن يكونا في غاية الوضوح بالنسبة لمضمون الدرس هذا ، ويتفق الجميع ان العلاقة بين اللهجة المتواضع عليها والمدرسة علاقة اعتباطية بشكل أو بآخر ، فلو ان لهجة أخرى قد تمَّ التواضع عليها في بريطانيا فانها كانت ستقوم بدورها كوسيلة للتعليم خيرقيام . ولا شك ان المتحدثين باللهجة غير المتواضع عليها يقابلون صعاباً أكثر من الآخرين في المدارس ، ولكن ذلك ناتج عن تحيّزات المعلم اللغوية ( ٦ ـ ٢ ـ ٣ ) ، ولأن الأطفال يحتاجون لتعلم الصيغ المناسبة المتواضع عليها عندما يبدأون في تعلم القراءة والكتابة ( والكلام أيضاً ) في المدرسة . ولو كان هناك جانباً من الحقيقة في نظرية النقص لأصبحتْ المشكلة مشكلة مختلفة ، بل لأصبحتْ مشكلة أكثر خطورة ، ذلك ان الطفل العادي من الطبقة العاملة الدُنيا لا يعرف الصيغ اللغوية غير السليمة فحسب ، بل انه لا يعرف أية صيغة لغوية تماثل الصيغ المتواضع عليها ، وينبغي عليه من ثم ان يتعلّم المفاهيم قبل أن يحاول التعامل مع الطرق المتواضع عليها للتعبير عنها .

ويمكن أن تعد دراسات برنستاين المبكّرة نموذجاً لنظرية النقص ، وذلك لأن نظريته الخاصة بنوعي الكلام تقوده الى الزعم بان كلاً من التراكيب والمفردات تعد أكثر سهولة من حيث التنبؤ بها ، وذلك بسبب امكانية تحديدها في الشفرة المحدودة بطريقة أسهل عنها في الشفرة المسهبة ( برنستاين ١٩٧١ : ١٧١ ) . وإذا كانت التراكيب والمفردات أكثر تحديداً في الشفرة المحدودة عنها في الشفرة المسهبة وأذا كانت معظم الطبقات العاملة الدُنيا لا تستخدم سوى الشفرة المحدودة ( كما يزعم برنستاين ) ، يصبح من الطبيعي ، بل من المنطقي ، ان يتضمن القدرة اللغوية الفعّالة للطبقات الدُنيا active competence عدداً من المفردات والتراكيب أقل مما هو متاح للطبقات العليا ، وذلك هو بالضبط ما تدعيه نظرية النقص . ( ومن الضروري الاشارة الى ان برنستاين لم يتحدث إلاّ عن الكلام الذي يستخدمه الناس ، ولم يزعم أبداً ان أولئك الذين يستخدمون الشفرة المحدودة غير قادرين بالضرورة

على فهم الشفرة المسهبة عند سماعها. وعلى ذلك ، لا نستطيع الخروج من ذلك بنتائج خاصة عن القدرة اللغوية الكامنة passive competence على عكس النظرة المتطرفة لنظرية النقص التي تزعم ان أطفال الطبقات الدُنيا لا يعرفون معاني كثير من المفردات والتعبيرات ).

وتتضمن الأدلة الاختبارية التي يقدمها برنستاين لدعم رأيه مجموعة هائلة من كلام الأطفال من مختلف الأعمار و ( أمهاتهم ) في مواقف رسمية نسبياً. وقد تكون عدم اِلفة الأطفال لمثل هذا الموقف ، وكذلك اتجاهاتهم ازاء مَنْ يقوم باجراء المقابلة معهم نسبياً في الاختلافات التي تمَّ تسجيلها. فعندما طلب ، مثلاً ، من أطفال الطبقة العليا والدُنيا أن يصفوا مجموعة الحوادث الواردة في مجموعة من الصور ، قام أطفال الطبقات العليا باستخدام عدد أكبر من الصفات النعتية modifying adjective والأسماء بدلاً من الضمائر ( هوكينز Howkins ١٩٧٣ ). ولكن عندما طلب من أطفال الطبقة العاملة الدُنيا ( في اِطار دراسة مختلفة ) أن يكونوا أكثر وضوحاً بعد أن شجعهم الباحث على ذلك زادت نسبة تعقد التراكيب complexity of syntax وظهر من ذلك ان باستطاعتهم استخدام جُمَل وتراكيب أكثر تعقيداً مما يستخدمون في المواقف العادية ( لوتون Lawton ١٩٦٨ ).

ومن الصعب تأويل الأدلة الخاصة بالتراكيب syntax ، والتي قُدِمَتْ حتى هذه اللحظة ، ولكن يبدو ان هناك تبايناً كبيراً بين الأطفال في قدرتهم النشطة active use في معدلات استخدامهم لكل أنواع التراكيب ، ولا توجد هذه الاختلافات فقط في المواقف الرسمية كتلك التي استخدمها برنستاين في أبحاثه ، ولكنها تظهر أيضاً في بعض المواقف المنزلية الأقل رسمية. وقد قام جوردون ويلز Gordon Wells من جامعة بريستول بجمع مادة علمية من خلال النوع الثاني من المواقف ، وقد استخدم في ذلك الميكروفونات اللاسلكية التي ارتداها الأطفال في المنزل خلال يوم بأكمله ، وهي ميكروفونات أُعدت

لاستقبال كلام الآخرين لا كلام من يرتدونها فقط ( ويلز ١٩٧٩ أ ــ ب ) . وتسمح مثل هذه الوسيلة المستخدَمة في جمع المادة العلمية للباحث بتحليل الكلام الموجّه للطفل ، وقد وجدَ ويلز ان هذا الكلام له تأثير فعّال على معدل نمو كلام الطفل وتطوره ، وبخاصة إذا كان كلام الأُم لطفلها ذا طابع اتصالي ، مثل اجابات الأُمهات على أسئلة الأطفال ، فكلما زاد كلام الأُم زاد معدل اكتساب الطفل للكلام ، وذلك إذا قسناه بعدد من المعايير القياسية parameters ومن بينها معدل التعقيد التراكيبي syntacic complexity ( وقد قام ويلز بترتيب ranking كلام الأُم ترتيباً دَرَجياً حسب أهميته على النحو التالي :

أسئلة تبدأ بحرف Wh ، أي أسئلة تتطلب البيان والتفسير . أسئلة اجابتها نعم أو لا ، والنوع الثالث أسئلة اجابتها نعم أو لا مع التصحيح ، أو بيان عدم وجود صلة ) .

وقد تكون نتائج مثل هذه الدراسة هامة ، ولكنها يجب ألّا تؤخذ دليلاً على صحة نظرية النقص ، وذلك للأسباب الثلاثة التالية : أولاً ، ان العنصر المحدد ليس الانتماء الى طبقة اجتماعية بعينها ، وإنما هو نوع من التعامل المنزلي ، هذا بالرغم من انه قد تكون هناك علاقة بين هذا النمط من التعامل وبين الطبقة الاجتماعية .

ثانياً ، ان النظرة المتطرفة « لنظرية النقص » تزعم بان الأطفال « المحرومين لغوياً » Linguistically deprived ليست لديهم لغة ، بينما يظهر من تحليل ويلز ان ذلك غير صحيح ، وتوجد فقط اختلافات بين الأطفال في معدلات نمو واكتساب المعاني المختلفة للأفعال المساعدة auxiliary verbs المستخدَمة في الحديث . ثالثاً ، لا توجد الى يومنا هذا دراسات حول نمو « القدرة اللغوية الكامنة » passive competence عند الأطفال ( وأعني مقدرتهم على فهم الكلام ) ، وعلينا أن نفترض دائماً ان هذه المقدرة اللغوية الكامنة تسبق بكثير القدرة اللغوية الفعّالة active competence . ولو كان الأمر كذلك

فنحن نستطيع أن نستخلص شيئاً من حقيقة ان الطفل لا يستخدم الأفعال المساعدة auxiliary verbs في بعض معانيها ، ولا يمكننا أن نقول انه لا يعرف هذا الجزء من التراكيب الانكليزية . وأقصى ما نستطيع أن نقوله عندئذ انه لم يتعلّم بعد كيف يستخدمه بنفسه . وفي النهاية ، يمكننا القول ان هناك أدلة على وجود اختلافات كمية في التحكم الفعّال في التراكيب بين الأطفال ، ولكن ذلك لا يصل أو حتى يدنو من مزاعم نظرية النقص .

وهكذا لا يتبقى أمامنا سوى حصيلة المفردات vocabulary مصدراً وحيداً للنقص اللغوي عند أطفال الطبقات الدُنيا ، حيث يحرز أطفال الطبقات الدُنيا نتائج سيئة في اختبارات المفردات ، ولكن يمكننا أن نفسّر تلك الظاهرة في إطار الموقف الذي تتم فيه هذه الاختبارات . وعلى أية حال فان هذه الاختبارات لا تتعامل إلاّ مع مجال المفردات المتواضع عليها ، والمفردات الخاصة بالمجالات الفكرية كثيرة التداول في المدارس . ومثل هذه الاختبارات لا تخبرنا باجمالي المفردات التي يعرفها الطفل ، وإنما تحاول دون نجاح كامل أن تعطينا فكرة عن مدى ما يعرفه في مجال معينً ، خاصة إذا سلّمنا بالآثار السيئة لموقف الاختبارات . وفي الموقف الراهن للمعرفة في مجال المفردات ، يجب أن نأخذ جانب الحذر ولا نزعم ان هناك اختلافات ذات دلالة احصائية بين معرفة أطفال الطبقة العليا وبين معرفة أطفال الطبقة الدُنيا .

ومن الممكن ـ في الواقع ـ إذا نظرنا الى التراكيب والمفردات من الناحية الكمية فقط ان نجد ان هذه الاختلافات في صالح أطفال الطبقة الدُنيا الذين لا يؤدون اداءً جيداً في المدارس لدرجة اعتبارهم مزدوجي اللغة . وفي بلاد مثل بريطانيا والولايات المتحدة لا يلقى المواطنون مزدوجو اللغة تقديراً لقدرتهم في لغتهم ( لغة الأقلية التي ينتمون إليها ) ولغة البلد المضيّف ، هذا على الرغم من التقدير الكبير الذي يحظى به كثير من المواطنين الذين يستطيعون تعلّم لغة أجنبية غير لغتهم الأم ، فغالباً ما يُنظر الى لغة الأقلية التي يعرفها مزدوجو اللغة على انها مصدر للمشاكل ، وليست رصيداً يُضاف

الى معرفة هـذا المواطن للغـة البلد المضيّف. ويمكننا أن نقـول نفس الشيء بخصوص أطفال الطبقة الـدُنيا من ذوي « اللغة الواحدة » monolingual الذين يمكنهم تحويل الشفرة من النوعية المدرسيـة الى النوعيـة المستخدَمـة في المنزل ( كما هو حال الكثير من الأطفال القادمـين من الهند الغـربية في بـريطانيـا ، كما يمكننا أن نتوقع تحـويل الشفـرة code—switching من كل الأطفـال الذين يستخدمون أية لهجة غير متواضع عليها ) . وحيث اننا لا نتوقع حدوث مثل هذا التحويل في اللهجة بين أطفال الطبقة العليا ، وحيث انه لا توجد لأطفال الطبقة العليا أية دوافع لتعلّم لهجة غير متواضع عليها ، بالاضافة للهجته ، فيتبع من ذلك منطقياً ان الطفل المتوسط المتحدث بلهجة غير متواضع عليها من المحتَمل أن يعرف وحدات لغوية أكثر من مثيله الذي يتحدث بـاللهجة المتواضع عليها. ويبدو ان نتائج هذه الأبحاث التي سبقت مناقشتها تتعارض مع الرأي الحالي ، ولكن ذلك التعارض قد يكون ناشئاً عن الموقف التجريبي في حد ذاته ، حيث يشعر طفل الطبقة العليا انه يلعب في منـزله بينـما طفل الطبقة الـدُنيا بدا وكأنه ابتعد عن البيئة التي يستخدم فيها الجزئيات اللغوية التي يألَفها ويألف استخدامها.

وخلاصة القول ان كل طفل طبيعي يأتي الى المدرسة ولديه كمية ضخمة من اللغة ، أعني كمية ضخمة من المعرفة اللغوية. أما مفهوم الطفل « المحروم لغوياً » والمتصل بنظريـة النقص فهو مفهـوم من المفاهيم المـرتبطة بـالنموذج المقولب عند العوام ، وهو يستنـد الى تأويـل خاطىء لـظاهرة وجـود بعض الأطفال الذين لا يتميَّزون بالطلاقة في المـدرسة. ويمكننـا تلخيص المشاكـل التي تواجهها المدرسة كالتالي :

( ١ ) كيف نعلِّم المعلمين أن يأخذوا لغة أولئـك الأطفال بجـدية أكـثر من ناحية الكم والنوعية ( وهنا نأتي الى مشكلة التحيّز اللغوي ).

( ٢ ) إذا كـان من الضـروري حقـاً أن نعلِّم اللغـة المتـواضـع عليهـا ( أو ربمـا نصرُّ عـلى استخـدامهـا ) في المـدارس ، فكيف يمكننـا

أن نستغل لغة الطفل الفعلية كأساس نبني عليه دون أن نبدو وكأننا نرفضها ونرفض ثقافته المنزلية في آنٍ واحد.

### ٦ ــ ٤ ضعف القدرة الاتصالية Communicative incompetence :

#### ٦ ــ ٤ ــ ١ القدرة الاتصالية Communicative comptence

يتعارض مصطلح « ضعف القدرة الاتصالية » مع مصطلح « القدرة الاتصالية» الذي وضعه ديل هايمز Dell Hymes (١٩٧١ ــ ب وقارن ذلك كامبل وويلز ١٩٧٠ Campbell & Wales اللذين يستخدمان المصطلح بنفس المعنى). والمقدرة الاتصالية هي المعرفة التي يحتاجها المتحدث أو المتلقي، ولكنها أوسع بكثير في نطاقها وأشمل في معناها من « القدرة اللغوية » في علم اللغة التشومسكية Chomskyan linguistics ، فهي تتضمن ما هو أشمل من المعرفة بالصيغ اللغوية فحسب، وهي معرفتنا أو ربما « قدرتنا » على استخدام الصيغ اللغوية بطريقة مناسبة أو ملائمة للموقف الاتصالي. وبالتالي فان غاية دارسي علم اللغة فيما يقول هايمز يجب أن تكون كالآتي :

> تفسير حقيقة ان الطفل الطبيعي يكتسب المعرفة بالتراكيب وهي ليست المعرفة باجرومية هذه التراكيب، بل بالاستخدام المناسب لهذه التراكيب أيضاً. فالطفل أو الطفلة يكتسب مقدرته الاتصالية الخاصة بالجوانب الآتية وهي : متى يتكلَّم، ومتى لا يتكلَّم، وما الذي يتكلَّم عنه، ومَنْ الذي يتكلَّم عنه، وأين، وكيف يتكلَّم عنه. أي بايجاز شديد فان الطفل يصبح قادراً على تملّك قائمة هائلة من « الأفعال الكلامية » speech acts ، التي يمكن أن يضعها موضع التنفيذ، ويمكنه أيضاً الاشتراك في كل « الأحداث الكلامية » speech events ، وان يقيِّم ما يحققه الآخرون كلامياً. وفضلاً

> عن ذلك يعد هذا النوع من « المقـدرة » جزءاً مكمّـلاً من اتجاهاته وقيَمه ودوافعه نحو اللغة بما فيها من ملامح وخصـائص واستخـدامـات وهـو جـزء لا يتجـزأ من « المقـدرة » وجـزء من مـوقفـه تجـاه التـداخـل مـا بين اللغـة والقـواعـد الأخـرى للسلوك الاتصـالي ( هايمز ١٩٧١ ـ ب ).

وإذا كان مصطلح « القدرة الاتصالية » يشمل كـل هذه الأنـواع من القدرات التي تمثّل الكلام الناجح ، فانه يجب أن يتضمن كل ما في « المقدرة اللغوية » بالاضافة الى مجموعة الحقائق التي تقع في اطار علم « البراغماطيقا » pragmatics ( وهي القواعد الخاصة باستخدام الـوحدات اللغـوية في سيـاق معين ) وينبغي أن يرتبط أيضاً بالاتجاهات والقيم والدوافع التي تجاهلها علم اللغة الى حدٍ بعيد حتى في دراسته للبراغماطيقا.

أمـا بالنسبـة لعلم اللغة الأكـاديمي ، فان السؤال الـرئيس عن نوعي « القدرة » يكون ما إذا كان هناك شيء اسمه « القـدرة اللغويـة » linguistic competence يمكن فصله عن « المقدرة الاتصالية » communicative competence ودراسته بمنأى عنه. ويشعر بعض علماء علم اللغة ان ذلك ممكن ويشيرون الى منجزات التراث الـبُنيوي structuralist tradition في علم اللغة بما فيه النحو التوليدي والتحويلي باعتبارهما دلائل على ان مثل هذا الفصل ليس ممكناً فقط بل مفيداً أيضاً. ويشعر آخرون كثيرون ان مفهوم « القدرة اللغوية » مفهوم غير واقعي ، وان التقدم الحقيقي في علم اللغـة لن يصبح ممكنـاً دون اعادة الربط بين دراسة الصيغ اللغوية وبين طرق استخدامها. ويشير هؤلاء العلماء مثلاً الى الصعوبات التي تظهر دائماً والتي نواجهها عندما نود أن نحدد ما إذا كانت جملة بعينها محكمة التكوين well—formed أم غير محكمة التكوين ، أعني ما إذا كان هذا التركيب جزءاً من اللغة التي نريد وصفها. ويبدو ان الاتجاه

المعاصر في علم اللغة يرمي الى كسر الحواجز بين بُنية اللغة واستخداماتها ، ولذلك يبدو ان وجهة النظر الثانية ستسود علم اللغة في الحقبة التالية ، نعني الرأي القائل بانه ليس هناك تمييز حقيقي بين المعرفة بالصيغ وبين استخداماتها.

وأيّاً كانت نتيجة هذا الخلاف الخاص ، فليس هناك شك في حقيقة المعرفة التي يُطلق عليها القدرة الاتصالية أو في أهميتها كعنصر محدد للسلوك الكلامي. وتعد المجموعة الهائلة من « الخطط » schemata أ و « البُنيات المجردة » abstract structures من أهم مكونات قدرة الفرد الاتصالية وهي تشمل التعامل مع أنواع معينة من المواقف مثل كيفية القاء نكتة أو تقديم الناس لبعضهم البعض أو شراء تذكرة في المركبات العامة ، أو وصف الطريق من ( أ ) الى ( ب ) ، أو الاجابة على اسئلة اختبار في علم اللغة الاجتماعي ، أو كيفية اخبار الناس بأخبار سيئة ، أو القاء محاضرة في علم التراكيب النظري وما الى ذلك. ( أنظر شانك وابلسون Schank & Abelson ١٩٧٧ ، اللذين يقدمان مناقشة شيقة ودراسة رائعة لمثل هذه القضايا ، ولكنهما يستخدمان كلمة « نصّ » script بدلاً من كلمة خطة schemata ) . أي ان خطة للتعامل مع نوع معينٍ من المواقف تعتمد أساساً على استخدام كل من خبرات الفرد الشخصية ( مثل لقد استعملت ذلك في المرة الأخيرة وقد قام بوظيفته على الوجه الأكمل فلأستخدمه مرة أخرى ) وسلوك الآخرين ( يمكن للآخرين أن يفعلوا ذلك أو غالباً ما يوصي الآخرون بفعل ذلك بهذه الطريقة ، ولذلك سأقوم بذلك بنفس الطريقة أيضاً ) . وفي أية حالة من الأحوال ينبغي أن نتوقع اختلافات كبيرة بين الناس في الخطط التي يستخدمونها للتعامل مع مواقف بعينها وفي نوعية المواقف والخطط القائمة لديهم للتعامل معها. فلو كان لدى شخص ما خطة معيَّنة للتعامل مع مشكلة بعينها فان حلّ هذه المشكلة سيكون بالنسبة له، أسهل من شخص آخر يحاول أن يبدأ من المبادىء الأولى ، وينبغي

علينا أن نتوقع بين الناس تفاوتاً في مقدرتهم على حلِّ مشاكل بعينها ، وهذا التفاوت يعكس مقدار تجاربهم السابقة ولا يعكس تباين قدراتهم الذكائية. فالشخص حديث العهد غير الماهر في أعمال الديكور سيحتاج الى قدرٍ كبيرٍ جداً من الذكاء حتى يقوم بمهمته بنفس درجة اداء عامل الديكور ذي الخبرة في التعامل مع ورق الحائط ، وليس هناك ما يدعو الى الاعتقاد بان السلوك اللغوي يختلف عن أي نوع من الأنشطة الأخرى من هذه الناحية.

أما بالنسبة لأطفال المدارس فليس من الصعب تصور ان بعضهم يحمل معه الى المدرسة مجموعة من الخطط الأكثر نضجاً عن خطط الآخرين كما سنرى في (٦ ــ ٤ ــ ٢) ، وان ذلك بالفعل هو القضية. وهنا يظهر سؤال هام وهو :

إذا كانت هذه الخطط تعكس خبرات ، أفليس من الممكن أن تقوم المدارس بتوفير الخبرات المناسبة لكل طفل ، والتي قد تساعده على تكوين جميع أنواع الخطط اللازمة للنجاح في المدرسة ؟ وبذلك تسهم المدرسة في المساعدة على التخفيف من حدة الاختلافات بين الأطفال من بيئات مختلفة بقيامها بفرض مؤثرات أكثر قوة عليهم. ويعتقد معظم رجال التعليم ان المدرسة تؤدي الى زيادة التفاوت بين الأطفال بدلاً من تقليله. وقبل ان نحاول تفسير مثل هذه الظاهرة ينبغي أن نذكر أولاً بعض الدراسات التي توضح التأثير العميق للمدرسة على تكوين الخطط لدى الأطفال.

وهناك مجموعة كبيرة من الدراسات أُجريت للمقارنة بين أُناس من مختلف الثقافات من ناحية « أسلوبهم في التفكير » ، ويبدو ان النتائج تشير الى ان أفراد المجتمعات البدائية نسبياً يميلون الى التفكير بأسلوب مختلف عن أولئك الذين يعيشون في المجتمعات الأكثر تقدماً. وقد عرضت سيلفيا سكربير (١٩٧٧) Sylvia Scribner عدداً كبيراً من نتائج الأبحاث الخاصة بالقدرة في المجتمعات البدائية النائية على التفكير العقلاني والتي تمت بواسطة مناهج القياس المنطقي التقليدية syllogism ، وقد قررت سيلفيا ان نتائج هذه

الأبحاث تبدو لأول وهلة مدعمة هذا الرأي . وقد قامت سيلفيا بتقديم المعضلة التالية الى عدد من أفراد القبائل الريفية في ليبريا ( غرب أفريقيا ) :

كل مَنْ يملك مسكناً يدفع ضريبة عقار
بويما لا يدفع ضريبة عقار
فهل يملك بويما مسكنا ؟

ولم يستطع كثيرون منهم ، بما فيهم البالغون ، حلّ المعضلة ، وحتى عندما تمكنوا من حلّها لم يستطيعوا تفسير كيفية الوصول الى النتائج التي وصلوا إليها . فعلى سبيل المثال ، فسَّر بعض الناس الأمر على ان بويما لم يكن لديه نقود ليدفع ضريبة العقار ، ولذلك فهو لا يملك النقود التي تمكّنه من أن يملك مسكناً أيضاً .

وقد قدمت مثل هذه المعضلات الى أفراد في وسط آسيا وفي المكسيك وأدت الى نفس النتائج . وكانت سكربينر قد فسَّرت ذلك استناداً الى التباين القائم بين الذين ذهبوا الى المدارس وبين الذين لم يذهبوا ، إذ يبدو ان التفكير « غير المنطقي » من الصفات الخاصة بِمَنْ لم يتعلَّموا في المدارس ، بينما يصبح اداء من تعلَّم منهم في المدارس مماثلاً لاداء الأفراد في المجتمعات المتقدمة تكنولوجيا . وعندما طلبت الباحثة من الناس في اطار دراستها ان يبرروا النتائج التي وصلوا إليها وَجَدَتْ ان هناك نوعين من التبريرات : تبريراً من النوع « النظري » يستند الى الحقائق الواردة في معضلة القياس المنطقي ، وتبريراً من النوع « التجريبي » الذي يستند الى معرفة الفرد بالعالم من حوله . وعندما توفرت لديها نتائج يمكن مقارنتها اتضح ان هناك ميلاً واضحاً من جانب مَنْ لم يتعلَّموا في المدارس الى ان يقدموا تبريرات أقل « نظرية » من التبريرات التي قدمها من تعلَّموا في المدارس . وهذه نتيجة ذات أهمية خاصة ، وبخاصة إذا وضعنا في اعتبارنا ان التعليم المدرسي في كل الدراسات التي عرضنا لها والحالات التي أشرنا إليها كان تعليماً جامداً يستند الى الاستظهار الى جانب انه

لم يكن تعليماً مستمراً ، فلم تحظَ الحالات التي دُرِسَتْ بأكثر من عامين دراسيين .

وتحاول سكريبنر من خلال تفسيرها هذه الاختلافات الواسعة بين مَنْ تعلَّموا ومَن لم يتعلَّموا القول بان المدرسة تعلِّم الطفل خطة معيَّنة schema « للخطاب المنطقي » logical discourse حيث انها تعلِّم الطفل ألاّ يلجأ الى استخدام معرفته القائمة أو « نماذجه الأصول » . وهذا هو نوع الخطط الذي نحتاجه لحل معضلات مثل « لو كان لدى جوني تفاحة حمراء واحدة ولدى ماري تفاحة حمراء واحدة فكم تفاحة حمراء لدى جوني وماري سوياً ؟ وإذا كانت المدارس قادرة على تعليم الأطفال هذا النوع من الخطط ، فلماذا يصبح من الصعب عليها أن تعلِّم خططاً أخرى للأطفال الذين لا يمتلكون مثل هذه الخطط ؟ وقبل ان نحاول الاجابة على هذا السؤال ، من المهم أن نشير الى أن سكريبنر لا تزعم ان كل من تعلَّموا في المدارس لديهم كل الخطط الضرورية ، ولكنها تقول ان هذه الخطط كانت أكثر شيوعاً بين مَنْ ذهبوا الى المدارس ، وعلى ذلك فشرط التعليم ليس إلاّ عاملاً واحداً فقط من مجموع العوامل التي تساعد على نمو هذه الخطط . ولا نزال نحتاج الى تفسيرٍ لظاهرة ان بعض الأطفال يتعلَّمون الخطط من المدارس في حين ان بعض الأطفال لا يتعلَّمونها .

ومن المحتمل ان بعض أولئك الأطفال لا يرغبون في تعلّم هذه الخطط من المدرسة لنفس الأسباب التي تدفعهم لعدم تعلُّم الكلام بنفس أسلوب معلميهم . فلو أحسَّ أحد أفراد المجموعات التابعة subordinate group انه لن يستطيع تبنّي لغة المجموعة المسيطرة dominant group في المجتمع إلاّ على حساب شعوره بالولاء لمجموعته ، فانه بكل تأكيد سيتجنَّب فعل ذلك . ( أنظر الأدلة المقدمة على ذلك في جيلز وبورهيس وتايلور Giles, ١٩٧٧ Bourhis & Tylor ) . وقد استخدم مصطلح « الازدواجية اللغوية الانتقاصية » subtractive bilingualism للدلالة على الموقف الذي يتجنَّب فيه مثل هؤلاء

الأفراد تبنّي لغة المجموعة السائدة لأن اللغة الجديدة قد « تُنْقِص » من لغتهم الحالية ( لامبرت ١٩٧٤ Lambert ) . فقد ينظر الناس الى اللغة الثانية كنوع من التهديد للغة الأولى عندما تعد الثانية أكثر تفوقاً على الأولى بشكل عام وبالتالي فان مجرد استخدام اللغة الثانية يعد نوعاً من الاعتراف الضمني بتفوقها. ومن المحتمل ان ما ينطبق على اللغات ينطبق أيضاً على خطط السلوك schemata for behaviour ومن بينها السلوك اللغوي. فلو ان الطفل شعر بان الخطط المدرسية تهدد الخطط التي يقرنها بمجموعته ، فانه قد يقوم بمقاومة حقيقية لأية محاولة لتعليمه هذه الخطط. وينبغي علينا أن نؤكد ان هذه مجرد فرضية لم تختبر بعد ، ولكنها قد تبدو فرضية معقولة للغاية لو اننا أخذنا في الاعتبار الصعوبات التي تواجهها المدارس في اقناع بعض الأطفال بقبول بعض الخطط الخاصة بالمدرسة مثل الخطط الخاصة بالتحدث أثناء الدرس أو في الفصل.

وسنركّز فيما تبقى من ٦ ــ ٤ على « القدرة الاتصالية » بالنسبة للمدارس وتلاميذ المدارس ، ولكن أهمية هذا المفهوم لا تنتهي بالطبع بترك المدرسة. فالخبرات اليومية تؤكد الرأي القائل بأن « القدرة الاتصالية » تعد أحد العوامل الرئيسة في تحديد مقدار نجاح الفرد في المجتمع. كما يقول جون جمبرز John & Gumperz في النصّ التالي (١٩٧٧) :

> « الاتصال قوة في مجتمعات ما بعد الصناعة المعاصرة. فالقدرة على التحكّم في حياتنا الشخصية في كل مجالات الحياة تعتمد على القدرة على الاتصال المؤثر ، فالحياة الخاصة. . . تتطلّب التعامل مع الوكالات والهيئات العامة والمقدرة المؤثرة على ادارة الأعمال فالعمل والادراة العامة نتيجتان للمقدرة على تبرير الآراء وتسوية الخلافات ».

### ٦ ــ ٤ ــ ٢ الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة :[٢]

لقد سبق أن رفضنا الزعم الضمني في آراء بازيل برنستاين ، القائل بأن الناس الذين يستخدمون الشفرة المحدودة بصفة دائمة ينبغي أن يعرفوا قَدَراً من المفردات والتعبيرات أقل من هؤلاء الذين يمكنهم استخدام كل من الشفرتين المحدودة والمسهبة. ولكننا سبق وان قبلنا أيضاً من ناحية المبدأ على الأقل الرأي القائل بان هناك طرقاً مختلفة لاستخدام اللغة تتوقف على درجة تأكيدنا لمدى الوضوح explicitness الذي نبتغيه في الكلام (٦ ــ ٣). ويمكننا أن ننظر الى الرأي السابق على انه جزء من القدرة الاتصالية ، أعني ان بعض الناس لديهم القدرة على الاسهاب نسبياً عندما يكون ذلك ضرورياً ، ولكنهم يستطيعون أيضاً استخدام الشفرة المحدودة في ظروف أخرى. ويبدو ان ذلك جزء هام من القدرة الاتصالية ، وهو هذا النوع من المعرفة الذي يمكننا أن نتركه للقارىء أو المتلقي كي يستخلصه بنفسه ، بالرغم من ان هناك كثيراً من أنواع المعرفة الأخرى تجعلنا نتحدث بطرق مختلفة في سياقات مختلفة. وبالتالي يمكننا أن ننظر الى نظرية الشفرة المسهبة والمحدودة على انها جزء صغير من النظرية الكاملة للمقدرة الاتصالية.

وليست أهمية هذه النظرية من منظور اللامساواة الاجتماعي في أن الناس يستخدمون درجات متباينة من الوضوح تحت مختلف الظروف ، بل في ان مختلف الناس قد يختلفون في درجة وضوح كلامهم تحت نفس الظروف أو في نفس المواقف. فقد زعم برنستاين بصفة خاصة ان أطفال الطبقات الدُنيا غالباً ما يكونون أقل قَدَراً من الوضوح من أطفال الطبقات العليا تحت نفس الظروف. وتتشابه هذه الظروف الى حدٍ كبير مع ظروف المواقف الدراسية حيث يكون الكلام الواضح مطلوباً داخل المدرسة. وقد تُفَسِّر هذه الفرضية جزئياً بعض المشكلات التي قد يقابلها أطفال الطبقة الدُنيا في المدارس.

ويبدو أن أدلة وجود مثل هذه الاختلافات بين الأطفال من طبقات

اجتماعية مختلفة كثيرة ومقنعة للغاية. فقد عرض بعض الدارسين في إحدى التجارب في الولايات المتحدة صوراً لعددٍ كبيرٍ من الحيوانات على مجموعة من أطفال الطبقات المتوسطة والدُنيا في العاشرة من عمرهم. وقد اختلفت صورة كل حيوان عن الحيوانات الأخرى في أربع صفات ( وهي على النحو التالي : اسم الحيوان ، عدد النقط المنقط بها ، إذا ما كان الحيوان واقفاً أو راقداً ، وموضع رأسه ). وطُلِبَ من كل طفل أن يصف حيواناً بعينه من هذه الصور بطريقة تميِّزه عن كل الحيوانات الأخرى لشخصٍ لا يعرف الحيوان الذي وقع اختيار الطفل عليه للوصف. وعند الضرورة طُلِبَ من الطفل أن يعطي معلومات أكثر من التي سبق أن قدمها ، ويبدو ان أطفال الطبقات الدُنيا قد احتاجوا في المتوسط الى ضعف عدد الأسئلة التي احتاجها أطفال الطبقات المتوسطة ، ويظهر من ذلك ان أطفال الطبقة المتوسطة وَجَدَوا انه من الأيسر ومن الأكثر طبيعية أن يكونوا في وصفهم أكثر وضوحاً من أطفال الطبقات الدُنيا ( هيدر وكازدين وبراون ١٩٦٨ Heider & Cazden & Brown وقد أُقتبِسَتْ هذه التجربة في كازدين ١٩٧٠ : ٩٢ ).

ويتضمن الخلاف بين الشفرة المحدودة والشفرة المسهبة كمية المعلومات التي يقدِّمها المتحدث ، أعني ان الشفرة المسهبة لا تتجنَّب اعطاء قَدَر قليل من المعلومات فحسب ، بل تتجنَّب أيضاً اعطاء معلومات أكثر من اللازم ، وهي من الصفات المرغوب فيها من المنظور المدرسي ( وسنعود لتفسير ذلك فيما بعد ). والاستدلال على هذه الآراء موجود في دراسة أجراها برنستاين حيث طَلَب من الأطفال القيام بوصف سلسلة من الأحداث في مجموعة من الصور. وعند احدى الصور طَلَبَ من الأطفال أن يقولوا رأيهم فيما يقوله الرجل المرسوم في الصورة ( وكان الرجل قد ظهر وهو يعنِّف بعض الأطفال الذين كسروا زجاج نافذة ). وكان الخلاف بين أطفال الطبقة المتوسطة والدُنيا في هذه الحالة معاكس للخلاف الذي ظهر في التجربة السابقة حيث ان أطفال الطبقة المتوسطة رفضوا الاجابة على هذا السؤال أو قالوا « لا ندري » ،

بينما حاول أطفال الطبقة الـدُنيا تخمين ما يقوله الرجل. ويبدو من هذا السلوك ان أطفال الطبقة المتوسـطة قد تـأثروا الى حـدٍ كبير بمبـدأ جرايس (١٩٧٥) Grice's principles وهو المبدأ القائل باننا لا يجّب أ ن نقول شيئاً لا نملك دليلاً على صحته ( ترنر وبيكفانس ١٩٧٣ Turner & Pickvance ( وقد يكون التفسير البديل لذلك بالطبع ) ان أطفال الطبقة الـدُنيا أكثر الفة بمواقف يعنِّفهم فيها رجال غاضبون.

وربما تكون أهم الجوانب في دراسات برنستاين انه يقدِّم تفسيراً لِمثل هذا التباين من وحي خبرات الطفل باللغة في بيته. فهو يزعم ان الشفرة المسهبة تُستخدم في منازل الـطبقات الـدُنيـا بدرجـة أقل من استخـدامها في منـازل الطبقات المتوسطة ، ويمكن القول على الأقل ان أُمهات أطفال الطبقة الـدُنيا نادراً ما يستخدمن الشفرة المسهبة عند التحدث لأطفالهن. ويعد ذلك جزءاً صغيراً من رأي أوسع وأشمل وهو ان اللغة تُستخدم كأداة لاكتساب السلوك الاجتماعي instrument of socialisation من قبل الأُسـر من مختلف الطبقـات الاجتماعية ، ويؤكد ذلك ويوضّحه ما قالته الأُمهات للباحثين الذين أجروا معهن مقابلات عن استجاباتهم المحتَمَلة لبعض المواقف الفرضية. وعلينا الآن أن نقـدِّم بعض الأدلة المبـاشـرة ( هيس وشيبمـان ١٩٦٥ Hess & Shipman منصوص عليها في روبينسون ١٩٧٢ : ١٨٣ ). وهي أدلة مأخوذة من دراسة طُلِبَ فيها من الأُمهات أن يؤدين مهام معيَّنة مع أطفالهن وتتطلب كل هـذه المهام استخدام اللغة. ومن أهم هذه المهام مهمة طُلِبَ فيها من الأُم أن ترسم نمطاً معيَّناً على لعبة تُعرف باسم Etch—a—sketch ، وهي تتكوَّن من قلم معيَّن يتحكّم في كل بُعد من أبعاده مفتاح معيَّن ، وطُلِبَ من الأُم أن تجعل طفلها يتحكّم بـأحد المفـاتيح بينـما تتحكَّم هي بالمفتـاح الآخر ، وكـان عـلى الأُم والطفل ، أن ينسخا سوياً مجموعـة من الأنماط البسيـطة. واتضح ان هنـاك اختلافاً واضحاً بين أُمهات الطبقة المتوسطة وأُمهات الطبقة الـدُنيا في طريقة كلامهم في ارشاد أطفالهن وكمه. فلم تقم أُمهات الطبقة المتوسـطة باعـطاء

أطفالهن ارشادات أكثر وضوحاً من أُمهات الطبقة الـدُنيا فحسب ، بل قمن أيضاً بتوضيح قدراً أكبر من الأنماط النموذجية التي طُلِبَ منهن أن ينسخنها مع أطفالهن ، بينما كانت أكثر ارشادات أُمهات الطبقات الـدُنيا وضوحاً هي « أدر المفتـاح » فحسب . ولعـل أهم نتـائج هـذه الـدراسـة تتضـح في ان الاختلافات بين أُمهات الطبقة الـدُنيا والطبقـة المتوسـطة قد تجـاوزت الاختلافات اللغوية ، الأمـر الذي من شـأنه أن يـوضِّح لنـا انه من المضلل أن تلتفت الى المشاكل اللغوية لأطفال الطبقات الـدُنيا في المدارس فحسب ، دون أن نلتفت الى القدرة الاتصالية التي تتجاوز « القدرة اللغوية » البحتة.

والسؤال الآن هو لماذا توجد مثل هذه الاختلافات بين أُمهات الطبقة المتوسطة وأُمهات الطبقة الـدُنيا في أنماطهن الاتصالية ؟ ويرجع برنستاين ذلك الى الاختـلاف في أسلوب حياتهن ، ومن بـين هذه الاختـلافـات ، مثـلاً ، ان الناس من الطبقات الـدُنيا وخاصة من بين الطبقـات العماليـة التقليديـة يقابلون عدداً أقل من الغرباء ، ولذلك فانهم يستطيعون التسليم بقدر كبير من المعـرفة المشتـركـة مـع مَنْ يقـابلوهم. ويمكن أيضـاً تفسـير بعض هـذه الاختلافات ، على حد قوله ، بالرجوع الى الـبُنية العامة للمجتمع ، ولكن ذلـك يتجاوز بنـا حدود هـذا الكتاب ( أنـظر مثلاً بـرنستاين ١٩٧٠ : ٣٦ و Edwards ادواردز ١٩٧٦ : ١٠٧).

وترتكز القيمة الحقيقية لنظرية برنستاين في اهتمامه بالمقدرات الاتصالية لـلأطفال ( ولكن أهميـة آراءه قد تـأثرتْ لسـوء الحظ بمزاعمـه عن القصور في استخدام التعبيرات والمفردات ـ أنظر ٦ ـ ٣ ـ ٢) ، وانه قد حاول أيضاً أن يفسِّر هذه الاختلافات في اطار نظرية متكاملة للـبُنية الاجتماعية. وعلى أية حال هناك عيوب ومواطن ضعف جسيمة في نظرية الشفرة المسهبـة والشفرة المحدودة وعلاقتها بالـبُنية الاجتماعيـة ، الأمر الـذي يجعلها نـظرية تفتقـر الى أدلة الاثبات.

إن المفاهيم التي تمثّلها مصطلحات « المسهب » و « المحدود » مفاهيم

مبهمة للغايـة حتى انه يصعب تحـديد أمثلة تمثّـل كُلاً من هـذين المفهومـين ( ادواردز ١٩٧٦ : ٩٢ Edwards ) . فهـذه المفاهيم تفتـرض مسبقـاً وجـود اختلاف واضح بين الكلام الواضح والكلام الغامض في حين ان كل كـلام يترك للمتلقي دائماً فرصة لاضافة بعض المعلومـات. ولنضرب مثـلاً بسيطاً على ذلك ، فكلما استخدمنا أداة تعريف تركنـا للقارىء أو المتلقي الفـرصة ليكتشف بنفسه أية كينونة تشير إليها هذه الأداة كما هـو الحال بـالنسبة لأداة التعـريف في كلمـة « المتلقي » في التـركيب السـابق. وفضـلاً عن ذلـك ، فان الخبرات الشائعة بالنسبة للمحاضرين الجامعيين هي ان الطلبة وخـاصة طلبة السنوات الأولى ، غالباً مـا يكونـون غير واضحـين في طرحهم لبعض خطوات الجدل الذين هم بصدد طرحه. ونستطيع أن نعتبر ذلك مثالاً ودليلاً عـلى انهم يستخدمـون شفرة محـدودة. فقد يـدل ذلك انهم لم يتعلّمـوا بعـد الوضوح في ذكر خطوات الجدل كما ينبغي أن يفعلوا. ويبدو من ذلك إذن ، ان الاختلاف بين الشفرتين مسألة درجة ، وان القدرة على استخدام الشفرة المسهَبة في سياق بعينـه لا تضمن حُسْن استخدام تلك الشفـرة في أي سياق آخـر ، أعني بذلـك ان الشفرة المسهَبَـة ليست معياراً عـاماً أو اتجـاهاً عـاماً في الاتصال كما يلمّح برنستاين أحياناً ، ولكنها مهارة خاصة بمجموعة محددة من المواقف.

وهناك أيضاً نوع من التبسيط المخلّ في النـظرية الأسـاسية ( بـالرغم من ان تفسيرات هذه الظاهرة غـاية في التعقيـد ) ذلك انها تعـطي انطبـاعاً ان المشاكل الاتصالية الخاصة بأطفال الطبقة الـدُنيا يمكن فهمها وتشخيصها في اطار ثنائية ساذجة ، سواء أكانت مقيَّدة بالشفرة المحدودة أو غير مقيَّـدة. ويبدو ان الاحتمال الأقرب هو ان أطفال الطبقة الـدُنيا يعانون في المـدارس من مجموعة معقَّدة ومركَّبة من المشكلات المتداخلة ترتبط كل منها بالأخرى ، وربمـا تكون كـل من هذه المشكـلات محددة للغـاية. ومن أمثلة المشكـلات الاتصالية المحددة ، وهي مشكلة قد يعاني منها معـظم القراء ، هي مشكلة

. التحـدث في موقف لا يتحقق فيـه أي نـوع من التغـذيـة المـرتـدة feedback من جانب المتلقين مثلما يحدث عندما نملي خطاباً عـلى جهاز تسجيـل أو عند تسجيل رسائل موجهة للأصدقاء على نفس الجهاز أو ربما عند تسجيل رسالة صوتية لمتلقين مجهولين على هاتف مزوَّد بجهاز اوتوماتيكي للرد على المشتركين.
ومن المنطقي أن نتصوَّر ان طِفل الطبقـات الـدُنيا يـواجه مجمـوعة من هـذه المشكلات عندما يذهب الى المدرسة ( وليس أقلها شأناً مشكلة الدوافع المركَّبة complex motivation التي سبق ذكرها ) ، ولا يواجه مشكلة واحدة شاملة وهي مشكلة تعلّم كيف يتوخى الوضوح بصفة دائمة.

وهناك موطن ضعف آخر في مدخل برنستاين الاجتماعي. فهو يقوم بـوصف كل من الـطبقتين الـدُنيـا والمتوسـطة في المجتمعات في اطـار نماذج مقولَبة ، وأحياناً بصورة مبالَغ فيها دون الالتفات الى العديد من الاختلافات القائمة فيها يسمى تجاوزاً بـ « الطبقات الـدُنيا » ( روزين ١٩٧٢ Rosen ). وفضلاً عن ذلك ، فان مفهوم الطبقة الاجتماعية في حد ذاته مفهوم اشكالي ، وبالتالي ينبغي علينا أن نتوخى الحذر بالنسبة للتعميمات التي تُطلق على طبقة اجتماعية بعينها ، خاصة عندما تدل هـذه التعميمات عـلى جماعـات مختلفة في أُمم مختلفة ( مثل بريطانيا والولايات المتحدة ). ويمكننا أن نوجه نفس النوع من النقد للابـوف الذي كـان من النقاد الـرئيسيين للدراسـات التي قام بهـا برنستاين. ( لابوف ١٩٨٢ ــ ب : ٢٠١ ــ ٢٤٠ ).

### ٦ ــ ٤ ــ ٣ القدرة الاتصالية لدى أطفال الطبقات الـدُنيا :

يبدو انه من المعقول أن نقول ان لـدى بعض الناس « نقصـاً معيَّناً » في قدراتهم التواصليـة وخاصـة بالنسبـة لأنواع معيَّنـة من المواقف ، ولكننـا قد لا نرى في ذلك شيئاً غير طبيعي خاصة وان مثل هذا النقص يمكن أن يكون منتشـراً في كل قـطاعات المجتمـع ، ذلك ان كـلاً منـا يعـاني نـوعـاً معيَّنـاً من النقص. ولـو انني أفضل استخـدام كلمة « فجـوات » gaps على كلمـة

نقائص فهي مصطلح أفضل ( كازدين ١٩٧٠ Cazden ) . فبعض الناس لديهم « فجوات » عند التعامل مع المواقف الرسمية أو التجريبية أو المدرسية والتي ينبغي أن يكونوا واضحين فيها ، أما الآخرون فقد يكون لديهم فجوات بالنسبة للمواقف التي يجابههم فيها عميل غاضب وهكذا دواليك . وبما اننا قد سبق أن ناقشنا بعض الأشياء التي لا يستطيع أطفال الطبقات الدُنيا القيام بها خير قيام ، فَمِنَ العدل ان ننظر الآن الى الأشياء التي يجيدون القيام بها .

ولعل أفضل تسجيل وتوثيق لكلام الطبقات الدُنيا ، مأخوذ عن الدراسات التي أُجريتْ عن الزنوج الأمريكيين . وقد اتضح من هذه الدراسات ، ان أطفال الطبقات الدُنيا من الزنوج ( والبالغين أيضاً ) لديهم مجموعة متكاملة وكافية من النشاط الكلامي المحدَد لثقافة بعينها ، والكثير من هذه الأنشطة الكلامية تعبّر عن « التنفس » بينهم وهي تقوم بوظيفة تحديد مكانة المتحدث بين أقرانه peers . ويُستخدم المصطلح rapping ( وهو شبيه بمصطلح القافية بالعامية ) للدلالة على نوع معينًّ من الكلام يتميَّز بالطلاقة والانطلاق والحيوية وهو أسلوب شخصي للغاية . ويعد ذلك النوع من الكلام وسيلة لخلق انطباع حسن عند المتلقي عندما تقابله لأول مرة رغم انه قد يتحوَّل الى « قافية » تنافسية فعلية حيّة ( برلينج ١٩٧٠ : ١٥٦ ) . وواحد من أنجح القائمين بهذا اللون من فنون الكلام rapping هو راب براون Rap Brown الزعيم الزنجي الذي كتب التالي في سيرته الذاتية :

> يلتفّ في بعض الأحيان ٤٠ الى ٥٠ فرداً حول المتنافسين ويحدد الفائز باستجاباتهم لِما يُقال ، فلو استغرقوا في الضحك نتيجة لِما قلته ، فعليك أن تعرف انك قد سجلّت نقطة على منافسك . وهي مسألة صعبة للغاية على مَنْ يتلقى السخرية . ونادراً ما يحدث ذلك لي ، ولذلك اطلقوا عليّ اسم « راب » براون لأنني

أستطيع أن أقوم بهذا الفن من فنون الكلام خير قام.
( منصوص عليها في ابراهمز ١٩٧٤ : ٢٤٤
Abrahams ).

ومن الواضح ان المقدرة على الكلام تأخذ نفس القدر من الأهمية في مثل هذا المجتمع، مثلما تلقى في المجتمعات الأكاديمية في الطبقة المتوسطة، والاختلاف الوحيد يكمن في قواعد اللعبة وفي معايير النجاح فيها.

ويتضح من بعض الأدلة المأخوذة عن بعض الدراسات، انه بالنسبة لاداء بعض المهام فان اداء أطفال الطبقة الدُنيا أفضل من اداء الطبقة المتوسطة. ففي إحدى الدراسات التي طالبتْ الأطفال برواية قصة قبل النوم، وُجِدَ ان البنات من أطفال الطبقات الدُنيا أكثر طلاقة، بينما وُجِدَ ان الأولاد من نفس الطبقات أقل المشتركين طلاقة، في حين جاء أطفال الطبقة المتوسطة في الوسط. وليس من الصعب أن نجد تفسيراً للاختلافات بين الأولاد والبنات في عيّنة أطفال الطبقة الدُنيا فالبنات خبيرات في رواية الحكايات للدُمىٰ والأخوة الصغار قبل النوم، ولذلك وَجَبَتْ علينا الاشارة الى ان اداءهن أفضل من اداء أطفال الطبقة المتوسطة ( ادواردز ١٩٧٦ : ١٠٠).

٦ ـ ٤ ـ ٤ **المتطلَبات اللغوية للمدارس :**

والسؤال الأخير الذي نود الاجابة عليه هو : هل المتطلَبات اللغوية للمدارس هي حقاً كما وَصَفَها برنستاين وآخرون ؟ وهل تهتم المدارس الى هذا الحد بالوضوح والقدرة على التفكير المستقل ؟ ان تعميم مثل هذه الفرضية أو النموذج المقولَب على جميع المدارس يعد شيئاً خطيراً للغاية، فقد تكون هذه الفرضية غير دقيقة وغير صالحة بالنسبة لمعظم المدارس التي يذهب إليها أطفال الطبقات الدُنيا. ويرى البعض ان الوصف اللغوي الاجتماعي لهذه المدارس يتناسب مع الوصف النموذجي لمنزل الطبقة الدُنيا والذي لا يتطلّب سوى « الشفرة المحدودة » :

وتتواجد الشفرة التحتية المحدودة عندما يتم التواصل
بواسطة صيغ الكلام التي تكون فيها المعاني ضمنية ،
والمبادىء التي يستند إليها الكلام مركّزة وغير مبررة
أو واضحة ، حيث لا ترتبط بخبرات الطفل
أو حتى بمستلزمات السياق ، وحيث لا تكون هناك
بدائل مطروحة وحيث لا توجد أسئلة مشجعة .
( **جاهاجان وجاهاجان ١٩٧٠** Gahagan & Gahagan نص
على هذه الفقرة في ادواردز ١٩٧٦ : ١٤٦ ) .

ولعل واحداً من أهم الخصائص التي كثر النقاش حولها فيما يتصل بالمدارس هو ميلها نحو تشجيع ما يمكن أن نطلق عليه عملية « الاستعراض الكلامي » verbal display والتي تحث على اعطاء معلومات أكثر مما ينبغي . ( ولو انه يفضل ألّا تكون هذه المعلومات غير صحيحة ، كما أسلَفنا الذكر في ٦ ــ ٤ ــ ٢ ) . ففي المقابلات الرسمية ، غالباً ما يقوم أطفال الطبقات الدُنيا بالرد باجابات مقتضبة على الأسئلة المطروحة عليهم والاجابة بنعم / لا على الأسئلة التي تتطلَّب الاجابة بنعم أو لا yes / no questions دون زيادة أو محاولة لتوسع الاجابة . وعلى عكس ذلك فان طفل الطبقات المتوسطة ينظر الى سؤال نعم / لا ، مثل ، هل تواظب على مشاهدة التليفزيون ؟ على انه دعوة لوصف عاداته في مشاهدة التليفزيون باسهاب . وربما تكون هذه الاجابات المسهَبَة لا الاجابة المقتَضَبَة هي التي تحتاج تفسيراً . ولكن الدراسات والأبحاث قد اعتبرت الاجابات المقتضبة هي المشكلة بالنسبة للأطفال (ويليامز ١٩٧٠ : ٣٩٣ Williams ) ، أما بالنسبة لاعتبار الاجابات المسهَبَة أكثر صلاحية بالنسبة للمدارس فان ذلك يبدو صحيحاً تماماً . ولكن إذا كان المدرس يريد وصفاً فعلياً فلماذا لا يطلب ذلك بوضوح مثل « صِفّ لي ذلك . . . » ، وقد يبيِّن لنا هذا المثال البسيط ما يشعر البعض انه مصدر

من مصادر مشاكل اطفال الطبقات الدُنيا في المدارس ، وهو على سبيل التعيين نوع من الصدام الثقافي culture clash بين ثقافة الطبقات المتوسطة التي تتحكّم في سلوك المعلّم وثقافة الطبقات الدُنيا التي اعتادها الطفل. ويعتقد الكثيرون انه من الممكن تحقيق أهداف النظام التعليمي في اطار ثقافة الطفل ، مستخدمين في ذلك القدرة الاتصالية التي يجلبها الطفل الى المدرسة ، حتى لو كان توسيع وتجاوز تلك القدرة الاتصالية واحداً من أهم الأهداف التعليمية.

وعلى ذلك فهناك العديد من الأسئلة التي لا نستطيع تقديم اجابة مُرضية عليها ، وكل ما أمكننا تقديمه في هذا الجزء عرض موجز لبعض الآراء وبعض الدراسات المؤيدة لهذه الآراء في مجال اللامساواة اللغوية والاجتماعية. والكثير من هذه الدراسات ما زال في طور النمو ومعظمها من الصعب أن يركّز بشكل مباشر على أفكار مترابطة في اطار نظرية متكاملة حتى يمكننا تقدير صلاحيتها. وقد قدَّم واحد من أهم الباحثين في هذا المجال وهو ويليامز صاحب كتاب **اللغة والفقر** ١٩٧٠ النداء التالي وهو نداء يستحق أن نكرره هنا في ختام هذا الفصل :

> اني أعرف جيداً ان كل هذه الأفكار تدعونا للبحث والدراسة. ولكنها لا تدعو الى مجرد مزيد من الدراسة ، بل تدعو الى دراسات أفضل وقدر أكبر من التنسيق بين الدراسات الجارية. ومن زاوية أكبر ، تدعونا الى ضرورة المطالبة بتطبيق نفس مستويات البحث والدراسات في العلوم الأخرى ، على العلوم الاجتماعية. ذلك اننا كمجتمع متقدم من الناحية التكنولوجية قد دفعنا الثمن في صورة مدن مزدحمة ومجتمعات ريفية محرومة وفي صورة تلك العلاقة العكسية بين الفرص الاقتصادية المتاحة والانتماء

الى جماعات الأقليات. علينا أن نستغل هذه التكنولوجيا في حلِّ مشكلات العنصر الانساني في مجتمعنا.
( ويليامز ١٩٧٠ : ٧).



# • الخاتمة

لقد حاولت أن أقدم نظرة متسقة للغة تأخذ في اعتبارها نتائج دراسات علم اللغة الاجتماعي. وكان كل من الفصول السابقة قد ركّز على أحد جوانب اللغة المختلفة ، ولذلك قد يكون من الأفضل أن نجمع سوياً بعض هذه الخيوط المفكّكة ونرى كيف يرتبط كل منها بالآخر. ويبدو ان مفاهيم اللغة التي وصلنا إليها تختلف كثيراً عن النظريات اللغوية البُنيوية القائمة ، ويمكننا أن نقول ان هذه المفاهيم تتسم بالمرونة والجزئية ، أي انها غير كاملة. فهي مرنة لأن التصنيفات التحليلية التي استخدمناها تعد من قبيل « النماذج الأصول » ، ولا تعد تصنيفات ذات حدود واضحة وشروط تعريفية خاصة. وهي جزئية ، أو غير كاملة ، لأنها لم تحاول الاستفادة من التصنيفات الشاملة أو الواسعة لتجميع الوحدات اللغوية أو الناس ( مثل « اللغات » و « اللهجات » و « سجلات السياق » و « الجماعات الكلامية » ) كأسس للتعميم.

ومن البديهي ان الكلام يحدث في سياق اجتماعي ، وبالتالي فانه لا غنى عن المنظور الاجتماعي لعلم اللغة الاجتماعي في دراسة اللغة والكلام. ويشمل السياق الاجتماعي للكلام عدداً كبيراً من العوامل من بينها المجموعة أو المجموعات الاجتماعية التي ينتمي إليها المتحدث والعلاقات الاجتماعية بين المتحدث المتلقي وبينه التعامل الاجتماعي ( في صورة دخول وخروج وتناوب الأدوار ، الخ ). ونوعية هذا التعامل ( التعامل التجاري ) ومحادثة ودية ، وحلّ المعضلات ، الخ ) والمعرفة المشتركة بين المشتركين في الحديث وقد تكون معرفة عامة ( ثقافية ) أو معرفة خاصة ( أي مرتبطة بالتعامل نفسه ). وكل هذه الجوانب من السياق الاجتماعي معروفة عندما نسمع ( أو نقرأ ) أية وحدة لغوية ، هذا بالرغم من انه من الممكن أن يختلف الناس حول بعض جوانب السياق الاجتماعي لأي من الوحدات اللغوية. وبالتالي ، فانه من الصعب أن نتصوّر اننا لا نختزن مثل هذه المعلومات في ذاكرتنا بالاضافة الى الوحدات اللغوية ذاتها ، وكل الأدلة تشير الى اننا نقوم بذلك

فعلاً . وبالمثل ، فاننا نتذكّر السياقات اللغوية التي ترد فيها الوحدات اللغوية ، وليس هناك ما يدعو للفصل بين هذين النوعين من المعلومات ، وذلك عن طريق التعامل مع السياقات اللغوية باعتبارها جزءاً من « البُنية اللغوية » أو «القدرة اللغوية » والتعامل مع السياقات الاجتماعية على انها جزء من استخدامات اللغة التي يمكن فصلها عن « القدرة اللغوية البحتة ».

وقد يعترض البعض بقولهم ان الناس لا يمكنهم اختزان كل المعلومات الخاصة بالسياقات الاجتماعية لكل الوحدات اللغوية بمفردها ، حيث ان الوحدات اللغوية تشمل الوحدات المعجمية lexical items والعبارات constructions والأنماط اللغوية العامة . وحيث ان المتحدث بلغة واحدة فقط monoglot ينبغي ان يختزن عشرات الآلاف من الوحدات اللغوية ، فان ذاكرته لا تحتمل تخزين كل هذه المعلومات المطلوب تخزينها . ولكن الأدلة التي سبق ان عرضنا لها تدل على اننا نختزن بالفعل كميات هائلة من المعلومات ترتبط بوحدات معجمية بعينها وترتبط كذلك بأنواع الوحدات الأخرى ، الأمر الذي يمكننا من **ان نربط بين الوحدات اللغوية المفردة والسياق الاجتماعي** . فالناس في بلفاست يعرفون على سبيل المثال ان هناك نطقين لكل من **pull** و **would** احدهما [ʊ] والأخرى الـ [ ʌ ] ولكن نطق [ ʌ ] في **pull** أقل درجة من العامية من نطق **would** ( أنظر ما سبق ) .

وإذا كنا قد سلّمنا بوجود هذه القدرة اللا محدودة على اختزان المعلومات الخاصة بالوحدات اللغوية ، فلا داعي ، إذن ، ان نفترض مسبقاً انه ينبغي استخدام المفاهيم التصنيفية الشاملة large scale constructs مثل « اللغة » أو « اللهجة » حتى يمكننا الربط بين الوحدات اللغوية وسياقاتها الاجتماعية ، وتذهب الأدلة التي عرضنا لها الى عدم وجود أساس صحيح أو حقيقة موضوعية لمثل هذه المفاهيم ، ولذلك ينبغي على علماء اللغة أن يتجنبوا إطلاق التعميمات بناء على مثل هذه المفاهيم الشاملة أو الواسعة. وقد تكون أول آثار مثل هذا التقييد أن يتوقف علماء اللغة عن محاولات كتابة الاجروميات ،

إلّا إذا كانوا على استعداد لرؤية هـذه الاجروميـات على انها وصف للقـدرة اللغوية لفرد بعينه competence of an individual سواء أكان المتحدث أحادي اللغة أم متعدد اللغات. أما آثار مثل هذا التقييد بالنسبة لنظرية علم اللغة linguistic theory فتتمثـل في انـه ينبغي علينـا أن نبحث عن نـظريـة تقلل عـدد الاختلافات بين النوعيات المختلفة من الوحدات اللغوية ، طالما ان كل هذه النوعيات المتباينة من الـوحدات اللغـوية تـرتبط بالسيـاق الاجتماعي بنفس الـطريقة. ومن نـاحية أخـرى ، لعل من الأفضـل أن ندرس الاختـلافـات في النطق والصيغ الصرفية والتراكيب والوحدات المعجمية في اطـار سياقهـا الاجتماعي.

إنني أتفق مع العديد من علماء اللغة في إيماني بان المعيار الأول والأخير في دراسة اللغة هو الحقيقة النفسية psychological reality فوصف بُنية اللغة language structure. واني أعتقد ان هذا معيار هام بالنسبة لعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة الوصفي على حد سواء ( وليس ذلك غـريباً في شيء فقـد سبق أن أكدت ودافعتُ عن وجهة النظر القائلة بانه لا توجد اختـلافات حقيقيـة بين هذين العِلْمين ). وعلينا أن نسلّم جدلاً بان عقول الناس قادرة على اختزان عدد هائل من شبكات المفاهيم networks of concepts ، وهي شبكات تمثّـل ما يعرفونه من الوحدات اللغوية وسياقها الاجتماعي. ولابد ان يكون هدفنا الرئيسي هو محـاولة كشف المـزيد عن هـذه المفاهيم وعـلاقاتهـا وارتباطـاتها الداخلية. وليس هناك ما يدفعنا للاعتقاد بان جميع الناس يختزنـون المفاهيم نفسها ، سواء بالنسبة للوحدات اللغوية أو بالنسبة للسياقات الاجتماعية ، مما يجعل من الصعب أن ندرس هذه المفاهيم. عندئذ تصبح منهجية البحث methodology هي القضية الرئيسيـة. وقد يكـون علينا أن نقتصـر على مجـرد مـلاحظة سلوك النـاس لفترة من الـوقت بالاضـافة الى تحليـل هذا السلوك الكلامي كيما واحصائياً ، حيث يكون ذلك ضرورياً ، والقيام بطرح فرضيات عن الميكانيزمـات النفسية psychlogical mechanisms الـدافعة لهـذا السلوك.

وفي نفس الوقت ، ينبغي ان نحاول الاجابة على مجموعة من الأسئلة المحيّرة وهي : لماذا يتكلَّم الناس في نفس الجماعة بنفس الطريقة حتى بالنسبة لأدق تفاصيل النطق ؟ وكيف يحققون مثل هذا التطابق الدقيق ؟ ولماذا يتباينون بالنسبة لبعض المتغيِّرات ؟ وقد سبق أن حاولنا الاجابة على بعض هذه الأسئلة ، ولكننا لم نقدم اجابة كاملة أو واقعية على أي منها .

ولعل أهم الملامح المميّزة للكلام والسياق الاجتماعي انهما يتكونان من عديد من المتغيِّرات اللغوية المستقلة أعني انهمامتعددي الأبعاد multi—dimensional وقد سبق ان ذكرنا بعض المتغيِّرات المستقلة المرتبطة بالسياق الاجتماعي ، ولكن يمكننا أن نعيد تصنيف كل من هذه المتغيِّرات في شكل عدد كبير من المتغيِّرات المنفصلة . فيمكننا ، على سبيل المثال ، ان نعرف انتماء المتحدث الى مجموعة بعينها بالرجوع الى الأقليم والمكانة الاجتماعية والسن والجنس والكثيرمن العوامل الأخرى . ويمكننا أيضاً ان نعيد تصنيف المتغيِّرات الكلامية حسب المضمون والشكل ، ويمكننا أيضاً اعادة تصنيفها في شكل عدد ضخم من العوامل مثل ( الكلمات words تصنيفات الكلمات word classes العبارات constructions الوحدات الصوتية المجردةَ والخصائص الدلالية semantic features and phonemes ، الخ . وكما قد نتوقع فأن العلاقات بين المتغيِّرات الكلامية ومتغيِّرات السياق الاجتماعي مركَّبة ومعقدة وغاية في التحديد ، حيث ان الوحدات اللغوية المفردة ترتبط بمتغيِّرات سياقية مفردة . مما قد يسمح للمتحدثين باستخدام الكلام بطريقة فائقة الحسّاسية لتحديد موقعهم وموقع حديثهم في حيِّز متعدد الأبعاد multi—dimensional space بحيث يسمح ذلك في نفس الوقت بتوصيل الرسائل الدلالية التي تتضمنها التراكيب التي يستخدمونها . ( وبالتأكيد لا يوجد اختلاف واضح من ناحية المبدأ بين هاتين الوظيفتين للكلام ) . أو بعبارة أخرى يمكننا أن ننظر الى كل عبارة على انها فعل من « أفعال توكيد الهوية » act of identity من جانب المتحدث .

وفي النهاية ينبغي أن ندرس طبيعة المفاهيم المستخدَمة في تحليل الوحدات اللغوية والسياقات الاجتماعية ، ويبدو ان هذه المفاهيم جميعاً هي من قبل « النماذج الأصول » prototypes ـ أعني انها مجموعات من الملامح والخصائص المميزة clusters of characteristics التي تحدد الحالات الواضحة ، ولكنها لا تفصل بين الملامح المميزة الضرورية والملامح غير الضرورية . وقد سبق ان درسنا بوضوح العلاقة بين « النماذج الأصول » وبعض جوانب السياق الاجتماعي منها ، مثلاً ، انتماءات المتحدث لمجموعة بعينها ( حيث أطلقنا على « النماذج الأصول » اسم النماذج المقولَبة ) ومن بينها علاقات القوة والتضامن بين المتحدث speaker والمخاطب addressee ونوعية التعامل الاجتماعي interaction ( حيث اسميناه « مجالات » domians ) ، وقد يتضح ان هناك جوانب أخرى كثيرة مماثلة في هذا الصدد. ولقد سبق ان ذكرنا اننا نحتاج بالضرورة الى « النماذج الأصول » في تعريف معاني الكلمات ، ويبدو أيضاً ان الدراسات المعاصرة فيما يسمّى بـ « الاجرومية » غير المستقلة » —non discrete grammar تلح في تطبيق نفس المبدأ على التصنيفات النحوية مثل « الاسم » noun و « شبه الجملة » clause ( أنظر لاكوف ١٩٧٧ Lakoff وروس ١٩٧٣ ، ١٩٧٤ Ross ) . وقد نتوقع وجود مثل هذه الحاجة فيما يختص بعلم الأصوات و خاصة بالنسبة للتصنيفات الصوتية categories مثل « الصائت » و « المقطع » syllable . وإذا سلَّمنا بالنتيجة القائلة ، ان كل هذه المفاهيم لابد وان تكون نماذج أصول فيترتَّب على ذلك بالطبع ان يعطي علماء اللغة أولوية لتطوير نظريات تتفق مع « النماذج الأصول » بوصفها تصنيفات تحليلية ، وليس ذلك هو الحال في أي من النظريات القائمة . وحتى نتمكَّن من القيام بذلك سنستمر في تسْوية اللغة عند أية محاولة لتوصيفها .

# ثبت المصطلحات الأجنبية
# ومردافاتها العربية

**A**

| | |
|---|---|
| الأبيون = قبيلة في الأرجنتين | Abipon |
| اللكنة | accent |
| مرحلة المواضعة على | acceptance |
| درجة القبول ( حكم نحوي ) | acceptability |
| مقبولية = مدى قبول الجماعة اللغوية لاستعمال لغوي معينٍّ (الخولي ٢١ : ١٩٨٢) | |
| أفعال توكيد الهوية | Act of Identity |
| عملية الاتصال | act of communication |
| اللهجة العليا ( أنظر ٢ ــ ٥ ــ ٤ ، ٥ ــ ٥ ــ ٢) | Acrolect |
| المخاطَب ( المتلقي ) | addressee |
| المخاطِب ( المتحدث ) | addresser |
| مصطلحات التخاطب ( ٤ ــ ٢ ــ ٢ ) | terms of address |
| الكفايـــة | adequacy |
| الأزواج المتوازية ( ٤ ــ ٣ ــ ٢ ) | adjacency pairs |
| الاتفاق والتطابق | agreement |
| ما قبلي | apriori |
| ويقابلها ما بعدي ( المسدي ١٨٢ : ١٩٧٧) | aposteriori |
| النتاج السني | Age grading |
| فاعل = القائم بالفعل أي مَنْ يقوم بالفعل (الخولي ٩ : ١٩٨٢) | agent |

| | |
|---|---|
| agentless passive | صيغة المبني للمجهول بحذف الفاعل |
| ambiguity | غموض في المعنى ، ابهام ، لبْس |
| Anthropology | الانثروبولوجيا |
| Antigua | آنتيجوا = جزيرة من جزر الهند الغربية (أنظر ٤ ـ ١ ـ ٤ ) |
| Arawak | الاراواك = لغة مستخدَمة في جزر الكاريب |
| Areal linguistics | علم اللغة الجغرافي |
| Areal features | الملامح الجغرافية |
| Areal diffusion | ظاهرة انتشار الملامح الجغرافية |
| arbitrary | اعتباطي ، جزافي |
| Artificial intelligence | علم الذكاء الاصطناعي = هو علم يدرس الذكاء الانساني من خلال محاكاته على الحاسب الآلي ( أنظر ٤ ـ ١ ـ ١ ) |
| attitudes | اتجاهات ( أنظر ٦ ـ ٢ ـ ٢ ) |
| assimilation | ادغام ، استيعاب |
| alveolar | لثوي = صوت يلامس أو يقارب في رأس اللسان ( أي الذلق ) اللثة الخلفية للأسنان العليا مثل |

B

| | |
|---|---|
| baby talk | لغة الطفل الرضيع |
| basic level concepts | مفاهيم المستوى الأساس |
| Basilect | اللهجة الأساس ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٤ و٥ ـ ٢ ٥ ) |
| Bantu languages | لغات البانتو |
| non—bantu | لغات غير بنتوهية |

| | |
|---|---|
| صائت خلفي = صائت يكون اللسان فيه في الجزء الخلفي من التجويف الفموي مثل | back vowel |
| درجة الخلفية / الأمامية في وضع اللسان (أنظر ٥ ـ ٣ ـ ١) | backness |
| درجة الأمامية في وضع اللسان | see : frontness |
| السلوكية | Behaviourism |
| صامت شفاهي | bilabial consonant |
| الازدواج اللغوي = استعمال فرد أو مجموعة أو شعب لغتين بمستوى واحد من الاتقان | Bilingualism |
| مزدوج اللغة | bilingual |
| الاستعارة (أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٢) | borrowing |
| البوك مال = النروجية المتواضع عليها أي النوعية العليا (أنظر ٢ ـ ٥ ـ ١) | Bokmal |
| البوانج لغة مستخدَمة في كينيا الجديدة (٢ ـ ٥ ـ ١) | Buang |

C

| | |
|---|---|
| شائع (أنظر ٥ ـ ١ ـ ١) | casual |
| رسمي | see : formal |
| بصورة مطلقة | categorical |
| احتمالي | see : probabilistic |
| القناة | channel |
| شواهد تغيير القناة | channel cues |
| لغة الأطفال | child language |

| | |
|---|---|
| Cockney | الكوكني = لهجة لندنية دارجة |
| code | شفرة |
| codificatiuon | مرحلة تقنين اللغات المتواضع عليها |
| see : decode | تفكيك الشفرة |
| code—switching | تحويل الشفرة |
| metaphorical code—switching | التحويل المجازي للشفرة ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ١) |
| conversational code—switching | تحويل الشفرة في المحادثة |
| situational code—switching | تحويل الشفرة في المواقف |
| cognition | المعرفة |
| Cognitive Psychology | علم النفس المعرفي |
| cognitive uncertainty | الحيرة المعرفية |
| Chi—squaredtest | مقياس كاي التربيعي ( أنظر ٥ ـ ٢ ـ ١) |
| Comanche | الكومانش = لغة هندية أمريكية |
| Community | جماعة |
| See: Society | مجتمع |
| group | مجموعة |
| community grammer | أجرومية الجماعة |
| communication | الاتصال |
| communicative event | الحدث الاتصالي ( أنظر ٢ ـ ٤ ـ ١) |
| Competence | القدرة |
| see : Performance | الأداء |

| | |
|---|---|
| نقص القدرة | incompetence |
| نظرية النقص | Deficit THEORY |
| القدرة اللغوية الفعّالة | active competence |
| القدرة اللغوية الكامنة | passive competence |
| القدرة اللغوية | linguistic competence |
| القدرة الاتصالية | ommunicative competence |
| مكمل | complement |
| مكملات | complementiser |
| تحليل المكونات الدلالية ( أنظر ٣ ـ ٢ ـ ٢ ) | componential analysis |
| الخصائص الدلالية | see : semantic features |
| الخصائص المميزة | distinctive features |
| مفاهيم | Concepts |
| تكوين المفاهيم | concept formation |
| تكوين المفاهيم | onceptualisation |
| مفاهيم المستوى الأعلى | High level concepts |
| مفاهيم المستوى الأدنى | low level concepts |
| مفاهيم المستوى الأساس | basic level concepts |
| الاستدلال | see : Inference |
| القضايا | Propositions |
| العلاقات الوفاقية ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٢ ) | Concord |
| الالتزام | Conformity |
| الفردية | see : Individualism |
| الصوامت | Consonant |

| | |
|---|---|
| consonant clusters | متتابعات الصوامت |
| consonantal constrication | تقلّص الصوامت ( أنظر ٥ ـ ٢ ـ ٢) |
| constraints | القيود المفروضة على القواعد |
| construction | التعبيرات |
| Convèntion | العِرف |
| convergence | التطابق / التواشج |
| Copula—be | فعل الكينونة القائم بوظيفة الوصل |
| Cooperative principle | مبدأ التعاون ( أنظر ٤ ـ ١ ـ ٣) |
| see : Grice's Maxims of conversation | قواعد جريس للمحادثة (أنظر ٤ ـ ١ ـ ٣) |
| continuum | متواصل |
| re membership | عِضوية أساسية في الجماعة (أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٢) |
| e : group membership | العضوية في الجماعة |
| correlation | علاقة ارتباط بين متغيرين احصائيين |
| creative | خلاّق ، مبدع |
| creativity | ابداع |
| see : Chomsky | تشومسكي |
| Creole | الكريولية ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٤) |
| creolisation | الكريلة |
| decreolisation | ازالة صفة الكريولية |
| Creole continum | متواصل الكريولية |
| see : Pidgin | الرطانة ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٣) |
| criterial features | الخصائص المعيارية |
| cultural clash | صدام ثقافي |
| cultural relativity | النسبية الثقافية |
| see : Sapir—Whorf hypothesis | فرضية سايير ودهورف (أنظر ٣ ـ ٣ ـ ٥) |

| | |
|---|---|
| الحتمية | determinism |
| اللغات الكوشيتية = فرع من أسرة اللغات السامية الحامية وهي تتكون من عدد كبير من اللغات الدارجة أهمها الصومالية | Cushitic languages |

D

| | |
|---|---|
| عبارة اخبارية | declarative Construction |
| تفكيك الشفرة . | decode |
| تشفير , | see: encode |
| شفرة | code |
| حذف | deletion |
| ادراج | see : insertion |
| اختصار | contraction |
| تحديد ماهية اللغات | delimitation of languages |
| نظرية النقص ( أنظر ٦ - ٣ - ١) | Deficit Theory |
| نقص القدرة | see : incompetence |
| علم اللغة الوصفي | Descriptive Linguaistics |
| علم اللغة النظري | see : Theoretical Linguistics |
| علم اللغة التاريخي | Historical Linguistics |
| قواعد الاشتقاق ( أنظر ٣ - ٢ - ٢ ) | derivation rules |
| أنظر الصيغ النحوية الصرفية | see : inflectional morphology |
| الحتمية ( أنظر ٣ - ٢ - ١) | determinism |
| الحتمية اللغوية | see : linguistic determinism |
| الحتمية الثقافية | cultural determinism |
| النسبية اللغوية | linguistic relativity |
| النسبية الثقافية | cultural relativity |
| فرضية سابير وهورف | Sapir—Whorf hypothesis |

| | |
|---|---|
| diffusion | الانتشار |
| see : Focussing | التضام |
| Wave Theory | نظرية الموجات |
| Diachronic | زماني ( أنظ ٥ ـ ٤ ـ ١ ) |
| see : Synchronic | آني |
| Dialect | اللهجة |
| Dialectology | علم دراسة اللهجات |
| dialect continuum | متواصل اللهجات |
| Dialect Geography | علم جغرافيا اللهجات |
| see : Language | أنظر لغة |
| Creole | كريوليه |
| Pidgin | رطانة |
| dimension | البُعد |
| Diglossia | ازدواج اللهجات ( ديجلوسيا ) ( أنظر ٢ ـ ٤ ـ ٣ ) |
| Direct elicitation | الاستخراج المباشر |
| Discourse | الخطاب (أنظر ٤ ـ ٣ ـ ٢) وجابر عصفور (البُنيوية) |
| Discourse structure | بُنية الخطاب |
| see : text | نصّ |
| discrete | مستقل |
| discretness | استقلال |
| diversity | التنوع |
| Domains | المجالات ( أنظر ٣ ـ ١ ـ ٢ ) |
| double negative | النفي المكرَر |

E

| | |
|---|---|
| Elaboration of function | توسيع واحكام الوظائف |
| Empiricism | اختباري ، امبيريقي |
| empirical | امبيريقي |
| Entry | دخول ( أنظر ٤ ـ ٣ ـ ١) |
| see : Exit | خروج ( أنظر ٤ ـ ٣ ـ ١) |
| Encode | تشفير |
| see : code | شفرة |
| decode | تفكيك الشفرة |
| Ethnography of communication | اثنوجرافيا الاتصال (أنظر ٤ ـ ١ ـ ١) |
| Ehnography of speaking | اثنوجرافيا الحديث (أنظر ٤ ـ ١ ـ ١) |
| Ethology | الايثولوجيا = دراسة السلوك في الحيوان (أنظر ٤ ـ ١ ـ ١) |
| Equality | المساواة ( أنظر الفصل السادس ) |
| linguistic equality | المساواة اللغوية (أنظر الفصل السادس) |
| social equality | المساواة الاجتماعية (أنظر الفصل السادس) |
| see : linguistic inequality | اللامساواة اللغوية (أنظر الفصل السادس) |
| social inequality | اللامساواة الاجتماعية (أنظر الفصل السادس) |
| Exit | خروج ( أنظر ٤ ـ ٣ ـ ١) |
| Explicitness | درجة الوضوح والصراحة |
| Eye—movements | حركة العينين في الحديث (أنظر ٤ ـ ٣ ـ ٢) |

F

| | |
|---|---|
| Face—to—face interaction | الاتصال المباشر القائم على الاتصال وجهاً لوجه ( أنظر ٤ ـ ١ و٤ ـ ١ ـ ١) |
| Face—work | عمل الوجه ( (نظر ٤ ـ ١ ـ ٣) |

نموذج الشجرة الأسرية (أنظر ٢ - ٢ - ٤) Family Tree Model

التغذية المرتدة Feedback

المجال ( أنظر ٢ - ٤ - ١) Field

العلاقة ( أنظر ٢ - ٤ - ١) see : Tenor

المنحى ( أنظر ٢ - ٤ - ١) Mode

صوت مستَلَب = صوت انفجاري يُنطق بسرعة مثل الأمريكية حين تقع بين صائتين
كما في Flapped

درجة الطلاقة Fluency

التضام ( أنظر ٢ - ٣ - ٢) Focussing

أنظر الانتشار ( أنظر ٢ - ٣ - ٢) see : Deffusion

نظرية الموجات( أنظر ٢ - ٣ - ٢) Wave Theory

رسمي Formal

شائع أو عادي ( أنظر ٢ - ٤ - ١) see : Casual

محور الرسمية ( أنظر ٢ - ٤ - ١) Formality

خصائص Features

خصائص دلالية see : Semantic features

خصائص مميزة distinctive features

خصائص معيارية criterial features

تحليل المكونات الدلالية componential analysis

صوت احتكاكي ينشأ عن احتكاك تيار النفس بجدران الممرات الصوتية
نتيجة لاعاقة التيار جزئياً مثل Fricatives

أو صوت مستمر غير احتكاكي أي الصوت الذي يستمر ولا يتوقف فيه
تيار النفس و و و ويقابله الصوت الانفجاري Frictionless continuant

درجة أمامية الصوائت Frontness vowels

درجة خلفية الصوائت see : Backness vowels

| | |
|---|---|
| The Functions of Language | وظائف اللغة |
| The Functins of Speech | وظائف الكلام ( أنظر ٤ ـ ١ ـ ٢) |
| Fuzzy | مبهمة وغير محددة |

G

| | |
|---|---|
| Generative Grammar | النحو التوليدي |
| see Transformational Generative Grammar | النحو التحويلي والتوليدي |
| Geographical Foci | بؤرات جغرافية |
| see : Areal Features | الملامح الجغرافية |
| Wave Theory | نظرية الموجات ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢) |
| Deffusion | الانتشار ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢) |
| Focussing | التضام ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢) |
| Glottis | اللهـــاة |
| Glottalised | صوت لهوي يصدر عن توتر حنجري في صوت الهمزة |
| Gonja | الجونجا = قبيلة تقطن غرب أفريقيا |
| Grammar | النحو ، الأجرومية |
| Grammaticality | أحكام ترتبط بدرجة نحوية اللغة |
| see : Well—formedness | أنظر الأحكام الخاصة بدرجة أحكام التكوين |
| Greetings | التحية ( أنظر ٤ ـ ٣ ـ ١) |
| see : Propositional greeting | تحية تتضمن قضية ( أنظر ٤ ـ ٣ ـ ١) |
| non—propositional greeting | تحية لا تتضمن قضية (أنظر ٤ ـ ٣ ـ ١) |
| Group | مجموعة |
| see : Society | مجتمع |
| Community | جماعة |
| networks | شبكات |

| | |
|---|---|
| Group dynamics | ديناميات الجماعة ( أنظر ٤ ـ ٣ ـ ٢) |
| Group membership | درجة الانتماء الى مجموعة ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٢) |
| Guarani | الجورانية = لغة هندية تُستخدم في أمريكا الوسطى وهي لا تنتمي الى الاسبانية مطلقاً |

**H**

| | |
|---|---|
| Hierarchical relations | علاقات دَرَجية ، هَرمية |
| Hierarchical structure | أبنية دَرَجية ، هَرمية |
| Hierarchical discourse structure | بُنية دَرجية للخطاب |
| High level concepts | مفاهيم المستوى الأعلى |
| see : Low level concepts | مفاهيم المستوى الأدنى |
| Basic level concepts | مفاهيم المستوى الأساس |
| Higher nodes | العُقد العليا ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٤ ) |
| see : nodes | عُقد ( أنظر ٢ ـ ٢ ـ ٤) |
| Historical linguistics | علم اللغة التاريخي |
| Historical change | التغير التاريخي |
| Histogram | مخطط لتوزيع التواتر (أنظر الشكل ٥ ـ ١ و٥ ـ ٢ و٥ ـ ٣) |
| Hypothesis | فرضية |

**I**

| | |
|---|---|
| Idealization | تبسيط هائل ومثالي للعلاقات القائمة (أنظر ٥ ـ ١ ـ ١) |
| Ideolect | لهجة الفرد الواحد (أنظر ٥ ـ ٥ ـ ٢ و٢ ـ ٥ ـ ٤) |
| see : Acrolect | اللهجة العليا |
| Mesolect | |
| Basilect | اللهجة الأساس |

| | |
|---|---|
| Illocutionary force | القوة البلاغية للفعل الكلامي ( أنظر ٤ - ١ - ٢) |
| see : Speech Acts | الأفعال الكلامية ( أنظر ٤ - ١ - ٢) |
| Perlocutionary force | القوة التأثيرية للفعل الكلامي (أنظر ٤-١-٢) |
| Locutionary force | |
| Implicational hiererchy | متدرج تضمني |
| Implicational relations between the grammars | علاقات ضمنية بين الأجرومية |
| Individualism | الفردية ( أنظر ١ - ٣ - ١) |
| see : Conformity | أنظر الالتزام ( أنظر ١ - ٣ - ١) |
| Individual Variation | التباين الفردي |
| indo—European | هندو أوروبي |
| Inflectional Morphology | الصيغ الصرفية النحوية |
| see : Derivational rules | أنظر قواعد الاشتقاق |
| Inference | الاستدلال |
| see : Concepts | مفاهيم |
| Propositions | قضايا |
| Inequality | اللامساواة |
| linguistic inequality | اللامساواة اللغوية (أنظر الفصل السادس) |
| see : Subjective inequality | اللامساواة الذاتية (أنظر ٦ - ١ - ٢) |
| strictly linguistic inequality | اللامساوة اللغوية البحتة (أنظر ٦ - ١ - ٢) |
| communicative inequality | اللامساوة الاتصالية (أنظر ٦ - ١ - ٢) |
| Informants | رواه ، مصادر معرفة |
| Information Theory | نظرية المعلومات |
| Informativeness | القيمة الابلاغية للكلام |
| see: Grice's Maxims of conversation | أنظر مبادىء جريس للمحادثة (أنظر ٤-١-٤) |
| Infinitive | المصدر |

| | |
|---|---|
| Interaction | التعامل الاتصالي العادي |
| Intransitive | علاقة لازمة |
| see : Transitive | علاقة متعدية |
| Isogloss | خطوط توزيع اللهجات ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ١) |
| see : Wave Theory | أنظر نظرية الموجات ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢) |
| Diffusion | الانتشار ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢) |
| Focussing | التضام ( أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٢) |
| Isolect | |
| see : Acrolect | |
| Basilect | |
| Mesolect | |
| Item—based model | نموذج الوحدة اللغوية |
| see : Variety—based model | نموذج النوعية اللغوية |

J

| | |
|---|---|
| Javanese | الجافيزينيه = لغة جزيرة جافا في اندونيسيا |

K

| | |
|---|---|
| Kannada | كنادا = لغة غير هندو أوروبية يتحدث بها ثلث أهل كابور |
| Kinshipterminology | مصطلحات القرابة ( أنظر ٣ ـ ٢ ـ ٣ والجدول رقم ٣ ـ ١) |
| Kupwar | كابور = قرية صغيرة في الهند |

L

| | |
|---|---|
| Language | اللغة |
| Language change | التغير اللغوي |
| lexical gaps | الفجوات المعجمية |

| | |
|---|---|
| relation marker | شواهد العلاقات ( أنظر ٤ ـ ٤ ـ ١) |
| structure marker | شواهد الـبُنية ( أنظر ٤ ـ ٤ ـ ٢) |
| content marker | شواهد المضمون ( أنظر ٤ ـ ٤ ـ ٣) |
| discourse marker | شواهد الخطاب ( أنظر ٥ ـ ١ ـ ١) |
| Marathi | ماراطي = لغة هندو أوروبية يتحدث بها بعض سكان كابور وهي قرية صغيرة في الهند |
| Mbugu | الموبوجو = لغة تنزانية |
| Meaning | المعنى |
| Mesolects | |
| Message | رسالة |
| Metaphorical extension | التجاوز المجازي |
| Micro—sociolinguistics | علم اللغة الاجتماعي المصغَّر |
| Mode | المنحى ( أنظر ٢ ـ ٤ ـ ١) |
| see : Tenor | العلاقة ( أنظر ٢ ـ ٤ ـ ١) |
| Field | المجال |
| Monolingual | أحادي اللغة |
| Monoglot | فرد أحادي اللغة |
| Motivation | الدافع |
| Morphology | علم الصرف |
| Mutual Intelligebilit | الفهم المتبادَل |
| Multi—dimensional Space | حيِّز متعدد الأبعاد |
| Multilingualism | تعدد اللغات |
| see : Monolingual | أحادي اللغة |
| Bilingualism | ازدواج اللغات |

| | |
|---|---|
| Lexicon | معجم وحصيلة الفرد من المفردات |
| Lexical representation | صيغة تحتية لوحدة معجمية |
| Lexical item | وحدة معجمية |
| LinguaFranca | لغة مخاطبة الأجانب (أنظر ١ ـ ٢ ـ ٢ و٢ ـ ٥ ـ ٣) |
| Linguistics | علم اللغة |
| linguistic change | التغير اللغوي |
| linguistic exogamy | الأبعاد اللغوية |
| Linguisticitems | الوحدات اللغوية ( أنظر ٢ ـ ١ ـ ٢ و٢ ـ ٣ ـ ٤ ) |
| see : language | أنظر اللغات |
| dialect | اللهجات ( أنظر ٢ ـ ٤ ـ ١ ) |
| register | سجلات السياق ( أنظر ٢ ـ ٤ ـ ١ ) |
| Linguistic insecurity | اللا أمان اللغوي |
| Linguistic markers of social relations | الشواهد اللغوية على العلاقات الاجتماعية |
| linguistic prejudice | التحيز اللغوي |
| linguistic Taboos | المحظورات اللغوية |
| Linguistic Relativity | النسبة اللغوية ( أنظر فرضية هورف وسابير) |
| see : Cultural Relativity | النسبة الثقافية |
| Linguistic Variables | متغيرات لغوية |
| Locative | ظرف مكان |

## M

| | |
|---|---|
| Macro—sociology of Language | علم اجتماع اللغة الشامل |
| see : Micro—sociolinguistics | علم اللغة الاجتماعي المصغّر |
| Marker | شاهد |

N

| English | Arabic |
|---|---|
| Nahutal | الناهوتال = قبيلة في المكسيك |
| Nasal | أنفي |
| see : Oral | فموي |
| Native speakers | متحدثين أصليين |
| see..MotherTougue | لغة أُم |
| Njamal | النجامال = قبيلة من السكان الأصليين باستراليا |
| Node | العقدة وهي تساوي نقطة التقاء فرعي الشجرة |
| see : Family Treemodel | أنظر نموذج الشجرة الأسرية (أنظر ٢ ـ ٢ ـ ٤) |
| Network | شبكة ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٢) |
| Network Score Stregnth (NSS) | المعدل الخاص بقوة العلاقة داخل الشبكة ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٢) |
| Closed network | شبكة مغلقة |
| Network Theory | نظرية الشبكات |
| see : Social Network Structure | أنظر بُنية الشبكات الاجتماعية |
| Non—standard varieties | نوعيات غير متواضع عليها |
| see : Standard Varieties | أنظر نوعيات متواضع عليها |
| Standardisation | عملية المواضعة |
| Notation | العرف اللغوي الرمزي = نظام ترميزي لكتابة أصوات الكلام ( أنظر ٥ ـ ١ ـ ١) |
| Norma | المعايير ( أنظر ٤ ـ ١ ـ ٤ و٤ ـ ١ ـ ٥) |
| Non—Verbal interaction | التعامل الاتصالي غير الكلامي انظر ٤ ــ ٤ |
| see : Verbal interaction | أنظر التعامل الاتصالي الكلامي |
| Neo—Melanisian Pidgin | الرطانة المالينيزية الحديثة |
| Noun Phrase | أشباه الـجُمَل الاسمية |

| | |
|---|---|
| Notka | النوتكا = هنود يقطنون جزيرة فان كوفر بكندا |

**O**

| | |
|---|---|
| Object | المفعول به |
| Obligatory Rules | قواعد نحوية جبرية ( أنظر ٥ ـ ٥ ـ ١ ) |
| see : Optional Rules | قواعد اختيارية |
| Variable Rules | قواعد متغيِّرة |
| optlional Rules | قواعد اختيارية (انظر ٥ـ٥ـ١) |
| see : Obligatory Rules | انظر قواعد نحوية جبرية |
| Variable Rules | قواعد متغيِّرة |

**P**

| | |
|---|---|
| Paraguay | براجواي |
| Parameters | المعايير القياسية |
| Parts of Speech | اجزاء الكلام مثل الاسم والفعل . . الخ |
| Patois | لهجة اقليمية غير مكتوبة ( أنظر ٢ ـ ٢ ـ ١ ) |
| Patrilingual Marriage | الزواج بلغة الزوج |
| Paulung | الباولنج ( أنظر ٣ ـ ٢ ـ ١ ) لغة تتحدث بها قبيلة صغيرة في بورما |
| Peers | الأقران |
| Peer Group | جماعة الأقران |
| Peer—oriented stage | مرحلة احتذاء الأقران |
| Perception | ادراك |
| Performance | الأداء |
| see : Competence | القدرة اللغوية |
| Langue | اللغة |
| Parole | الكلام |

| English | Arabic |
|---|---|
| Performative Utterance | عبارات ذات قوة ادائية |
| see : Austin | أنظر استين |
| The Functions of Speech | وظائف الكلام |
| Speech Acts | الفعل الكلامي |
| Illocutionary Force | |
| Perlocutionary Force | القوة التأثيرية للفعل الكلامي ( أنظر ٤ ـ ١ ـ ٢) |
| see : Illocutionary Force | القوة البلاغية |
| Speech Acts | الأفعال الكلامية |
| Peurto—Rican English | اللغة الانكليزية المستخدَمة في بورتوريكو |
| Phatic Communion | التواصل الودي ( أنظر ٤ ـ ١ ـ ٢) |
| see : Malowniski | انظر مالونسكي |
| Functions of Language | وظائف الكلام |
| Phonetics | علم الأصوات العام |
| Phoneticians | علماء الصوتيات |
| Phonemes | وحدات صوتية مجردة |
| Phonology | علم الأصوات |
| Phonological Theory | نظرية علم الأصوات |
| Phrase Structure Rules | قواعد البُنية التحتية الأساسية (أنظر ٥ ـ ٥ ـ ٣) |
| Pidgins | الرطانة ( أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٣) |
| Pidginisation | عملية الترطين |
| Tok Pisin | الرطانة |
| Trade Language | لغة التجارة |
| Creole | الكريوليه |
| Pilot Study | دراسة استكشافية مصغرة |
| Pitch Range | مدى طبقة الصوت |

| | |
|---|---|
| Power and Solidarity Relation | علاقات القوة والتضامن (أنظر ٤ ـ ٢ ـ ٢) |
| Post—vocalic | الأصوات الواقعة بعد الصوائت |
| Psychology of Language | علم النفس اللغوي |
| Psycholinguistic | علم اللغة النفسي |
| Psychological Reality | الحقيقة النفسية |
| Pragmatics | البرغماطيقا |
| Predicate | المسند |
| Prestige | المكانة |
| Overt Prestige | المكانة المكشوفة ( أنظر ٦ ـ ٢ ـ ١) |
| Covert Prestige | المكانة المغطاة ( أنظر ٦ ـ ٢ ـ ١) |
| Prejudice | تحيّز ( أنظر ٦ ـ ١ ـ ١) |
| Linguistic Prejudice | تحيّز لغوي |
| Social Prejudice | تحيّز اجتماعي |
| Racial Prejudice | تحيّز عِرقي |
| Attitudes | اتجاهات |
| Prescriptivism | المعيارية |
| see : descriptive | أنظر : الوصفي |
| Prescriptive Grammars | النحو التعليمي والارشادي |
| Prebabilistic | علاقة احتمالية ( أنظر ٥ ـ ٤ ـ ١) |
| see : Categorical | أنظر : بصورة مطلقة |
| Precedure | اجراء ( أنظر ٣ ـ ١ ـ ٣) |
| Preposition | القضايا |
| see : Concepts | المفاهيم |
| Proto—Germanic | اللغة الألمانية الأصلية |
| see : Proto—Indo—Europern | أنظر : اللغة الهندو أوروبية الأصل |

| | |
|---|---|
| Prototypes | النموذج الأصل (أنظر ٣ ـ ١ ـ ٣ و٣ ـ ٢ ـ ٢ ـ و٤ ـ ٢ ـ ٢) |
| see : Stereotypes | أنظر : النموذج المقولَب |
| Proxemics | علم التجاوزات ( أنظر ٤ ـ ٤ ـ ١) |
| Puliya | البوليا = قبيلة في جنوب الهند (أنظر ٤ ـ ١ ـ ٤) |
| Purism | نزعة النقاء اللغوي |

**Q**

| | |
|---|---|
| Qualitative | كيفي |
| Quantitative | كـمّي |

**R**

| | |
|---|---|
| Ranamal | الرنمال = النروجية المحلية الدارجة (أنظر ٢ ـ ٥ ـ ١) |
| see : Bokmal | أنظر : البوك مال |
| Ranking | الترتيب الاحصائي |
| Rapid Anonymous Observation | ملاحظة الغفل السريع (أنظر ٥ ـ ٢ ـ ٢) |
| Rapping | القافية = المبارزة الكلامية (أنظر ٦ ـ ٤ ـ ٣) |
| Referents | مدلولات |
| Regional Dialects | اللهجات الاقليمية (أنظر ٢ ـ ٣ ـ ١) |
| Register | سجل سياق (أنظر ٢ ـ ٤) |
| Relativity | النسبية |
| see : Linguistic Relativity | أنظر : النسبية اللغوية (أنظر ٣ ـ ٢) |
| Cultural relativity | النسبية الثقافية (أنظر ٣ ـ ٢) |
| Sapir—Whorf Hypothesis | فرضية سابير وهورف (أنظر ٣ ـ ٢) |
| Relative Clauses | أشباه التراكيب الموصولة |
| Restricted Code | الشفرة المحدوة (أنظر ٦ ـ ٣ ـ ٢) |

| | |
|---|---|
| see : Elabourated Code | أنظر : الشفرة المسهبة |
| Romance Dialects | اللهجات الرومانس |
| Romanian | اللغة الرومانية |
| Romany | روماني = لغة الغجر. |
| Received Pronuncition (RP) | النطق المتواضع عليه للغة الانكليزية |
| Roti | روتي = جزيرة صغيرة في شرق اندونيسيا |
| Rule—governed | محكومة بمجموعة من القواعد |

S

| | |
|---|---|
| Sapir—Whorf Hypothesis | فردية سايبر وهورف (أنظر ٣ ـ ٣ ـ ٥) |
| see : Relativism | النسبية |
| Determinism | الحتمية |
| Universaliam | الشمولية |
| Script | نصّ (أنظر ٦ ـ ٤ ـ ١) |
| Schemta | خطة (أنظر ٦ ـ ٤ ـ١) |
| Selection | مرحلة انتقاء المتحدثين في الدراسات اللغوية ((نظر ٥ ـ ٢ ـ ١) |
| Semantics | علم الدلالة |
| Semantic Components | المكونات الدلالية |
| see : Comopnential Analysis | تحليل المكونات الدلالية |
| Semantoc Structure | بُنية دلالية |
| Seminole Indians | هنود السيمونولا = هنود أمريكيون يقطنون فلوريدا وأكلاهوما |
| Sense | مغزى أو فحوى |
| Significant | دلالة احصائية (أنظر ٥ ـ ٢ ـ ١) |
| Simulation | محاكاة الحاسب الآلي |
| see : Artificial Intelligence | الذكاء الاصطناعي |

| | |
|---|---|
| Size | حجم ( اللغة ) |
| see : Prestige | أنظر : مكانة |
| Social Class | طبقة اجتماعية |
| Socio—economic class | طبقة اجتماعية اقتصادية |
| Social Constraints | القيود الاجتماعية المفروضة على الكلام |
| Social Dialects | اللهجات الاجتماعية |
| Sociolects | اللهجات الاجتماعية |
| Social Description | التوصيف الاجتماعي |
| Social Distributions | توزيعات اجتماعية |
| Social Interaction | التعامل الاجتماعي |
| Social Norms | المعايير الاجتماعية |
| Social Psychology | علم النفس الاجتماعي |
| Social Prejudice | تحيّزات اجتماعية |
| Socialisation | اكتساب السلوك الاجتماعي (أنظر ٣ ـ ٣ ـ ٣) |
| Social Stratification | التدرج الاجتماعي |
| Society | مجتمع |
| see : Community | أنظر : جماعة |
| Group | مجموعة |
| Sociolinguistics | علم اللغة الاجتماعي |
| Sociology of Language | علم اجتماع اللغة |
| Source Language | اللغة المصدر (أنظر ٢ ـ ٥ ـ ٣) |
| Speech | الكلام |
| Speech Acts | الفعل الكلامي |
| see : Austin | |
| Performative Utterances | عبارات ذات قوة ادائية (أنظر ٤ ـ ١ ـ ٢) |

| | |
|---|---|
| Illocutionary Force | القوة البلاغية للفعل البلاغي (أنظر ٤ ـ ١ ـ ٢) |
| Perlocutionary Force | القوة التأثيرية للفعل الكلامي (أنظر ٤ ـ ١ ـ ٢) |
| Speech Community | جماعة كلامية (أنظر ٢ ـ ١ ـ ٤) |
| see : Lingustic Community | أنظر : جماعة لغوية |
| Speech Event | حدث كلامي |
| Standard Deviation Test | اختبار الانحراف المعياري (أنظر ٥ ـ ٢ ـ ١) |
| Standard Language | اللغة المتواضع عليها |
| Standardness | عملية المواضعة |
| Standardisation | |
| Standardness | المواضعة |
| St[illegible] | حالة ( نحوي ) |
| S[illegible]otypes | النماذج المقولبة (أنظر ٦ ـ ٢ ـ ٢) |
| see : Protoypes | انظر : النماذج الأصول |
| Stress | النبر (أنظر ٥ ـ ٤ ـ ٢) |
| stressed | منبور |
| Structure | بُنية |
| Structuralism | البُنيوية |
| Structualist | بُنياوي |
| Structured Interview | المقابلة المخطَط لها سلفاً (أنظر ٥ ـ ٢ ـ ٣) |
| Subjective Reaction Test | اختبار الاستجابة الذاتية (أنظر ٦ ـ ٢ ـ ٢) |
| Subtracttive Bilingualism | الازدواجية اللغوية الانتقاصية (أنظر ٦ ـ ٤ ـ ١) |
| Syllable | مقطع صوتي |
| Syllogism | مناهج القياس المنطقي |
| Synchronic | آني |
| see : Diachronic | أنظر : زماني |

| | |
|---|---|
| Syntactic Descriptions | القيود المفروضة على التراكيب |
| Syntax | علم التراكيب |
| Syntactic Complexity | درجة تعقّد التراكيب |

T

| | |
|---|---|
| Taboos | محظورات لغوية |
| Telugu | |
| Tempo | السرعة (أنظر ٥ ـ ٢ ـ ٢) |
| Tenor | العلامة (أنظر ٢ ـ ٤ ـ ١) |
| Theretical Linguistics | علم اللغة النظري |
| see : Descriptive Linguistics | أنظر ـ علم اللغة التاريخي |
| Tok Pisin | الرطانة |
| see : Pidgin | أنظر : الرطانة |
| Topic | موضوع الخطاب |
| Transitive | علاقة متعدية |
| see : Intransitive | أنظر : علاقة لازمة |
| Transcription | الترميز الكتابي للأصوات |
| Tree Diagram | شكل شجري |
| Tukano | التوناكو = لغة مخاطبة الأجانب المستخدَمة في أجزاء من البرازيل وكولومبيا |
| Turn—taking | تناوب الأدوار في الحديث |
| Typology | التصنيفات المختلفة للنوعيات في العلوم |
| Tzeltal | هنود التزلتال وهم فرع من ثقافة المايا في المكسيك |

## U

| | |
|---|---|
| Underlying Forms | الصيغ التحتية |
| Underlying Representations | الرموز التحتية |
| Uniformity | التوحيد (أنظر ٢ ـ ٣ ـ ٤) |
| Universal | الشموليات |
| Universal Components | المكونات الشمولية |
| Unviersalism | النزعة الشمولية (أنظر ٣ ـ ٢ ـ ٤) |
| Unscripted Conversation | المحادثة الارتجالية |
| Urban Dialectology | علم لهجات المناطق الحضارية |
| Uvular | اللهوي |
| Utterance | منطوق |

## V

| | |
|---|---|
| Variable Rule | قواعد متغيِّرة (أنظر ٥ ـ ٥) |
| see : Optional Rule | أنظر : قواعد اختيارية |
| Obligatory Rule | قواعد اجبارية |
| Variants | البدائل |
| Linguistic Variants | بدائل لغوية |
| Variables | متغيّرات |
| linguistic Variables | متغيِّرات لغوية |
| Social Variables | متغيِّرات اجتماعية |
| Syntactic Variables | متغيرات تراكيبية |
| Proununcition Variables | متغيرات نطق |
| Phonological Variables | متغيرات صوتية |
| Variation | التباين (أنظر ٥ ـ ٢ ـ ٢) |

| | |
|---|---|
| patterns of variation | أنماط التباين |
| Variability | درجة التباين |
| Varieties | نوعيات من اللغة |
| Variety—based Model | نموذج النوعية |
| see : Item—based Model | أنظر : نموذج الوحدة |
| Verbal Behaviour | سلوك كلام |
| see : Non—verbal Behaviour | أنظر : سلوك غير كلامي (مصاحب للكلام) |
| Velar Fricative | صوت حنكي احتكاكي |
| Velar consonants | صوامت حلقية |
| Vernacular | اللهجة المحلية الدارجة |
| Verbal Display | الاستعراض الكلامي |
| Verbal Games | الألعاب الكلامية |
| Voiceless Lateral Fricative | صوت احتكاكي جانبي مهموس |
| Vocabulary | مجموع المفردات |
| Vocative | صيغة المنادى |
| Voice Quality | نوعية الأصوات |
| Vowel | صائت |
| see : Consonant | أنظر : صامت |
| Vowel Height | درجة ارتفاع الصائت |

**W**

| | |
|---|---|
| Wave Theory | نظرية الموجات |
| see : Diffusion | أنظر : انتشار |
| Focussing | تضام |
| Well—formedness | احكام التكوين |
| see : Grammaticality | أنظر : درجة النحوية |

**Y**

اليانا = لغة قبيلة من الهنود الأصليين في كلفورنيا — Yana

**Z**

غياب فعل الكينونة للوصل — Zero—Copula

البديل صفر — Zero Variant

الزوني = — Zuni

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٧٢١ لسنة ١٩٨٧

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

هذا الكتاب الذي ترجمه الى العربية الدكتور محمود عبدالغني عياد، ليفتح به نوافذ متعددة على الربط الموضوعي بين اللغة والفلسفة والمجتمع، سيكون له شأن كبير في مكتبتنا العربية لاهمية موضوعه وجدته وصعوبته. وجاءت ترجمته محكمة في الاسلوب، دقيقة في التعبير عن أفكار المؤلف، مع انها محكومة بمصطلحات فلسفية لغوية واجتماعية جديدة في رموزها ومعادلاتها، والمعاني التي قصد اليها المؤلف وهو يعالج ماليس في العربية.

الغلاف: رياض عبد الكريم

وزارة الثقافة والاعلام

دار الشؤون الثقافية العامة

بغداد ١٩٨٧

طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة

السعر: اربعة دنانير ونصف